صنع الله إبراهيم

أمريكانلى

(أمري كان لى)

رواية



أمريكانلي

(أمري كان لى)

تأليف : **صنع الله ابراهيم**

الطبعة الأولى ٢٠٠٣

فكرة العنوان : **على محمد على**

لوحة الغلاف : **شيماء عزيز**

تصميم الغلاف : **أحمد العايدى**

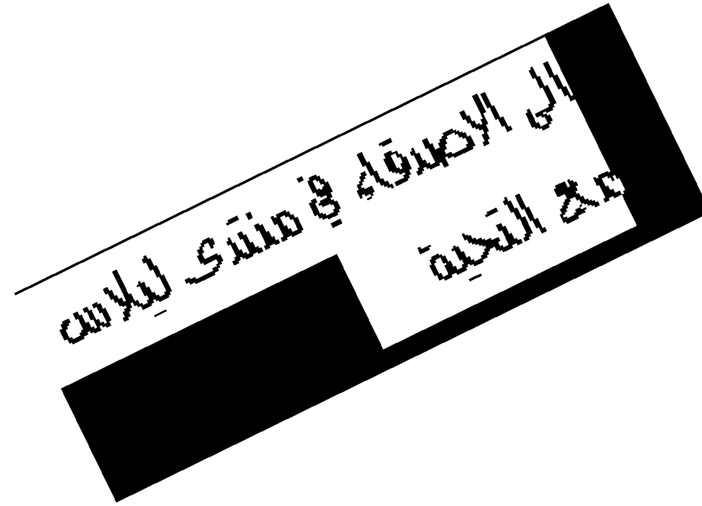
الناشر: **دار المستقبل العربى**

٤١ شارع بيروت. مصر الجديدة. القاهرة

ت: ٢٩٠٤٧٢٧ فاكس: ٢٩١٦٢٠١

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٢٠٠٣/١٥٥٠٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977-239-193 - 7



أمريكانلي

(أمري كان لي)

تأليف

صنع الله ابراهيم

دار المستقبل العربى

** ١

انتهيت من قهوتي ووضعت الكوب الخزفي في الحوض. ثم نزعت قمة ماكينة القهوة وأفرغت مخلفاتها في وعاء القمامة. نظفت الطاولة الخشبية المرتفعة إلى مستوى الصدر ثم انتقلت إلى السطح الرخامي للخزانة المثبتة في الحائط. أزلت فتات الخبز وأزحت الستريو جانبا وواصلت التنظيف وأنا أتابع الحركة الأخيرة في سيمفونية لم أتعرف على مؤلفها.

مضيت إلى غرفة النوم فتأكدت من إغلاق المصراع الزجاجي المنزلق المطل على الحديقة الخلفية. ألقيت نظرة على "السولاريوم" ثم عدت إلى المطبخ. كانت الموسيقي قد توقفت وانطلق صوت المذيع يلهث: "باي ناو، باي ناو". ظننت أنه يودع المستمعين في عجلة ثم أدركت أنه يستحثهم على شراء شئ ما. أنصت لأعرف ماذا يبيع، لكنه اكتفى بأن كرر في حماس: "اشترالآن. اشتر الآن".

أغلقت الراديو وأحكمت إغلاق النافذة المطلة على حديقة المنزل المجاور. انتقلت إلى الغرفة المطلة على الشارع فتأكدت من إغلاق نوافذها. ثم حملت كيس القمامة في يد وكيس الفوارغ الزجاجية في الأخرى ومضيت إلى باب المسكن. وضعت حملي على الأرض وأزلت السلسلة الحديدية ثم أخرجت سلسلة مفاتيحي وانتقيت مفتاح القفل الأعلى ومفتاح القفل الأسفل. دفعت الباب إلى الخارج وعبرت الردهة التي يطل عليها. ألقيت نظرة على باب المسكن المجاور. استخدمت مفتاحين كبيري الحجم لقفلي الباب

الخارجي وجذبت مصراعه. عدت إلى الداخل فالتقطت كيسي القمامة وخرجت إلى الحديقة الصغيرة المطلة على الشارع.

كانت شمس الظهيرة في قمة توهجها لكن النسيم القادم من جهة المحيط حول شهر "أغسطس" إلى ربيع. وبدا الشارع الذي تحف بجانبيه الزهور والأشجار بلا مارة أو سيارات. هبطت درجتين ودرت حول واجهة المنزل في ممر يؤدي إلى الحديقة الخلفية تغطيه سقيفة خشبية لتصنع منه جاراجا. أودعت حملي في صندوقي القمامة بمدخله. وأعجبتني نظافتهما وإحكام غطائيهما. وعند عودتي لحظت الخطابات الموضوعة فوق سطح صندوق البريد. لم أكن انتظر رسائل من أحد لكني تصفحتها محاولا التعرف علي أسماء جيراني. ثم حملتها إلى الداخل في بادرة حسن جوار وتركتها فوق طاولة خشبية بجوار الباب الخارجي مغطاة بالنشرات الإعلانية الملونة.

أغلقت الباب الخارجي وولجت مسكني.تركت الباب مفتوحا ومضيت إلى الحمام فغسلت يدي وأنا أتأمل وجهي في المرآة. اتجهت عيناي إلى تجعيدة خفيفة في جانب فكي الأيسر. وخّيل إلى أنها ازدادت بروزا فامتعضت. تذكرت جاري في القاهرة وهو مهندس ري فرضت عليه مهنته التجوال في أنحاء البلاد إلى أن تقاعد فصرت أصادفه يوميا عندما أتسوق. لفت نظري بطريقته في السير، إذ يميل بكل جسمه يسارا ويمينا مع حركة قدميه، وبتقطيبة غاضبة لا تغادر وجهه المتغضن.

سويت ما تبقي من شعري الفضي وشبكت قلما في جيب قميصي ذي الكمين القصيرين ثم حملت حافظتي الجلدية ومضيت إلى الخارج. أغلقت باب المسكن وترددت أمام

سلة تضم عدة مظلات. فكرت أن أستعير واحدة أواجه بها تقلبات الطقس ثم عدلت عن الفكرة وأغلقت الباب الخارجي بقفليه. عبرت الممشى الضيق وخطوت إلى الطريق.

مضيت فوق الرصيف مبتعدا عن الجزء المخصص للدراجات وأنا أتأمل المنازل المصطفة على الجانبين. كانت كلها مثل منزلي تتألف من طابق واحد وسطح مائل من القرميد البني اللون ونوافذ مسدلة الستائر وجاراجات مفتوحة وخالية. ولم أر أحدا من الجيران.

مرت بي سيارة قمامة أنيقة نظيفة، يقودها عامل في ملابس نظيفة. وبلغت تقاطع بوليفار "جيري" فانعطفت يمينا. مضيت بجوار ساحة واسعة لبيع السيارات المستعملة تلتها مباني سكنية عالية ذات واجهات حديثة ومداخل مؤمّنة. أوشكت أن أهبط إلى عرض الطريق عند التقاطع التالي دون أن انتبه إلى اشارة المرور. غالبت رغبة مصرية صميمة في اقتحام المخاطر وكسر كل ممنوع وانتظرت حتي مرت السيارات القليلة. تأكدت من خلو الشارع من السيارات فعبرته دون أن أحفل بالإشارة الحمراء.

كررت المغامرة مرتين حتي بلغت ناصية البوليفار العريض فكبحت كثرة السيارات جماحي. انتظرت حتى تغيرت الإشارة فقطعت البوليفار على مهل مع اثنين من المارة، إحداهما امرأة بيضاء بدينة في شورت فضفاض ينتهي أسفل ركبتيها. مرق إلى جواري مراهق فوق زلاجة خشبية يقضم ساندويتشا باستمتاع. تسليت بتعداد الشوارع التي تتتابع نزولا من الشارع السادس عشر الذي انطلقت منه حتي الشارع الثاني. كيلومتر ونصف كيلومتر من

رصيف عريض تحف به الأشجار تبدو خلفها حوانيت قليلة : مطاعم وصالونات تجميل وصالات عرض. كانت الحركة هادئة كشأنها في بداية النهارفالعاملون المجدون بكروا بالذهاب إلى أعمالهم. والآخرون،المتمردون، لم يستيقظوا بعد.

مررت بحوانيت للملابس و الموسيقى ومواد التجميل والأعشاب الطبية. توقفت أمام حانوت كبير للصحف والخردوات. وفي الحال تردد في أذني صوت المذيع : "اشترالآن". ولجت الحانوت وطفت بأرجائه. ثمة رواد قليلون يقلبون المجلات والصحف بل ويقرؤنها كاملة دون أن يشتروا ودون أن ينهرهم أحد. تذكرت مكتبة "مدبولي" الشهيرة وسط القاهرة حيث يقف اثنان من صبيته أمامها، إلى جوار الصحف والمجلات المبسوطة على الأرض، ويصيحان بلهجة تهديدية "أيوه!" اذا ما تلكأ أحد أمامها أوهم بتناول إحداها.

لم أجد العدد الجديد من "الحياة" فأخذت "الأهرام" التي تحمل تاريخ الأمس و"سان فرانسيسكو كرونيكل " التي تصدرتها صورة "كلينتون" فوق عنوان رئيسي بعرض الصفحة : "ضللت الناس بما فيهم زوجتي". قلبت صفحات العدد الجديد من "بلاي بوي" و"هاستلر". واستعرضت بقية المجلات الملونة المصقولة التي تضم صورا عارية لفتيات وشبان في أوضاع متماثلة.

أدرت حاملا للبطاقات البريدية المصورة وانتقيت صورة لفتاتين عاريتين تخطوان نحو بوابة الجامعة. كان ظهراهما للمصور وشعورهما طويلة حتي الخصر. وكانت إحداهما تلوح بيدها اليمني مهللة في اتجاه البوابة بينما ألقت ذراعها اليسري فوق كتف زميلتها. وحملت الأخيرة فوق ظهرها حقيبة مدرسية منتفخة، تدلى منها شريط

استقر طرفه فوق الشق الفاصل بين فلقتي مؤخرتها العارية. لم تكن الصورة تثير غير الابتسام بسبب واقعيتها الشديدة التي تبدت في أفخاذهما المترهلة.

حملت البطاقة والصحيفتين إلى الكاونتر فتأملتني البائعة بامعان. كانت خمسينية ممتلئة بيضاء البشرة. خاطبتها بالإنجليزية فردت عليّ بالعربية : عربي ؟

أومأت برأسي مندهشا وأضفت : مصري.

قالت : وأنا كمان.

ذكرت لي أنها من "الأسكندرية" وتقيم في "أمريكا" من خمس وعشرين سنة. وفهمت أن الحانوت ملك لها ولزوجها. دفعت بالشيكات السياحية وغادرت الحانوت. واصلت السير بضعة أمتار ثم انعطفت في شارع منحدر واجتزت البوابة المفتوحة للجامعة. مشيت مسافة وسط مساحات واسعة من الخضرة تكاد تخلو من البشر لأن الفصل الدراسي لم يبدأ بعد.

مرت بي فتاة دقيقة الحجم ذات ملامح أسيوية ترتدي بلوزة رقيقة كشفت عن صدرصغير بلا سوتيان. وبدت حلمتاها منتفختين.

من الحرارة والعيون أم من احتكاكهما المستمر بالقماش ؟

بلغت مبنى معهد التاريخ المقارن فجذبت مصراع الباب الخارجي وظلت ممسكا به لتتمكن فتاة سمينة من الخروج دون أن تعبأ بشكري. ارتقيت المصعد إلى الطابق الثاني وخرجت إلى ردهة يتصدرها كاونتر دائري تجلس خلفه سيدة سوداء ضخمة ، أربعينية. كانت تحدق في جهاز كومبيوتر أمامها وهي تقضم جانبا من فطيرة بفم بالغ الاتساع. حييتها فردت بابتسامة متكلفة وهي تعيد بقية

الفطيرة إلى علبة حلوي وضعت فوق حافة الكاونتر ليأكل منها من يشاء. كان باب الغرفة المجاورة مفتوحا فولجتها.

وجهت التحية إلى ظهر شقراء ممتلئة تدق على مفاتيح الكومبيوتر بسرعة خاطفة. ردت دون أن تلتفت نحوي وواصلت الدق فجلست علي مقعد مجاور لمكتبها. وواجهتني على الجدار صورة كبيرة ملونة لها مع شاب أشقر مثلها وطفلين يشبهانها.

تحولت إلي قائلة: كيف حال المسكن؟ (×)

لم تنتظر اجابتي وأضافت: لا تنسي أن تغلق بابك جيدا. ولا تفتح لأحد قبل أن تطمئن إلى هويته.

أوحت لي لهجتها أنها تتمنى أن يحدث لي شئ أو على الأقل ترغب في أن تحرمني نعمة الطمأنينة.

كانت "جيني" في بداية العقد الثالث من العمر، بوجه نمطي لا يتميز بشئ، مليئة بالحيوية، تحب أن تعطي انطباعا بأنها عاملة مجتهدة تتميز بالكفاءة وسرعة الإنجاز.

فتشت طويلا بين الملفات المرتبة بنظام فوق مكتبها

(×) كانت هي التي عثرت عليه بعد أن فشلت محاولة الحصول علي مكان في مساكن الجامعة. وكتبت لي قبل قدومي من "القاهرة" تهنئني في حماس علي حظي الحسن لأن صاحبه سيسافر مدة الفصل الدراسي ولا يطلب ايجارا له أكثر من ألف وخمسمائة دولار في الشهر وهو رقم معقول لن أجد أفضل منه بالنظر لأنه قريب من الجامعة وله شخصية - علي حد تعبيرها - ومؤثث بالكامل ويحتوي علي غسالة ومجفف وتليفزيون وفيديو وحديقة صغيرة يدفع المالك أجرة بستانيها الذي سينوب عنه في كل شئ. وقالت إن المالك لا يشترط سوى عدم التخلف داخل المسكن وهو أمر طبيعي فمن الصعب وجود من يقبل مدخنا في كل "كاليفورنيا". وعندما أبديت تحفظي علي قيمة الايجار قالت إني لن أجد أقل من ذلك خصوصا وأن المسكن يضم "سولاريوم". وأقنعتني هذه الحجة الأخيرة إذ تصورت أنها تشير إلي جهاز خاص ذي فائدة جليلة وخجلت أن أبدي جهلي بالاستفسار عن كنهه.

وفي أدراجه وفي خزانة مجاورة تحمل فوق سطحها ماسحا ضوئيا وطابعة ليزر. وأخيرا قدمت إلى مجموعة من الأوراق لأملأ بياناتها: بطاقة هوية، دفتر تدريس، طلب استخدام مودم أو كمبيوتر، طلب الحصول على بريد إلكتروني، طلب استخدام المكتبة، طلب إعفاء من الضرائب على الدخل، طلب الحصول على مكان انتظار للسيارة. ثم مجموعة من الكتيبات الفاخرة خاصة بشركات التأمين الصحي.

أعدت إليها طلب الحصول على مكان إنتظار للسيارة معلنا أني لا أنوي امتلاك سيارة أوالقيادة. ملأت الأوراق الأخرى وتصفحت كتيبات التأمين الصحي في حيرة. فأنا من جيل نشأ على أن الدولة مسئولة عن صحته ولم يألف بعد أن تتولى ذلك شركات خاصة.

نهضت واقفة وقدمت إلىّ حفنة مفاتيح: مفتاح باب المبنى، مفتاح المصعد، مفتاح المطبخ، مفتاح القسم، مفتاح صندوق البريد الموجود في غرفة صغيرة مجاورة، مفتاح جهاز النسخ وكلمة السر التي تمكنني من استخدامه، وسابع لباب يفصل بين الجناح الإداري وبين مكاتب الأساتذة.

احتفظت بأحد المفاتيح في يدها ودارت حول المكتب قائلة: تعال أريك مكتبك.

تقدمتني إلى الخارج في نشاط وتوقفت أمام الكاونتر فالتقطت قطعة من علبة الحلوى التهمتها وهي تتجه بخطوات سريعة إلى طرقة طويلة تطل عليها غرف مغلقة. توقفت أمام إحدى الغرف وفتحت بابها بينما كنت أقرأ لوحة معلقة على الجدار تتضمن ارشادات التصرف عند حدوث الزلازل.

تأملت من المدخل غرفة صغيرة بها مكتبين معدنيين متجاورين وطاولة في الوسط حولها أربعة مقاعد وخزانة فارغة للكتب ومشجب معدني. وكان هناك جهاز تليفون فوق أحد المكتبين.

أغلقت الباب بالمفتاح وقدمته لي قائلة :

- والآن مسز "شادويك".

عدنا إلى الجناح الإداري فقادتني إلى مكتب آخر وقدمتني إلى سيدة بيضاء قصيرة القامة رمادية الشعر وانصرفت على الفور. وتخيلتها تتنفس الصعداء.

كانت "شادويك " تجلس أمام كومبيوترفوق مكتب وضع بزاوية غريبة مائلة في منتصف الغرفة وتناثرت فوقه الأوراق والملفات في غير نظام. وتكومت ملفات أخري إلى جوارها على الأرض. وكان منظر "شادويك" نفسها ينطق بالاهمال والفوضى اللذين يحيطان بها.

دقت مفاتيح الكومبيوتر فظهرت أمامها صفحة مقسمة إلى جداول .سألتني دون أن ترفع عينيها عن الشاشة:

- هل اخترت مواعيد محاضراتك؟

قلت : لا. ليس الأمر مهما. إختريها أنت.

تطلعت إلى بعينين يقظتين من فوق نظارة وقالت : الأمر مهم بالنسبة لك . متى تفضل :الصباح أم بعد الظهر ؟

قلت : الصباح. لأتمكن من الاستمتاع بالقيلولة المقدسة.

قالت : أنصحك ببعد الظهر. في الصباح سيكون الطلبة مقيدين بدروسهم الاعتيادية. الثالثة موعد مثالي للحلقات الدراسية.

قلت : لا بأس.

قالت : والأيام ؟

قلت : هل هناك فرق ؟

قالت : طبعا. الاثنين أول الأسبوع لن يتمكن ساكنو الضواحي والمدن القريبة من الحضور. ثم إنك ربما تكون خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع وتحتاج يوما إضافيا. الثلاثاء هوالأنسب لك. وبعد ذلك يوم للتحضير وتأخذ الخميس أيضا.

استقرت عيناها على كتيبات شركات التأمين الصحي التي كنت أحملها في يدي فسألتني: هل اخترت الشركة التي ستؤمن لديها؟

قلت : لا. كيف أدفع ٣٠٠ دولار في الشهر لرعاية لا تشمل العمليات الجراحية ؟

ابتسمت قائلة : أقترح عليك البرنامج الخاص بمن بلغوا سن الستين. لن تدفع سوى ستين دولارا تغطي الاحتياجات الصحية الأساسية عدا الأسنان والعوينات الطبية والعمليات الجراحية الكبيرة.

- واذا لم أفعل ؟ إذا فضلت أن أبقى بلا تأمين صحي ؟

- ستنضم إلى ٤٣ مليون أمريكي لا تتحمل أجورهم أقساط التأمين الصحي التي ترتفع سنويا بمعدل يفوق ثلاثة أمثال التضخم. وستدفع دم قلبك للأطباء.

انصعت لنصيحتها وملأت أوراق التأمين الصحي بعد أن اخترت برنامج الستينيين. وعدت إلى جيني فأعطيتها الأوراق. وبقت في يدي ورقة زرقاء مطوية تضمنت خريطة صغيرة لحرم الجامعة وتحذيرات عديدة قرأتها في عناية :

- لا تفتح باب مسكنك لطارق قبل أن تتأكد من هويته.

- فور دخول مسكنك إغلق الباب وأمّن القفل.
-كن يقظا وانظرحولك قبل دخول ساحات انتظار السيارات.
- لا تكشف عن مفتاحك في مكان عام أو تتركه باهمال فوق موائد المطاعم أوفي أماكن أخرى.
-لا تجذب الانتباه إلى نفسك بابرازكميات كبيرة من النقود أوالحلي الثمينة.
- لا تدعو أغرابا إلى منزلك.
- لا تترك أشياء ثمينة في سيارتك. وعندما تتوقف في مكان اغلق نوافذها. وإذا غادرتها افعل هذا بسرعة واغلق أبوابها باحكام .
- تأكد من إغلاق الأبواب والنوافذ الزجاجية المنزلقة في منزلك.

تحولت منصرفا فابتسمت في خبث قائلة: احذر المشي في الشوارع بعد العاشرة ليلا.

بدا على الانزعاج فقالت : إذا شئت أعطيك رقم خدمة المرافقة البوليسية.

- ما ذا تعنين ؟

قالت : تتصل بالرقم من من ٧مساء إلي ٢ صباحا فيأتيك طالب أوطالبة تحمل راديو شرطة ومصباح كهربائي طويل ورشاش فلفل وتصحبك حتى باب منزلك.

وأضافت ضاحكة :الباب فقط .

سألت : هل هم متطوعون ؟

- أبدا. إنها وظيفة. الواحد منهم يأخذ عشر دولارات في الساعة.

سجلت الرقم وهبطت إلى المكتبة بالطابق الأرضي. كانت تحتل مساحة واسعة وتشرف عليها فتاة صغيرة السن.

طفت بمحتويات المكتبة التي عرضت في صفوف منسقة يمكن استخدامها مباشرة. ثم جلست أمام كومبيوتر ودرست التعليمات الخاصة باستخدامه. وسجلت في مفكرتي حروف المفاتيح الخاصة بالبحث والمفتاح الخاص بالكتب العربية القليلة.

شعرت فجأة بالرغبة في استنشاق الهواء فغادرت المبنى. مشيت على مهل في خط مستقيم. عبرت البوليفار وواصلت السير. ثم عبرت شارع "كاليفورنيا" وسرعان ما بدأت الأرض تصعد ولمحت بعد قليل قمة "البريزيديو" الذي شيده الأسبان منذ قرنين لحراسة مدخل الخليج.

عبرت الطريق وعدت ادراجي على الناحية المقابلة حتي شارع "جيري" فانعطفت يمينا وسرت في اتجاه شارعي. مررت بحانوت للملابس المستعملة وآخر ضخم للأجهزة الصوتية. ولمحت حانوتا لشرائط الفيديو فولجته.

كان هناك ركن به عدة أجهزة كومبيوتر يمكن استخدامها في التعرف على المحتويات. لكني فضلت أن أتنقل بين الصفوف التي كرست لتنسيقات متنوعة. فكان ثمة قسم لأشهر المخرجين وجدت فيه أهم أفلام "فيلليني" و "بتروليتشي" و"فورمان" و"بازوليني" و"كوبولا" وغيرهم. وآخر لأفلام "جيمس بوند" و"رامبو" وعلي رأسها فيلم "النسر الحديدي" الذي يصورنجاح مجموعة كوماندوز أمريكية في نسف محاولة إقامة مفاعل نووي عربي. ثم فيلم "نافي سيلز" الذي تقوم فيه مجموعة كوماندوز أخرى بتدمير مجموعة إرهابية عربية تملك صواريخ "ستينجر" وتهدد بها المدنيين الأبرياء. وفيلم "أكاذيب حقيقية" الذي

أنتج بعد حادث ضرب مركز التجارة العالمي في ١٩٩٢ويصور مجموعة ارهابية عربية تخطط لتدمير مفاعل نووي بالولايات المتحدة.

انتقلت إلى قسم مخصص للأفلام الوثائقية وآخر منزوللأفلام الإيروتيكية وثالث للأفلام الموسيقية. استقر اختياري علي فيلم "موتسارت" لفورمان وفيلم "واج ذا دوج" الذي نبهني البائع الشاب إلى ضرورة إعادته خلال يومين بسبب الإقبال عليه.

ترددت أمام حانوت صغير مجاور تكدست فيه برادات المشروبات وحاملات الأكياس الملونة. بدا مظلما خاليا من الزبائن ولمحت بائعا أسمر البشرة منزويا خلف كاونترتكومت فوقه السلع. عدلت عن دخوله وواصلت السير، متجنبا الاصطدام بامرأة بيضاء ملبدة الشعر، بالغة السمنة، ترتدي بنطلونا أحمر ضيقا أبرز غمازات أليتيها. ورافقها شاب بدين بشعر أشقر قذر وشارب كثيف تدلىّ فوق فمه.

بلغت ساحة انتظار واسعة تكدست بها السيارات أمام سوبر ماركت ضخم من طابق واحد. جذبت عربة معدنية وولجت مكانا رحبا مكيف الهواء، تضيؤه أنابيب الفلورسنت القوية. مررت بصفوف من الفواكه والخضراوت المتنوعة لم أتعرف على أكثرها. كان كل شيء نظيفا مرتبا يفتح الشهية وبشجع على الاستجابة لنداء مذيع الموسيقي الكلاسيكية. لكني تجنبت الطماطم والخوخ والفراولة وكل الثمار ذات الأحجام الكبيرة والألوان الساطعة التي عرفناها أخيرا في "مصر" بلا طعم وقادرة على تحريك الامعاء. وجدت ركنا لخضراوات استخدمت في إنباتها الأسمدة العضوية الصحية. كانت أسعارها تتجاوز مثيلتها غير الصحية بعدة أضعاف.

عدت إلى الأخيرة وانتقيت حزمة من البصل الأخضر المغسول ثم لفافة من اللحم البارد وأخرى من النقانق المكسيكية ورغيف من الخبز الأسود وعلبة بلاستيكية تضم عشرين بيضة ودفعت عربتي نحوالخزينة.

استقبلتني فتاة سوداء بتحية آلية: "هاويو دو". وضعت مشترواتي فوق الكاونتر المتحرك وعندما جاء الدور على علبة البيض انزاخ غطاؤها وظهرت بيضة مكسورة. تناولت الفتاة العلبة وألقت بها كلها في صندوق للمخلفات قائلة :

– خذ علبة أخرى من فضلك.

شيعت البيض المدلوق في حسرة ومضيت إلى رف البيض فالتقطت علبة وتأكدت من سلامة محتوياتها. عدت سريعا فاستقبلتني الفتاة بابتسامة واسعة. مررت بطاقة الائتمان في الفتحة المخصصة لها بينماأشاحت بوجهها ريثما ضغطت أزرار رقمها ثم خيرتني بين الأكياس الورقية والبلاستيكية فاخترت الأولى. حملت مشترواتي وغادرت الحانوت.

كان شارعي هادئا مهجورا كما عهدته منذ ساعات. ولم أصادف من المارة غير امرأة مسنة تنزه كلبا. وعندما اقتربت من منزلي لمحت ورقة مثبتة بدبوس إلى جذع شجرة تحمل صورة منسوخة بالأبيض والأسود لفخذين عاريين استقرت فوقهما قطة سوداء. وخطت يد بجوار الصورة رقم تليفون ونداء لمن يعثر على القطة المسماة "بويزي". وجدت مثلها فوق صندوق البريد فالتقطتها وولجت المنزل.

هاجمتني رائحة حيوانية منفرة انبعثت من موكيت الردهة البالي. كانت الخطابات التي وضعتها على الطاولة في مكانها فلم يعد جيراني المجتهدين من عملهم بعد. أغلقت

الباب الخارجي وتقدمت من مسكني ففتحت بابه. خطوت إلى الداخل ووضعت مشترواتي على الأرض ثم أغلقته بالمفتاح وثبت السلسلة المعدنية. ولم يفد كل هذا بشئ.

فعندما استدرت إلى الداخل عبر بصري الممر الطويل المؤدي إلى المخدع وواجهته المنزلقة المطلة على الحديقة واستقر على جسم ضخم يتحرك بها.

تركت الكيسين مكانهما وخطوت في تردد وقلبي يدق بسرعة نحو غرفة النوم مارا بالحمام والمطبخ وفراغ صغير به خزانة لأدوات النظافة. عبرت المخدع ووقفت خلف بابه المنزلق.

طالعتني رقبة قوية أسفل شعر أشقروفوق بنية ضخمة يرتدي صاحبها سروالا من الجينزالأزرق اللون وفانلة بنفس اللون قصيرة الكمين برزت منهما عضلات قوية.

استدار نحوي بوجه ممتلئ بالتجاعيد لرجل قد يكون في الخمسين أو الستين ، يتدلى من أذنه اليمنى قرط. أزحت الباب جانبا وقلت : هاي.

قال ببطءوهو يقطب جبينه: اعذرني إذا جئت بدون انذار. اسمي "فيتز" صديق مستر "هوبس" صاحب البيت. وأنوب عنه في رعاية الحديقة وكل شئ.

وأومأ إلى خرطوم مياه في يده.

التقطت أنفاسي وقلت : أهلا بك.

قال : أرجو ألا أسبب لك ازعاجا بحضوري بين الحين والآخر.

كانت له عينان في لون سرواله وشعرت أن البطء الذي يتحدث به يشمل أيضا طريقة التفكير.

رحبت به نافيا أي إزعاج ثم سألته إن كان يحب أن يشرب شيئا.

قال وهو يستأنف العمل : لا. أشكرك .

قلت : الجو حار وعندي بيرة مثلجة.

رفع رأسه وقال : أنا لا أشرب الكحوليات .

مضيت إلى المطبخ وأحضرت له زجاجة عصير برتقال وكوبا.

قال : أشكرك. سأشربها بعد أن أنتهي من نباتات الداخل.

كان يقصد أصص النباتات الصغيرة الموزعة في كافة أرجاء المسكن.

قلت بسرعة : لا عليك.. سأتولى أنا أمرها.

قال : ألن يزعجك هذا ؟

قلت : أبدا.

قال: مرتان فقط في الأسبوع.

وأضاف : رقم تليفوني عندك في عقد الإيجار. لا تتردد في الاتصال بي إذا احتجت شيئا.

شكرته وعدت إلى المطبخ . أخرجت زجاجة بيرة من البراد وفتحتها وجرعت منها مباشرة. تذكرت مشترياتي فأحضرتها من أمام باب المسكن وباشرت بغسلها ووضعها في البراد ثم أعددت طبقا من السلاطة الخضراء. قطعت عدة شرائح من رغيف الخبز الأسود. ووضعت علبة المستردة أمامي. ثم فتحت لفافة اللحم البارد وانتزعت شريحة وضعتها فوق الخبز.

لمحت حركة عند النافذة بزاوية عيني والتفت لأراه يمضي إلى الخارج. بسطت الصحيفة وبدأت باعترافات "كلينتون".

انتهيت من الأكل وأزلت فتات الخبز من فوق المائدة. وأعدت لفافة اللحم إلى البراد هي وعلبة المستردة. حملت

علبة سجائري وإعلان القطة الضائعة واتجهت إلى المخدع. خطوت إلى الحديقة وأغلقت المصراع المنزلق خلفي كي لا يتسرب دخان السجائر إلى الداخل. كان الطابع البري يغلب علي الحديقة فيما عدا شبكة من السلك تغطي شجرة تين لتحميها من الطيور. وكانت تلتحم بحديقة المنزل المجاور من الخلف فتصنع امتدادا أخضر جميلا. وقرب سياج من السلك يفصل بين الحديقتين استقرت أريكة حديدية. تأكدت من جفافها وجلست. أشعلت سيجارة وأنا أتأمل نوافذ المسكن المجاور التي أسدلت فوقها ستائربلاستيكية انعكست عليها أشعة الشمس الغاربة. حولت اهتمامي إلى إعلان القطة. كان الفخذان اللذان اقتعدتهما متناسقين ومشدودين يوحيان بأنهما لامرأة شابة مستلقية فوق فراشها، وقد تدلىّ طرف غلالة خفيفة قرب مُنفرجها. لم يكن ثمة شك في أن الصورة منسوخة من أخرى فوتوغرافية. وأن صاحبتها تعمدت إخفاء وجهها عند النسخ. لماذا إذن لم تفعل المثل بفخذيها وتكتفي بصورة القطة وحدها؟

* * ٢

كان شاي بعد القيلولة من نفس النوع الذي أفضله في "القاهرة" لكن بمذاق مختلف لم أستسغه. وفكرت أنني في الغالب تعودت على النوع المصري الذي يعبأ محليا وتضاف إليه شوائب عديدة. فلم أتصور أبدا الإفتراض العكسي.

حملت كوب الشاي إلى مكتب خشبي قديم في ركن الصالة تركت فوقه كتبي والكومبيوتر المحمول. أوصلته بالمحول الصغير الخاص به ثم بحثت عن مستقبِل قريب.

وجدت واحدا أسفل سطح المكتب وعندما أردت استخدامه اكتشفت أن فتحتيه أوسع من طرفي المقبس.

ضايقني الأمر فمنذ تعلمت استعمال الكمبيوتر قبل خمس سنوات انتهت العلاقة بيني وبين الورقة والقلم. طفت بأرجاء المسكن متفحصا الفتحات الكهربائية فوجدتها جميعا من نفس الحجم. عدت إلى المكتب فجذبت أدراجه بحثا عن موصل. كان بعضها مغلقا والبعض الآخر يحتوي على أدوات مكتبية من طرز قديمة. تبينت في هذه اللحظة أن القدم هو الوصف الذي ينطبق على المسكن ومحتوياته: البوفيهات الخشبية ذات المصاريع الزجاجية التي تحوي فضيات وخزفيات قديمة ، المدفأة الحجرية المهملة، الجدران المغلفة بالخشب واللون الداكن الذي يشمل كل شئ.

مضيت إلى المطبخ وفتشت خزائنه الخشبية. كان كل ما بها من أدوات يعلوه الصدأ. ولم يكن بالمطبخ من جديد سوى البراد الضخم وماكينة قهوة و"ميكروويف". ولم أجد أية أدوات كهربائية.

انتقلت إلى الغرفة الأخري المطلة على مدخل المنزل والشارع. كانت تحوي طاولة خشبية وضعت أسفل النافذة التي غطتها ستائر خشبية بالية. وكان ثمة أريكة من النوع الذي يتحول إلى فراش عريض. وعدة خزائن خشبية قديمة بمصاريع زجاجية كشفت عن فضيات وتذكارات متَنوعة لأماكن مختلفة من العالم وخاصة في "أمريكا "اللاتينية.

عدت إلى المخدع وفتحت الخزائن الخشبية المثبتة في جدرانه وتضم أغطية ووسائد. تفحصت الطاولة المعدنية المتحركة التي تحمل جهازي التليفزيون والفيديو. ثم ولجت "السولاريوم " العجيب وهو عبارة عن غرفة صغيرة تضم

طاولة خشبية بلا أدراج ومقعدين خشبيين وتتميز بفتحة زجاجية في السقف تسمح لأشعة الشمس بالمرور.

أوشكت أن أعود إلى مكتبي يائسا عندما تذكرت الحمام الذي يتوسط الطرقة بين الصالة والمطبخ. فتحت بابه وأضأت النور. كانت يد التجديد قد انتقلت اليه فيما يبدو ممثلة في حوض استحمام حديث وحوض اغتسال مثبت في طاولة رخامية فوقه مرآة عريضة بمساحة الجدار يمتد بين طرفيها العلويين قضيب "فلورسنت". انحنيت أتفحص صورة فوتوغرافية ملونة في اطار خشبي بحجم البطاقة البريدية وضعت فوق سطح سيفون المرحاض. كانت لرجل سمين ذي وجه عريض باسم غير واضح المعالم بسبب المسافة بينه وبين الكاميرا. قدرت أنه مستر "هوبس" بنفسه. جذبت درج الطاولة فلم أجد به شيئا وكنت على وشك اطفاء النور ومغادرة الحمام عندما لاحظت لأول مرة كثرة مراياه.. ففضلا عن المرآة الرئيسية فوق حوض الاغتسال كانت هناك واحدة بعرض عشرة سنتيمترات تمتد بطول حافة القاعدة الرخامية لحوض الإغتسال. وثبتت ثالثة معينة التكوين في زاوية غريبة بين قاعدة الحوض و قاعدة المرحاض. وغطت رابعة سطح الباب من قمته إلى عتبته.

أغلقت الباب وجلست فوق القاعدة البلاستيكية للمرحاض. طالعني وجهي ثم انعكاس فخذي منقولا عبر المرآتين الصغيرتين. نهضت واقفا وفككت أزرار بنطلوني وأنزلت الكيلوت وجلست من جديد. حانت مني نظرة إلى المرآة الصغيرة المعينة الشكل فطالعتني الاستدارة العارية لفخذي وأليتي.

جذبت ملابسي وغادرت الحمام وتوجهت في فضول إلى المكتبة التي أحاطت رفوفها بمدخل المطبخ. كانت أغلب

الكتب عن الطهي وفنونه وألوانه المفضلة في أغلب بلدان العالم. وبينها كتاب طريف حقا عن يوميات الرسام الفرنسي الشهير "كلود مونيه"، ذكر فيها أطعمته المفضلة، وآخر عن تاريخ الملاعق والشوك والسكاكين. وكانت ثمة عدة روايات بوليسية من النوع الكلاسيكي. ولم تكن هناك روايات ايروتيكية كما توقعت ولا مجلات مصورة ولا كتب في السياسة. وأقرب كتاب إلى الجنس وجدته هو دراسة "هايت" عن جنسانية الذكر ولم أكن قد سمعت عنه فوضعته جانبا لأتصفحه(×) ثم أضفت إليه رواية حديثة عن الجاسوسية من تأليف " فريدريك فورسايت"(××).

خرجت إلي الصالة وتفحصت الكتب المصفوفة فوق المدفأة. كان أغلبها طبعات قديمة كما لو كانت مشتراة من مكتبات الكتب المستعملة أو تنتمي إلى فترة ماضية من الاهتمام بالقراءة. وأكد لي الإستنتاج الأول كتاب عن الشعر الانجليزي الحديث نشر في ١٩٥٨ يحمل اسم مالكه الأصلي مدونا على صفحته الأولي بالحبر السائل وبقلم من النوع القديم المسنون. وكانت هناك خطوط بالقلم الرصاص تحت بعض القصائد. لكني لم ألبث أن ملت إلى الاستنتاج اللاحق عندما فحصت البقية. ففيما عدا مجموعة حديثة لقصص الكتاب اليهود، كانت هناك بضع روايات قديمة منها رواية

(×) سبق أن قرأت دراسة نسوية سابقة لعالمة النفس الأمريكية" شيري هايت" بعنوان "تقرير هايت"، صدر سنة ١٩٧٧ وضم تحليلا لنتائج ثلاثة آلاف استبيان شاركت فيه نساء من مختلف الأعمارتحدثن عن أدق مشاعرهن الجنسية. وقد اعتبر هذا التقرير في حينه أكبر دراسة من نوعها منذ تقرير "كينزي" الشهير في الخمسينيات.

(××) كاتب انجليزي لا يخفي كراهيته للعرب ويستعين في رواياته بخبرة واسعة - تكاد تكون شخصية-في مجال التجسس وبمعلومات دقيقة عن خفايا الأحداث الواقعية التي يتعرض لها.

"جيمس كوبر" الكلاسيكية التاريخية عن الهنود الحمر" آخر الموهيكان"، وبعض أعمال "شكسبير". وتمثل التاريخ بعدة كتب عن المحرقة النازية وواحد عن الملكة "فيكتوريا" الإنجليزية، التي ارتبط إسمها بالتعنت الأخلاقي، وآخرعن "سيمون دي بوفوار" وثالث عن "انجريد برجمان" وفضيحة حملها غير الشرعي من المخرج "روسيلليني" في الخمسينيات.

انتقلت إلى الأرفف المجاورة فوجدت مجموعة مختلفة من الكتب، عن البستنة ورعاية الحدائق، وكيفية استخدام كاميرا التصوير السينمائية ٣٥ ملم، وعن كتابة القصص القصيرة. ثم كتاب بعنوان " كيف تبيع ما تكتبه " صادر سنة ١٩٤٥ ويحتوي بطاقات بخط دقيق واضح تضم بعض المقتطفات. وآخر عن تعليم اللغة الانجليزية للأجانب وثالث عن تجارة العقارات صدرا في نهاية الأربعينيات.

هل كان يجرب إمكانيات مختلفة لمستقبله؟ وهل استقر أخيرا على تجارة العقارات وتأجير الشقق المفروشة بمافيها مسكنه الخاص؟ وهل تزامن ذلك مع محطة الكهولة التي كشف عنها كتاب -وضعته جانبا لأقرأه- بعنوان "تجربة الشيخوخة" صادر في ١٩٨٣؟ ومتي كانت المحطة التي يومئ إليها كتاب " علاج الشعوربالعار" من تأليف "جون برادشو"؟ وآخر يحمل إسمه في ركن الصفحة الأولى عنوانه "الشخصية العصابية في عصرنا" صدر عام ١٩٣٧، من تأليف "كارين هيرني"؟

قلبت صفحات الكتاب وتوقفت عند الفصل الوحيد الذي امتلأ بتخطيطات أسفل أغلب سطوره. كان بعنوان "حاجة العصابي إلى الحنان" وجاء أول تخطيط أسفل عبارة تحدد الشخص العصابي بأنه يعاني من تناقض رئيسي بين عجزه

عن أن يحب وبين حاجته لحب الآخرين. وجاء التخطيط التالي أسفل عبارة تصفه بأنه دائما على حذر من الآخرين ويشعر بأن الاهتمام الذي يوجه لشخص ثالث هو إهمال له هو.

تتابعت خواص الشخصية العصابية التي حظيت بتخطيطات قارئ الكتاب: سعيه المرهق وراء الكمال انطلاقا من موقف عدائي: " تبا لك إذا لم تكن كاملا !"، نفوره من الشخص الذى يرتبط به في علاقة اعتمادية نابع من الشعور بأن حياته تتعرض للتدمير، وإذا كان هذا الشعور طاغيا يحمي نفسه بعدم الارتباط بأحد على الاطلاق. شعور دائم بالذنب. وهو لا يرتوي أبدا وتتجلي شراهته في إقباله على الطعام والشراء والفرجة على الحوانيت والنشاط الجنسي. ويكون الأخير أقرب إلى تفريغ للتوترات النفسية من التعبيرعن دافع جنسي أصيل، وبالتالي لا يحقق المتعة.

شعرت بهبوط مألوف فتركت مكتبة مستر "هوبس" ومضيت إلى المطبخ فاستخرجت من البراد زجاجة بيرة حملتها إلى مكتب الصالة. انهمكت في ترتيب كتبي فوضعت مؤلفاتي على جانب وبجوارها ملف يحوي أبحاثي القصيرة المنشورة في دوريات انجليزية. ووضعت بعض المراجع المصرية التي أحضرتهامعي في جانب آخر. تناولت ورقة فارغة ووجدت قلما في درج المكتب. ونظرت في استياء إلى الكومبيوتر المغلق الذي سجلت به خطوطا عريضة لدروسي وقائمة مراجع سيتعين على الطلبة قراءتها (×).

فقدت فجأة حماسي للعمل فأطفأت الأنوار وحملت

(×) ترك لي مدير المعهد حرية اختيار الموضوع الذي أحاضر فيه بل واقترح أن أتناول تجربتي الذاتية كمؤرخ والمنهج الذي اعتمدته لنفسي في البحث التاريخي.

زجاجة البيرة وولجت المخدع. أدرت جهاز التليفزيون وقلبت بين القنوات القليلة فوجدت أغلبها مشغولا بالكارتون ومسلسلات حرب الكواكب ومصاصي الدماء الذين تتلون عيونهم بالأخضر أو الأحمر ثم انهمرت على الإعلانات والبرامج الرياضية وعجلة الحظ. توقفت عند حلقة من مسلسل "كوسبي شو" الكوميدي الذي يصور عائلة سوداء تعيش في مستوي جيد. وكنت قد استمتعت بمشاهدة بضع حلقات منه في "القاهرة". وعندما انتهت الحلقة وضعت فيلم "واج ذا دوج" في جهاز الفيديو.

لم أتمكن من فهم إسم الفيلم إلا بعد أن قطعت شوطا في مشاهدته. وتوصلت إلى أنه يعني "إعط الكلب عظمة بلاستيكية لالهائه عن الطعام الحقيقي". والمقصود بالكلب هو الشعب الأمريكي الذي يعمد رئيسه إلى محاولة الهائه عن فضائحه النسائية فيوعز إلى مخرج شهيرباخراج حرب وهمية تشغل الناس وتنسيهم فضيحة الرئيس. وتعلن وسائل الاعلام عن احتلال دولة لم يسمع بها أحد من الشعب الذي لا يعرف الفرق بين "يوغوسلافيا" و"تشيكوسلوفاكيا" ويتصور أن "جنوب أفريقيا" تقع في "أستراليا". ويقال للشعب في بيان رسمي أن تلك الدولة تستعد لهجوم ارهابي خطير ضد "الولايات المتحدة". وبعد شحذ الرأي العام بفترة كافية يعلن الرئيس عن توجيه ضربة عسكرية ضد الدولة الارهابية التي لا وجود لها ويتابع الشعب تفاصيل هذه الحرب في الصحف وعلى شاشات التليفزيون ويتم اختلاق أبطال وهميين من الجنود يتغنى بهم الشعب. وفي النهاية يرغب المخرج في أن يعلن على العالم دوره في العرض فتطلب منه الرئاسة الصمت وتحاول إغرائه بمنصب سفير.

لكنه يرفض فيتم التخلص منه وفي اليوم التالي تعلن الصحف نبأ وفاته بأزمة قلبية.

أحسست بالرغبة في التدخين فأغلقت الجهاز وحملت علبتي السجائر والثقاب إلي الحديقة. فوجئت بسيل من المطر عندما جذبت باب المخدع فأغلقته. انتقلت إلي الغرفة المطلة على الشارع ففتحت نافذتها ووقفت أدخن وأنا حريص علي نفث الدخان بعيدا.

كان الشارع هادئا كعادته غارقا في ظلام تتخلله أضواء المصابيح. تنفست في عمق روائح الأشجار والمطروالهواء النقي. واستقرت نظراتي على بركة صغيرة من المياه فوق الرصيف. أغلقت عيني ثم فتحتهما فلم تختف القطة التي وقفت تتطلع إلى بثبات. كانت تشبه قطة الاعلان الضائعة بوجهها المثلث الشكل ولونيها الأبيض والأسود. و لا بد أن تكون هي فليست هنا قطط مشردة أو ضائعة بلا صاحب كتلك التي تحفل بها شوارع "القاهرة". فكرت أن أتصل بصاحبة الاعلان ثم ترددت عندما وجدت أن الساعة قد قاربت منتصف الليل وقررت إرجاء الأمرإلى الصباح.

تصاعد صوت سيارة وتمهلت واحدة "شيروكي" أمام المنزل ثم ولجت الجاراج. وسمعت صوت فتح أبوابها واغلاقها. ثم مر من أمامي شابان، رجل وامرأة، في ملابس رياضية وصعدا درجات المنزل. وجه إلى الشاب التحية بينماكانت رفيقته تدير المفتاح في الباب. أدركت أنهما جيراني وأوشكت أن أخبرهما بالخطابات التي عثرت عليها ووضعتها في الداخل لكنهما اختفيا بسرعة. وفكرت أنهما شاهداني أدخن فقذفت بعقب سيجارتي بعيدا وأغلقت النافذة. عدت إلى الصالة فأضأت نورها وتناولت روايةالجاسوسية وجلست في مقعد مريح.

حملت الرواية إسم "قبضة الله". وعلمت من الغلاف أنها صدرت عام ١٩٩٤ وتتناول أحداث حرب الخليج في عام ١٩٩٠. قلبت صفحاتها التي تجاوزت الخمسمائة وتوقفت عند صفحة وضع قارئها السابق خطوطا تحت سطورها.

تناولت السطور المخططة اسلوب عمل جهاز الاستخبارات الإسرائيلي المعروف باسم "الموساد". وذكرت أنه يستعين بشبكة عالمية من المعاونين يطلق عليهم بالعبرية "سايانيم" وهم يهود من جهة الأب والأم وغالبا ما يكونوا مخلصين للدول التي يحملون جنسياتها لكنهم متعاطفون أيضا مع "إسرائيل". وذكر الكاتب أن هناك ألفين من هؤلاء في "لندن" وحدها وأربعة آلاف في كل "بريطانيا" وعشرة أضعاف هذا الرقم في "الولايات المتحدة". ولا يطلب من هؤلاء أبدا الاشتراك الفعلي في عمليات "الموساد" وإنما تقديم بعض الخدمات. وضرب المؤلف المثال التالي لهذه المساعدات: يصل فريق من عملاء "الموساد" إلى "لندن" للقيام بعملية ما، ويحتاج سيارة. فيُطلب من أحد "السيانيم" الذي يعمل في تجارة السيارات المستعملة أن يترك واحدة مزودة بالأوراق القانونية في مكان معين بعد أن يضع المفاتيح تحت الحصيرة. وتعاد له السيارة بعد انتهاء العملية دون أن يعلم فيما استخدمت. ثم يحتاج فريق الموساد إلى "واجهة". وهنا يؤجر "سيان"آخر، حانوتا فارغا يملكه ويقوم "سيان" ثالث بملئه بالحلوى والشكولاتة، وهكذا.

عدت إلى بداية الرواية وقرأت بضعة سطور ووجدتني عاجزا عن التركيز فأغلقت الكتاب. أطفأت الأنوار بعد أن تأكدت من اغلاق باب المسكن ونوافذه. وأضأت نور الحمام ثم واربت بابه وولجت المخدع. تلمست مكان الفراش وأزحت

الأغطية واستلقيت فوقه. تقلبت عدة مرات ثم التقطت أذناي أصواتا مبهمة. جمدت في رقدتي وأنصت محاولا تحديد مصدرها. خيل إلى أنها صادرة من الحديقة. قمت وأشعلت الضوء ومضيت إلى الباب المطل عليها فأزحت ستارته ودققت النظر من خلف الزجاج فلم أتبين حركة ما. تأكدت من احكام اغلاق الباب وأسدلت الستارة ثم أطفأت النور وعدت إلى الفراش. تكررت الأصوات المبهمة وخيل إلى أنها صادرة عن السقف. حبست أنفاسي وأنصت من جديد. تناهي إلي صوت كوقع أقدام خفيفة فوق رأسي مباشرة.تلاشت الأصوات بعد قليل لكن النوم استعصى عليّ وانفتح الباب المألوف الذي تتسلل منه وحوش الليل.

** ٣

ملأت الحوض وأخذت حماما طويلا منعشا. جففت جسمي وأنا أتطلع إلى صورته كما عكستها المرايا المتعددة في ضوء الصباح. لم يسبق لي أن فعلت ذلك. وكنت أعجب دائما لصديق في نفس عمري، أستاذ بكلية الحقوق، يستمتع بالاستمناء أمام المرآة.

انتهيت من ارتداء ملابس الخروج عندما دق جرس الباب. فتحت باب مسكني ولمحت ظلا كبيرا خلف زجاج الباب الخارجي. أزلت أقفاله وجذبته فوجدت أمامي عجوزا سوداء ضخمة. قدمت لي نفسها على أنها المسئولة عن تنظيف المسكن. أفسحت لها الطريق وأنا أتأمل يديها المزودتين بأظافر طويلة للغاية، اصطناعية في الغالب، مصبوغة بلون أبيض. اتجهت على الفور إلى خزانة أدوات

التنظيف وتنقلت في صمت بين المطبخ والحمام بينما جلست إلى مكتبي أتصفح كتبي وأوراقي.

لمحت إعلان القطة الضائعة واستقرت نظراتي على فخذي صاحبتها ورقم التليفون. فكرت في الاتصال بها وقلبت الأمر في ذهني ثم صرفت النظر عنه.

أعلنت العجوز انتهاء عملها بعد ساعتين وانصرفت. وغادرت المسكن في أثرها. وجدت خطابات جيراني الثلاث مرة أخرى فوق صندوق البريد فأعدتها إلى الداخل.

مشيت إلى الجامعة في جو به برودة منعشة. مررت بعمال بناء انتحى كل منهم جانبا مع صندوق طعامه بينما اكتفى واحد منهم ذو ملامح أسيوية بتفاحة. وبدأت الحياة تدب في الشارع كلما اقتربت من "الكامبوس"، حرم الجامعة. فقد ظهر المشردون الذين يشحذون الفكة بصحبة كلابهم، والمعاقون في مقاعدهم المتحركة، وشبان بشعور طويلة معقودة خلف رؤوسهم على هيئة ذيل الحصان أو أمامها علي هيئة عرف الديك، أو ملونة بالألوان البنفسجية والخضراء ، أو مجثوثة من جذورها ، وفتيات بدرجات مختلفة من العري، في شورتات أو بنطلونات مرقعة أو أردية فضفاضة تقترب من الزي الإسلامي، يضعن خواتم و حلقان في الأنف والأذن وأحيانا الحاجب وتتغطي سواعدهن وظهورهن بالوشوم.

انبعثت روائح الأكل من المطاعم الصغيرة التي تمتلئ بالطلبة الجالسين قرب النوافذ يلتهمون أطباق السلاطة. وشممت رائحة زيت القلي المتكرر الاستخدام الذي عهدته في شوارع "القاهرة" أمام محلات "الطعمية".

أشرفت أخيرا على مباني الجامعة فألفيت في مدخلها منصة عالية جلس خلفها شابان أسودان وسط طبول معدنية ضخمة ومكبرات صوت كبيرة. ولجت المعهد خلف فتاة فارعة

في صندل خشبي وسروال من الجينز فوقه صديرية قصيرة أبرزت بطنا عارية.

ابتسمت لي السكرتيرة السوداء ابتسامتها المتكلفة وهي تدس يدها في كيس من الفطائر قائلة : هاو يو دوينج. ولجت الغرفة الصغيرة المجاورة وبحثت عن صندوق البريد الخاص بي. كانت صناديق الأساتذة المغلقة في جانب وفي الجانب الآخر كوات مفتوحة خصصت للمعيدين والمدرسين الشبان. ولم أجد في الصندوق الذي يحمل اسمي سوى بعض الإعلانات.

غادرت الغرفة وتمهلت أمام خزانة للمواد الكتابية التي تتاح مجانا للأساتذة. التقطت بضع مظاريف صفراء من نوع نادر الوجود في "مصر" ووضعتها في حقيبتي. ثم مضيت إلى "جيني" وحصلت منها على رقم القاعة التي سألقي بها درسي.

صعدت إلى الطابق الرابع وبحثت طويلا عن القاعة دون جدوى. ثم تبينت أن أرقام قاعات كل طابق تبدأ برقمه بينمايبدأ الرقم الذي أعطتنيه "جيني"بصفر. لم أشأ أن أعود إليها وهبطت إلى الطابق الأرضي لكنني لم أجد به قاعات تدريس . صعدت ونزلت عدة مرات إلى أن وجدت القاعة في الطابق الثالث أي تبدأ برقم ٣ لاصفر. وكانت بها فتاة بيضاء سمينة ذات وجه ملئ بالبثور، ترتدي أوفرولا بصلي اللون ، استقبلتني مرحبة قائلة بعربية ركيكة :

- أهلا وسهلا.

أبديت دهشتي من معرفتها للعربية فقالت إنها لا تعرف سوي بضع كلمات وإنها زارت "القاهرة" منذ عامين.

لم تكن القاعة كبيرة وقد حددتها مسز "شادويك" على

أساس عدد الطلبة الذين أدرجوا أسمائهم في حلقتي. كانت تضم طاولة خشبية نظيفة تحيط بها مقاعد مريحة مبطنة بالجلد، وتشرف عليها سبورة واسعة مزودة بأقلام فوسفورية. وضعت حقيبتي فوق الطاولة واقتربت من النافذة وجذبت ستارتها المعدنية. أطللت على ساحة انتشرت فيهاعدة موائد ومقاعد تابعة فيما يبدو لكافيتريا في المبنى المقابل. واستقرت عيناي على طالبة خلعت حذاءها ومددت ساقيها فوق مقعد معرضة كتفين عاريين لأشعة الشمس. كانت تقرأ في كتاب ثم تشرد قليلا وتهز فخذيها الممتلئين في رفق كأنما تدعك أحدهما بالآخر.

تتابع وفود طلابي. وأحصيت أحد عشر فردا التفوا أمامي حول الطاولة يتأملوني في توجس. كانوا ثلاثة شبان - أحدهم أحمر الشعر-وثماني فتيات بينهن واحدة سمراءغطت شعرها على الطريقة الإسلامية. وتنوعت ملامح الجميع بين صينية أويابانية وهندية أوأفريقية فضلا عن أوروبية.

لم أكن أقل منهم توجسا. وعلى رأس دواعي القلق كانت لغتي الإنجليزية. فلأني لقنتها في مدرسة حكومية لم أكن في طلاقة وسلامة النطق اللتين يتمتع بهما خريجوالمدارس الأجنبية أو الجامعة الأمريكية.

وزاد توجسي بعد أن قدمت نفسي اليهم وطلبت من كل منهم أن يكتب اسمه بالكامل وموضوع دراسته ظنا مني أنهم جميعا كما فهمت من طلبة الدراسات العليا والدكتوراه غافلا عن خصائص النظام التعليمي الأمريكي الذي يلزم الطالب الجامعي بأن تكون ثلث دراساته تقريبا في مواد خارج تخصصه كما تتيح له التحصيل في أي مستوى يعجبه. وهذا ما اتضح بعد لحظات عندما بدأت أقرأ الأوراق الصغيرة

التي قدموها إلي. فقد كان بينهم ثلاثة من طلاب المرحلة الأولى ومن أقسام لا علاقة لها بالتاريخ والباقون من طلاب الدراسات العليا. وبالتالي تعين على أن أتأرجح بين عدة مستويات في خطابي(×). كما كان بينهم طالبة تحمل اسماعربيا - هي التي لفت شعر رأسها بمايشبه الحجاب - قدرت أنها من بلدياتي.

استوقفتني واحدة ذكرت أن مجال اهتمامها هوالدراسات الجنسية. كانت تدعى "روزيتا" ويوحي لقبها بأصول إيطالية. وكانت متوسطة الطول ذات رقبة طويلة منتفخة قليلا ووجنتين جذابتين وشعر أسود ناعم وقصير.

كشفت العبارات القليلة التي تبادلتها معهم أن مخاوفي بشأن اللغة لا أساس لها. فقد كان كل واحد منهم يتكلم لهجة مختلفة عن الآخر.

استجمعت نفسي وقلت بصوت حاولت أن أبث فيه القوة إن حلقتنا قد تبدو غير مألوفة لأن موضوعها ليس حقبة معينة في التاريخ أو قضية من قضاياه الشائكة وانما الموضوع هو التاريخ الشخصي للمحاضر. وليس الأمر بالطبع سيرة ذاتية فهذه لا تهم أحداغير صاحبها. إنما الفكرة هي محاولة دراسة نشاط مؤرخ عربي معاصرقضى أكثر من

(×) لا تقتصر الصعوبة علي الجانب الخاص بي وانما تتجلى أيضا عند انتقاء الأبحاث التي سيكلفون بها خلال الحلقة الدراسية فالهدف من البحث عند الطالب في المرحلة الجامعية الأولي هو التدريب علي الطريقة الصحيحة له وعلي كيفية التفتيش عن المراجع والتعامل مع المكتبات فهو غير مطالب بأن يضيف جديدا لموضوع البحث كما أن المراجع التي يتعين عليه قراءتها لابد أن تكون محدودة، أما طلاب الدراسات العليا الذين يحضرون للماجستير أو الدكتوراه فهم مطالبون بقراءات معمقة واستكشاف لمناطق غير مطروقة.

ثلاثين سنة في المهنة وتتبع العوامل التي ساهمت في توجيهه إلى دراسة التاريخ واعتماده منهجا معينا في أبحاثه ثم محاولة تقويم هذا المنهج وتقدير نصيبه من النجاح والفشل. وأضفت أن هذا العرض سيستعين بمناهج عدة من علوم مختلفة كما سيتيح للطالب التعرف على عديد من القضايا التاريخية وخاصة المتعلقة بمصر والعالم العربي، ويدربه على البحث.

توقفت لحظة وجلت بنظراتي بينهم ثم استطردت قائلا إن كل طالب سيكون ملزما بأن يقدم عرضا شفويا لأحد الموضوعات المرتبطة بقضايا السيمنار. أما الأبحاث الختامية فستكون من عشر صفحات لطلاب المرحلة الجامعية و عشرين لطلاب الدراسات العليا.

استفسرت الطالبة ذات الملامح الصينية أو اليابانية عن "الريدر" أو المراجع التي يتعين عليهم قراءتها فقلت أني أحتفظ بها في الكومبيوتر الذي لم أتمكن من فتحه بسبب المقبس. وأمليت عليهم بعض المراجع الأساسية من الذاكرة وأضفت إليها كتاب "ألبرت حوراني" عن تاريخ الشعوب العربية ومؤلفات "اريك هاوبسباوم"(×).

كان أدائي سيئا وبلا حماس، وبدا الكلام ممجوجا، ووجدت نفسي أحيانا عاجزا عن تذكر ما قلته من ثوان. كنت مرهقا وجائعا وغير واثق من نفسي وزاد إحباطي عندما أعلنت طالبة ايرانية أنها لن تواصل معي لأن مواعيد دروسها الأساسية تتعارض مع مواعيد محاضراتي. كما انسحبت أخرى بيضاء طويلة القامة ذات وجه شاحب عصابي

(×) يعتبر أهم المورخين المعاصرين وهوبريطاني تجاوز الثمانين. اشتهر برباعيته التي بدأها في ١٩٦٢ ويتناول فيها تاريخ العالم منذ الثورة الفرنسية. يهاجم منذ ١٩٩٧ أصولية الاقتصاد الحر.

بشبه وجوه مدمني المخدرات. وبينما تقاطروا نحو الباب منصرفين اقتربت مني "روزيتا" الإيطالية وأعلنت أنها لم تحسم بعد أمرها بشأن الانتظام في الحلقة.

تطلعت إلى من خلف نظارة طبية أخفت ضيق عينيها بل وأعطتهما شيئا من الجاذبية. وبدت فيهما نظرة ماكرة وهي تقول : دراستي الأساسية تستغرق كل وقتي. لكنني في حاجة أيضا إلى درجات اضافية.

تخيلت انسحابهم واحدا بعد الآخر فقلت في تهور : تعالي وقتما تشائين وسأعطيك ما تحتاجين إليه من درجات.

حملت مشكلة الكومبيوتر إلى السكرتيرة الشقراء بعد انتهاء الدرس. كانت منحنية على شاشة الكومبيوتروظهرها لي. تبادلنا "هاي" دون أن تلتفت نحوي.

وقالت بعد أن شرحت لها مشكلة المقبس : ابحث في السوبر ماركت.

قلت : بحثت ولم أجد.

هزت كتفها وواصلت عملها دون أن تعبأ بي.

استدرت منصرفا فالتقيت بمسز "شادويك "مندفعة إلى مكتبها المجاور.

قالت : تبدو تعيسا.

شرحت لها مشكلة الكمبيوتر وتبعتها إلى داخل غرفتها.

قالت : المهاجرون الأوروبيون الأوائل أرادوا أن يجعلوا كل ما هو أمريكي مختلفا عن كل ماهو أوروبي. جعلوا التيار الكهربائي ١١٠ فولتابدلا من ٢٢٠ وضاعفوا سمك قضبان المقابس. هل لاحظت طريقتنا في كتابة التاريخ : العالم كله يبدأ باليوم فالشهر فالسنة إلا نحن : الشهر أولا ثم اليوم ثم السنة.

قلت : والحل ؟

قالت : هناك حانوت باكستاني في شارع "فولتون" عنده كل شئ.

وصفت لي كيف أجده فشكرتها واتجهت إلى المصعد. وجدت أمامه زحاما من الطلاب فهبطت الدرج. التقيت "ماهر" خارجا من مكتبه بالطابق الأول فدعاني إلى شرب القهوة.

قلت : بشرط أن تكون في الخارج.

استمهلني حتي يبلغ سكرتيرته ثم هبطنا سويا.

قال : كيف حال الدرس ؟

قلت : لا بأس. عندي طالبة تغطي رأسها.

قال : هذه مصرية. ولدت في مصر من أبوين مصريين.

كان "ماهرلبيب" مصريا من الجيل التالي لي مباشرة وقمت بالتدريس له عندما كنت معيدا في جامعة "القاهرة". وكان متفوقا في دراسته فتلقي منحة من جامعة "كولومبيا" ونال الدكتوراه بامتياز ثم رفض العودة واستقر في "أمريكا" وحصل على الجنسية الأمريكية وصار منذ سنتين مديرا لمركز الدراسات الذي استضافني. كان ممتلئ الجسم أنيقا على الطريقة الأمريكية الخادعة بالمظهر البسيط. وتكللت هامته بشعر مجعد انتشر به اللون الأبيض.

غادرنا المعهد ومضينا وسط المساحات الخضراء الواسعة التي تغطي أرض " الكامبوس". وجاءتنا أصوات لاعبي الكرة في الملاعب المنتشرة حولنا. كان الطلاب والطالبات يتحركون بنشاط بين الأبنية المتعددة والساحات الرياضية. وجلس بعضهم خلف موائد متجاورة عند المدخل تغطيها النشرات وزجاجات المياه وتعلوها لافتات كبيرة تعلن عن

عديد من الروابط والجماعات : أبناء الجاليات الأجنبية، والأقليات العرقية من لاتينية وهندية وأفروأمريكية وأسيوية، المعارضين للحرب النووية، المدافعين عن البيئة، أنصار الدولة الفلسطينية وأعدائها، دعاة السلطة الإسلامية، المدافعين عن الحقوق المدنية، المعارضين لأشكال التفرقة العنصرية، المطالبين بمأوى للمشردين والعاطلين، جماعات المثلية الجنسية، الخ.

لحظت أن "ماهر"يرمقني بطرف عينه مبتسما وأدركت أنه استشف ما جال بخاطري.

البوابة الرئيسية لجامعة "القاهرة" والمظاهر الأمنية المسلحة، إعلانات الأنشطة الطلابية الهامشية مثل الأسواق الخيرية والندوات التي يتصدرها عمداء عينتهم الحكومة، ومجلات الحائط بأفكارها الركيكة مثل لغتها، وجوه الطلبة والطالبات التي تعلوها شيخوخة مبكرة.

خرجنا إلي شارع "فولتون" ومضينا فيه شرقا في اتجاه وسط المدينة.توقفنا أمام مظاهرة صغيرة من عشرين شخصا رفعوا لافتات تدعو إلى مقاومة العداء للسامية ثم مررنا من أمام الحلقة التقليدية من المشردين الذين جلسوا إلى جوار الجدران أو افترشوا الأرض يقرأون مجلات الأطفال المصورة باستغراق وإلى جوارهم زجاجات من عصير البرتقال.

كان أحدهم كهلا يجلس خلف بسطة من العقود والسلاسل الملونة معريا صدرا عريضا نقشت عليه أسود ونمور وأمامه قطعة من الورق المقوي تحمل عبارة تستنكر العدوان الأمريكي على "السودان" و"أفغانستان" التي كتبها هكذا: "أفغيستان".

علق "ماهر" : نسيت أن أقول لك. "أمريكا" ضربت

"السودان" و"أفغانستان" بخمس وسبعين صاروخا من طراز "كروز".

– متى ؟

– منذ ساعات.

عثرنا على الحانوت الباكستاني بسهولة وكان صغير الحجم لكنه امتلأ بسلع كثيرة متنوعة. أحضر لي صاحبه التوصيلة المطلوبة وسألني عن البلد الذي جئت منه.

قال : سمعت أن المسلمين عندكم يقبض عليهم وتقص لهم ذقونهم وتمزق لهم ملابسهم ؟

قلت : وأنا أيضا سمعت هنا أن الأقباط عندنا يقتلو[illegible] ويجبرون على تغيير ديانتهم والدخول في الإسلام .

تطلع إلى بغير فهم ولم أشأ أن أوضح له بعد أن تقاضى مني أربعة دولارات في قطعة من البلاستيك ، صنعت في "الصين" ، تباع في "مصر" بأقل من عشرة سنتات.

علق "ماهر" ونحن نعبر الشارع عند التقاطع :

– المهاجرون يضطرون لاختلاق هذه القصص ليحصلوا على الإقامة. منذ شهور قبضت "إف بي آي" ، وكالة المباحث الأمريكية ، على محام مصري يقوم بتزوير أوراق رسمية تثبت تعرض أصحابها للاضطهاد الديني في "مصر". وقدر عدد هذه الحالات في السنوات الخمس الماضية ب ٧٠ ألف حالة.

وابتسم وهو يضيف : أعرف زوجة مصرية قبلت أن ينسب إليها أنها تعرضت للاغتصاب بعد أن وجدت أنها أسهل طريقة للبقاء في "الولايات المتحدة".

اتجهنا جنوبا وبدأ الطريق يصعد إلى مايشبه هضبة تحتلها منطقة سكنية. وولجنا مقهى على ناصية شارعين.

اقترح "ماهر" أن نجلس في الخارج فأخذنا قهوتينا من الكاونتر واخترنا مائدة إلى جوار سوداء فارعة مددت ساقيها فوق مقعد أمامها وأبرزت صدرا عفيا. تطلعت إلينا في ثبات دون أن تتحرك من مكانها. وجاءت جلستنا في مواجهة فتاة بيضاء طويلة ترتدي جوبة قصيرة للغاية مشقوقة من الجانب تجلس بجوار كهلة تلتهم كوبا كبيرا من الأيس كريم. كان وجه الفتاة عاديا ليس به ما يلفت بعكس ساقيها. كانتا ممتلئتين في غير ترهل ومنسابتين في تناسق، وقد لوحتهما الشمس. تابعتها ببصري عندما نهضت واقفة ومشت ببطء وقامة محنية قليلا وفي عينيها نظرة مسترخية شبه نعسانة حتي ولجت حانوتا مجاورا. عادت بعد قليل و في يدها علبة سجائر فاحتلت مقعدها دون أن تتطلع حولها أو تعبأ بخطر الكشف عن ملابسها الداخلية. وضعت ساقا فوق ساق ثم مدت يدها في لامبالاة ودون لهفة فعدلت طرف الجوبة القصيرة المشقوقة وهي تواصل الحديث مع الكهلة وتنتزع غلاف علبة السجائر. وقدرت عمرها بثمانية عشر عاما أو أكثر قليلا.

أهناك بعض الترهل في أعلى الفخذين أم ما زالا مشدودين ومتماسكين؟

انتزعني من خواطري متسائلا : أما زال التاريخ المقارن مرفوعا من الخدمة؟

كان يشير إلى أن برامج التدريس في الجامعات المصرية لا تتضمن هذه المادة.

قلت: أنت تعرف العقليات السائدة عندنا. لكننا نحاول دائما العثور على مخرج.

ابتسم ابتسامة ملتوية : كما فعلت انت. انظر ماذا حدث لك .

تذكرت المدرس الشاب الذي تلفن لي من شهرين قائلا إنه سيهاجر إلى "أمريكا" بعد دقائق ولن يعود إلى "مصر" مطلقا وإنه قرر أن يتصل بي قبل سفره ليشد من أزري.

مطار "نيويورك" والطابور الطويل الذي يدور بعدة لفات متعرجة يتحكم فيه عجوز صيني يتحدث الإنجليزية بطريقة غير مفهومة ويحرك يديه حركة عسكرية فيسرع الطامحون بالانصياع والوقوف في المكان الذي يحدده.

أصر "ماهر" علي نأت الجراح. سألني وهو يرتشف قهوته : وأخبار النهضة التكنولوجية؟

كان رئيس الجمهورية قد تحدث منذ أيام عن برنامج قومي شامل للنهضة كي تصبح "مصر" مجتمعا منتجا للتكنولوجيا.

بدا في أحسن حالاته وقد أثبت لنفسه مرة أخري أنه كان على حق عندما قرر عدم العودة. لم أعلق ولا عندما ذكر مقال رئيس محكمة أمن الدولة العليا في صحيفة "الأهرام" عن الشياطين الصغار وضرورة أن يبسمل الزوج ويستعيذ بالشيطان عندما يجامع زوجته وإلا دخل معه الشيطان وصار هو الأب الحقيقي لأولاده.

استفزه صمتي فقال : أتذكر الحكم الذي أصدرته احدي المحاكم سنة ١٩٨٤؟ أظنها كانت محكمة الجيزة للأحوال الشخصية. حكمت بتطليق إمرأة من زوجها بعد أن ثبت للمحكمة بشهادة الشهود أن الزوج قد تزوج من واحدة من بنات الجن وأنجب منها طفلين من الجان.

توقفت أمامنا امرأة بيضاء شابة وبدينة في ملابس رثة يتعلق ببنطلونها طفلان وبجوارها رجل في سنها على وجهه تعبير من الاستياء. تحدثت إليه في حدة وإلحاح إلى أن أعطاها بضع نقود معدنية أخذتها وولجت المقهي وطفلاها في أعقابها.

سألت : هل هي أمريكية؟ أقصد واسب (×)؟

قال : لا أظن. لم يعد بياض البشرة دليلا على الأصل. فهناك بيض من مهاجري رومانيا وكشمير والأرجنتين.

ضحك فجأة وسألني : هل حكيت لك عن ابن عمي؟

أجبت بالنفي.

- ظل يلح ليأتي في زيارة. وجاء من "أسيوط" مباشرة. طفت به المدينة ورأى السمر والصفر والسود والخضر وفي اليوم الثالث سألني حائرا: ابن عمي، أمال فين الأمريكان؟

استفسرت عن زوجته. قال إنها غير راضية عن عملها في شركة محاسبة وتحن للعودة و"تزن" طول الوقت. وأضاف في حسد، مشيرا إلى تمسكي بالعزوبية: أنت أفلت بجلدك.

تابعت رجلا أربعينيا ذا بشرة بنية يرتدي بلوزة بلا أكمام تكشف عضلاته ويدفع أمامه جرارا صغيرا يحمل بطانية وكيس نوم طويا في عناية. أسند الجرار في هدوء إلى جدار المقهى ثم دخل واتجه إلى دورة المياه. وتطلع "ماهر" خلفي فجأة واستحثني قائلا : انظر.

وقبل أن أدير رأسي اقتربت منا فتاة شقراء ترتدي عوينات طبية عريضة. تطلعت إلى "ماهر" مبتسمة فبادلها الابتسام. ظننتها إحدى طالباته إلى أن قال وهو يتحسس شاربه المحفوف في عناية : أوه ماي جود، يا إلهي !

تابعتها من الخلف حتى اختفت داخل المقهى. كانت ترتدي فستانا خفيفا مشجرا يصل إلى منتصف فخذين أبيضين متناسقين وحذاء مفتوحا بكعبين عاليين. وظهرت بعد قليل تحمل كوبا من القهوة في يد وسيجارة في اليد

(×) الأنجلو ساكسون البروتستانت، سلالة المستوطنين الأوروبيين الأوائل.

الأخرى وما زالت تبتسم. مرت بجوارنا على مهل وتجاوزت المقهى ثم توقفت أمام صندوق آلي للنقود فوضعت به كارتا وانحنت تتفحص شيئا ما فانسحب ثوبها حتى أعلى فخذيها وتبدت استدارتهما رائعة أقرب إلى تمثال من المرمر ثم اعتدلت واقفة وواصلت طريقها في بطء وهي تتأود في حسية.

شعرت أن العرض موجه إلينا فقلت بغير حماس: ما رأيك في أن ندعوها للجلوس معنا.

التمعت عيناه ومسح بيده علي شعر رأسه كأنما يسويه.

كان الأسمر قد عاد إلى مائدته وجلس يحتسي القهوة وهو يتأمل الشارع في جمود.

قال: لا بد أنها "كول جيرل"، مومس، وابتسمت لنا لأننا كهول ونبدو أساتذة وبالتالي نستطيع ان ندفع ٥٠٠ دولار مثلا.

قلت : يا شيخ ، لعلها طالبة.

ضحك : وإيه يعني ؟ السنة الماضية اكتشفوا في "هارفارد" حلقة دعارة من الطالبات. تأخذ الواحدة في اللقاء الواحد ٣٠٠ دولار.

– يعني لو اشتغلت ساعة كل يوم تحصل على أكثر من راتبي.

أضفت بعد لحظة : كيف حالك مع الطالبات ؟

قال : حذار أن تقترب منهن وإلا وجدت نفسك متهما بالتحرش الجنسي. إحدى طالباتي رسبت فقالت لأمها إني انتقمت منها لأنها لم تستسلم لمداعباتي. وكانت فضيحة ولم ينقذني إلا سجلي النقي ثم انهيار الفتاة واعترافها بالكذب.

ثم أضاف : عندك خدمات "الاسكورت"، المرافقة، إذا

احتجت. تجد إعلاناتها في الصحف وتشمل الساونا والمساج والزيارة في المنزل. وتحت هذا الستار يمارس البغاء المحرم قانونا.

سألته عما اذا كان سعيدا بحياته في "أمريكا" . تحدث بحماس عن الكتب وامكانيات البحث العلمي والمؤتمرات العديدة. ومرت بنا سيارة شرطة وهي تطلق عويلها الكئيب فنهض واقفا وهو يقول : الدنيا بردت .

غادرنا المقهي ولمحت حانوتا لبيع الصحف والسجائر فاشتريت "نيويورك تايمز". وأصر على توصيلي إلى منزلي بسيارته. مضينا إلى مبنى انتظار السيارات الخاص بالجامعة. أقلنا المصعد إلى الطابق الرابع وتبعته إلى سيارة "شيفروليه" حديثة الطراز ذات لون رمادي معدني. وقف يتأملها في اعتزاز ثم دارحولها يتفحص جوانبها ليتأكد من سلامتها. ثم فتح باباها بجهاز الرموت.

ركب على مهل وتبعته. وقاد السيارة باستمتاع حتى منزلي. دعوته للدخول فاعتذر وانصرف.

جربت التوصيلة بمجرد دخولي فتمكنت من فتح الجهاز واستعراض الصفحات التي سجلت فيها ملاحظاتي على المراجع والنقاط التي سأتناولها. ونقلتها على الفور إلى قرص فارغ.

أودعت دجاجة صغيرة في الفرن وجلست أتفرج على حلقة من برنامج عن "الإسكندر" الأكبر تلاها فيلم بوليسي. وكنت في منتصف مطاردة حامية عندما دوى جرس إنذارحاد. ظننته من أحداث الفيلم ثم تبينت أنه صادر عن جهاز مثبت في مدخل الغرفة، فانتفضت واقفا. شممت رائحة سخونة وهرعت إلى المطبخ فوجدت دخاناينبعث من الفرن. أطفأته وفتحت بابه لكن رنين الجرس استمر مدة ثم

توقف وعاد بعد لحظات. توقعت أن تحدث ضجة في الشارع ويهرع إليّ الجيران لكن شيئا من هذا لم يقع.

تلفنت ل"فيتز" فضحك وقال :ها أنت تعرفت علي "أمريكا". إنه إنذار حريق.

قلت : كان هناك دخان من الفرن وقد أطفأته. لكن الجرس مستمرفي الرنين والدجاجة لم تنضج بعد.

قال إن على أن أفعل مثل الأمريكان فأغطي فتحات جهاز الإنذار بمنشفة كي لايتسرب الدخان إليه.

وضعت منشفتين فوق الجهاز فتوقف الرنين. أشعلت الفرن وجلست بالقرب منه أتصفح الجريدة. تجاهلت أخبار "كلينتون" التي أصبحت مملة. وقرأت قصة استقالة صحفي معروف نشر خلال ربع قرن أكثر من ٤٠٠٠ عمود في صحيفة " بوسطون جلوب" (التي تملكها شركة "نيويورك تايمز"). وجاءت استقالته بناء على طلب مديرالصحيفة بعد أن اختلق قصة عن وفاة طفلين، أحدهما أسود والآخر أبيض ، بالسرطان. وامتلأت قصته الوهمية بتفاصيل الصداقة التي نشأت بين الطفلين أثناء وجودهمابالمستشفي ، والمحنة التي تعرض لها والد الصبي الأسود عند ما فصلته الشركة التي يعمل بها، وكيف تلقت زوجته شيكا بعشرة آلاف دولار من الأسرة البيضاء فدمعت عيناها وتطلعت إلى السماء وعند ذلك سمعت ابنها يغني أما الأب فقال إن هناك حقا إله!!

وقالت "التايمز" إن نفس الصحيفة فقدت في تسع أسابيع إثنين من أشهر محرري العواميد بعد اتهامهما باختلاق الأخبار والموضوعات. وأشارت إلى حالات مماثلة في مجلة أسبوعية وقناة تليفزيونية.

أكلت جزءا من الدجاجة ووضعت الباقي في البراد. وفتحت الكومبيوتر من جديد وراجعت مذكراتي. عملت لمدة

ساعة ثم أغلقت الجهازوعدت إلى التليفزيون. تابعت في غيرتركيز تحقيقا عن تعرض فتيات صغيرات في الحادية عشر من العمرللاغتصاب. وما يحدث عندما يحملن واضطرارهن إلى الزواج ثم هروب الزوج. وانتقل المذيع إلى منطقة في "لوس انجلوس" تسكن بها أقليات من "أمريكا" اللاتنينية في ظروف شاقة. ففي حجرة واحدة يعيش الأب والأم وابنتهما وعمها. وظهرت طفلة في العاشرة من عمرها أشارت إلى فراشها الذي يعلو فراش عمها ثم إلى خزانة الملابس قائلة : هذا الجزء لعمي وهذالي وهذا لماما. وقالت إنها حضرت مصرع أبيها وترجت قاتليه ألا يؤذونه. وقالت الأم إن المنطقة كانت آمنة إلى أن تزايد عدد المهاجرين غير الشرعيين فتعذر الخروج ليلا أو النزهة. ثم أعطى المذيع الكلمة لأمريكي أبيض وجه حديثه للأم وابنتها قائلا : من حقي أن أعيش في منطقة نظيفة آمنة وأنتم تلوثون الشوارع.

أخذت حبة منومة لكنني استيقظت في الفجر. وظللت مستلقيا أنصت لعويل الرياح القوية القادمة من المحيط.

** ٤

افتتحت درسي الأول بمفارقة طريفة وهي لأنني بدأت حياتي بتمزيق كتب التاريخ. فقبل أن أتعلم القراءة أوالكتابة كنت أتلهى بتمزيق ما تصل إليه يدي من كتب أو مجلات و تسويد صفحاتها بشخبطات من القلم الرصاص. وكان أغلب هذه الكتب - كما تبينت فيمابعد - يتناول موضوعات تاريخية : "مصطفي كمال أتاتورك "باني تركيا الحديثة ، جنرال مايدعي "سمطس"، كتاب عن استكشاف منابع "النيل" ، كتاب "فتحي زغلول" عن الانجليز في بلادهم ،

بعض مجلدات تاريخ الحركة الوطنية ل"عبد الرحمن الرافعي"، "يوميات الجبرتي" وكتب الأمير "عمر طوسون" الفاخرة عن تاريخ الجيش المصري والحافلة بالصور الملونة.

ولا أذكر متى حاولت قراءة هذه الكتب وربما لم أفعل. لكني أذكر جيدا الليلة التي عاد فيها أبي من الخارج حاملا عددا من "روايات الجيب" (×) السميكة في ربطة كبيرة وشجعني على قراءتها. كنت وقتها في حوالي التاسعة أو العاشرة. هكذا تعرفت على "البؤساء"، و"سلمي" و"اليهودي التائه"، و"الفرسان الثلاثة"، و"باردليان" ثم "سكاراموش" و"الكابتن بلود" و"كاترين دي مدسيس" و"مدام سان جين".

ثم بدأ قريب لنا من المجندين في حرب "فلسطين" يحمل إلينا ما تيسر من مواد الترفيه التي كان الجيش يوزعها على رجاله: الشكولاتة والألبان المحفوظة وجبن "كرافت" والسجائر الأمريكية ومجموعة متنوعة من الكتب التي تبرعت بها دور النشر لصالح المجهود الحربي، من الدواوين الشعرية إلى قصة حياة المسيح. هذا إلي جانب مطبوعات الجيش نفسه عن التاريخ العسكري أو بطولات الجيش المصري ومنها كتاب لا زلت أذكر غلافه ورسومه عن المعارك التي شارك فيها الجيش منذ عصر "محمد علي". صففت هذه الكتب فوق جزء بارز من الحائط المجاور لفراشي وأصبحت لي مكتبة خاصة.

لكن مكان الصدارة في هذه المكتبة احتلته روايات

(×) مجلة اسبوعية في حجم الكتاب بدأ صدورها في العشرينيات بواسطة صحفي شهير ومترجم قدير هو "عمر عبد العزيز أمين". وشاركه نخبة من أقدر المترجمين على رأسهم "شفيق أسعد فريد"، "صادق راشد"، "محمد بدر الدين خليل"، "محمود مسعود"، كانوا ينتقون أشهر الأعمال الأدبية العالمية من مختلف النوعيات، تاريخية وبوليسية واجتماعية، ويترجمونها بلغة عصرية سلسة. وظلت أعدادها القديمة متداولة في السوق مدة طويلة بأسعار تتزايد عاما بعد عام.

"رفائيل ساباتيني" (×) التي خلبت لبي تماما وكانت مصدر متعة لا تبارى ولعلها كانت أيضا وسيلة هروب من الزلازل التي تعرضت لها في طفولتي. وما زال قلبي يدق عندما أرى اسمه أو إحدى رواياته التي قرأتها عديدا من المرات ولا أمل البحث عنها واقتناء طبعاتها ولا أتردد في معاودة قراءتها الآن في لغتها الأصلية.

أغرم "ساباتيني" بالشخصيات التاريخية البارزة من ملوك وأمراء وقراصنة، وبمؤامرات القصور ووقائع الثورات. وتنوعت موضوعاته من صراعات الدوقيات الصغيرة التي كانت تتألف منها "إيطاليا" في عهد أسرة "بورجيا" الشهيرة، وحريق "لندن" الشهير والطاعون الذي أصابها في ١٣٤٨م، ومذابح البروتستانت والكاثوليك، إلى صعود "فريدريك الأكبر"، ملك بروسيا، والثورة الفرنسية ومصير "لويس السابع عشر"، وحملة "نابليون" الفاشلة في "أسبانيا" و"البرتغال"، ومعارك القراصنة.

وكانت له استراتيجية واحدة لا تتغير إلا نادرا: فهناك عقدة أساسية عبارة عن تعلق بطل في ظروف صعبة (متهم ظلما في ثورة أو من أصل عريق لكن الدهر جنى عليه كأن يكون ابنا غير شرعي لأحد النبلاء أو فقدت أسرته ثروتها في أحد الانقلابات) وهو في أغلب الأحيان يتميز بالشجاعة والبراعة في استخدام السيف وبالدهاء وبشيء من المرارة.

(×) كاتب انجليزي من أم انجليزية وأب ايطالي، (١٨٧٥-١٩٥٠). ولد في "إيطاليا" وتعلم في "البرتغال" ثم "سويسرا" وأجاد خمس لغات. ثم أضاف إليها الإنجليزية وأجادها وكتب بها رواياته التاريخية الرومانسية. وتميز بغزارة الإنتاج حتى أنه كان ينشر رواية كل عام. سجلت زوجته على قبره هذه الكلمات: "ولد بموهبة الضحك وبإحساس أن العالم مجنون". كتب أيضا عدة مؤلفات تاريخية غير روائية منها واحد عن حياة "سيزار بورجيا" وآخر عن محاكم التفتيش.

ويقع في غرام إحدى النبيلات التي تتميز بالجمال والعفة والكبرياء وتبادله العاطفة ثم يقع سوء تفاهم نتيجة مؤامرة من نبيل شرير أوتدخل غير مفهوم من الأقدار. وفي أحيان كثيرة يتعفف البطل الذي يدرك أبعاد المؤامرة أو الحدث القدري عن إيضاح الأمر لمحبوبته إذ تحول كبرياؤه دون ذلك فتحدث قطيعة بينهما. وفي النهاية تكشتف المحبوبة الحقيقة -بعد صدام على شكل مبارزة عنيفة تنتهي بموت الشرير- فتلوم نفسها وترتمي في أحضان حبيبها طالبة المغفرة.

كان هناك كتاب كثيرون على شاكلة "ساباتيني" جربوا الرواية الرومانسية التاريخية مثل "ألكسندر دوماس" الأب مؤلف رواية "الفرسان الثلاثة" الشهيرة، و"البارونة أوركزي" التي ابتدعت شخصية "الزهرة القرمزية" وهو نبيل انجليزي يبدو في الظاهر شخصا خاملا بليدا بينما هو في الواقع قد نذرنفسه لانقاذ أقرانه النبلاء الفرنسيين من مقصلة "الرعاع"، كما وصفت الجماهير الفرنسية الثائرة في الغالبية العظمى من هذه الروايات. لكن "ساباتيني" ظل بلا منازع - بالنسبة لي على الأقل -سيد كل هؤلاء الكتاب. وإليه يعود الفضل في التغلب على لحظات الملل في طفولة خالية من كل بهجة.

ومن الطبيعي أني وجدت طريقي إلى مكتبة المدرسة حيث تعرفت على روايات "جورجي زيدان" (×) عن تاريخ

(×) عميد الرواية التاريخية الكلاسيكية العربية(١٨٦١-١٩١٤). ولد في "بيروت" وانتقل إلى "القاهرة" في ١٨٨٣ للدراسة وبعد عام عين مترجما في مكتب المخابرات البريطانية ورافق الحملة الإنجليزية التي توجهت إلى "السودان" لقمع الثورة المهدية. ثم عاد إلى "بيروت" وانضم إلى المجمع العلمي الشرقي وتعلم اللغتين العبرية والسريانية. وعاد من جديد إلى "القاهرة" واستقر بها مدرسا وصحفيا. وضع مجلدين عن تاريخ الحضارة الإسلامية والآداب العربية وسلسلة من الروايات عن تاريخ الإسلام منذ عصر الخلفاء الراشدين حتي سقوط الإمبراطورية العثمانية. وفي ١٨٩٢ أنشأ مجلة "الهلال" التي تحولت إلى مؤسسة صحفية ضخمة وانتقلت إلى ورثته حتي شملتها التأميمات الناصرية الشهيرة في ١٩٦١.

الاسلام. وكانت الرواية الأولى التي قرأتها وخلبت لبي هي "عروس فرغانة" وتلتها رواية "صلاح الدين ومكائد الحشاشين". ودفعتني هذه الروايات إلى كتب التاريخ وأذكر منها واحدا عن نشأة "الولايات المتحدة" والسفينة الأولي للمهاجرين الأوروبيين الأوائل- من ضحايا القمع الديني ونزلاء السجون والمجرمين - الذين استوطنوا الشاطئ الأمريكي.

لم يكن مؤلفوالروايات أو مترجموها علي الأقل بذكر السنة التي تدور فيها الأحداث. وكنت في مرحلة من العمر يختلط فيها الواقع بالخيال، عاجزا عن التمييز بين ما هو روائي وماهو تاريخي. واليوم بعد أن قضيت عمري كله في الدراسات التاريخية لا أظنني كنت بعيدا عن الصواب. المهم أني قمت دون أن أدري بأول بحث تاريخي في حياتي مستعينا بقاموس "لاروس" الفرنسي الضخم وبمساعدة أبي الذي كان يلم بشئ من الفرنسية. فأعددت قائمة بالتواريخ الدقيقة للأحداث "التاريخية" الخاصة بالثورة الفرنسية مقارنة بما ورد في روايات "ساباتيني" وغيره من الكتاب الذين تعرضوا لهذا الموضوع.

لكن هذه الروايات أثارت في رأسي الصغير قضية أخرى أهم هى ما يعرف اليوم في الدراسات التاريخية بمشكلة المنهج.

توقفت عند هذه النقطة وفتحت باب المناقشة. ودارت أغلبها حول طفولتي وحول قراءات الطفولة لدى طلابي. لم يكن أحد منهم قد سمع عن "ساباتيني" أو "جورجي زيدان"، فجل قراءاتهم كانت تنتمي إلى عصر الصورة. ومع ذلك خالجني الشعور الذي يعرفه كل محاضر أو مدرس، وتتمثل فيه مكافأته الأساسية، عندما ينجح في التواصل مع طلابه.

ورافقني الشعور في طريقي إلى مكتبي بعد المحاضرة. ولعلي كنت منتشيا به فلم أجد ما يبعث على التساؤل عندما مررت بغرفة البريد ووجدت زنبقة حمراء في صندوقي.

اصطدمت بمسز "شادويك" عندما غادرت الغرفة الصغيرة. كانت قد جمعت شعرها الرمادي القصيروشبكته خلف رأسها. تطلعت إلى الزنبقة في يدي دون أن تبدو عليها الدهشة فقدمتها إليها. تورد وجهها قليلا وشكرتني.

قالت: عندك مشكلة.

قلت: واحدة فقط ؟

قالت ضاحكة: حتى الآن على الأقل. ستنضم إليك أستاذة زائرة في غرفتك .

قلت: وهذه مشكلة ؟

قالت: سنرى.

وجدت"جيني" خلف مكتبها وأمامها زهرية صغيرة بها زنبقتان. كان ثمة مكان فارغ يستوعب واحدةثالثة. وداعبني الأمل أن تكون هي التي تركتهالي.

قلت : هذه الزهور جميلة.

قالت :"فيتز" هو الذي أحضرها.

- "فيتز" من ؟

- صاحبك . وكيل مالك المنزل.

- أهوالآخر أستاذ؟

- فيتز؟ مستحيل. إنه موظف في إدارة المعهد وهوايته البستنة.

أعطيتها القرص الذي سجلت عليه ما أحتاج إليه من محتويات كمبيوتري. وطلبت منها طباعته فوضعته على الفور في جهازها وأعدت الطابعة للعمل. لكن الجهازلم يتمكن من فتح القرص. كان من نوع "الماكنتوش" مثل جهازي لكن

برنامج اللغة العربية به كان مختلفا. وقالت إن البرنامج الذي أستخدمه غير متوفر لديها.

قلت : سآتي لك غدا بنسخة منه.

هزت رأسها : جربنا ذلك من قبل فلم يقبله الجهاز.

قلت : اعطيني إذن نسخة من برنامجك.

ضحكت في استمتاع : سيقبله جهازك لكنك لن تتمكن من النقل إليه.

قلت :والعمل؟

قالت : لا أعرف. ووجهت اهتمامها إلى ملف فوق مكتبها.

حملت مشكلتي إلى "ماهر". كانت غرفة مكتبه واسعة امتلأت جدرانها بخزائن الكتب وتوسطتها مائدة مستطيلة حولها تسعة مقاعد تلتها مساحة تكاد تكون منفصلة تتألف من ركن لكمبيوترحديث الطراز وبجانبه ماسح ضوئي وطابعة. واستقر هو في الركن الثاني خلف مكتب كبير الحجم من المعدن امتلأ سطحه بالأوراق والمجلدات وجهاز للتليفون وآخرللفاكس. وكان رأسه مختفيا خلف صحيفة "الأوبزرفر" الإنجليزية.

جلست أمامه فأزاح الصحيفة جانبا وتطلع إلى من فوق نظارة قراءة ثبتتها سلسلة ذهبية إلي أنفه.

قال : اسمع ما يقوله الإنجليز ... المخابرات الأمريكية سبق وأكدت ل"كلينتون" أن المصنع الذي أمر بقصفه في السودان ينتج الأدوية ولا شأن له بغازات الأعصاب كما ادعى.

أمسك بسيجار شديد الطول وانتظرت في ترقب أن يشعله متمردا على الحظرالمفروض على التدخين داخل المبنى. لكنه خيب أملي ودق بالسيجار على الصحيفة قائلا :

– أما الحكومة البريطانية فهي مضطربة بسبب مسارعة "بلير" إلى تأييد القصف بينما سبق أن قام اثنان من الوزراء البريطانيين بزيارة نفس المصنع برفقة خبير أدوية وأكدا طبيعته السلمية.

ترك السيجار وخلع نظارته وهو يضيف في استهجان: لم تشر أي جريدة أمريكية إلى كل ذلك.

عرضت عليه مشكلة القرص فاستدعى سكرتيرته بالديكتافون. أقبلت علينا فتاة بدينة ذات ملامح لاتينية. قالت وهي تزيل فتات طعام من ركن فمها إن مشكلتي لا حل لها.

علق "ماهر": من فات قديمه تاه. ترجع إلى القلم والورقة.

وتناول ملفا من فوق مكتبه مستطردا: أنا أنوي تنظيم مؤتمر عالمي ضخم في نهاية السنة وأريدك أن تشارك فيه بورقة.

قلت: وموضوعه؟

رفع النظارة إلى عينيه و قرأ من غلاف الملف: المشهد الثقافي العربي عشية القرن الواحد والعشرين.

قلت: وهل هناك فارق بين بداية القرن ونهايته؟

مال بجسمه فوق المكتب وخلع نظارته ودق بحافتها علي سطحه قائلا: إذن قل هذا.

قلت: المؤتمرات أصبحت مملة. ثم أن إعداد الدروس يستهلك كل وقتي.

– هذا مؤتمر مختلف والأمير "جاسم" مهتم به شخصيا.

– آه. كنت أريد أن أسألك عنه.

– ليس هناك شئ غير عادي. هو من العائلة المالكة

وغني جدا. هل تعرف أنه بنى في سن الخامسة والعشرين قصرا في "الرياض" كلفه ٣٠٠ مليون دولار؟ ثم حصل على عمولة قدرها مليار دولار عن عقد تليفون المملكة مع شركة التليفون والتلغراف الأمريكية.

أطلقت صفارة من فمي: وما علاقته اذن بالثقافة؟

دعك أنفه باصبعه وقال: الرجل واسع المعرفة. ثم أنه يقبل التعددية وحرية التعبير. وهو الذي أسس هذا المركز بعشرين مليون دولارندفع منها راتبك. وهو الذي سيدفع لك لو أردت أن تبقى عندنا مدة أخرى.

كانت إشارة مفحمة فلزمت الصمت. وتجاوزته ببصري إلى النافذة وما ظهرخلفها من مبان وسط المدينة والهرم الرفيع المدبب فوق أحدها.

تناول ملفا وقدمه إلى قائلا:

– الأبحاث محدودة وقد كلفنابها عددا من المثقفين. أريد رأيك فيها أولا.

أخذت الملف وقلبت بين صفحاته: توقفت عند إحداها قائلا: هذه ورقة عن الشعر وأنا لا أفهم في الأدب.

– اقرأها إذن لتتثقف. اسمع. سندعو حوالي مائة من خيرة المثقفين العرب. سيتاح لهم أن يعبروا عن أنفسهم دون أي رقابة. وسنضع استراتيجية ثقافية واضحة للقرن القادم. الق نظرة على هذه الأسماء.

وجدت فعلا حشدا من الأسماء المعروفة وإن كان أغلبهم من المقيمين في "الولايات المتحدة". قلت: القائمة تنقصها أسماء كثيرة.

نهض واقفا وسار حتي النافذة وهو يقول: لا يمكننا أن ندعو كل إنسان. وهناك من اعتذر بسبب ارتباطاته.

حملت الملف في يدي وانصرفت إلى غرفتي. وضعته فوق المكتب ثم مضيت إلى المطبخ. وجدت إناء القهوة ساخنا فتناولت كوبا من خزانة وملأته. أضفت ملعقة من السكر. وسجلت في ورقة معلقة في الحائط اسمي ونوع المشروب الذي تناولته. وحملت الكوب إلى مكتبي.

تصفحت الملف ثم قرأت مقدمته في عناية. كانت من إعداد "ماهر" بالاشتراك مع مفكر فلسطيني معروف هو "نادر البرديسي". وكانت مركزة للغاية في أقل من صفحتين وبدأت بتشخيص اللحظة الراهنة في العالم العربي وكيف أنه يتعرض لخطر فقدان الهوية.

وحددت المقدمة طبيعة الحصار المزدوج الذي تعانيه الشعوب العربية بين ضمور الإبداعية من جانب والتبعية المتزايدة من جانب آخر. وأكدت أنه لا سيادة حقيقية ولا استقلال حقيقي بدون القدرة على إنتاج ما يحميهما: المعرفة العلمية والإنتاج الفني والثقافي، فضلا عن التحكم بالشروط الطبيعية والاجتماعية.

غمغمت: حتى هنا لا بأس. وأغلقت الملف ووضعته في حقيبتي.

* * ٥

عملت صباح الأحد في نقل النقاط التي أعددتها لمحاضراتي من القرص إلى الورق. وانتهزت الفرصة لترجمة بعضها إلى الإنجليزية. وقرب الظهر سطعت الشمس بقوة فأغلقت الكمبيوتر وحملت ملف المؤتمر إلى الحديقة وجلست فوق الأريكة الحديدية.

كانت نوافذ جيراني مسدلة كالعادة وقدرت أنهم إما لم يفيقوا بعد من النوم أو يقضون عطلة نهاية الأسبوع خارج المدينة.

استمتعت برهة بالهدوء الشامل ثم تصاعدت أصوات مرحة من حديقة المنزل الملاصق. وتردد من بعيد عويل سيارات الشرطة أو الاسعاف.

ظهر "فيتز" مقتربا في الممر الجانبي. وجه إلى التحية التقليدية وظننته قادما من أجل الإيجار الجديد فقلت له إن الجامعة لم تحول راتبي بعد إلى البنك.

قال: لا تقلق. أنا آتي دائما يوم الأحد من أجل الحديقة.

فتح باب كوخ خشبي صغير في طرفها واستخرج خرطوم الماء وأوصله بالحنفية. قال وهو يرش الماء بعيدا عني:

-عندي شكوى من جيرانك. يقولون إن دخان سجائرك يتسرب إلى مسكنهم دائما في الواحدة بعد منتصف الليل.

قلت: أنا أدخن هنا في الحديقة. ثم أني أنام دائما قبل منتصف الليل.

أشاح بيده مهونا: لا تهتم. أنا اقترحت عليهم أن يناموا مبكرين.

ضحك ثم أضاف : الكاليفورنيون هكذا دائما. يحبون الفذلكة. ويغالون في الحرص على صحتهم فيمنعون التدخين وحرق أى شئ خارج المنازل ويشربون البيرة من غير كحول. لا تنسى أني واحد منهم.

قلت مجاريا: كاليفورني أصيل؟

قال : ولدت ونشأت هنا. جدي جاء من "أيرلندا" بحثا عن الذهب فاستوطن وتزوج مكسيكية.

استأذنته لأرد على تليفون من "ماهر" ثم انهمكت في ري أصص النباتات الداخلية الموزعة بين الصالة والسولاريوم وقواعد النوافذ. وجمعت الصحف القديمة ووضعتها بجوار الباب لأتخلص منها. ولفت نظري خبر لم أنتبه له من قبل عن طفل أغمى عليه في مدرسة ب"القاهرة" واتضح أنه يتناوب وجبة الإفطار مع اخوته يوما بعد يوم. انتظرت إلى أن انصرف "فيتز" فأغلقت مصراع المخدع وحملت شرائط الفيديو وغادرت المنزل.

وجدت شارعي يشغي بالنشاط على غير العادة. واكتشفت أن سكانه يعرضون حاجياتهم الفائضة للبيع أمام منازلهم ويجلسون خلفها في ملابس خفيفة وشورتات يتسامرون في انتظار المشترين وهم يحتسون النبيذ.

أعدت الأفلام إلى حانوت الشرائط وانتقيت فيلم " سحر البورجوازية الخفي" ل"بونويل"، و"كرامر ضد كرامر" وثالثا من النوع الإيروتيكي عن علاقة بين امرأتين. وعند عودتي وجدت جيران الشارع يتناولون الطعام بجانب حاجياتهم.

مر عليّ "ماهر"بعد الظهرفركبت إلى جواره. تحسس المقود برفق وانطلق بنعومة وسرعان ما تركنا منطقتي

الهادئة واقتربنا من مركز المدينة عبر شوارع متدرجة في الصعود والهبوط. مررنا بمتجر "ميسي" الشهير الذي يحتل ربعا كاملا من الأبنية ثم "مدينة نايك" للملابس والأجهزة الرياضية. وكان "ماهر" يتحدث طول الوقت عن المؤامرات التي تحاك ضده من جانب أساتذة المعهد بسبب استقامته وكونه عربيا.

قلت : لكنك لا تمارس أى نشاط سياسي. ثم إنك أمريكي في نظر القانون.

هز رأسه: ولو. العرق الأصلي هنا مهم. هناك ٣٠ عرقا رئيسيا مرتبين هرميا: الوظائف الأعلى للبيض يليهم السود ثم الهسبانيك ، أبناء أمريكااللاتينية، فالأسيويون وبقية الأعراق وكل منهم يتعالى على الذي بعده ويعتبره غريما ينازعه الوظائف الدونية. وداخل كل عرق ترتيبات أيضا فالشيكانو ذوي الأصل المكسيكي يتعالون على الوافدين حديثا من "المكسيك". وهناك أيضا الأنماط الجاهزة: فالأسود مجرم ومغتصب والميكسيكي تاجر مخدرات والعربي إرهابي.

مرت بنا عربة ترام وحيدة تسير ببطء ورأيت راكبايلحق بها جريا. أبطأ "ماهر" السيارة وقد وجد فرصة للشرح.

هكذا اكتشفت أني أمام آخر ما تبقى من نظام فريد لترام يسير بغير محركات بل تجره بكرات تحت الأرض من خلال فتحات في الشارع. وهذه البكرات بدورها تديرها محركات ثابتة في جاراج مركزي. وتسيرالعربة عندما يجذب السائق ذراعا تدفع كلابة داخل الفتحة إلى أن تمسك بالكابل.

قال: لا تظن أنها عملية سهلة. فمهارة السائق تتجلى

واصل الضحك: السكان هنا من المحامين ومديري الشركات، ولهذا فصغارهم في كل مكان عدا الشارع: يتلقون دروسا في ركوب الجياد أو الكاراتيه أو ينسفون الشياطين فوق شاشات الكمبيوتر.

انتقلنا إلى حي أقل فخامة يتألف من بيوت صغيرة وشوارع فسيحة. توقفنا أمام منزل حديث وأنيق ذي حديقة صغيرة مشذبة غير مسورة. قدمت الزهور إلى زوجته "فتحية" التي رأيتها مرة واحدة قبل عشرين عاما. كان النصف الأسفل من جسمها مترهلا وعلى وجهها مسحة من الحزن رغم عنايتها بتصفيف شعرها.

كان البيت مؤلفا من ثلاث مستويات ونوافذ عديدة في السقف تغمره بالضوء طول الوقت. وقال "ماهر" في زهو إنه الذي وضع تصميمه وساهم في دهان جدرانه.

سألته عن عمر البناء فقال: الشهر الماضي احتفلنا بمرور عام عليه.

قلت: أي بعد عام من إنشاء مركز الأمير "جاسم".

تجاهل تعليقي وجلسنا في الصالة أمام جهاز تليفزيون ضخم الحجم، مفتوح على قناة "إم بي سي" السعودية. كان المطبخ في نهاية الصالة لايفصله عنها حاجز، وبجواره غرفة المكتب. وزينت الجدران بملصقات سياحية لأبي الهول وبرج "القاهرة". سألت عن الولدين فاعتذرت زوجته بأنهما فضلا قضاء الوقت مع أصدقائهما خاصة وأنهما لا يعرفان العربية.

رفعت حاجبي في دهشة فقالت بانفعال وهي ترمق زوجها بنظرة سريعة:

- هذه غلطتنا من البداية. أردنا أن ندمجهما في المجتمع الأمريكي وكنا نظن أننا حسمنا مستقبلنا ولن نعود إلى "مصر" أبدا.

وانفجرت فجأة في البكاء وهي تغمغم: "مصر" وحشتني. أنا هنا لا ينقصني شئ لكني لست سعيدة.

حولت وجهي بعيدا في حرج ونهض "ماهر" واقفا وعلى فمه ابتسامة هازئة. أحضر لي زجاجة بيرة وأطباقا صغيرة من المكسرات وضعها فوق السطح الزجاجي لطاولة من الحديد.

قلت: الحياة هنا سهلة ومريحة.

جففت دموعها بمنديل ورقي وعالجت الابتسام قائلة: تسليتي الوحيدة هي التليفزيون وجلستي في هذا الركن.

لاحظت أن موقعها يتيح لها متابعة عدة نقاط استراتيجية في آن واحد: ساعة الحائط على يمينها ثم السلم المؤدي إلى غرف النوم والأولاد، والمطبخ المكشوف أمامها وجانب من مكتب زوجها لوترك بابه مفتوحا.

انصرف اهتمامها إلى حلقة من مسلسل "رأفت الهجان". ولم يلبث أن انضم إلينا أستاذ أدب فلسطيني وزوجته المحامية الأمريكية وابنهما الصغير. كان الفلسطيني ذو شعر رمادي ووجه ملأته الغضون، تام الأناقة في سترة رياضية من طراز البحرية وبنطلون رمادي، ورابطة عنق مخططة. أما زوجته فبدت في ملابسها البسيطة أصغر منه سنا. وكانت عادية الملامح متوسطة الطول ممتلئة الجسم، قوية البنية والشخصية. سألت الصبي الذي لم يتجاوز السابعة عن اسمه فأعطاني ظهره ودفن رأسه في ملابس أبيه. عاودت السؤال بالإنجليزية فوضع يديه فوق أذنيه. مددت يدي أحاول احتضانه فقبض عليها وخدشها بأظافره في عنف. انتزعت يدي فجرى واختفى خلف المقعد المقابل.

أرادت "فتحية" أن تسترضيه فحولت التليفزيون إلى برنامج للأطفال على القناة الفضائية المصرية. كان المذيع

يستضيف طفلة تعيش في قصر خارج "القاهرة"به حديقة وحمام سباحة ومجموعة كبيرة من الكلاب النادرة تتغذى يوميا على اللحم الخالص ، كما ذكرت لمشاهديها.

دار الحديث حول موضوع الساعة وقال "مروان": لاأستبعد أن تكون "الموساد" ضالعة في حكاية "مونيكا".

سألت: لماذا؟

قال: لأنها يهودية.

قال "ماهر"بتؤدةالحكيم: مشكلة العرب أنهم يؤمنون بنظرية المؤامرة. ماذا يمكن أن يكون هدف "الموساد"؟ "كلينتون"يخدمهم دون حاجة للضغط عليه. بينما هو الآن معرض لأن يفقد كل شئ.

رد الفلسطيني: "كلينتون" يريد أن يدخل التاريخ بصفة صانع السلام ، ويريد أيضا الحصول على جائزة "نوبل" فهو يحب الفلوس. في الصيف الماضي أعلن أنه أعد خطة للسلام. ويبدو أنها لم تعجب الإسرائيليين أو أنه لم يستشرهم في بعض التفاصيل. المهم أنه قبل إعلان الخطة بساعات انفجرت قصة "مونيكا". وتهدم بنيان الفضائح فوق رأسه حتى أصبح عاجزا عن اتخاذ أي قرار.

– تقصد أن "مونيكا"عميلة "موساد"؟

– ليس بالضرورة. ربما استخدموها دون أن تدرك.

قامت السيدتان إلى المطبخ وتبعتهما ببصري. وشردت إلى أن سمعت "ماهر" يتحدث عن العبقرية الأمريكية.وقدرتها على علاج الأزمات بفضل الإمكانيات الهائلة والتقدم الاقتصادي والعقول المجتذبة من كل مكان، والذراع العسكرية الطويلة القادرة على ملاحقة أي مكان في العالم. وقال إننا ربما نكون فعلا قد بلغنا نهاية التاريخ كما

تنبأ "فوكوياما" وستحل أمريكا مشاكل المستقبل بالخروج إلى الفضاء الخارجي وندخل مرحلة مختلفة كلية بقوانين أخرى.

قال "مروان"هازئا: أوهام. إذا كان هناك تقدم اقتصادي فهو لا يتعدى المزيد من نفس المنتجات بأشكال مختلفة دون إضافة حقيقية للإنتاج. كما أنه يعتمد أساسا على استغلال العاملين. فثلث الأمريكيين يعيش تحت خط الفقر.

دعك "ماهر" أنفه وقال : لولا شفافية المعلومات ما عرفت هذه النسبة.

قال الفلسطيني : هذا أيضا وهم. أنت نفسك قلت لي من أسبوع أن مستشاري "ريجان" كانوا يعدون مقدما الموضوعات التي ستثيرها الميديا. والنتيجة جهل الشعب المطبق بالحقائق.

فتح "ماهر"جبهة جديدة : يكفي أنك تستطيع هنا أن تكتب ما تشاء وتبيعه للناشرالذي يعجبك وتبيع أيضا حق نشره مسلسلا لإحدى المجلات ثم تتولى شركة توزيع عرضه في المكتبات. وخلال ذلك يشتريه ستوديو سينمائي ويحوله إلى فيلم ويبيع الحقوق للتليفزيون. كل هذا دون اعتراض من الدولة أو غيرها.

علق "مروان": وهم آخر. فالوكيل والناشر في الغالب مملوكان لنفس الشركة التي تملك أيضا المجلة التي ستنشر الكتاب مسلسلا.

– وإيه يعني.

– انتظر. لم ينته الأمربعد. نفس الشركة تملك أيضا شركة التوزيع بل والمكتبة التي ستقرضه كما تملك ستوديو السينما والموزع الذي يوزع الفيلم وسلسلة دور العرض التي

ستعرضه والقناة التليفزيونية بل وجهاز التليفزيون والفيديو الذي سيعرض عليه في آخر المطاف في مكان ما. والنتيجة أن الكتاب يجب ألا يتعدى موضوعه خطوطا حمراء معينة وإلا احتاج معجزة كي يفلت من كل هذه الحواجز.

عادت زوجة " مروان" من المطبخ وحاولت إقناع ابنها بالخروج من خلف المقعد لكنه رفض. تركته وغيرت قناة التليفزيون إلى واحدة إخبارية وتابعت نبأ عن شاحنة وجدت بفنطاسها جثث مختنقة لعشرين مكسيكيا من المهاجرين غير الشرعيين. رويت لهم ما شاهدته في التليفزيون والتعليق الذي أدلى به المواطن الأمريكي. فمطت شفتيها قائلة بالإنجليزية :

– الأمر موضع جدل. فمن حقنا أن نعيش في بيئة نظيفة. ومن ناحية أخري ..

قاطعها زوجها: من قال إنهم مهاجرون غير شرعيين؟ أوراق الجنسية والبطاقة الخضراء تباع علنا في شوارع "لوس انجلوس" أسفل لافتات تعلن عنها. إنها تجارة ضخمة.

التفت إليّ مستطردا: اذهب إلى شارع "ميشان" في الصباح الباكر. ستجد آلافا من المكسيكيين واللاتينو – أبناء أمريكا اللاتينية – موزعين على أركان محددة حسب تخصصاتهم. عمال نقاشة أو سباكة أو بستنة أو شحن وتفريغ. أغلبهم "بدون"، تماما مثل أغلب سكان "الكويت"، أى لا يحملون بطاقة الإقامة الخضراء وبالتالي لايحق لهم العمل. لهذا يقبلون أبخس الأجور. والخاسر في هذه العملية هوالعامل النقابي الذي لن يجد عملا. أما الشرير الحقيقي فهم أصحاب الأعمال الجشعين.

أردت تغيير اتجاه الحديث فخاطبت زوجته قائلا: سمعت أن المحامين هنايكسبون ذهبا.

انفرجت أساريرها وردت بحمية : أنا أعمل طول اليوم في شركة بها ٦٠٠ محام. عمل محسوب بالساعات. في البداية كنت أعمل ١٥ ساعة في اليوم. هذه الساعات الخمس عشرة تجلب لي ألفين وخمسمائة دولار في السنة أي خمسين دولارافي الأسبوع. أما الشركة فتتقاضي من العميل ثلاثمائة دولار في الساعة. أي أني أحقق لها أكثر من سبعمائة وخمسين ألف دولار في السنة. لهذا أبذل كل جهدي كي أصبح من الشركاء بعد سنوات فيرتفع دخلي إلى خمسين ألفا في الشهرزائد مكافأة سنوية عشرة آلاف. وعندما أبلغ الأربعين سيصبح دخلي مليونا في السنة.

أضاف زوجها: وفي الخامسة والأربعين سيكون المبلغ ثلاثة ملايين وفي الخمسين عشرة ملايين وهي اللحظة التي ستتقاعد فيها. أما أنا فلن أتجاوز عند تقاعدي في الستين رقم المائة ألف في السنة تخصم منها الضرائب وأقساط القروض.

التقط حبة فستق من طبق المكسرات وأضاف متحاشيا النظر إليها : المال هو كل شئ عند الأمريكي. يوميا يحسب كم كسب وكم أنفق وكم ادخر.

أطل الصبي برأسه من خلف المقعد. أشرت إليه أن ينضم إلينا فاختفى من جديد.

قالت أمه وهي تومئ باشارة تشملها هي وزوجها :نحن نعمل كثيرا. ولا نجد حتي الوقت لتبادل الحديث. فضلا عن أي شئ آخر.

ضحكت ثم استطردت : الإفطار نتناوله في الصباح أمام التليفزيون ولا نلتقي بعد ذلك إلا في التاسعة مساء وأكون علي وشك السقوط من الاعياء.

قال : الحديث الوحيد الذي يدور بيننا هو عمل أينا هو الأهم.

بدا أننا مقدمون على اشتباك جديد لكن "فتحية" أنقذت الموقف بأن دعتنا للانتقال إلى الحديقة الخلفية. لم تكن مساحتها كبيرة واتسعت بالكاد لمائدة مستديرة وكوم من الزجاجات الفارغة في أحد الأركان رصت بعناية فوق بعضها.

رآني "ماهر" أنظر إلى الزجاجات متعجبا فاحمر وجهه. قال وهو يفض سدادة زجاجة من النبيذ الأبيض: أنا أنتظر حتى تتجمع كمية منها ثم أحملها لمصانع اعادة التدوير.

تساءلت: ولماذا لا تتخلص منها أولا بأول مع القمامة كما أفعل؟

تطوع "مروان" للإجابة متخابثا : إذا حملتها إلى المصنّع بنفسك تتقاضى عدة سنتات عن كل زجاجة.

أحضرت "فتحية"سمكة "سالمون" ضخمة وإناء من الصلصة. وتولى"ماهر" التقطيع والتوزيع. ورفض الصبي الصغير أن يأكل معنا فحملت إليه أمه طبقه وجلست معه في الصالة.

انشغلنا في الأكل فتوقف الحديث إلا من تعليقات الإعجاب بما تصنعه الأفران المنزلية من معجزات. ولم نكد ننته ونشرب القهوة حتي أعلنت الأمريكية اضطرارها للانصراف لتبدأ الكفاح مبكرا. وتواعدنا أنا والأستاذ الفلسطيني على اللقاء بالمعهد. وبعد ربع ساعة من انصرافهم رأيت فتحية تتثاءب فاستأذنت بدوري.

أوصلني "ماهر" إلى منزلي في العاشرة مساء. وجدت الخطابات الثلاث على حافة الطاولة المجاورة للباب وفوقها ورقة تحمل هذه السطوربخط اليد : " السيد الجار : بليز!

!بليز! رجاء ! رجاء! اترك الخطابات مكانها فوق صندوق البريد ولا تعيدها إلى الداخل. نحن نضعها هناك ليأخذها ساعي البريد".

شعرت بسخونة في وجهي فولجت مسكني ومضيت إلى الحمام. تبولت وغسلت يدي ثم أدرت التليفزيون. قلبت بين القنوات وأنا أستعيد أحداث اليوم. تابعت برنامجا عن تاريخ الرق بعض الوقت ثم وضعت شريط"كرامر ضد كرامر" في الفيديو. وعندما بدأت مشاكل الصبي الصغير بعد رحيل أمه شعرت بالرغبة في البكاء فأوقفت العرض.

حملت علبة السجائر والثقاب وفتحت مصراع الحديقة الخلفية. مددت يدي لأشعل المصباح المثبت في أعلاه. وفجأة قفز جسم كبير من ناحية اليسار مبتعدا في اتجاه الأريكةالحديدية. تراجعت مذعورا إلى الخلف وأنا أضع يدي على صدري. سمعت خشخشة بين النباتات وحركة أقدام فتوقفت. استمرت الحركة وخيل إليّ أنها انتقلت إلى النباتات المتلاحمة التي تغطي السياج الفاصل بين حديقتي والحديقة المجاورة. استمرت الحركة عدة دقائق ثم تلاشى صوتها. أضأت المصباح الخارجي فلم يبلغ ضوؤه أطراف الحديقة. لم أتبين شيئا غير عادي فأطفأته وأغلقت المصراع في احكام ثم طفت بأرجاء المسكن أطمئن على نوافذه. وأخيرا غسلت أسناني وأخذت دواءالضغط وأطفأت الأنوار ولجأت إلى الفراش.

حلمت بأني في منزلي ب"القاهرة" بعد عملية جراحية وأني متزوج من واحدة لم أتبين ملامحها. وهناك صديق لي يقف بجوارها. طلبت منه الانصراف وعدم العودة ودفعته في عنف نحو الباب دون أن يقاوم. ثم عاد وأدركت أنه

متآمر مع زوجتي رغم أني سبق واتفقت معها على ألا يدخل منزلنا، فأعلنت أني سأترك المنزل. ولم تعبأ زوجتي بتهديدي. هل لأن حالتي الصحية لا تسمح لي بتنفيذ تهديدي أم لأنها واثقة من عودتي؟

قمت منزعجا بألم في أذني وضغط على معدتي. مضيت إلى المطبخ وملأت كوبا من الماء. وقفت أتأمل قاع الحوض وأنا أحاول كعادتي تحليل الحلم والوصول إلى جذوره.

أحاديث المساء؟ الجو العائلي؟ تأثير النبيذ والسمك؟ فخ الزواج؟
أم "كرامر ضد كرامر"؟ أم "عايدة"؟

أفرغت كوب الماء في حلقي مرة واحدة وعدت إلى الفراش.

** ٦

فتحت باب القسم الذي يغلق في فترة الغداء من الثانية عشرة إلى الواحدة. لم أجد أثرا للسوداء أو "جيني". ولجت ركن البريد وفتحت صندوقي فلم أجد به شيئا. مضيت إلى مكتبي فوجدت على الباب ورقة باسم زميلتي. فتحت الباب ووقفت أتأمل ما حدث. كانت قد غيرت وضع المكتبين بحيث نجلس وظهر كل منا للآخركأننا متخاصمان. واختارت لنفسها أفضلهما فنقلت جهاز التليفون والتقويم المثبت في قاعدة خشبية إلى سطحه. وكان ثمة دفتر وقلم مما يعني أنها موجودة على مقربة.

أغلقت الباب خلفي وجلست إلى الطاولة متجاهلا المكتب. استخرجت من حقيبتي الأوراق التي سجلت فيها

نقاط الدرس القادم وبدأت أراجعها. ووضعت بعضها جانبا لتصويره وتوزيعه على الطلاب. وعندما بلغت الساعة الثانية قمت وفتحت الباب وتركته مفتوحا. كنت قد حددت الساعة السابقة على موعد الدرس لاستشارات الطلبة. وسمعت وقع خطوات تقترب من الغرفة فرفعت رأسي أملا أن تكون الإيطالية هى القادمة.

ظهرت "فادية" -مواطنتي- في مدخل الغرفة. وقفت تعبث بأزرار حقيبة يدها في ارتباك. طلبت منها بالعربية أن تجلس فاختارت المقعد القريب من الباب.

كانت ترتدي فستانا فضفاضا يمتد إلى قدميها. وغطت شعرها بالوشاح القريب من الحجاب. وفيما عدا الكحل خلا وجهها من الزينة.

قالت إنها تفكر في عقد مقارنة بين تاريخ مدينتي "القاهرة" و"سان فرانسيسكو". ويبدو أن وجهي ظهر عليه نوع من الامتعاض فقد سارعت تقول:

- هناك أوجه عديدة للمقارنة. لا بد أنك رأيت يا أستاذ هرم "سان فرنسيكو". إنه أعلى بناء في المدينة ويتألف من ٤٨ طابقا.

قلت ساخرا: نسيت عربات الكابل. ما تبقي من خطوط ترام في "القاهرة" تسيربنفس البطء.

أشحت بيدي في استهانة واستطردت: هذه مقارنة تصلح للصحف. فتاريخ المدينتين مختلف. وطبعا الاختلاف يمكن هو نفسه أن يكون موضوعك لكن لا بد أن يقول شيئا. ماذا لديك؟ مدينة عريقة عمرها أكثر من ألف سنة قامت على أنقاض حضارة قديمة عمرها عدة آلاف أخرى ... ومدينة حديثة لا يزيد عمرها عن قرنين ..

ترددت وقد أدركت أني تسرعت في الرد. غيرت موضوع

الحديث وسألتها عن قراءاتها. عرفت أنها تحتفظ بمؤلفات "جمال حمدان"(×) فعرضت عليها أن تقدم عرضا لأفكاره وتناقش منهجه.

جمعت أوراقي ووضعتها في حقيبتي محتفظا ببعضها في يدي. وقلت إني أرغب في تصويرها قبل الدرس.

صحبتني إلى ماكينة التصوير الموضوعة في الممر. سجلت كلمة السر الخاصة بي وساعدتني في وضع أوراق الطباعة في الصندوق الخاص بها. وحرصت على الابتعاد عنها بمسافة كافية كي لا أحتك بمؤخرتها المصرية الكبيرة.

(×) أستاذ الجغرافيا البشرية المصري المعروف (١٩٢٨- ١٩٩٣). درس في الجامعة المصرية ٤٢-٤٨ وحصل على الدكتوراه من "بريطانيا" (١٩٥٣) في سن الخامسة والعشرين والتحق بهيئة التدريس بكلية آداب جامعة "القاهرة". استقال منها عام ١٩٦٣ احتجاجا على عدم ترقيته إلى الأستاذية. وعكف على كتابه الموسوعي الشهير "شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان"، فأنجزه في أربعة مجلدات و٣٥٠٠ صفحة معتمدا على ألف مرجع في أربع لغات. وبعد موجز نشرته دار "الهلال" سنة ١٩٦٧، صدر المجلد الأول عام ١٩٨٠ والرابع ١٩٨٤.

اعتزل المؤسسة السياسية والزواج والأسرة والأصدقاء ثم المجتمع كله بعد زيارة "السادات" للقدس في ١٩٧٨ والتنازلات التي قدمها. وانقطع للكتابة محروما من معاشه ورافضا أي معاش استثنائي أوعملا شكليا. بلغ عدد كتبه (التي كان يصر على تصميم أغلفتها بنفسه) ٢٥ كتابا في جغرافية المدن والعالم العربي والفكر السياسي.

وفي يوم من شهر "أبريل" ١٩٩٣أحضر له بواب العمارة التي يسكنها في "الدقي" عدة كراسات بيضاء وعلبة سجائر محلية وبضع زجاجات من المياه الغازية. وبعد ساعات قليلة دوى صوت انفجار في شقته واقتحمها البواب ليجده ملقى فوق أرض المطبخ وقد تفحم نصفه الأسفل تماما إثرانفجار أنبوبة البوتاجاز. وكان المطبخ يضم مائدة خشبية صغيرة متهالكة مغطاة بصحيفة وفوقها طبقان من البلاستيك وهون خشبي وصحن من الألومنيوم. وتألفت غرفة النوم من دولاب متهالك وسرير "سفري" وطاولةمختفية تحت ركام الكتب وعدة حقائب جلدية كبيرة قديمة، وصورة فتاة شقراء كان على علاقة بها أثناء بعثته في "انجلترا" وراديو ترانزستور. ولم يكن بالمسكن تليفون أوتليفزيون.

مضينا سويا إلى قاعة الدرس. اتخذت موقعي عند رأس الطاولة أسفل السبورة وسجلت في دفتري غياب "فرناندو" البرازيلي. ثم بدأنا بعرض من "دوريس" عن نهاية التاريخ عند كل من "هيجل" و"فوكوياما" (×).

كنت قد قبلت الموضوع على مضض من كثرة ما قيل عن "فوكوياما". لكني وجدت عرضها مركزا وجيدا. وتحدثت بحماس وذلاقة أعطيا جاذبية لوجهها العاطل من الجمال. استعرضت في البداية محاولات التفسير العديدة للتطورات التاريخية، وخصوصا لصعود وهبوط الدول والإمبراطوريات، بدءا من "بوليبيوس" (٢٠٠-١١٨ قم) الذي درس أسباب سقوط الإمبراطورية الهلينية، ونقل من الفلسفة تصور الزمان كدائرة تعود إلى نقطة بدايتها ثم خرج بنظرية الدورات التاريخية. وانتقلت إلى القديس "أوغسطين" (٣٥٤-٤٣٠م) الذي عزى كل التطورات إلى المشيئة الإلهية. وهونفس التفسيرالذي اعتمدته الحضارة العربية الإسلامية.

عرجت بعد ذلك على فكرة التقدم التي سادت في القرن الثامن عشر ومؤداها أن الإنسان يسير إلى الأمام ولو بايقاع بطئ. وكان التصور أن هذا التقدم يسير في خط مستقيم إلى أن افترض البعض أنه يتبع مسارا لولبيا من تراجعات مؤقتة يستأنف بعدها طريقه لا من نقطة البداية وإنما من نقطة أعلى منها.

(×) أكاديمي أمريكي معاصر من أصل ياباني، اشتهر بكتابه عن نهاية التاريخ الذي صدر عام ١٩٩٢ بعنوان "نهاية التاريخ والأنسان الأخير".

هكذا وصلت إلى " هيجل"(١٧٧٠-١٨٣١) الذي رأى في التاريخ مسيرة لصراع التناقضات المتجددة حلت نهائيا بانتصار الثورة الفرنسية واندحار حكام أوروبا المستبدين. وقالت إن"كارل ماركس" (١٨١٨-١٨٨٣) توصل إلى نفس النتيجة الحتمية : فالتاريخ سينتهي عنده أيضا عندما تصبح ملكية وسائل الإنتاج عامة وتنحل التناقضات المسئولة عن حركة التاريخ. وهي نفس النتيجة التي توصل إليها "فوكوياما" بصورة عكسية لأنه رأى في انهيار النظام السوفييتي حلا نهائيا لتناقضات العصر بانتصار النظام الرأسمالي إلى الأبد.

فتحت باب المناقشة فقال "لاري" إن "ماركس" في الحقيقة لم يتنبأ بنهاية التاريخ لأن صراع المتناقضات لديه مستمر إلى مالانهاية.

تتابعت تعليقاتهم وتركتهم يتكلمون قليلا وأنا أتدخل بين الحين والآخر مصححا كلمة أو معلومة ، متأملا وجه "روزيتا" ، وخديها الناعمين. شعرت أنها اليوم مختلفة كأنها أخذت حماما للتو وغسلت شعرها.

عقبت على العرض ولخصت المناقشات ثم قلت إن "دوريس" تجاهلت دور "ابن خلدون" (١٣٣٢-١٤٠٦) الذي يعتبر أول من عالج التاريخ بوصفه علما له خصائصه الخاصة وربما كان المؤسس لعلم التاريخ. وظهرت لديه أفكار أساسية من المادية التاريخية قبل "ماركس" و"إنجلز" بقرون فقد اعتبر أن النشاط الإنتاجي المشترك هو أساس الحياة الاجتماعية وأن الحياة المادية تسبق الحياة الروحية وأن مراحل تطور المجتمع واختلاف أنماط نواحي حياة الناس تنبع من اختلاف كيفية إنتاجهم. وأن التطور نفسه يتم من خلال صراع

الأضداد. وبالتالي فالتاريخ عنده لا ينتهي رغم أنه لم يشر إلى ذلك صراحة.

وصل البرازيلي متأخرا وبحث عن مكان بجوار"روزيتا" فلم يجد وجلس بعيدا. شعرت بسرور خفي وأنا أتأمل جسمه الرياضي القوي.

لم يكن "فرناندو" آخر القادمين فقد ولج القاعة شاب أفريقي ضخم الجثة. ونطق أحد الطلاب باسم "عبد الرحمن" ضاحكا. أشرت إليه بالجلوس إلى جوار "سابك" ذي الملامح الهندية لكنه اختار مقعدا بعيدا عنه في الطرف الآخر من المائدة بجانب طالبة بيضاء شاحبة الوجه تدعى " مونا". سألته عن اسمه فأجاب بصوت خفيض لم أتبينه. ناولته ورقة وطلبت منه أن يكتبه. كتب : "فرنون". سألته عن موطنه. فابتسم وقال بوضوح : "أمريكا".

استفسرت منه عن دراسته والموضوعات التي تهمه فعاد إلى التمتمة بصوت خافت. سمعت كلمة "همبل". وفكرت أنه يقصد المؤرخ الذي يعتبر من رواد التاريخ المقارن(×).

سألته عما قرأ له فارتبك ولم يجب.

قلت بنفاذ صبر : هل قرأت له شيئا أم لا ؟

سمعت همهمة أخرى التقطت منها اسم المؤرخ القديم. لكنه نطقه هذه المرة بشكل مختلف أو ربما بوضوح أكثر فجاء أقرب إلى " هُنبُل". وفهمت أنه قرأ له كتابا وحيدا. وعندما استوضحته اسم الكتاب علت همهمته.

(×) HEMPEL (١٩٠٥-١٩٩٧)، رأى أنه يمكن استخلاص قانون يفسر الأحداث التاريخية إذا درست الظروف المحيطة بظاهرة كبيرة كالهجرة مثلا في عصر ما وفي عدة بلدان. وعندما تتشابه بعض الظروف أو تتكرر في الحالات موضع البحث تعتبر في حكم القانون .

أوشك صبري على النفاذ فكرر اسم الكتاب بوضوح أكثر: " المسند".

" المسند" ل"همبل" ؟

كدت أنفجر ضاحكاعندما أدركت أخيرا أنه يقصد الإمام "ابن حنبل"(×) وفهمت لماذا يدعوه زملاؤه باسم "عبد الرحمن".

بدأت الابتسامات ترتسم على شفاه الطلاب استعدادا للمجزرة المرتقبة. وألفيت نفسي في موقف يتعرض له المحاضردائما. وتعرضت له أنا شخصيا في طفولتي.

كان مدرس اللغة العربية في مدرستي الابتدائية طويل القامة قبيح الوجه دائم السخرية من التلاميذ. وسألني مرة عن شئ فلم أتمكن من الإجابة. فقال إن الفول الذي أكلته في الصباح " كبس على نافوخي". فنفيت أنني أكل الفول في الصباح. فسألني ساخرا : بتاكل حمام ؟ قلت لا : بيض بالعجوة. خيل إلى أني أفحمته ودللت في نفس الوقت على مكانتي الاجتماعية لكنه لم يرتدع وقال على الفور: لو كنت أكلت فول كنت فهمت.

تداركت نفسي قبل أن أنزلق إلى موقف مشابه. وانتقلت على الفور إلى الحلقة الجديدة من سيرتي:

بدأت من حيث انتهيت في المرة الماضية. قلت إن "ساباتيني" لم يكن يعبأ باتخاذ موقف من أحد الجانبين في الصراع السياسي الذي يشكل خلفية روايته. ما كان يهمه هو خدمة حبكته الرئيسية دون الحكم على المواقف أوالشخوص

(×) (١٦٤-٢٤١هجرية.)(٧٨١-٨٥٥ م) أحد الأئمة الأربعة للمذهب السني وأكثرهم تشددا. عارض القول بخلق القرآن وتعرض نتيجة ذلك للعذاب والسجن على يد الخليفة "المأمون". وقاطع ابنه لأنه قبل أن يأخذ أموالا من الخليفة. نذر حياته للرد على فرق الزنادقة والمتصوفة.

التاريخية. وقد سبب لي ذلك حيرة شديدة في طفولتي. ولعله كان حائرا مثلي.

فبعد استعراض فظائع النبلاء وسفهم واستهتارهم وتبذيرهم وعدوانهم على الفلاحين المغلوبين على أمرهم والذي يصل إلى حد حق الليلة الأولى في كل زواج جديد، يستدر العطف عليهم بتصوير ما تعرضوا إليه من اضطهاد بعد الثورة. وبدا لي ذلك أمرا عسيرا على الفهم. فكل شئ بالنسبة لي في ذلك الوقت كان بأحد لونين لا ثالث لهما ، الأبيض والأسود.

توقفت عن الحديث وشردت. حاولت الاستمرار لكني نسيت النقطة التي توقفت عندها. نهضت واقفا واقتربت من النافذة المطلة على الكافيتريا. وسقط بصري على كتفين عاريين لفتاة بيضاء حمراء الشعر. كانت ترتدي صديرية رمادية يملؤها ثديان ثقيلان يبدو أعلاهما، وبنطلونا ضيقا أبيض اللون، ضغط على جسد ممتلئ رخص، ذلك الذي يوصف بأنه بلا عظام. وكانت خارجة من الكافيتريا بحركات سريعة إهتز لها نهداها، وفي يدها طبق تكدست به الفطائر. وتبعها ثور شاب في ملابس رياضية، ورأس أزيل شعرها كلية.

تحولت عن النافذة وحدقت في وجوه الطلاب وأنا أحاول التذكر.. الأبيض والأسود .."رفائيل ساباتيني"..

استأنفت الحديث بعد أن عثرت على الخيط. قلت إن البحث عن روايات "ساباتيني" وأمثاله من كتاب القصص التاريخية كان هاجسي وأنا أقف على عتبة فترة المراهقة. كنت أتسلل من مسكني بالبيجاما والشبشب كي لايشعربي أبواي وأقوم بجولة واسعة تبدأ من السور الدائري لقصر قريب نشر فوقه شاب يرتدي شورتا وقبعة من الفلين عديدا من الكتب والمجلات القديمة . ثم أنتقل إلى حانوت صغير

للمخلفات القديمة في زقاق جانبي يملكه يهودي سريع الحركة ذو عوينات سميكة ووجه غير حليق ومنه إلى بائع خردوات في الشارع الرئيسي خصص ركنا لاعارة الروايات القديمة مقابل تأمين مالي. وصارت هناك أيام كئيبة : تلك التي أعود فيها بخفي حنين من جولاتي وأخرى رائعة عندما أعود بغنيمة أيا كان حجمها، أخفيها عادة في صدري كي لا يراها أحد.

قادتني هذه الجولات إلى "عنبير الي الأبد" (×) وهي رواية تاريخية تدور في أيام الطاعون الذي ضرب لندن في ١٣٤٨م وكان موضوعا لإحدى روايات "ساباتيني" الرومانسية. لكن "عنبر" لم تكن رومانسية على الإطلاق فهي قصة غرام مشبوب بجانبه الحسي. وكان هذا الجانب ملغزا بالنسبة لصبي في العاشرة من عمره. وبالمثل كانت الإشارات الغامضة في رواية عن القس الروسي الشهير "راسبوتين" وما كان يفعله بنبيلات القصر الملكي وربما أيضا بالإمبراطورة نفسها. وتعددت الألغاز والأسئلة عندما قرأت رواية مترجمة عنوانها "سوف أبصق على قبوركم" (××).

صورت هذه الرواية مصير شاب زنجي أبيض اللون تطارده الرغبة في الانتقام من البيض الذين اغتالوا أخاه لأنه تجرأ وأحب فتاة بيضاء. وأخذ هذا الانتقام صورة الإيقاع بالبنات البيض وفض بكارتهن. وكان الوصف التفصيلي

(×) للكاتبة الانلجيزية "كاثلين وينسور" وصدرت عام ١٩٤٤ وحظرت مدينة "بوسطن" بيعها.

(××) صدرت الرواية عام ١٩٤٦ في "باريس" باللغة الفرنسية وقدمها الناشر على أنها ترجمة لرواية أمريكية محظورة في الولايات المتحدة كتبها أمريكي أسود يدعي " فرنون سوليفان" ثم تبين أن مؤلفها الحقيقي فرنسي يدعى "بوريس فايان".

لغوايته للفتيات يتضمن تفصيلات غامضة بالنسبة لي لكنها كانت كافية لدفع الدماء إلى عروقي.

علت الابتسامات وجوه طلبتي.

استطردت : بلغ الشاب ذروة انتقامه عندما أوقع بأختين من الطبقة الثرية فحملت منه الأولى. وعلمت الثانية بعد استسلامها له أنه "زنجي قذر" فحاولت قتله وانتهت المحاولة بأن اغتالها هو ومثل بجثتها. ثم قتل أختها وطاردته الشرطة إلى أن قتلته وعلقه الأهالي فوق شجرة وألصقوا بصدره ورقة تحمل هذه الكلمات : "إلى الجحيم وسيتبعك بقية الزنوج".

تحاشيت النظر إلى "فرنون" وواصلت الحديث :

– فضلا عن الجانب المتعلق بالجنس فان هذه الرواية صدمتني بتقديمها صورة مختلفة عن موضوع لم ينل جانبا من اهتمامي في السابق. كل معلوماتي عن قضية "الأسود والأبيض" قبل ذلك اقتصرت على كتاب من نشر مؤسسة "فرانكلين" الأمريكية وزع علينا في نهاية المرحلة الابتدائية يتضمن قصة تصور محنة العبيد لدى سيد قاسي القلب مقابل آخرين ينعمون بالحياة الهنية لدى آخر طيب القلب.

نهضت واقفا ودرت حول المقاعد حتى أصبحت خلف "روزيتا". كانت ترتدي شورتا أبيض قصيرا للغاية أبرز جمال فخذيها. ويبدو أنها شعرت بنظراتي إذ هبطت عيناها إلى ساقيها.

شردت لحظة وشعرت بالأنظار معلقة بي وأنقذتني "جيني" من ورطة المرة السابقة.

كانت تقف بالباب وعيناها عليّ وعلى اتجاه نظراتي.

قالت : "عفوا. ثم التفتت إلى "ميجان" وأضافت : مري عليّ من فضلك بعد المحاضرة.

التقطت خيط الحديث بسهولة بعد انصرافها وقلت إن جسد المرأة بالنسبة لي في تلك الفترة كان لغزا. وهو أمر يصعب إدراكه على الأجيال المعاصرة التي تشهده بأدق تفاصيله في المجلات وعلى شاشات التلفزيون والسينما.

ومن الطبيعي أني سعيتّ لاستكناه اللغز وبدأت من البداية كما يقولون. فعندما فتنتني صورة لوجه الملكة الفرعونية "حتشبسوت" قضيت ساعات طويلة في رسم شفتيها. وأيا كان النجاح الذي حققته فإنه لم يشف غليلي.

كانت أسرتي في ذلك الوقت - وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة - تسكن حارة ضيقة وتطل شرفة مسكننا على مسكن في المنزل المقابل تعيش به أم عجوز مع ولدين وبنت. وحدث أن التحق أحد الولدين بشركة تعبئة "الكوكاكولا" كمرافق لسائق سيارة التوزيع. كان المشروب الأمريكي جديدا على حياتنا بطعمه وشكل زجاجته والدعاية التي رافقته وألوان السيارات التي توزعه والصناديق التي تبيعه. وحرص الشاب على أن تقله السيارة الضخمة الملونة كل صباح من أمام منزله، فيتركها تنتظر قليلا ثم يهبط أخيرا ويجلس إلي الجوار السائق كأنه جنرال ذاهب إلى المعركة. ويتابع سكان الحارة - وأنا من بينهم-هذا المشهد من النوافذ والشرفات بانبهار. وكنت أنا شبه مقيم في الشرفة لسبب آخر.

كانت أخته سمراء مليحة رشيقة في حوالي السابعة عشرة. وفي الصيف - الذي يهرع فيه الجميع إلى الشرفات فور اختفاء الشمس - تظهر في رداء قطني خفيف واسع الصدر، وتنحني على السياج المكون من قضبان حديدية عمودية ثم تسند صدرها إلى السطح الخشبي للسياج. وكنت

بذلك أطل على نهديها من موقعي في الشرفة المقابلة التي تعلوها بعض الشئ. كانت تلحظني بالطبع وتعتبرني بلا شك طفلا صغيرا فلا تحفل بتغطية صدرها. وعلى كل فان ما بدا منه لم يشبع فضولي وانما استثارني إلى معرفة المزيد. وهكذا بدأت نظراتي تتجه إلى أسفل، متخللة القضبان المتباعدة لسياج الشرفة.

وكأنما حدست الأم اتجاه أفكاري فغطت السياج بملاءة بيضاء. وصار على أن أكتفي بالقطاع الأعلى من جسد ابنتها. لكن شهوة البحث كانت عميقة لدى منذ الصغر. فدأبت على التجوال في شوارع الحي وحواريه رافعا رأسي إلى أعلى على أمل أن أرى من خلال أسيجة الشرفات الطرف الآخر من اللغز. لم أوفق أبدا في مسعاى وجل ما تمكنت منه هو لمحة سريعة ذات مرة لركبتين متباعدتين أسندت صاحبتهما إحدى قدميها إلى الساق الأخري. يومها اندفعت الدماء في عروقي دون أن أفهم السبب وتعذر على المشي إلا بعد أن هدأت مشاعري.

اتسعت ابتسامات طلابي . فقد كنت الآن أنطلق في طريق يعرفونه جيدا. وكنت أنا أيضا منتشيا بالذكريات التي نادرا ما أستعيدها.

لم يعد أمامي من سبيل للمعرفة غير المجلات الملونة وخاصة المتخصصة في السينما. وشرعت في تكوين أرشيف من الصور تصدرته ممثلة يهودية مصرية تدعي " كاميليا" اشتهرت بلقب "ذات الفم الدافئ" بسبب اكتناز شفتيها. وانضمت إليها صورة "بيتي جرابل " أو بالأصح صورة ساقيها حتي المنفرج ، وأخرى ل "جين راسل" تكشف فيها عن أعلى ثدييها اللذين استحقت عليهما لقب "صاحبة الصدر الأعظم" . وكانت هناك أيضا "استر وليامز" وزميلاتها من

السابحات الفاتنات. لكن أيا من هذه الصور لم تنجح في حل اللغز أو وصل ما بين أسفل الصدر وأعلى الركبتين. وهوما تحقق بعد فترة بفضل رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق "مناحم بيجين".

لحظت أن الابتسامة تجمدت علي وجهي كل من "مونا" و"لاري". وقطبت الأولى حاجبيها بينما انحنى الثاني فوق دفتره يكتب بسرعة.

واصلت: ففي أحد الأيام عدت من جولاتي بمجلة مصورة بها موضوع كبيرعن "آل كابوني" رجل العصابات الشهير الذي سيطر على مدينة "شيكاغو" في الثلاثينيات. وبينما كنت أقلب صفحات المجلة وجدت موضوعا عن جريمة أخرى أكثر حداثة مصورةبالرسوم. وألفيتني أمام لا امرأة عارية واحدة بل عشرات من النساء كاملات العري.

فهمت من الموضوع أن النساء فلسطينيات من أهالي قرية تدعي "دير ياسين" قامت العصابات الصهيونية بقيادة "مناحم بيجين" بتجريدهن من ثيابهن ووضعهن على ظهر شاحنة عسكرية طافت بهن أنحاء القرية قبل أن يتم اغتصابهن ثم ذبحهن.

أخيرا تجلي لي الجسد الانثوي في تمامه. وحدث الارتباط في رأسي الصغير، لا بين الجنس والقتل، وإنما بين البحث عن المرأة والبحث في التاريخ.

شعرت بتيار خفي من التوتر في القاعة لم أدر كنهه أو مصدره. وكان بإمكاني أن ألمسه من تأمل وجوه "فادية" و"لاري" و"مونا". أما "ميجان" و"شرلي" و "فرنون" و"سابك" فكانت وجوههم كالعادة لا تبين عن شئ. وثبتت "دوريس" عينيها على النافذة واحتفظ وجهها الملئ بالبثور بملامح التوقع لشئ أخاذ مؤكد الحدوث.

قالت "مونا": لست متأكدة من حقيقة ما ذكرته عن "دير ياسين". أظن أن الذي حدث هو العكس.

أجبت: هذه هي مشكلة التاريخ. فهناك أكثر من رواية لكل حادث. و دور المؤرخ هو تمحيص الروايات والتحقق منها.

ألقيت نظرة سريعة على الورقة التي سجلت فيها أسماءهم وتوقفت عند لقبها ثم أضفت: أقترح أن تفعلي ذلك وتقدمي لنا عرضا بالنتائج التي تتوصلين إليها.

حاولت استعادة خيط حديثي. ثم انتبهت إلى نظرات الاستغراب في عيون الطلاب المعلقة بي. وحدجتني "شرلي"، بعينين رماديتين أسفل كتلة من شعربين البني والأشقر.

عجزت عن استئناف الحديث وحدقت في وجوههم يائسا. وأخيرا استسلمت فجمعت أوراقي قائلا:

– يكفي هذا اليوم. تكليفات القراءة مستمرة.

هل كانت هناك نظرة تفكه في عيني "فرنون"؟ وشبه ساخرة في عيني "مونا" أوكنت أتوهم؟

لم أشأ استخدام المصعد وهبطت الدرج وسط الطلاب المتدافعين. وأغلقت عيني وفتحتهما عدة مرات عندما خيل إلى أني لمحت "فيتز" بينهم.

اتجهت إلى مكتبي وطرقت بابه ثم أدرت مقبضه فلم ينفتح. استخدمت مفتاحي وجلست إلى مكتبي أحدق في الحائط المقابل.

لم يسبق أن حدث لي هذا. لماذا الآن؟

غادرت الغرفة إلى المطبخ. كانت هناك سيدة متقدمة في السن بالغة السمنة أمام الحوض تغسل نظارتها. حيتني بابتسامة ودودة قائلة: أنا مسز "كرين". وأنت البروفسور "شكري"؟

أومأت برأسي وتبادلنا كلمات الترحيب. أخذت كوبا

من البلاستيك وملأته بالمياه الساخنة من برميل معدني ثم فتحت الخزانة وأخذت كيسا من البن سريع الذوبان أفرغته في الكوب وأضفت ملعقة سكر ثم التقطت الورقة المعلقة وسجلت اسمي. ولحظت أنها انتهت من غسيل نظارتها وظلت واقفة تنظر إلى باسمة.

أدركت أنها تنتظر مني الخروج لتتمكن من مغادرة المطبخ. فرغم صغر المساحة التي كنت أشغلها كان احتكاك جسدينا محتوما بسبب حجمها.

حملت الكوب إلى غرفتي ووضعته فوق الطاولة. جلست وأدرت وجهي نحو النافذة التي تطل على سطح مبنى ملاصق. رفعت الكوب إلى شفتي ولم ألبث أن شعرت بالعزوف عن تناول محتوياته. تركته فوق المكتب وأخذت حقيبتي ومضيت إلى مدخل القسم.

كانت "فيفيان" -السكرتيرة السوداء- تلوك شيئا بين أسنانها في بطء كالعادة وعلى وجهها نظرة حالمة. تجاوزتها إلى داخل غرفة "جيني". كانت هناك شقراء أخرى تجلس في المقعد المجاور لمكتبها. وفوقه استقرت صينية الحلوى المعهودة.

سألتها عما تم بشأن طلب الحصول على بريد إلكتروني.

قالت : لا بد من الانتظار قليلا حتي تحصل على رقم التعريف.

وأضافت وهي تتناول قطعة حلوى بأطراف أصابعها : وضعت لك بضع أوراق في صندوق بريدك .

مضيت إلى كهف البريد واصطدمت ب"فادية" خارجة منه. بدا عليها الارتباك ربما بسبب تماس جسدينا. وجدت النشرات الإعلانية المعهودة، ومنها واحدة من شركة كومبيوتر ودعوة لحضور حفلة موسيقية. ووردة حمراء مثبتة في ورقة عليها سطور بحروف الكمبيوتر.

تأملت السطر الصغير: " آريو أوكي ؟هل أنت بخير؟"

أودعت الورقة جيبي وحملت الوردة في يدي ثم عدت أتأمل الصناديق. كانت المفتوحة الخاصة بالمساعدين خالية من أية ورود. ولم يكن بوسعي التأكد بشأن صناديق الأساتذة المغلقة. عدت إلى "فيفيان" فتأملتني باسمة.

قلت : أريد أن أعرف نظام البريد. كيف يوضع في الصناديق ؟

قالت : أنا الذي أتلقي البريد وأوزعه عليها.

قلت : أنت إذن وضعت هذه الوردة في صندوقي ؟

هزت رأسها نفيا.

- هل تعرفين من وضعها؟

هزت رأسها مرة أخرى واتسعت ابتسامتها : الجميع يدخلون هنا. الأساتذة والطلاب والإداريون.

تركتها واتجهت إلى المصعد. وجدت "فادية" تنتظر أمامه.

بادرتني متسائلة وهي تنظرإلى الوردة : هل معك سيارة أم تحب أن أوصلك ؟

قدمت إليها الوردة فشكرتني وسألتها عن وجهتها.

قالت : إلى الحضانة لألتقط طفلتي.

قلت : سأذهب معك.

مضينا سويا إلى الجاراج وأخذنا المصعد إلى الطابق الأخير. خرجنا إلى ساحة انتظار لا يوجد بها أثر لإنسان. قالت وهي تتقدمني إلى سيارة "داتسون" قديمة :

- الحمد لله أنك معي.

وأضافت وهي تفتح لى الباب وتدورحول المقدمة نحو باب السائق: السنة الماضية تعرضت إحدى الطالبات للاغتصاب في هذا المكان. وأشارت إلى طرف الساحة.

قادت السيارة في براعة عبر الطوابق الأربعة حتي الشارع وهي تثرثر: أنا جئت وأنا صغيرة مع أهلي ثم افترق والداى وعادت أمي إلى "مصر". وزرت "مصر" في سن ١٨ فأصرت أمي على تزويجي لحمايتي.

هكذا بدأت محنتها. كان الزوج مهندسا معماريا ويكبرها بثماني سنوات. وعاد معها بالطبع لكنه لم يجد عملا فاشتغل سائق تاكسي. وسرعان ما تكشف - حسب قولها- عن شخص أناني لا يهتم إلا بنفسه. وبدأ ت الخلافات بعد الحمل وتضاعفت بسبب قلة الموارد المادية. واستغرقت إجراءات الطلاق ثلاث سنوات.

سألتني فجأة: وأنت هل لديك أطفال؟

أجبت بالنفي.

صمتت محرجة ثم سألتني عما إذا كنت مستريحا في سكني.

قلت : لا بأس.

قالت : أين تسكن؟

وصفت لها المكان.

غادرنا السيارة بجوار دار الحضانة وعبرنا حديقة واسعة إلى مبنى صغير من طابق واحد. ولجنا صالة طويلة مقسمة إلى غرف بها لعب مختلفة وسيارات صغيرة وأركان لممارسة الهوايات من صلصال وألوان وفرش وأحواض كبيرة من البلاستيك مليئة بالمياه. عثرنا على "سارة" في إحدى الغرف منهمكة في لصق قبعة من الورق. أسرعت نحونا وهي تتحدث الإنجليزية بسرعة مائة كلمة في الدقيقة : موم. انظري إلى قبعتي. خضراءفي لون بنطلوني. إنها تلمع أكثر من قبعة "ريان"الحمراء. موم ، دعينا نرتدي القبعات عندما نتناول العشاء.

كانت سمراء ظريفة دقيقة الحجم. وتركتنا وسط بقية الأمهات لتحضر ملابسها وصندوق طعامها. واقتربت منا مشرفة أمازونية حلوة وجهت إلى التحية وسألتني عما إذا كنت جد "سارة".

اشتبكت "فادية" معها في حديث حول أحداث اليوم وما فعلته"سارة" وما لم تفعله. استرحت إلى جو المرح السائد وراقبت مشرفا متقدما في العمر يجلس وسط دائرة من الأطفال الذين اقتعدوا الأرض ويحدثهم بينما يقلبون كتبا في أيديهم.

انضمت "سارة" إلينا وبدأنا نتحرك نحو المدخل لكنها استوقفتنا قائلة : دقيقة واحدة.

علقت على الاهتمام البادي بالأطفال وكيف أننا نفتقد هذا كله في "مصر". قالت : إنهم يتعمدون إبراز هذا الاهتمام عندما يأتي الآباء لالتقاط أطفالهم.

تحولت الدقيقة التي طلبتها "سارة" إلى ربع ساعة طافت خلالها بأنحاء الداورنحن نتابعها عن بعد. لم تترك مقعدا أو بابا أو مشرفا دون أن توجه إليه كلمة الوداع "جودباي".

قالت "فادية" عندما صرنا في الخارج : هل تحب أن ترى الحى الصيني ؟ أريد أن اشتري بعض الأعشاب لأمي.

هتفت "سارة ": ييس موم. ييس موم.

لم يكن لدي ما أفعله كما أني وجدت نفسي أسيرا لجو عائلي محبب.

وضعت "فادية" ابنتها في مقعد صغير مثبت بالأريكة الخلفيةللسيارة وربطتها إليه بحزام أمان. وانطلقت بنا إلي شارع " لومبارد" الشهير. وأضحكها ما انتابني من رعب

عندما انحدر الشارع بشدة ومالت السيارة إلى أسفل وبدت نهاية الشارع مثل هوة عميقة القرار.

تركنا السيارة هذه المرة في جاراج كبير. وأطلقنا سراح "سارة" فتقدمتنا مسرعة كأنها تعرف الطريق. عبرنا بوابة على الطراز الصيني ثم شققنا طريقنا في شوارع ضيقة ازدحمت بالمارة والسائحين والمطاعم الصغيرة وأضاءتها القناديل. مررنا بحوانيت أقمشة وأحجار كريمة وأنتيكات ثم أخرى للبقالة امتدت أمامها فوق الرصيف الخضراوات والفواكه. وجاءت بعدها حوانيت الأسماك الطازجة والبط المشوي والدجاج الأزرق اللون.

ولجنا حارة ضيقة مرصوفة بالحجارة امتلأت بحوانيت الأعشاب والعطور. ابتاعت فادية مجموعة من الأعشاب واشتريت أنا بعضا من جذور "الجينيسنج" ذات السمعة العالمية.

خرجنا إلي ساحة تجمع فيها عواجيز الصينيين حول الأرائك الخشبية يلعبون الورق. وكان أكثرهم يرتدون سترات ثقيلة ويغطون رؤوسهم بطواقي صوفية تهبط فوق آذانهم.

قالت كأنما تفسر ظاهرة الملابس الثقيلة التي لا يتطلبها الطقس: أغلبهم عزاب لأنهم وفدوا في فترة جرى فيها تحديد الهجرة فلم يتمكنوا من إحضار نسائهم ولا وجدوا زوجات بين الطائفة الصينية.

اكتشفت أننا نقف إلى جوار تمثال لإلهة الديموقراطية، أقيم بعد أحداث ميدان "تيانمين" في بكين سنة ١٩٨٩. وجذبت "سارة" أمها من ملابسها فانحنت وحملتها بين ذراعيها. قالت :هذه الساحة كان يتم فيها "اللينشينج" .

- "لينشينج"؟
- أجل. يقرر الجمهور شنق زنجي أو صيني وينفذون قرارهم في الحال دون أن ينتظروا حكما قضائيا. كان الأمر هكذا منذ قرن ونصف قرن.

وعبرت "سارة" عن شعوري عندما أعلنت أنها متعبة وتريد الانصراف.

** ٧

امتدت مائدة طويلة في جانب من القاعة رصت فوقها الوجبة المتواضعة. والتمعت أشعة شمس العصاري فوق الأغطية المفضضة لصواني "تيك أواي". ووسط القاعة وقف عدد من أساتذة المعهد في حفل التعارف التقليدي الذي يقام مع بداية كل فصل دراسي.

تعرفت على بضع وجوه منها مسز "كرين" الضخمة التي تدلت نظارتها فوق صدرها. وهمس لي "ماهر":

- هل تعرف أنها تغسل نظارتها ثلاث مرات في اليوم بالمياه والصابون؟ لهذا تدعي مسز "كلين". تعال أعرفك بالروس.

قدمني إلى روسيين: امرأة أربعينية، بيضاء، قصيرة القامة، مليحة الوجه، ذات شفاه ممتلئة ورجل خمسيني امتلأ وجهه بالغضون وعلامات التعب. كانا زوجين ومعارين من معهد الدراسات الأسيوية والأفريقية بجامعة "موسكو". وبينما كان زوجها يدير نظرات قلقة في أنحاء القاعة حدثتني عن تخصصها في التاريخين التركي والفارسي. وعرفت أنها حصلت على دكتوراه الدولة -أعلى الدرجات

العلمية الروسية – منذ سنتين أي بعد تخرجها بعشرين عاما. ولحظت تقوسا خفيفا أعلى ظهرها، عزوته إلى طول العكوف على المخطوطات القديمة.

إنضمت إلينا أمريكية سوداء بدينة ، قصيرة القامة ، ترتدي بزة بيضاء اللون. كان شعرها المجعد منفوشا علي طريقة "أنجيلا ديفيز". خاطبتني باعتداد متسائلة عن بلدي ثم عن "الإرهاب". وكان برفقتها أمريكي أبيض خمسيني له وجه صبي تعلوه نصف نظارة فوق عينين نفاذتين.

أحضر لنا الروسي أطباقا ورقية وأدوات طعام فاتجهنا إلى المائدة. وكانت مسز "كرين" تسد الطريق فوقفنا خلفها ننتظر. ولمحها الروسي تحاول فتح زجاجة نبيذ فخف إلى عونها ثم صب لها ولنا. وشعرت أنه يبالغ في محاولة كسب ود الآخرين.

انكشفت محتويات المائدة أخيرا عن أطباق شرقية: لبنانية أوتركية. وضعت بضع حبات من ورق العنب المحشو في طبقي وأضفت إليها سلاطة زبادي. انتحيت جانبا بجوار رجل خمسيني مكتئب الوجه يرتدي قميصا حريريا بخطوط طولية زرقاء. عرفني بنفسه قائلا إنه إيراني .

سألته باهتمام : من "طهران" ؟

هز رأسه نفيا وقال: أنا أستاذ في جامعة"أوتاوة"الكندية.

عدت أسأله : هل تذهب إلى "إيران" ؟

أجاب بالإيجاب ثم أضاف كأنما قرأ منحى تفكيري: أنا أكاديمي وليست لي علاقة بالسياسة.

تطرق الحديث إلى صعوبة تحقيق المخطوطات والوقائع التاريخية. وقلت إن المشكلة معقدة لأنها تتعلق في جانب منها بالمقدسات الدينية. كم من المسلمين مثلا يعرفون أن

"أبي هريرة "كان يختلق الأحاديث النبوية وأن "عمر بن الخطاب" حذره من ذلك عدة مرات ؟

قال : لن تجد الأجيال القادمة صعوبة فيما يتعلق بالأحداث المعاصرة. فكل شئ مسجل الآن بالصوت والصورة.

ظهرت سيدة بالغة السمنة عند المدخل. تقدمت نحونا وهي تبتسم. ثم اكتشفت أن الابتسامة موجهة إلى مسز"كرين"التي تقدمت منها باسطة ذراعيها. شعرت كما لو أني أمام قاطرتين توشكان على الاصطدام. ولم تتمكن مسز "كرين" من احتضان صديقتها ولا حتى من تقبيلها في وجنتيها إذ حالت بينهما المصدات الأمامية.

لمحت "ماهر" يتحدث مع رجل قصير القامة نحيفها يرتدي بنطلونا بحمالات ملونة، ويضع "اليمكا" اليهودية فوق رأسه. اتجهت إليهما وقدمه "ماهر" لي على إنه أستاذ متخصص في الدراسات التوراتية. وأضاف : هذا هو اليهودي الوحيد هنا المعادي للصهيونية. لكن انتبه فهو شديد التدين : يراعي الكوشر(×) ويذهب الي المعبد ولا يعمل يوم السبت.

أضاف اليهودي: وأغطي رأسي ولا أرتدي كرافت أو حزاما.

لم أدرإذا كان يمزح أويتكلم جادا.

-أنت أمريكي؟

أومأ بالإيجاب ثم أردف بعد لحظة: أهلي من شرق أوروبا. أما زوجتي فإسرائيلية مخلصة. فهي تؤمن بحق "إسرائيل" في الوجود رغم اعترضها على سياستها.

– وأنت ؟

(×) هو الأكل الحلال بالنسبة لليهود المتدينين وينهي عن قتل الحيوان بالخنق أو الدق علي الرأس ويشترط الذبح وتسييح الدم.

– أنا ضد الصهيونية دينيا وسياسيا. على اليهود أن يبقوا في بلادهم الأصلية. كما أنني ضد النظام الرأسمالي ولا أشترك في الانتخاب.

أخذت قليلا من سلاطة البطاطس بالمايونيز وعرضت عليه أن أملأ له طبقا منها فهز رأسه نفيا.

قلت : الأكل النباتي حرام ؟

قال : أبدا.شرط ألا يختلط باللحوم ومنتجات الألبان.

وأضاف بلهجة فيهاشئ من التفكه : القاعدة أيضا ألا يؤكل في أوعية استخدمت في غير "الكوشر". لدى في البيت أوعية للحوم وأخرى لمنتجات الألبان وإذا أكلت خارج منزلي أستخدم أطباقا ورقية.

اقتربت مني "شادويك "وأمسكتني من ذراعي قائلة : تعال أعرفك بزميلتك في الغرفة.

قادتني إلى شقراء أربعينية في طولي ترتدي بلوزة خضراء اللون بكمين قصيرين فوق بنطلون من الجينز. ولحظت أنها تركت الزرارين الأخيرين من البلوزة مفكوكين.

تذكرت أني رأيتها في مكتب السكرتيرة. أحنيت رأسي لها وعرفت أنها متخصصة في تاريخ الشرق الأوسط، وتدعي" إستر".

قالت "شادويك" : أتمنى أن تمضي الأموربينكما على ما يرام.

تذكرت ما فعلته في الغرفة من الاستيلاء على التليفون والتقويم وتعديل وضع المكتبين بحيث نعطي ظهرهينا كل للآخر. وقبل أن أعلق ابتسمت قائلة :

– سأعد له "مناقيش" في أقرب فرصة.

أبديت عدم فهمي فقالت متعجبة :

– لا تعرف المناقيش ؟

هززت رأسي نفيا.

كان وجهها -الذي تطل منه عينان ذكيتان بزينة خفيفة لا تكاد تلحظ -يبدو قابلا للسمنة. وانجذبت عيناي إلى ساعدين لدنين لوحتهما الشمس. كان جسمها يميل إلى الامتلاء وشككت أن الزرارين الأخيرين في البلوزة مفتوحان لتخفيف ضغط البنطلون على بطنها.

قالت : لكن العرب جميعا يعرفونها.

– وكيف عرفتيها أنت؟

ضحكت : تعلمتها من حماتي.

اقتربت منا مسز "كلين" واستأذنتني في أن تأخذ "إستر" لتعرفها بالأساتذة الآخرين. ملأت طبقي بمزيج من عدة سلطات. وصببت كأسا من النبيذ. شعرت بلمسة لذراعي والتفت لأرى وجلا أبيض طويل القامة، جاحظ العينين، في بزة كاملة سوداء اللون. قدم نفسه إليّ باسم "ادوين" واستقرت عيناه على كأس النبيذ. عرضت عليه أن أصب له كأسا فقال بعربية ركيكة وهويبتعد : لعنها الله.

ظهر "ماهر" إلى جواري وهو يبتسم. قال : ماذا قال لك "ادوين لعنه الله"؟

أخبرته وأضفت : هل كان يسخر مني ؟

ضحك : أبدا . لقد أشهر اسلامه منذبضع سنوات وهو يعلق صورة "الخميني" في مكتبه ويؤم المصلين. وعندما يذكر في حديث أو محاضرة اسم أحد زعماء "إسرائيل"يردفه بعبارة "لعنه الله".

شرع بعض الحاضرين في الانصراف. وقال "ماهر" ونحن نتجه إلى الباب :

– هل قرأت تقرير "نيويورك تايمز" يوم الاثنين(×)؟
– تقصد عن "كلينتون" و"مونيكا"؟
أومأ موافقا ودعك أنفه: طريف.
قلت: مثل كل شئ هنا.

(×) تناول التقرير الذي نشرته "نيويورك تايمز" يوم ١٤ سبتمبر ١٩٩٨ في عدة صفحات، عشرة أيام من حياة الرئيس "كلينتون" في البيت الأبيض بين عامي ١٩٩٥ و١٩٩٧، تستند إلى تحقيقات "ستار" واعترافات "مونيكا". وقال التقرير إن الغرف المجاورة للمكتب الرئاسي المعروف بالمكتب البيضاوي شهدت سلسلة من اللقاءات الجنسية بين الاثنين شغلت أقل من عشر ساعات على مدى ١٦ شهرا.

وكانت "مونيكا" قد التحقت بالعمل متدربة بالبيت الأبيض في "يونيو" ١٩٩٥ بفضل نفوذ والدتها التي قدمت تبرعات كبيرة لحملة الرئيس الانتخابية. وبعد شهر بدأ الأمر بينها وبين الرئيس بنظرات متبادلة ثم مغازلة أو اثنتين تعمدت خلالهما أن تذكّره باسمها. وفي مساء يوم حافل بالنشاط هو ١٥ "نوفمبر" ١٩٩٥ انفردا صدفة في مكتب أحد معاونيه. وبدأت بينهما مغازلة رفعت خلالها سترتها من الخلف وأرته ملابسها الداخلية. وفي الساعة الثامنة مساء مرت بمكتب مساعد آخر وكان "كلينتون" به بمفرده فأشار إليها بالدخول. وقالت له إنها مغرمة به فضحك وسألها إذا كانت تحب أن ترى مكتبه الخاص. وقادها خلال الباب الواصل إلى قاعة طعامه الخاصة ثم إلى مكتبه المجاور للمكتب البيضاوي.

وفي هذا المكتب جرت معظم اللقاءات بينهما. وأثناء أحدها تلقي مكالمة تليفونية من مستشاره السياسي فوجه مسز "لوينسكي" لأن تستمر في "فعلها الجنسي" بينما واصل الحديث لمدة تسع دقائق.
لكن العلاقة انقطعت لفترة بعد أن تم نقلها إلى البنتاجون في "أبريل" ١٩٩٦. ولم يجر بينهما اتصال جسدي طوال ١١ شهرا، رأته خلالها في عدة مناسبات عامة منها حفل لجمع التبرعات للحزب الديموقراطي في ١٨ "أغسطس". في هذا الحفل اقتربت منه قائلة: "هاي ياوسيم! تعجبني ربطة عنقك" وعندما هم "كلينتون" بمصافحة أحد الضيوف الواقفين إلى جوارها مدت يدها ولمست منفرجه مداعبة.

وفي ٢٨ "فبراير" ١٩٩٧ دعاها لحضور تسجيل خطابه الأسبوعي في الراديو. وكانت ترتدي ثوبا أزرق اللون. وطلب منها الرئيس أن تقابل سكرتيرته بعد التسجيل لأنه يريد أن يعطيها شيئا. ومضى الثلاثة سويا

إلى مكتبه وكان أحد مساعدي الرئيس قد حذر السكرتيرة من انفراد الرئيس بالفتاة ولهذا ظلت معهما. لكنها لم تلبث أن تركتهما قائلة: "ساعود حالا" ثم ذهبت إلى غرفة الطعام حيث انتظرت بين ربع ساعة وثلث ساعة بينما ظل الرئيس و"مونيكا" بمفردهما في المكتب. وخلال ذلك قدم لها الرئيس هدية "كريسماس" عبارة عن دبوس قبعة وديوان شعر ل"والت ويتمان" ثم جرى بينهما لقاء جنسي في الردهة المعهودة.

وفيما بعد اكتشفت "مونيكا" على ثوبها الأزرق بقعا قرب الفخذ وفي مقدمة الرداء. وأثبتت تحليلات وكالة المباحث الفيدرالية أن هذه البقع من السائل المنوي للرئيس.

وفي يوم ٢٩ "مارس" ١٩٩٧ قال لها إنه يخشى أن تكون سفارة أجنبية معينة تتنصت على مكالماته التليفونية.

ويقول تقرير "ستار" إن العلاقة بين الاثنين تقوضت تحت ضغط خوف الرئيس من الافتضاح وشعور "مونيكا" بالاحباط لاستبعادها من حياته. وفي لقاء بالمكتب البيضاوي في ٤ "يوليو" ١٩٩٧، أنبها الرئيس على رسالة هددت فيها بفضح علاقتهما قائلا: "إن تهديد رئيس الولايات المتحدة أمر غير قانوني"!

٨ **

قالت "فادية" : كتاب "بروديل"(×) يتألف من ألفي صفحة. فكيف سنجد الوقت لقراءته؟

وأضافت بالعربية :إنت فاكر يا أستاذ اننا معندناش غير السمينار بتاع حضرتك؟ ثم إنه كتاب في الاقتصاد.

كانت منحنية على الطاولة مستندة بخدها إلى يدها على الطريقة المصرية وتتكلم باستهانة ، على الطريقة المصرية أيضا. والتفتت إلى زملائها-الذين تغيب منهم "فرناندو" و"روزيتا"- وكررت اعتراضها بالإنجليزية. وشعرت أن الباقين يتعاطفون مع احتجاجها.

رددت عليها بأن الاقتصاديين والمؤرخين لم يعودوا يؤمنون بأن الاقتصاد مجال قائم بذاته ولا بأن التاريخ الاقتصادي ينفصل عن غيره من المجالات. فكل الأمور في التاريخ بمسك بعضها ببعض. واستشهدت بمؤرخ مثل "هاوبسباوم "يفرد للتطورات الاقتصادية مساحة رئيسية عند تحليل التطورات التاريخية.

ثم أفضت في الحديث عن "بروديل" قائلا إنه من مدرسة في التاريخ تسعى إلى الإلمام بجوانب الحياة في العصور التي تتناولها. فلا هي تقتصر على الملوك والحروب ولا على الفقراء والكادحين بل تحيط بطوائف المجتمع المختلفة وحياتهم

(×) يعتبر "فرناند بروديل" (١٩٠٢- ١٩٨٥) من أبرز المؤرخين الفرنسيين المعاصرين. والكتاب المشار إليه هو أهم مؤلفاته وعنوانه "الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية". وهو موسوعة ضخمة من ثلاثة مجلدات ظهر أولها عام ١٩٦٧. وصدرت ترجمته العربية عام ١٩٩٢ في "القاهرة" والإنجليزية عام ١٩٩٣.

اليومية. وتعتمد في ذلك على العلوم المختلفة من جغرافيا واقتصاد فضلا عن التاريخ المتخصص وبخاصة تاريخ الفنون وتاريخ التقنية وتاريخ الطب.

وقلت إنه تحدث عن لقمة العيش والسكن والملبس والنقل مستعينا بقصص الرحالة والبحارة وتعليقات التجار والصحفيين والأدباء وأوراق التوثيق العقاري والأسواق واللوحات والرسوم. وصار عمله بذلك لا غنى عنه لمن ينتوي التخصص في دراسة التاريخ المقارن. كما أن لغته تتميز بالحيوية الشديدة وطابع الحوار مع القارىء والبعد عن الصياغات المجردة.

وقلت إني قد لا أتفق مع بعض أطروحاته وخاصة مبالغته في الدور الحضاري لفرنسا- بلده- وتجاهله لما قامت به من نهب للشعوب الأخرى في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وتدمير لحضاراتها. ومع ذلك فهو يدعونا إلى التفكير والمقارنة والملاحظة وهي الأدوات الرئيسية للباحث الجاد. ويؤكد حقيقة لها أهميتها اليوم وهي أن المنافسة التي هي السمة الأساسية لاقتصاد السوق ، لا تلعب أي دور في النظام الاقتصادي الحالي الذي تتحكم فيه مجموعة من الاحتكارات العالمية.

شعرت أني أتحدث في فراغ فسألت : هل قرأتم صحف الأمس واليوم ؟

واستطردت دون أن انتظر الاجابة التي خمنتها : ألم تنتبهوا إلى الانهيار المفاجئ في البورصة الذي لم يحدث منذ ١٢ سنة ؟ التعليقات كلها تتوقع هبوطا كالذي حدث عام ١٩٨٧. وهو ما توقعه "بروديل" أيضا.

لاحظت في بعض الوجوه لا مبالاة بماقلته. وبدا لي أنهم مشغولون أساسا بعبء قراءة كل هذه الصفحات. وساورني الشك في أن أحدا منهم سيصبح مؤرخا حقيقيا في يوم من الأيام. وقررت أن ألتقي بهم في منتصف الطريق.

قلت : يمكننا أن نكتفي بقراءة المجلد الثالث فحسب الذي يتناول الفترة من القرن الخامس عشر حتي الثامن عشر.

قدرت أني نجحت في خنق التمرد وانتقلت على الفور إلى الحديث عن سيرتي. وعدت بذاكرتي قرابة أربعة عقود ونصف إلى الوراء. قلت إني توقفت في الدرس السابق عند بدء تكوين أرشيفي من الصور. وكان مرجعي الرئيسي صحيفة أسبوعية تنشر ملحقا مصورا بالروتوغرافور من أربع صفحات، له ركن ثابت في الصفحة الثانية للممثلات شبه العاريات. كانت هذه الصحيفة ممولة من القصر الملكي ومن السفارة البريطانية. وتشن هجوما متواصلا على حكومة "الوفد" التي جاءت بها الانتخابات فتنشر في الصفحة الأولى من الملحق، صورا "فاضحة" من نوع آخريظهر فيها رئيس الحكومة "مصطفي النحاس" وهو يتأمل خاتما من الماس في اصبعه، وزوجته "زينب الوكيل" مرتدية عقدا ثمينا من اللآلئ. وعندما كنت أقطع صور ممثلات الصفحة الثانية كانت تأتي معها الصور السياسية من الصفحة الأولى. هكذا اتسع ارشيفي بالتدريج ليضم شخصيات سياسية. كما اتسعت اهتماماتي وامتدت إلى الصحف التي حملت لواء المعارضة للملك وكبار الملاك ودعت إلى طرد الإنجليز من قواعدهم بمنطقة قناة السويس وإنهاء احتلال دام سبعين سنة. وعلى رأس هذه الصحف

كانت جريدة "الاشتراكية "التي يصدرها "أحمد حسين"(×) بمقالات ملتهبة ضد الإقطاع والملك.

كنت أيامها في السنة الأخيرة بالمدرسة الثانوية. أسير إليها كل صباح من منزلي القريب مارا بسور الجامعة ومدخلها الرئيسي المهيب متأملا الطالبات اللاتي ضممن كتبهن إلى صدورهن النافرة - إذ كان التخلي عن حقيبة الكتب أول مؤشر لتجاوز مرحلة التلمذة والانتقال إلى المرحلة الجامعية - حالما باليوم الذي أعبر فيه هذا المدخل وأجلس إلى جوارهن.

وشاء حظي أن أخترق هذا السور قبل الأوان في مظاهرة صاخبة سارت من المدرسة وانضمت إلى طلبة الجامعة الذين احتلوا قاعة الاجتماعات الكبرى. وألقى أحد الطلاب - وكان يرتدي طربوشا على عادة طلاب السنوات النهائية المخضرمين

(×) يمثل أحمد حسين (١٩١١- ١٩٨٢) إحدى الظواهر المثيرة للجدل في التاريخ السياسي المصري الحديث. فقد بدأ حياته وطنيا متحمسا متأثرا بالحركة النازية وكون في ١٩٣٣حركة سياسية على غرار الحركات الفاشية باسم "مصر الفتاة" وتبنى مشروعا للاقتصاد الوطني عرف باسم مشروع "القرش" وتقلبت تحالفاته بين القوي اليمينية والقصر الملكي أحيانا إذ احتفظ بعداء دائم لحزب "الوفد" الشعبي. وبدل إسم حركته عدة مرات. وفي نهاية الخمسينيات اتخذلها اسم "حزب مصر الاشتراكي". وشن عبر جريدته حملة شرسة ضد الإقطاع والملك خلقت له شعبية كبيرة. ثم اتهم بالمسئولية عن حرق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ وحكم عليه بالإعدام ولم ينقذه من حبل المشنقة سوى قيام الثورة بعد ستة شهور. ومع ذلك أبقاه النظام الجديد في السجن بعض الوقت خوفا من شعبيته. وعقب الإفراج عنه اعتزل النشاط السياسي وعكف على إعداد موسوعة ضخمة عن تاريخ "مصر". وفي عام ١٩٦٩ أصيب بشلل كلي أقعده عن العمل في الموسوعة حتي عام ١٩٧٤ عندما استأنف العمل بها حتي انتهى من جزئها الرابع في عام ١٩٧٨.

أو المتقدمين في العمر- كلمة حماسية أنهاها هاتفا بسقوط الملك.

وفي مساء يوم تال تأكد موقعي كشاهد عيان لتاريخ يصنع أمامي بل أشارك فيه ولو بقدر ضئيل.

فقد أذن لي أبي أن أذهب إلى اللقاء الأسبوعي الذي يعقده "أحمد حسين" زعيم الحزب الاشتراكي في مقره كل خميس. كان آخر عدد من جريدته قد حمل عنوانا عريضا: "الثورة.. الثورة.. الثورة". رأيته أخيرا وجها لوجه وفوجئت بأنه قصير القامة يرتدي سترة بيضاء وبأن خطابه كان بعيدا عن السياسة. وبالرغم من ذلك حاصرت الشرطة المكان واعتقلت أغلب الموجودين فيه ونالتني صفعة هائلة من كف قائدها. وكانت هذه الصفعة هي التي أبعدتني إلى الأبد عن النشاط السياسي.

ما حدث بعد ذلك افتتح صفحة جديدة في التاريخ المصري الحديث.

ففي يوم ٢٦ يناير احترقت القاهرة وفرضت الأحكام العرفية وتغيرت الحكومة عدة مرات إلي أن استولى الجيش على السلطة في ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

انشغلت بعد ذلك بالتحضير لامتحانين هامين : الأول هو امتحان شهادة الدراسة الثانوية والثاني امتحان خاص أعلنت عنه وزارة المعارف يتمتع الناجح فيه بمجانية التعليم الجامعي. اخترت لهذا الامتحان مادة التاريخ وكان عليّ أن أقرأ أربعة مجلدات أذكر منها الجزء الثاني من "تاريخ الجبرتي" وكتاب جميل بعنوان " صور من التاريخ الإسلامي" وثالث بالإنجليزية هو "فائدة التاريخ" ل"روزي". كرست وقتي كله لدراسة هذه الكتب وأهملت مواد الامتحان الأساسي حتي كدت أرسب فيه.

وفي خريف العام التالي ، كنت أشق طريقي مرتديا سترة واسعة وحذاء كالقارب من ملابس أبي إلى داخل الجامعة المصرية وكلية الآداب وقسم التاريخ بالطبع.

لكني سرعان ما شعرت بالإحباط. فالتاريخ الذي أقبلت على دراسته كان عبارة عن تسلسل معارك وملوك وعظماء وانتصارات وهزائم. مئات الأسماء والتواريخ دون تفسير. وسرد وتجميع على طريقة مؤرخي العصور الوسطي.

وتوافق ذلك مع فلسفة التعليم ذاتها التي وضع أسسها المستشار الإنجليزي "دنلوب" عقب الاحتلال الإنجليزي ومازالت سائدة حتي اليوم - أي بعد أكثر من قرن - بهدف تخريج موظفين جل اعتمادهم أثناء الدراسة على الاستظهار والحفظ لا على القوى العقلية في الابتكار والاستنباط. وأذكر مرة أردت أن أتفلسف على أحد الأساتذة فتساءلت عما إذا كان من الممكن اعتبار الفتح العربي ل"مصر" حربا توسعية تحت ستار الدين. وتعرضت يومها للسخرية والاستهزاء فكيف أجرؤعلى التفكير بشكل مختلف؟

ظهرت تقطيبة غاضبة على وجهي "فرنون" و"فادية" وابتسامة ساخرة من "مونا" و"شيرلي".

رسمت لهم صورة للجو البوليسي الذي ساد الجامعة بعد مارس ١٩٥٤ وكيف صارت تبعث على الملل وتدفع إلى الهرب. صرت أقضي معظم وقتي بين المكتبة وممر "سان جيتار" وهو الاسم الذي أطلقه الطلبة على ممر صغير يؤدي إلى بوفيه الكلية الأنيق الذي يزدحم بالطلبة والطالبات بين المحاضرات. في هذا البوفيه عقدت صداقات كان لها تأثير حاسم في مستقبلي. وبالنتيجة رسبت في كل العلوم في أول سنة فأعدتها. وتكرر رسوبي في السنة التالية.

وفي سنة ١٩٥٦ تغيرت حياتي.

في صيف تلك السنة قام "جمال عبد الناصر" بعمل

تاريخي عندما أعلن تأميم قناة السويس التي كانت تتحكم فيها شركة عالمية وذلك ردا على سحب البنك الدولي -بطلب أمريكي-لعرض تمويل بناء "السد العالي". وبعدها بشهور تعرضت البلاد لعدوان ثلاثي من جانب "انجلترا" و"فرنسا" و"إسرائيل"، وعادت القوات الانجليزية إلى قواعدها التي أخلتها قبل عامين. لكن التغيير الذي عنيته كان على صعيد آخر.

فقد تولت التدريس لنا معيدة، هي أول فتاة تنضم إلى هيئة التدريس. كانت أطول مني قامة، ذات شعرناعم تعقده من الخلف على هيئة ذيل حصان. دخلت علينا أول مرة بقميص رجالي أبيض شمرت كميه حتي الكوعين. ولمست على الفورشبها كبيرا بينها وبين "حتشبسوت" التي أغرمت برسم وجهها منذ سنوات قليلة: الجبهة العريضة والعينين الواسعتين والأنف المستقيمة والشفاه الحسية الرقيقة.

صرت أنتظر بفارغ الصبر موعد محاضراتها وأحرص على الجلوس في الصف الأمامي وقد تعلقت عيناى بشفتيها، متحاشيا النظر إلى صدرها أو ساقيها، فمشاعري كانت "أعلي" من ذلك. وشعرت هي بالأمر فكانت تتجاهلني أو تلقي على نظرة عابسة. وفي أحد الأيام رمقتني بنظرة عابثة متسائلة فلم أنم ليلتها.

كانت أول واحدة تستولي على مشاعري دون أن أجسر على مفاتحتها. اكتفيت بخطابات طويلةوجهتها إليها دون أن أرسلها بالطبع.

توقفت عن الحديث وأجلت النظر حولي. كانت "فادية" تتأملني كعادتها بنظرة حرت في فهمها. هل هي استنكار لما قد يبدو في أحاديثي من استهتار بالتقاليد المحافظة للمجتمع المصري؟ هل يشاركها "فرنون عبد الرحمن" الرأي؟ وكنت عاجزا عن قراءة عيني "ميجان" المائلتين أو "دوريس"

المختفيتين خلف نظارتها واللتين تبدوان دائما غائبتين في مكان ما. أما "شرلي" فكان وجهها مصمتا كوجه "أبي الهول". وتملكتني لحظة تهورفأقدمت على شئ ما كان يمكن أن أفعله مع طلبتي في الجامعة المصرية.

قلت إن حياتي القصيرة قبل ذلك خلت من أي عاطفة متقدة نحو الجنس الآخر. ترددت لحظة ثم قلت: والواقع أني أغرمت بتلميذ معي في المدرسة الثانوية، له شفتين جميلتين، طالما سعيت إلى تقبيلهما دون فائدة.

توقفت مرة أخري وأجلت النظر حولي. استطردت:

-بالطبع من المعروف الآن جيدا أن اهتمام الإنسان يتجه في مطلع نموه الجنسي لا إلى الجنس الآخر وإنما إلى جنسه هو. وفيما بعد تتدخل ظروف عديدة في تكوينه الجسدي والنفسي والبيئي لتحدد هويته الجنسية في مستقبل أيامه.

ابتلعت ريقي ثم واصلت: كانت "رجاء" كما قلت أول فتاة تثير اهتمامي العاطفي وكانت هي المسئولة عن تجدد اهتمامي بالدراسة. كانت لا تفتأ تهاجم برامج التدريس التي وضعت بعد الثورة وتقول إنها تستهدف تكوين المواطن المعتز بقوميته بالتركيز على الأمجاد التاريخية دون إطار يجعل الطالب قادرا على فهم أسس بنيته المعاصرة.

ابتسمت كل من "شرلي" و"مونا" ابتسامة متفهمة تعبر عن شعور بالتفوق. أضفت وأنا أنظر إليهما بحدة:

- هذه ظاهرة عالمية. ف"هاوبسباوم" في كتابه "عن التاريخ" الصادر في العام الماضي، يشكو من تفشيها بمراحل التعليم العام في الغرب حتى اليوم.

علق "لاري": عندنا في أمريكا غالبا ما يخضع المؤرخون الذين يعملون في ظل المؤسسة الأكاديمية الرسمية

لطلبات السوق التي تفرض كتبا معينة على تلاميذ المدارس الثانوية وطلاب الجامعة فيكتبون ما يطلق عليه "التاريخ الآمن" الذي لا يتعارض مع الخط العام للنظام.

واصلت حديث فقلت إنني كتبت أول بحث لي بتشجيع من "رجاء" وتحت اشرافها وكان عن الملكة "حتشبسوت" (×).

كان السبب في اختياري واضحا. أضيفوا إليه اختلاف المؤرخين بشأنها فقد تحامل عليها "سليم حسن" عميد مؤرخي العصر الفرعوني. فبالرغم من إقراره بأن البلاد ازدهرت في عهدها الذي استمر عشرين عاما، أوشك أن يتهمها باغتصاب العرش. وقال إنها وقعت تحت تأثير أكبر معاونيها واستغلت ضعف صحة زوجها "تحتمس الثاني" للسيطرة على البلاد و"أحكمت مؤامرتها" على حد تعبيره. وعاب عليها أنها شعرت بجدارتها لأن تكون الوريثة لعرش أبيها. كما أوشك أن يعيب عليها أيضا أن العنف لم يكن من طباعها وأنها لم تكن "سفاحة ولا محاربة " فالحملة الوحيدة التي قامت بها كانت حملة

(×) حكمت "حتشبسوت" "مصر" من ١٤٧٩ قم إلى ١٤٥٨ قم بعد بناة الأهرامات بألف سنة وقبل "رمسيس الثاني" بقرنين و"اخناتون" بقرن وسبع وعشرين سنة. وكان أبوها "تحتمس الأول" قد لمس ضعف شخصية ابنه. كما رأى أن ابنته الكبرى مجردة من الطموح بينما كانت شقيقتهاالصغري، "حتشبسوت"، جريئة مقدامة وبالتالي المرشح المثالي لخلافة العرش. وفي عامها الخامس عشر استدعاها أبوها بعد وفاة أمها فظنت أنه يريد أن يتزوجها لكنه كان ينوي تتويجها لكى تشاركه الحكم وتتعلم فنونه ثم تخلفه عند موته. وعارض الكهنة والنبلاء هذه الرغبة لأنهم كانوا يريدون الذكر الضعيف،أخاها، فوق العرش. ثم توصل الجميع إلى إتفاق بأن تتزوج أخاها من أبيها، الذي أصبح "تحتمس الثاني"، لينتقل إليه العرش وتتولى بذلك الحكم. وقد حكمت "مصر" حكما فعليا لمدة ٢٤ سنة وتسعة أشهر وإن اقتسمت السلطةمع ثلاثة فراعنة: والدها "تحتمس الأول" وزوجها"تحتمس الثاني" وابن أخيها "تحتمس الثالث" الذي انفرد بعدها بالحكم.

سلمية أرسلتها إلى بلاد "بنط "(الصومال). وادعىّ مؤرخون آخرون أنها كانت ألعوبة في يد مستشارها "سنموت"(×).

أقبلت أقرأ كل ما كتب عنها وعن عهدها. تلبستني الرغبة في أن أتخلل ثنايا جلدها وأغزو أعماقها. صرت ممسوسا بها حتى توحدت معها وأصبحت أعيش معها لحظة بلحظة...

الحمام اليومي البارد في الحوض الحجري، الدعك بالصابون والقماش، ثم بالزيوت فوق طاولة التدليك، تعطير الفم بالجميز، خط الكحل الأسود فوق العينين حتى الأذنين، اللون الذهبي للجفون، الحنة للشفاه وراحتي الأيدي وكعبي القدمين، الباروكة االثقيلة المؤلفة من مائة ضفيرة، التاج المزدوج الطويل ذو اللونين الأحمروالأبيض، أفعى ذهبية فوق الجبهة، صدرية ذهبية على شكل طائرين متواجهين، ثوب رقيق من الكتان الشفاف، صندل ذهبي ضفرت شرائطه بالجواهر، نظرة أخيرة إلى المرآة النحاسية الكبيرة من عينين سوداوين لامعتين، شفتان رقيقتان في فم واسع، ذقن متعالية تتدلى منها اللحية القصيرة المستعارة، ثم الخطوات المتمهلة عبرغابة من القاعات غطت جدرانهاإلى المنتصف بأوراق الذهب، المحفة الملكية يحملها العبيد الأجانب فوق شوارع معبدة بالحجارة، العبارة النهرية إلى الشوارع المزدحمة في "طيبة" الشرقية وطريق تماثيل أبو الهول حتي البوابات البرونزية للمعبد، وأخيرا قدس الأقداس حيث الإله العظيم نفسه،"أمون" أبوها، فوق عرشه الذهبي ويداه الذهبيتان فوق ركبتيه الذهبيتين وفوق الفم الذهبي ابتسامة خفيفة، وحوله الكهنة حليقو الرؤوس بوجوههم الجامدة ونظراتهم الغامضة، بينهم شيوخ اشتركوا في طرد "الهكسوس" زمن "أحمس"، يتحكمون في ايماءاته وقراراته، وينطرح الحاجب أرضا وهو يهتف: "انتبهوا: جلالة

(×) تبنى "أحمد حسين" هذا الاتجاه في موسوعته التاريخية، فقال في الجزء الأول الصادر سنة ١٩٧٠: "وما كان لامرأة أن تصل إلى ما وصلت اليه من قوة جبارة إلا بمساعدة الرجال".

الأرض السوداء ، حورس الذهب. ليعش الإله إلى الأبد!". فتدخل الملكة وبنظرة موحية من الكاهن الأكبر تنحني وتزحف على ركبتيها أمام الإله، تقدم الولاء والطاعة، ثم تعود إلى القصر للغداء والقيلولة ، وفي المساء توقد الشموع وتمد موائد واطئة محملة بأواني النبيذ والفاكهة ، بط مشوي ،خيار محشو بالسمك، أرز مسلوق في الصلصة، سلاطة من كافة الخضراوات والنباتات الطازجة ، صحون وملاعق ، ماسكات الرياح على الأسطح توجه النسيم القادم من الشمال ليجري في أنابيب إلى أسفل، عبدتان سوداوان يلمع العرق فوق جسديهما تحركان مراوح من الريش ، سيدات في ملابس رقيقة شفافة، رؤوسهن مغطاة بشعور مستعارة زرقاء اللون تحمل أقماعا من العطور البطيئة الذوبان، كاتب الرسائل الذي يتحاسب بالكلمة، متربعا أمام محبرته وفي أذنه قلمان من البوص ، راقصة تهتز على إيقاع الدفوف والناي ، عبق الزهور المنثورة في كل مكان، مصففة علي هيئة "عنخ"، مفتاح الحياة الذي صار صليب المسيح. ثم هي ، في تنورة ترتفع بوصتين فوق ركبتيها، الجفون غارقة في لون أخضر ثقيل ،الشفاه وأظافر اليدين والقدمين في لون أحمر، وأسفل الباروكة الثقيلة المعقدة جبهتها العريضة وعيناها السوداوان اللامعتان..

انتبهت إلى عيني "شرلي" تحدقان بي. انتزعت نفسي من شرودي ولم يصعب على هذه المرة أن أتبين أين كنت.

قلت : كنت أبحث عنها بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من اختفائها. ولم يكن هذا بالأمر السهل. فقد تجاهلتها القوائم الملكية ، ولم يُعثر أبدا على مومياتها، وحُطمت أغلب تماثيلها وأزيلت آثارها حتى أن "رمسيس الثاني" أضاف لها عضوا ذكريا في نقش يصورها طفلة ، حتى لا يخطر ببال أحد وجود امرأة بين الفراعين. فهل كان جنسها هو سبب العداء الذي واجهته؟ كان هذا هو أول ما تبادر إلى ذهني. ثم تكشف لي الصراع الذي دار بينها هى وفريقها من الإداريين والمعماريين من جانب وبين الكهنة والنبلاء والجنرالات من

جانب آخر. فقد فتح الرخاء والازدهار شهية الطبقة الحاكمة إلى التوسع وأعلن "آمون" أن البلاد الأجنبية ستصبح أرضا مصرية. لكنها رفضت أن تحارب إلا في حالة الدفاع. هل لأنها كانت تفضل البناء على الحرب؟ أم لأنها أدركت أن الحرب ستعطي نفوذا للجنرالات وحلفائهم يؤدي إلى تقويض سلطتها؟

بلعت ريقي وأضفت: لكن مصيرها ظل لغزا. فقد اختفت فجأة وانفرد "تحتمس الثالث" بالحكم وتحققت رغبة "آمون". فقد شيد إمبراطورية امتدت إلى "اليونان" شمالا و"بين النهرين" شرقا و"السودان" جنوبا.

شعرت بالإرهاق فرفعت الدرس لاستراحة قصيرة. دخنت سيجارة في النافذة ثم تجمعنا من جديد وفتحت باب التعليق. وانصبت التعليقات على الحضارة الفرعونية وسر انهيارها.

قالت "فادية": العامل الرئيسي هو ضعف الملوك الأواخر والتجائهم إلى العناصر الأجنبية المرتزقة من الأغريق. فهؤلاء ساعدوا الفرس على احتلال "مصر" ومكنوا "الأسكندر" من غزوها بعد ١٥٠سنة.

قلت : وما الذي أضعف الملوك الأواخر؟ لماذا تجمدت الحضارة المصرية القديمة وكيف تحولت "مصر" من إمبراطورية إلي أطول مستعمرة في التاريخ علي حد قول "جمال حمدان"؟

قال "لاري" الذي يحمر وجهه كلما تكلم : حسب "توينبي" (×) فان صعود وسقوط حضارة ما يعود إلى مبدأ

(×) "أرنولد توينبي" (١٨٨٩-١٩٧٤) ، يعد كتابه "دراسة التاريخ" المكون من اثنى عشر جزءا ونشره بين عامي ١٩٣٤ و١٩٦١، بالبحث الرائد في مجال فلسفة التاريخ بالنسبة للعصر الحديث وفيه يدرس قيام وسقوط اثنتي عشرة حضارة.

التحدي الذي تواجهه هذه الحضارة وقدرتها على الاستجابة له. فما هو التحدي الذي واجهته الحضارة الفرعونية وفشلت في مواجهته؟

علقت "ميجان" مستشهدة بأطروحة المؤرخ الأميركي "بول كنيدي"(×) : إذا زادت الالتزامات الإستراتيجية للدولة العظمى على إمكانياتها الاقتصادية اضمحلت قوتها تدريجيا. وهذا قد يفسر أيضا سقوط الإمبراطورية السوفييتية.

اعترض "لاري": سقوط الاتحاد السوفييتي ارتبط أكثر بعجز النظام عن مواكبة التطورات التكنولوجية.

أزاحت "شرلي" خصلة من شعرها سقطت على جبينها وقالت : أظن الأمر أعمق .. كان شعاره هو :من كل حسب قدرته ولكل حسب احتياجاته. وهو شعار مستحيل التطبيق. وعندما تلاشى الحلم، وتجلى الفارق بين النظامين، تهاوت الشيوعية.

أعادنا "سابك"، سليل الهنود الحمر، إلى موضوع النقاش قائلا: جانب من هشاشة إمبراطوريات "فارس"و"روما" و"الأزتيك " و"الإنكا "يعود إلى طابعها الاستبدادي الاستغلالي وبالتالي عدم مبالاة رعاياها بهوية حكامهم. فهل ينطبق هذا على الفراعنة؟

استخرجت "مونا" بقايا ساندوتش من حقيبتها وقالت : يمكن الاستعانة بنماذج السقوط المعروفة. الإمبراطورية البرتغالية مثلا. كان صعودها مرتبطا بتفوق البرتغاليين في التقنيات البحرية. ويعود هذا التفوق بدوره إلى أنهم كانوا على استعداد للتعلم من العلماء الأجانب ، وأكثرهم يهود. وعندما بدأ اضطهاد الأسبان لليهود في عام ١٤٩٢

(×) مؤرخ أمريكي معاصر، من أصل إنجليزي ، يتولي التدريس بجامعة "ييل". وردت أطروحته في كتاب " صعود وسقوط القوى العظمي من عام ١٥٠٠.. حتي عام ٢٠٠٠ "، الذي صدر عام ١٩٨٧ وتنبأ فيه بسقوط الإمبراطورية الأمريكية.

التجأ أكثرهم إلى البرتغال. لكن لعنة التعصب لاحقتهم وتعرضوا للإبادة بعد نصف قرن. وهاجر الناجون بما فيهم علماء الفلك إلى "هولندة" حاملين معهم المال والمعرفة.

عقبت "شرلي" وعينها على الساندوتش : أنت تشيرين إلى خروج اليهود من "مصر" .. متى كان ذلك؟

تدخلتُ قائلا : هذه قضية لم تحسم بعد. على أية حال أنصار هذ المقولة يفترضون أن الخروج تم سنة ١٢٢٤ ق.م. أي قبل سبعة قرون من سقوط "مصر" في يد الفرس.

قالت "فادية": إنها مدة طويلة جدا تنفي وجود العلاقة. "ابن خلدون" تحدث عن صعود وسقوط الدول. وأكد أن السقوط يبدأ بما تحققه من رخاء ورخاوة وتبذير واسراف.

أطرقت "دوريس"برأسها مؤمنة: هذا ينطبق تماما على الإمبراطورية الأسبانية. فقد جمعت أموالا هائلة من المستعمرات وبدلا من استثمارها أنفقتها على الكماليات والحروب. وما أن انتهى تدفق الذهب في منتصف القرن السابع عشر حتى بدأت البلاد انحدارها الطويل.

ابتسمت "مونا" في خبث متسائلة: هل ينطبق هذا اليوم على الدول العربية التي جمعت أموالا هائلة من النفط وبددتها؟

أضافت "شرلي" وهي تدس قطعة حلوى في فمها: وعلى الإسلام بشكل عام.

هم "فرنون" الأسود ، أو " عبد الرحمن " أن يعترض لكن "مونا سبقته": صحيح. ابتداء من لحظة الذروة في سنة ١١٨٧ بدأ انحدار الإسلام. لأنه انغلق في وجه المعرفة.

احتجت "فادية" فواصلت "مونا":عندما غزا المسلمون فارس في ٦٣٧ وصادفوا كمية هائلة من الكتب والمؤلفات العلمية كتب "سعد بن أبي وقاص" إلى "عمر بن الخطاب

"يسأله السماح بتوزيعها على المسلمين كغنائم. ورد عليه "عمر" يأمره بإلقائها في النهر. إنه تقليد إسلامي.

تدخلت قائلا: هناك خطأ منهجي في هذا الكلام. فالإسلام ليس نظاما. إنه دين. وأنتم تتحدثون عن الإمبراطورية التي قامت تحت مظلته.

قدرت أن النقاش قد توسع بما فيه الكفاية فأضفت: فيما يتعلق بالحضارة الفرعونية فأنا أميل إلى رأي أحد علماء الجيولوجيا المصريين(×) في هذا الشأن. فهو يقول إن التخلف التكنولوجي عرض "مصر" القديمة للدمار مرتين. الأولى سنة ١٦٨٠ قم عندما عرفت قبائل "الهكسوس" على أطراف الصحراء السورية البرونز وابتكرت العربات الحربية فتمكنت من غزو "مصر". واحتاجت هذه إلى قرن كامل كي تعرف صناعة البرونز وتتعلم فنون القتال الجديدة حتى تمكنت من طرد "الهكسوس". وتكررت المأساة مع الحديد الذي لم تكن تملكه ولا الخشب وهو الوقود اللازم لتصنيعه، فدخلت عصره متأخرة بعد الحيثيين بخمسة قرون. انهارت إذن لأنها عجزت عن مجاراة المستحدثات التقنية والحربية التي جاءت مع عصر الحديد.

انتقل النقاش بعد ذلك إلى المقدمات الأولية لسقوط الإمبراطوريات. وركز "لاري" على ظاهرة السعار التي تفشت لدى الرومان في السنوات الأخيرة للإمبراطورية ووصف كيف شاهد بين أطلال مدينة "بومبي" الايطالية ساحات الطعام والشراب التي تضم مكانا مخصصا لإفراغ ما في جوف المحتفلين من طعام زائد ليتمكنوا من ازدراد المزيد.

(×) هو "رشدي سعيد" أستاذ الجيولوجيا المصري المعروف الذي يقيم الآن بالولايات المتحدة وقد عرض رأيه باستفاضة في مقال بعنوان "أزمة في الطاقة أدت إلى سقوط الحضارة الفرعونية" نشرته مجلة "وجهات نظر" القاهرية، عدد يوليو ١٩٩٩.

ألقيت نظرة على ساعتي ثم أعلنت انتهاء الدرس. سألتهم عن مكان قسم الكمبيوتر فتطوعت "دوريس" لمرافقتي إليه.

غادرنا المعهد وعبرنا أرض الكامبوس الشاسعة تحت شمس قوية تركت أثرها على الطلبة والطالبات فتخففوا من ملابسهم. ولمحت "روزيتا" من بعيد مع "فرناندو" يتجادلان في انفعال.

كانت "دوريس" تسير محنية الرأس تحت ثقل حقيبة منتفخة مثبتة فوق ظهرها فعرضت عليها أن أحمل عنها الحقيبة. التفتت إلى مندهشة وقد تضرج وجهها ورفضت بشدة.

سألتها: كتب؟

ازداد احمرار وجهها وأجابت: لا. إنها أغراضي فقد انتقلت إلى سكن جديد.

- أنت وحدك هنا؟

- أجل. سكنت أولا في غرفة لدى أسرة ثم اتفقت مع عدد من الطلاب على المشاركة في بيت كبير كثير الغرف.

سألتها عن دراستها فقالت إنهاتدرس الصحافة وإنها عملت في عدة مجلات من قبل ووعدت أن تريني ما نشرته.

بلغنا مبنى صغيرا أقيم فوق أرض منخفضة. وطالعتني في مدخله لوحة تعلن عن مركز للشرطة. وبجوارها لوحة أخرى تسجل الجرائم التي وقعت بالكامبوس في الفترة من "يناير" حتى "أغسطس" الماضيين: بلاغان عن اغتصاب واعتداء بالضرب، وسبع سرقات وقع أغلبها أثناء مغادرة الطلبة للمكتبة. وكان هناك بيان بحصيلة العام الماضي: تسعة اعتداءات جنسية، ٢٢ اعتداء مسلحا، ١٣٥ سرقة أشخاص، ٥٧ سرقة سيارة، ٣٤٦ سرقة دراجة.

صعدنا إلى مكتب أنيق تتولاه فتاتان أسيويتان. ملأت

عدة أوراق وحصلت على الرقم الذي يتيح لي الحصول على بريد إلكتروني.

عدت بمفردي إلى المعهد. واخترقت منبسطا من النجيل الأخضر جلست في طرفه فتاة مادة ساقيها. واستلقي بجوارها شاب دفن رأسه في حجرها. لم أر وجه أي منهما إذ تغطيا بشعرها الطويل. وكانت أصابعه تعبث في رفق بأطرافه.

كان المشهد جميلا فتسمرت في مكاني أتأمله. ثم خشيت أن أتسبب في إحراجهما أو أتهم بالتطفل فواصلت السير مكرها وصعدت الدرج إلى مكتبي.

وجدت ورقة معلقة علي الباب حددت فيها زميلتي مواعيد تواجدها. وذكرني ذلك بأن أعد ورقة مماثلة. وحفظت مواعيدها لأختار غيرها.

طرقت الباب ثم أدرت مقبضه. وجدتها جالسة إلى مكتبها فحييتها. ردت التحية باقتضاب وانهمكت في العمل فوق كومبيوتر محمول. جلست إلى مكتبي معطيا ظهري إلى ظهرها وأخرجت أوراق المؤتمر. قلبت بينها لكن وجودهاخلف ظهري لم يشعرني بالطمأنينة.

حملت أوراقي في يدي وأزحت مقعدي إلى الوراء. قمت واقفا ثم استدرت وجذبت أحد مقاعد الطاولة وجلست إليها.

توقفت عن الدق فوق الكمبيوتر والتفتت إلى مقطبة.

قلت موضحا: هذا وضع مريح أكثر.

أجابتني في حدة: لك وليس لى.

رفعت حاجبي مدهوشا وقلت: عفوا ؟

قالت بنفس اللهجة الحادة: جلوسك هكذا يشوش أفكاري

لم أدر هل أضحك أم أغضب.

استطردت: أنا أحب ارتداء الجوبات القصيرة والجلوس على راحتي.

كان موقعي الجديد يسمح لي فعلا برؤية ساقها اليسري التي كشفت عنها الجوبة القصيرة. وكانت ساقا عادية بارزة العظام تعجز عن خلب لب كهل في سني. وكنت أفضل ساعديها.

قلت وعيني على ساقها: ليس بها عيب.

قالت: العرب لا يفكرون إلا في شئ واحد.

قلت: فعلا. هذا صحيح.

ثم أضفت: ظننتك عربية.

قالت: زوجي إسرائيلي من أصل عربي.

- وأنت ؟

قالت بشئ من التحدي: أنا إسرائيلية.

أنقذتني "روزيتا" من المواجهة عندما ظهرت عند الباب. رحبت بها على الفور طالبا منها الجلوس وعيناي تنزلقان فوق الشورت الذي ترتديه. كان قصيرا وضيقا يبرز فخذين ممتلئين،ناصعي البياض، وساقين قويتين بربلتين مشدودتين.

هذه يمكن تقبيل أصابع قدميها وأكلها أكلا.

ألقت "إستر" نظرة سريعة على ساقي "روزيتا" ثم نهضت واقفة وغادرت الغرفة. وقالت الفتاة دون أن تجلس:

- أردت فقط أن أبلغك أني سأتغيب ثلاثة أسابيع.

بوغت وأطرقت برأسي فاستدارت منصرفة ولمحت البرازيلي ينضم إليها في الطرقة.

ظللت جالسا أحدق في الحائط ثم جمعت أوراقي وأعدتها إلى الحقيبة وغادرت الغرفة. مررت بكهف البريد كالعادة. ولم أفاجأ كثيرا عندما وجدت رسالة جديدة تنتظرني. لكن مالم أتوقعه على الإطلاق هو محتواها الذي لم يتجاوز هذه الكلمات: "هل تعجبك ساقاها؟"

٩ * *

لزمت بوليفار "جيري "في اتجاه وسط المدينة. كان الجو حارا على غير العادة ونسبة الرطوبة عالية. عبرت أفنيو"فان نيس "وانحرفت في ثاني شارع رئيسي اعترضني وهو"لاركين". مضيت جنوبا في اتجاه الساحة التي يشرف عليها المركز المدني. لمحت ماكينة نقود في واجهة أحد البنوك فتقدمت منها. وضعت بطاقة الإئتمان وضغطت كلمة السر وسحبت خمسين دولارا.

واصلت السير ثم تمهلت عند إحدى التقاطعات. انتظرت حتي انسابت السيارات فبدأت العبور وأجبرتها على التوقف. سرت على مهل مستمتعا بحقوق المشاة المقدسة.

انضممت إلى مجموعة من المنتظرين أمام المكتبة العامة التي تفتح أبوابها في العاشرة تماما. تبينت بسهولة الطلاب من أعمارهم وبقايا النعاس في عيونهم والباحثين المتقدمين في السن من نظراتهم الشاردة وحافظاتهم القديمة. وكان هناك أيضا ثلاثة أو أربعة يمسكون بجرارات صغيرة بها لفافات من الملابس. حرت في أمرهم إلى أن فتحت الأبواب ورأيتهم يندفعون إلى دورات المياه فأدركت أنهم ممن اصطلح على تسميتهم بالمشردين أو ناس الشوارع.

كان المبنى حديثا تتكدس به الكمبيوترات المتصلة بأميال من رفوف الكتب. صعدت إلى القاعة المخصصة لتاريخ المدينة في الطابق السادس. طفت بصناديق العرض الزجاجية التي احتوت على مصنوعات يدوية قديمة منها بضع فناجين للشاي، التحمت ببعضها البعض خلال الحريق الكبير الذي عرفته المدينة في أعقاب زلزال سنة ١٩٠٦. وكان بجوارها

عدة بطاقت بريدية ملونة باليد لمشاهد من الحريق وزجاجة ويسكي صغيرة من نوع " البوربون" الأمريكي مستندة إلى بطاقة تحمل بيتا من الشعر الشعبي من تلك الفترة يقول :

"لو أن الله ، كما يقولون،
عاقب المدينة لأنها فاسدة،
فلماذا حرق الكنائس
وأنقذ مصنع الويسكي؟"

التجأت إلى طاولة من الخشب الثقيل، وبسطت أوراق المؤتمر المقترح أمامي. تناولت ورقة لمفكر مصري معروف فتصفحتها بسرعة. أوشكت أن أنتقل إلى الورقة التالية عندما لاحظت أنه يكرر في أكثر من موضع صيغة واحدة لا تتغير: " لا أتصور أن ثم حاجة هنا للحديث عن .." ثم يستفيض في ذكر ما نفى الحاجة إلى الحديث عنه.

قلبت الصفحة وتوقفت عند صيغ أخري مماثلة : "لا أظن أني بحاجة إلى اثبات فكرة التنوع داخل التناسق " ثم يمضي إلى اثباتها في ما لا يقل عن ١٢ سطرا.

عدت أقرأ الورقة بإمعان وتوقفت أمام عبارة جعلتني أبتسم : " واذا كان بيت الشعر الشائع قد أصبح الآن مبتذلا ويكاد يفقد قوة ضربته: "وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق"، فإنه على الرغم من فصاحته التقليدية الخاوية يظل صادقا وحقيقيا". كيف يمكن أن يظل صادقا وحقيقيا على الرغم من خوائه؟

ولم يقتصر الأمر على هذه الصياغات المتناقضة. فأغلب الأفكار التي عرضها لا تحتاج إلى "مؤتمر القرن" لمناقشتها واقرارها، من قبيل الحديث عن أهمية الحرية واعمال العقل، وقوله إن "المثقف عندما يكون متكاملا مع المجتمع وعنصرا عضويا فيه يؤدي وظيفة ليست اجتماعية فقط بل اجتماعية وحضارية".

نحيت الورقة جانبا وانتقلت إلى ورقة مهندس سوري ذكر أنه من خبراء الحواسب الآلية. تناولت ورقة وقلما استعدادا لتسجيل ماسيطرحه من أفكار ومقترحات. وتوقعت أن أقرأ عن مشاكل البرمجة باللغة العربية أوعن مشروع جبار لاستخدام اللغة العربية على الشبكة ومايمكن أن تقدمه ثورة المعلومات من خدمات للبحث العلمي ، أوعن اتفاقية "الجات" وأثرها في تحجيم حصول العرب على التقنيات الجديدة ، الخ. توقعت كل هذا ثم صدمت. وجدتني أمام موضوع إنشائي مماثل لما كان يطلب منا في المدرسة الابتدائية ... "للحلم دورفي الإبداع الهندسي كمافي الإبداع الشعري"، "المعرفة الهندسية مختلفة عن العلمية لكن الإبداع الهندسي يفتح أمام المبدع ما أغلقته العقلانية من ينابيع الإلهام" ،"ليست التقنية ضد الثقافة بل هي جزء لا يتجزأ منها". لاحظت أيضا أن حيزا كبيرا من ورقته يتألف من استشهادات بكتابات "البرديسي"، ومن الرسائل المتبادلة بينهما.

فوجئت بأن الورقة التالية وهي لأستاذ أدب أردني معروف تحفل باستشهادات بكتابات "البرديسي" وأفكاره، التي وصفها ب"الرهافة". لكنني لم ألبث أن وجدت لديه إلى جانب ذلك ومضات لامعة عندما رد ما نشكومنه من عيوب ومظاهرتخلف إلى ارتباطها بمرحلة معينة من التطور.

انتقلت إلى ورقة أخرى لمفكر مغربي. ومرت عيناي بسرعة على عناوين القضايا التي تواجه الفكر في نهاية القرن : التراث ، الهوية والخصوصية ، مفهوم التقليد والتاريخ ، الاتصال والانفصال ، الوحدة والتعدد ، الحداثة والتحديث ، التفكيك والبناء.

وضعت الورقة جانبا وتناولت ورقة جديدة. كانت لفيلسوف بحريني اشتهر بتنبؤاته وشطحاته الغريبة.

وفي هذه المرة قدم تظرية جديدة عن "الدورة السباعية". قال إن الإسلام نشأ منذ ١٤ قرنا وأقام حضارته في القرون السبعة الأولى ثم جاءت الفترة الثانية إبان العصر المملوكي الثاني من القرن الثامن الهجري حتي القرن الرابع عشر. ونحن الآن على عتبة فترة ثالثة نعتها بالسباعية الثالثة التي تبشربالعودة إلى عصرذهبي ثان.

خيل لي أن المائدة اهتزت فتصلبت، وعندما لم تتكرر الهزة استرخيت. شعرت فجأة بالجوع فأقفلت أوراقي وغادرت المكتبة ووقفت مترددا أمامها. أردت أن أواصل السير جنوبا بحثا عما يؤكل لكن "ماهر" سبق أن حذرني من منطقة التقاء الشارع السادس بشارع "ماركت". وقال إنني يمكن أن أفقد فيها حياتي بسهولة في أي وقت من اليوم. لهذا اخترت الطريق الذي جئت منه.

ولجت حانوتا صغيرا لساندوتشات النقانق. كان البائع الواقف خلف منصة عالية ضخم الجثة ذو ملامح شرق أوسطية. طلبت قطعتين من "الفرانكفورتر" فألقى بهما فوق لوح معدني إلى جوار قطع أخرى يجري تسخينها. كان المكان ضيقا ومزدحما بالزبائن معبئا برائحة الشي الخانقة فانتظرت على الرصيف. وتابعت فتاة طويلة القامة عبرت الشارع بطريقة استعراضية وهي تلوح لشخص ما فترجرجت كرتان مطاطتان من اللحم في مؤخرتها.

انتهى تسخين طعامي فحملته في منديل ورقي إلى رف ثُبتت إليه ثلاث أواني بلاستيكية : واحد للمايونيز والثاني لصلصة لا أعرفها والثالث لحلقات من البصل. أضفت ملعقة من المايونيز وكثيرا من البصل فلم أكن أتوقع اقترابا من أنفاس أحد. أقبلت على الأكل وأنا أتأمل المارة الذين تتابعوا أمامي من كل صنف ولون : سود برؤوس حليقة تماما ونظارات شمسية سوداء، مسطولون يتلمسون

مواقع أقدامهم ، شاب يوزع دون حماس منشورات ما، هيبيون في سترات جلدية يحملون الجيتار، أبناء الحي المالي في ملابسهم الرسمية الكاملة ورؤوسهم الحليقة وخطواتهم النشيطة المسرعة، فتيات بيضاوات بشعور مضفرة، وصفراوات بشعور مستقيمةناعمة، في ملابس متباينة من الميني جوب والشورت إلى "الساري" الهندي و"الكيمونو" الياباني ، ومن الصنادل والشباشب إلى الأحذية المطاطية والكعوب العالية المدببة.

فرغت من طعامي فانضممت إلى نهر الطريق. مررت بحانوت للهدايا أسدلت على بابه ستائر من الخرز الملون وانبعثت منه روائح البخور وموسيقي "السيتار" الهندية المسجلة. وولجت حانوتا للبورنو امتلأت واجهته بالمعروضات البلاستيكية والمطاطية. مررت من أمام مكتب جلس خلفه شاب ذو ملامح أسيوية يقرأ مجلة رياضية، وهو يراقب الزبائن الذين توزعوا أمام حوامل المجلات المصفوفة حسب الاهتمامات المختلفة.

طفت بأرجاء الحانوت إلى أن اكتشفت بابا في مؤخرته بلافتة تعلن عن أفلام بورنو قصيرة مقابل ربع دولار للعرض. ذهبت إلى الشاب الأسيوي واستبدلت منه دولارا وولجت مقصورة ضيقة فوق بابها لافتة تعلن عن الفيلم الذي سأراه : "عشاق ليسبو: فتاتان وحيدتان يمارسان رذائلهما فوق الجياد".

اقتعدت حافة خشبية بعد أن وضعت ربع دولار في صندوق معدني مثل حصالة النقود. وبدأ العرض على الفورفوق لوحة بيضاء مثبتة في ظهر الباب. ظهرت فتاة سوداء ضخمة في حوض استحمام وبدأت تدعك جسدها بالصابون في بطء. ثم إنتهى العرض فوضعت ربعا جديدا. ورأيت الفتاة تصوب الدوش إلى جسدها لتزيل الصابون

وهي تسبل عينيها مستمتعة. وأضفت ربعا ثالثا لأراها تبدأ في دعك جسدها من جديد فغادرت قبل أن ينتهى العرض.

كانت هناك مقصورة أخرى تعلن عن فتيات حقيقيات يرقصن عاريات بينما تتلصص عليهن مقابل نصف دولار. دفعت الباب ودخلت مكانا ضيقا للغاية فطالعتني علبة "كلينكس" فوق رف صغير. أسقطت نصف دولارفي شق فارتفع مصراع معدني في مستوى وجهي كاشفا عن كوة زجاجية. ألصقت أنفي بسطح الزجاج فرأيت فتاة عارية ترقص. كانت نحيفة بثديين ضخمين ، صناعيين بالتأكيد، وندبة عرضية فوق عانتها، من أثر جراحة قيصرية في الغالب.

شعرت بالحاجة إلى استنشاق الهواء النقى فغادرت المقصورة والحانوت. تنفست الهواء الجاف بعمق ثم عبرت الطريق. تمهلت أمام حشد التف حول خطيب أسود. كان يصيح في كهلة بيضاء بصوت جهوري : الرئيس "يسوع" يحبك أنت أيضا يا أختي. الرئيس "يسوع" يحبنا جميعا، السود والسمر والصفر والبيض. إذا صدقت أن الرئيس "يسوع" يحبك أكثر من شركات البترول وأصحاب مصانع الأسلحة، إذا صدقت هذا دعيني أسمع : أيوه. قوليها عالية ليسمعك الرئيس "يسوع".

تركت المرأة تصيح للرئيس يسوع وسرت الهوينا في اتجاه منزلي. اكتشفت حانوتا للأثاث الخشبي بجوار السوبرماركت فوقفت أتأمل معروضاته من الواجهة الزجاجية. ولحظت مجموعة من الرجال والنساء السود تقف فوق حافة الرصيف، أمام الحانوت مباشرة. كانوا يحملون لافتة كتب فوقها بخط كبير:" من فضلك لا تشتري من هنا!". قرأت السطور التالية التي كتبت بخط أصغر:"هذا الحانوت لا يحترم نضال عمال الأثاث من أجل العدالة والكرامة".

ناولني أحدهم ورقة فأخذتها ووضعتها في جيبي وواصلت السير.

لمحت "فيتز" في الحديقة الخلفية بمجرد أن ولجت المسكن. غسلت يدي ومضيت إلى المخدع ففتحت الباب المنزلق وخرجت إليه. كان يرتدي بنطلون الجينز المألوف وفوقه بلوزة قطنية زرقاء بربع كم لا يكاد يغطي الكتف.

دعوته إلى كوب من عصير البرتقال فقبل. أومأت برأسي إلى مسكن جيراني وسألته:

– أليست هناك شكوى جديدة؟

هز رأسه نفيا وقال: البعض يبالغون. أنا شخصيا لا أدخن. لكني لا أعترض على من يفعل ذلك.

قلت إني لمحته في المعهد. فبدا عليه شئ من الحرج. وذكر لي أنه كان يعمل في بنك ثم استغنوا عنه في إحدى موجات الانكماش فبدأ يلتقط رزقه من رعاية الحدائق والأعمال الصغيرة المماثلة وتبخرت أحلامه في تقاعد مريح. وأخيرا اضطر لقبول وظيفة كتابية في المعهد.

انهمك في انتزاع بعض الأوراق الصفراءمن شجرة تين صغيرة وهو يهز رأسه متمتما لنفسه فتأرجح قرطه ثم وجه إلى الحديث: أولاد العاهرة يقولون لك إن منصبك مأمون ثم يتخلصون منك في لمح البصر عندما يعثرون على من يؤديه بنصف الراتب. ولهذا أكره البنوك وأيضا المحامين والنساء.

لم أستطع كتمان الضحك: المحامون أمرهم معروف لكن ما ذنب النساء؟

قال: لأنهن عاهرات. كانت زوجتي محامية ولم تكد تسمع بتسريحي من البنك حتى أرسلت إلى أوراق الطلاق في اليوم التالي. وبعد أسبوع استولى البنك على منزلنا.

عكف على بسط ستارة من السلك فوق الشجرة ليحميها من الطيور ثم سألني:

– هل تفرجت على المدينة؟

قلت: ليس بعد.

قال: يمكنني أن أريك أماكن لا تحلم برؤيتها.

قلت باهتمام: موافق.

قال: ما رأيك في أن نذهب الآن؟

قلت إني أريد أن أتفرج على "كلينتون".

قلب شفتيه ازدراء: النساء ..هل تعرف ماذا قال أمام هيئة المحلفين؟ قال بعد القسم إن "مونيكا" أتت فعلا جنسيا معه أما هو فلم يرتكب فعلا معها... وإنه لم يكذب حين نفى قيام علاقة جنسية بها.

لم أكن قد تتبعت هذه التفاصيل فاستوضحته.

–"مونيكا" ارتكبت الفعل لأنها استعملت شفتيها أما هو فلم يرتكبه لأن سيجاره هو الذي لامسها وليس هو شخصيا.

كان الأسبوع حافلا بحق، سيطرت عليه الحياة الشخصية للرئيس الأمريكي. وتصدرت أسراره الصفحات الأولى للصحف منذ وضع تقريرالمدعي المستقل "كينيث ستار" على الإنترنيت. وكان المقرر أن يوجه الرئيس كلمة إلى الشعب في المساء عن طريق التليفزيون.

جلست في الحديقة بعض الوقت بعد انصراف "فيتز". تذكرت حانوت الأثاث فأخرجت الورقة التي وضعتها في جيبي.وقرأت: "يتعرض العمال وأغلبهم من المهاجرين للإيذاء والمعاملة السيئة من الأجور المنخفضة إلى غياب التأمين الصحي وقواعد الأمان. ويجني أصحاب الحانوت /المصنع أرباحا طائلة من استغلال العمال. وقد أخذ عليهم المحققون الحكوميون عشرات المخالفات لقانون العمل وقواعد الصحة والأمان.لكنهم لا يعبأون. إن الطريق الوحيد الآن لإجبار هذا الحانوت على الانصياع هو أن تتبضعوا من مكان آخر. عليكم أن تقرروا".

أعدت الورقة إلى جيبي ونهضت واقفا. ولجت المسكن فجاءني رنين التليفون. تسارعت دقات قلبي كما صار شأني في الآونة الأخيرة كلما سمعته. مضيت إلى الصالة ورفعت السماعة في تردد فجاءني صوت أنثوي :

- هاى. أنا "ميجان".

استعرضت وجوه طالباتي بسرعة وتوقفت عند صاحبة الملامح الشرقأسيوية. كنت قد عرضت عليها مشكلتي عندما عرفت أنها تدرس علوم الكومبيوتر.

قالت : أنا عند صديق لي الآن. ولديه طابعة أظن أنها تناسب جهازك. نحن لسنا بعيدين عنك ويمكن أن نكون عندك بعد دقائق.

ظهرت أمام بابي بعد خمس دقائق بالضبط تحمل طابعة عتيقة من النوع الذي يعمل بالشرائط. كانت ترتدي كنزة صوفية ضيقة أبرزت صغر نهديها وجوبة طويلة ملونة بلغت قدميها. تقدمتها إلى المكتب حيث وضعت الطابعة إلى جوار الكومبيوتر. انحنيت على الجهاز محاولا ادخال كابل الطابعة في ظهره فوقعت عيناى على شق جانبي في جوبتها يبدأ من أعلى الفخذ.

شغلت الكومبيوتر وضغطت أمر الطباعة فلم يحدث شئ.

سألتها: ما هي المشكلة بالضبط؟

قالت : ليتني أعرف. كل دراستي نظرية ولا أفهم شيئا في التطبيقات والأجهزة.

قلت مهونا عليها: لا عليك. أشكرك على كل حال.

فصلت الجهاز عن الطابعة وأضفت : ما رأيك في قدح من الشاي ، أو زجاجة بيرة.

ابتسمت وقالت : كنت أتمنى. لكن صديقي ينتظرني بالخارج.

حملت لها الطابعة حتى الباب حيث أصرت أن تحملها بنفسها. انتظرت حتي صعدت إلى سيارة صديقها الذي لم أتبين ملامحه ثم عدت إلى الداخل. قاومت رغبة ملحة في التدخين وجلست إلى المكتب. أزحت الكومبيوتر جانبا وقلبت أوراق مؤتمر المثقفين.

مللت القراءة فأغلقت الملف وانتقلت إلى التليفزيون. تنقلت بين القنوات وتابعت جانبا من برنامج عن الشرطة الراكبة وكيف هرعت لانقاذ قطة ارتقت شجرة عالية ولم تتمكن من الهبوط. واستدعت الشرطة فريقا متخصصا استخدم سلما معدنيا وجعبة خاصة لالتقاط القطة بينما وقفت صاحبتها تنتظر النتيجة في قلق واشفاق.

ووجدت في قناة أخري برنامجا عن مجموعة من النساء البدينات اللاتي كوّن فريق سباحة. وأفاض مقدم البرنامج في الحديث عن مشكلة البدانة وخاصة بين الأطفال. وقال إن وزنهم ازداد عن المعدلات السابقة وأصبح هناك جيل " اكسترا اكسترا لارج "، وإن في الولايات المتحدة ستة ملايين طفل بدين بدرجة تهدد صحته.

أعددت لنفسي عشاء خفيفا وعندما عدت إلى التليفزيون اكتشفت أن "كلينتون" بدأ كلمته. وكان يقول في تأثر شديد إنه أقام بالفعل علاقة مشينة مع "هذه المرأة مس لوينسكي" كما وصفها. وإنه "كذب على الشعب الأمريكي وخدع أسرته وزوجته وابنته". وفجأة دمعت عيناه.

أوشكت عيناى أن تدمعا أيضا لولا أن انتزعني جرس التليفون من مأساة الرئيس. رفعت السماعة متوقعا أن تكون "ميجان" قد قررت قبول دعوتي فجاءني صوت رجالي غريب:

- "هوبس" ؟ ...

كان يتحدث لكنة أمريكية واضحة تختفي فيها مخارج الألفاظ.

قاطعته : عفوا. "هوبس" ليس هنا.

صمت برهة كائما بوغت ثم سأل متوجسا :

– من هذا ؟

قلت : مستأجر.

قال : أنت لست من هنا. من أي بلد ؟

قلت : "مصر".

قال : "مصرايم" ؟

عجبت لاستخدامه الاسم التوراتي. ولمست نبرة استهزاء في صوته. وعندما هممت بالرد وضع السماعة.

كان حديث "كلينتون" قد انتهى فأغلقت جهاز التليفزيون ووضعت فيلما إيروتيكيا في جهاز الفيديو. بدا لي من لقطاته الأولى أنه على درجة من الإتقان. وكانت بطلته امرأة ذات جسد مثير. لكن الأكثر إثارة كان صوتها المغناج وخطوات غوايتها لفتاة أخرى ذات تكوين ذكوري واضح. تمددت أمام التليفزيون بعد أن خلعت بنطلوني وتهيأت للمتعة المرتقبة.

** ١٠

قالت "جيني" وهي تزيح كوما من الملفات من فوق مكتبها وتلقي بها فوق خزانة خشبية واطئة :

– "جون "هو الذي يستطيع مساعدتك. إنه الخبير المقيم.

أومأت إلى شاب أشقر في ملابس رياضية يجلس خلف فاصل من الزجاج أمام كومبيوتر. فغادر ركنه وانضم إلينا. كان طويل القامة بوجه به آثار جدري وعينين زرقاوين وشعر طويل جمعه في خصلة كبيرة خلف رأسه.

ذكرت له اسم برنامج البريد الألكتروني المثبت على جهازي والذي كنت أستخدمه في "مصر" وعجزت عن تشغيله هنا. قال إنه لم يسمع به من قبل. سألته "جيني" إذا كان بامكانه تثبيت برنامج آخر. فأجاب في زهو:

– طبعا. أي طفل يستطيع.

إتفقنا على أن أحضر له جهازي في الغد ومضيت إلى مكتبي فوجدت "لاري" في إنتظاري.

قال : أريد أن استشيرك في أمررسالتي للدكتوراه.

دعوته إلى الجلوس وسألته عن موضوعها فقال إنها تتناول جيل المؤرخين الجدد في "إسرائيل".

قلت إني لم أنشغل بهذا الموضوع ولا أستطيع أن أفيده.

قال : لقد انتهيت منها. المشكلة أنها رفضت بأغلبية ثمانية أصوات ضد صوت واحد هو المشرف.

– بأي حجة؟

– اتهموني بازدراء الحقائق التاريخية.

– والمشرف؟

– رأيه أنها رسالة جيدة .

– وما تفسيره لموقف الآخرين ؟

- يعتقد أنهم يخشون أن يؤثر إقرارها على حظ الجامعة من المنح التي تقدمها الشركات الكبرى.

تأملت وجهه الأبيض الممتلئ وعويناته الثقيلة والقرط المثبت في حلمة أذنه اليسرى. إستقرت عيناى على شعره الأحمر فسألته :

- أنت من أصل أيرلندي؟

قال : نعم.

-ماذا ستفعل إذن؟

- إما أن أتقدم إلى جامعة أخرى وأنتظر نفس النتيجة أو أختار موضوعاجديدا وأنتظر سنتين أخريين على الأقل. وهذا صعب للغاية بسبب ظروف حياتي. أنا الآن في مفترق طرق.

قلت إني لا أستطيع أن أنصحه بشئ لأني زائر عابر وليس لي صوت في مجلس القسم ولا أحضر حتى اجتماعاته.

سألته : هل تحدثت مع البروفسور "استر"؟

قال مستهجنا: هل تمزح ؟

تجاهلت اشارته وقلت : على العموم هى مثلي أستاذة زائرة.

وعدته بأن أثير موضوعه مع "ماهر"فربما يجد حلا. ثم خطرت لي فكرة.

قلت : لماذا لا تعرض لنا ملخصا للرسالة؟

تهلل وجهه وقال إنه مستعد في الحال.

صعدنا إلى قاعة الدرس. كانوا جميعا موجودين فيما عدا "روزيتا" وصديقها. ولحظت أن "دوريس" اعتنت بمظهرها ووضعت قليلا من أحمر الشفاه.

أشرت ل"لاري" أن يبدأ فأخرج مجلدا ضخمامن حافظته وقلب صفحاته. قال إن ظاهرة "المؤرخين الجدد" في "إسرائيل"

ولدت نتيجة فتح بعض وثائق الدولة أمام الباحثين في بداية الثمانينات. وإن عددهم لا يزيد عن عشرة ولد أغلبهم بعد انشاء الدولة في ١٩٤٨مثل "بني موريس" و"ايلان بابي" الذي يرى أن الحركة الصهيونية تحولت إلى حركة كولونيالية استعمارية. وبعضهم خارج "إسرائيل" مثل " أفي شلايم" أستاذ التاريخ في جامعة "اكسفورد" البريطانية و"افرايم كارش" أستاذ الدراسات المتوسطية في "كنجز كوليج" بجامعة "لندن" الذي عمل لسنوات طوال في المخابرات العسكرية الإسرائيلية.

توقف عند إحدى الصفحات وقال إن "بني موريس"يعتبر بلا جدال من أبرزهم. واستشهد بفقرة من كتابه "تصحيح خطأ" يقول فيها : "... لقد كذب زعماؤنا علينا عندما أخبرونا أن عرب "اللد" و"الرملة" طلبوا مغادرة بيوتهم بمحض إرادتهم ..كذبوا علينا عندما أبلغونا بأن المتسللين الفلسطينيين ارهابيون متعطشون للدماء وأن الدول العربية أرادت تدميرنا .. . أما كذبة الأكاذيب التي أسموها "الاستقلال" فهي "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"".

واستدرك قائلا: إن "موريس" لا يعتبر العودة إلى أرض الميعاد احتلالا ولذلك لايستخدم تعبير "الأراضي المحتلة" وإنما يشير إلي الأراضي الفلسطينية باعتبارها "الأرض المتنازع عليها". ومع ذلك يؤكد إن "إسرائيل" لم تكن في يوم من الأيام معنية بالسلام وانما بالحصول على الأرض خالية من السكان قدر الامكان. ففي ١٩٣٧ تحدث "حاييم وايزمان" عن مبدأ "الترانسفير" أي طرد السكان العرب بالقوة من أراضيهم ومدنهم وقراهم. وقال إنه يمكن مثلا ترحيل مائة ألف عربي خلال عشرين سنة أى بمعدل خمسة آلاف عربي كل عام. وحديثا أعلن "آرثر روبين" ، أحد مؤسسي حركة "تحالف السلام" ، تأييده لمبدأ "الترانسفير" بشرط أن توفر

للعرب المطرودين أماكن ملائمة في الدول التي يتم ترحيلهم إليها.

حانت مني نظرة سريعة إلى مونا. كانت ترتدي جينزا ضيقا أبرز نحافتها ووضعت مكياجا خفيفا لم ينجح في اخفاء شحوب وجهها.

انتقل لاري إلى الحديث عن مصادر "موريس" وعلى رأسها مذكرات "يوسف نحماني" أحد قادة الحركة الصهيونية المولود في أوكرانيا السوفييتية الذي أكد أن الترويع كان جزءا من عملية إرغام العرب على مغادرة أراضيهم وكتب يقول " إن الأعمال الوحشية التي ارتكبها جنودنا في قرية "الصفصاف" كانت في منتهي البشاعة ، فمثلا بعد أن استولى الجنود على القرية ورفع سكانها الأعلام البيضاء جمعوهم وفرقوا بين الرجال والنساء ، ثم قيدوا أيدي الرجال بعد أن أوقفوهم في صف واحد وأطلقوا النار عليهم وقتلوهم جميعا وعددهم نحو ٦٠ رجلا ثم ألقوا بهم داخل حفرة واحدة. وبعد ذلك اغتصبوا النساء ثم نقلوهن إلى غابة مجاورة وقتلوهن ، وقد رأيت امرأة مقتولة وبين ذراعيها طفلها المقتول هو الآخر".

وحلل "لاري" آراء "نحماني" وكيف أنه مثل أغلب القادة الصهاينة لا يعارض طرد العرب من أراضيهم وقراهم وانما يطالب أن يتم ذلك باسلوب أكثر انسانية.

كانت "مونا" أول المعقبين فقالت إنها تشك في صدق الاستشهادات التي أوردها "لاري" إذ لا يعقل أن تكون الحكومة الإسرائيلية قد سمحت باذاعتها. وتوقفت لحظة ثم قالت في انفعال : اذا كان أحد في الشرق الأوسط قد تم طرده من بلده فهم اليهود الذين طردوا من "مصر" و"العراق".

رد عليها "لاري" على الفور قائلا : هم الذين خرجوا بمحض ارادتهم. قضية " لافون" أثبتت بما لا يدع مجالا

للشك أن "الموساد" دبرت تفجيرات في القاهرة وبغداد موجهة ضد اليهود المحليين لترويعهم وإجبارهم على الرحيل إلى "إسرائيل"(×).

حسمت النقاش باعلان استراحة قصيرة. هبط بعضهم إلى الكافيتريا وبقى البعض الآخر في القاعة بينما مضيت إلى تواليت قريب يستخدمه الجميع طلابا وأساتذة. ولجت مكانا بالغ النظافة فابتسمت في أسى وأنا أتذكر قذارة المكان المماثل المخصص لطلاب كلية الآداب بجامعة "القاهرة" ، بل والآخر المخصص للأساتذة والذي يحتفظ العميد بمفتاحه.

غسلت يدي وغادرت "قصر المياه". مشيت حتي نهاية الطرقة وخرجت إلى شرفة صغيرة. وجدت "لاري" يدخن فأشعلت سيجارة ووقفت إلى جواره.

سألته عما دعاه لاختيار موضوع المؤرخين الإسرائيليين فقال :

– في البداية اقترحت التدخلات العسكرية الأمريكية من فيتنام حتى العراق لكنهم رفضوا. والحقيقة أني مدين

(×) ذكر "ديفيد هيرست" الصحفي البريطاني الشهير في كتابه "جذور الصراع في الشرق الأوسط وغصن الزيتون" أن اليهود العراقيين كانوا يحتفلون بآخر أيام عيد الفصح في أبريل ١٩٥٠ في مقهى بشارع " أبو نواس" عندما انفجرت قنبلة ملقاة من سيارة مسرعة على الرصيف المقابل. ووجه الاتهام على الفور إلى الحركة القومية. وفي اليوم التالي كان عشرة آلاف عراقي يتزاحمون على مكاتب الهجرة إلى "إسرائيل" التي فتحت قبل شهر واحد. وبعد عدة أسابيع هدأت حركة الهجرة فوقع انفجاران نشطها من جديد... وعند الانفجار الرابع اتضح أنها جميعا من تدبير منظمة سرية تسمي "الحركة" وأشرف عليها شخص يدعي "ماكس بينيت" على اتصال بقائد عمليات الكوماندوز في الوكالة اليهودية "ايجال الون". وفي مصر تكررت القصة في صيف ١٩٥٤ بتفجيرات في دورسينمابريطانية ومراكز ثقافية أمريكية تكشفت حقيقة أمرها بعد ذلك فيما عرف باسم فضيحة "لافون".

بتوجهي إلى اثنين من أساتذتي هما "هوارد زين" (×) و"نعوم شومسكي" (××).

تحدثنا عن "شومسكي" وأفكاره. وعلمت أن "لاري" اشترك في إنتاج فيلم وثائقي عنه عام ١٩٩٢ بعنوان "فبركة الموافقة" بسط فيه "شومسكي" بالأدلة كيف تؤدي سيطرة أجهزة الإعلام الأمريكية على العقول إلى "موافقة" على سياسة النظام التي تكون دائما مفيدة لمصلحة الشركات الكبرى.

أطفأنا سيجارتينا في علبة "كولا" ملقاة بجوار الحائط وعدنا إلى القاعة.

استأنفت حديث السيرة فقلت إني هجرت قاعة المحاضرات إلى ممر "سان جيتار" حيث توثقت علاقتي بعدد من الطلاب وخاصة واحد منهم يدعي "حلمي".

قاطعتني "ميجان" : ماذا حدث مع المعيدة؟

(×) من أهم المؤرخين الأمريكيين المعاصرين. جلب له مؤلفه الشهير عن تاريخ الولايات المتحدة منذ عام ١٤٩٢ - عام اكتشاف امريكا- حتى الثمانينيات من القرن العشرين لقب "مؤرخ الشعب". نشأ في اسرة يهودية من أب نمساوي وأم روسية هاجرت إلى الولايات المتحدة. شارك في مناهضة التمييز العنصري وحرب "فيتنام". كشف عن أن الادارة الأمريكية روجت لأحداث لم تقع في خليج "تونكين" في صيف ١٩٦٤ لتبرر تدخلها العسكري.

(××) ولد "نعوم شومسكي" عام ١٩٢٨ لعائلة يهودية في "بنسلفانيا" وهو الآن أستاذ اللسانيات في معهد "ماساشوسيتش "للتكنولوجيا. أحدثت نظرياته في اللغة ثورة ضخمة في علوم النفس والفلسفة والأنثروبولوجيا والاتصالات. نشر ما يزيد على سبعين كتابا. تنبع شهرته الحقيقية من مواقفه السياسية التي بدأت بمعارضة التدخل الأمريكي في "فيتنام". نعته اليهود المتطرفون ب "اليهودي المعادي للسامية". ووصفته جريدة "الجارديان" الانجليزية بأنه "ضمير الولايات المتحدة الأخلاقي وفاضح الأكاذيب".

علت الإبتسامات الوجوه. قلت إنها أبعدت عن الجامعة مع عدد من الأساتذة اليساريين.

قالت "شرلي" بابتسامة خبيثة : وانتهت بذلك مغامراتك العاطفية؟

- قلت أبدا . بل بدأت.

كان "حلمي" يسكن بالقرب مني في مكان شعبي خلف مباني الجامعة. وكان أبوه موظفا بسيطا متقاعدا له عدد لا يحصى من الأبناء. فكان مثلي يرتدي ملابس لا تناسبه ويخلو جيبه من النقود. صرنا نخرج من الجامعة لنتجه إلى وسط المدينة سيرا على الأقدام ، فنذهب إلى الجمعية التاريخية والمنتديات الأدبية، ونزوردور الصحف لنتعرف بكتابها ، أونستقر في حديقة "متحف الفن الحديث" لنستمع إلى الموسيقي الكلاسيكية مع صديق ثالث يدعى "رشدي"، أو نسعى وراء عشاء وكوب من الشاي في منزل صديق آخر.

ومن الطبيعي أن المرأة كانت شاغلنا الرئيسي، نتبادل بشأنها معلومات غامضة وخاطئة. أذكر أن إحدى الطالبات كانت ذات عينين جميلتين. وقال لنا "حلمي"، بلهجة العارف الخبير، إن لمعان عينيها يعني اصابتها بمرض "السوداء"، وهي الشهوة الدائمة التي لا ترتوي. يومها توهجت مشاعرنا وحلم كل واحد منا بفرصة تحقيق ما فشل فيه جميع الرجال.

قادنا "حلمي" في درب المعرفة ، فدبر لنا أن نضع أيدينا على منفرج بائعة عجوز للمياه الغازية من فوق ملابسها مقابل عشرة قروش جمعناها بصعوبة. وفي رفقته خضت أول تجربة جنسية.

مباني وسط المدينة التي تركها الأجانب واليهود عند مغادرتهم للبلاد في أعقاب العدوان الثلاثي. المصعد الخشبي الأنيق إلى الطابق الثالث. الباب المتين ذو الكوتين الزجاجيتين تفتحه امرأة سمراء قصيرة معصوبة الرأس ترتدي جلبابا منزليا. صالة واسعة يغمرها الضوء. مائدة من الخشب الثقيل، جزء من الأثاث الثمين لأصحاب المسكن السابقين. فوق

المائدة كرنبة كبيرة. انهمكت في تقشير الكرنبة وهي تثرثر مع "حلمي". معرفة قديمة. قال لها شيئا فنهضت واقفة ومسحت يديها في ملابسه وإتجهت إلى حجرة مجاورة. تبعها "حلمي" مغلقا الباب من خلفه. خرج بعد خمس دقائق وأشار إلى بالدخول. كانت مستلقية فوق ظهرها وقد رفعت جلبابها حتى الخصر كاشفة عن فرج ناعم منتوف الشعر. خاطبتني بابتسامة لطيفة: انت مكسوف؟ إقلع. خلعت ملابسي وتمددت فوقها. رائحة الكرنب. داعبتني بيدها دون فائدة. ابتسمت في حنان وقالت: إنت لازم بتحب. ثم أضافت: متخفش. مش حاقول حاجة لصاحبك.

تميز "حلمي" أيضا بغرام شديد بكل ما هو جديد ومثير للجدل من أفكار وكتب وأفلام. صحبنا مرة لمشاهدة فيلم "فيفا زاباتا" الشهير. أعجبت بالفيلم ورأيت فيه تمجيدا للثورة ورفضا للطغيان بينما اعتبره من مخططات الاستعمار الأمريكي لأنه يوحي بعبث الثورة عندما يتحول "زاباتا" بعد إنتصارها إلى دكتاتور. بدا لي رأيا متطرفا وما زال هذا تقديري رغم ما تكشف الآن من أن "ايليا كازان"، مخرج الفيلم، كان يعمل لحساب المباحث الأمريكية ويتجسس على زملائه من الفنانين والمثقفين.

وكان هو الذي أرشدنا إلى مكتبة جديدة في وسط المدينة ابتعنا منها كتابا حديث الصدور عنوانه "تطور الحركة الوطنية المصرية من ١٨٨٢ الي ١٩٥٦"(×).

(×) وضعه مؤلف من خارج الجامعة هو "شهدي عطية الشافعي" (١٩١٣-١٩٦١). درس اللغة الانجليزية وآدابها في بريطانيا وأسس دار "الأبحاث العلمية" بعد عودته في نهاية الحرب العالمية الثانية. شارك في قيادة "اللجنة الوطنية للطلبة والعمال" التي قادت هبة ١٩٤٦. ودخل السجن في أعقاب حملة "اسماعيل صدقي" البوليسية عام ١٩٤٧ وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات فصار أول سجين سياسي يدخل الليمان ويقيد بالسلاسل الحديدية. وهناك قاد إضرابا عن الطعام من أجل تحسين التغذية والمعاملة ونظم مدرسة لمكافحة الأمية بين السجناء. وفي أعقاب الثورة أفرج عنه بثلاثة أرباع المدة فانخرط في قيادة الحزب الشيوعي المصري وساهم في تأسيس جريدة "المساء" وتوحيد الحركة الشيوعية وظل خاضعا لحكم المراقبة القضائية حتى إعتقاله مرة ثانية في أول "يناير" ١٩٥٩. توفى تحت التعذيب في معتقل "أبي زعبل" في ٢٥ يونيو ١٩٦١.

كان المرجع الرئيسي المتوفر وقتها في التاريخ المصري الحديث هو ١٤ مجلدا من كتاب "تاريخ مصر القومي" ل "عبد الرحمن الرافعي". وبالرغم من قيمته كسجل أمين ودقيق للوقائع إلا أنه كان متخلفا للغاية عن "مقدمة ابن خلدون". إذ خلى من أي محاولة لتفسير الأحداث أو الربط بينها، ومن رؤية شاملة تمنح لها إتجاها ومغزى، وهي المهمة التي تصدى لها "شهدي"، فأراني التاريخ لأول مرة من منظور جديد كاشف.

استعنت بمنهاجه في بحث كتبته عن ثورة ١٩١٩ فركزت على تحليل طبيعة الفئات الاجتماعية التي شاركت بها. واستدعاني الأستاذ "بيبة" ووبخني على استخدامي لمصطلح "الطبقة" وأصر على استبعاده.

لم يكن "بيبة" هو اسمه الحقيقي بالطبع. وانما أطلقه الطلبة عليه عندما عاد من بعثة إنجلترا واضعا غليونا في جيب سترته العلوي. وكان الشائع أنه فاز بهذه البعثة بفضل زواجه من ابنة وزير في آخر حكومة للعهد الملكي، اشتهر بوجه يؤكد نظرية "داروين" في أصل الانسان. وشاع أيضا أن وجه ابنته يفوقه في تأكيد هذه الصلة، وأن "بيبة" تزوجها طمعا في نفوذ أبيها وثروته.

تعقدت علاقتي ب "حلمي" أثر التحاقه هو و "رشدي" بإحدى المنظمات الشيوعية السرية وعزوفي عن الإنضمام إليهما. فلم أنس أبدا الصفعة التي تلقيتها في أول اجتماع سياسي اشتركت به. ووصل الأمر بيننا إلى القطيعة عندما انضمت طالبة من كلية الحقوق إلى شلتنا.

نزعت غطاء زجاجة مياه ورشفت منها وأنا أتصفح وجوه طلابي. أدركت أني نجحت بعبارتي الأخيرة في استعادة اهتمامهم الذي ذوى قليلا.

قلت إني أحببت "جمالات" منذ اللحظة الأولى. كانت

سمراء رشيقة في طولي أو أطول قليلا، لها وجه مستطيل وعينان لوزيتان وأنف فرعونية مستقيمة،تتميز بمزيج غريب من الخفر والتهور، وترتدي ملابس متواضعة مثلنا وبيتها مثل بيوتنا: أثاث قديم متهالك وأسرة تعيش على الكفاف وعدد كبير من الأخوة والأخوات.

أحبها "حلمي" بدوره لكنها لم تفصح عن ميل خاص لأحدنا. وفي أحد الأيام إستجمعت أقصى ما أملك من شجاعة وقررت مفاتحتها. عرضت عليها أن نتسكع في حديقة "الأورمان"المقابلة لمباني الجامعة. كنت أبحث عن ديكور ملائم لما أنا مقدم عليه من جنون.

اتخذت الزهور والنباتات أحجاماضخمة وتوهجت ألوانها، والتهب خداها، وارتبكت خطوات قدميها في الحذاء الواطئ المترب.

لم تفه بكلمة. فلم أسألها شيئا. لم أسألها حتى إذا كانت تبادلني المشاعر. كان البوح هو السقف. وحتى الآن لا أعرف ماذا كنت أتوقع. ومع ذلك لم أتوقع أبدا ماجرى بعد ذلك.

غادرنا الحديقة في صمت وعدنا إلى الجامعة. وجدنا "حلمي" ينتظرفي "سان جيتار". ويبدو أن شيئا ما في وجهينا وشى بما جري بيننا. فقد وجم وقضينا الوقت في ثرثرة فارغة ثم انصرف كل منا إلى منزله. وفي اليوم التالي أعلن أنه"اتفق معها على الزواج.

كانت هذه هي ميزته. إتخاذ القرار. بالطبع ساعدته ظروفه. كان أحد ذكاء مني وأسرع في الاستيعاب ولهذا سبقني بسبب تكرار مرات رسوبي، وأوشك على التخرج. وبالتالي كان من الناحية العملية مستعدا لمثل هذه الخطوة. وقد أتبعها بخطوة مفاجئة أخرى.

في ذلك العام تمت الوحدة المصرية السورية. وجرى إتهام الشيوعيين بمعاداتها. وأقامت الكلية مهرجانا بهذه المناسبة تحدث فيه عدد من الأساتذة والطلاب. وفوجئنا

ب"حلمي"بين المتحدثين. وإذا به ينقلب على الشيوعيين ويهاجمهم. وبعد شهورتخرج وعين على الفور معيدا بالكلية. وظهرلأول مرة في بزة جديدة كاملة.

أصبحت "جمالات تتجنبني. سعيت عدة مرات للانفراد بها دون أن أدري بالتحديد ما أنوي عمله. وفي أحد الأيام إعترضني قائلا إنها إشتكت من ملاحقتي لها وإنه ينصحني بالكف عن محاولة رؤيتها. وأشفع النصيحة بالصفعة الثانية في حياتي. كان أقوى مني ولم يسبق لي أن تعاركت مع أحد. فاتبعت النصيحة.

توقفت عند هذا الحد ودفعتني ابتسامات الطلاب إلى أن أعلق في صرامة : أحب أن ألفت نظركم مرة أخري إلى أن الهدف من هذا العرض ذي الطابع الذاتي هو تبيان العوامل المختلفة التي ساهمت في تكوين مؤرخ محدد .

فتحت باب التدخلات. واقتصر أغلبها - وخاصة من "فادية" - على إستفسارات بشأن تلك الفترة من تاريخ مصر، والعالم العربي.

شرع الطلاب في الإنصراف عندما أعلنت نهاية الدرس. وبينما كنت أضع أوراقي في الحقيبة وأغلقها إقتربت مني "دوريس" وهي تحمل في يديها مجلة مصورة.

قالت وهي تبتسم في خجل: هذه هي المجلة التي اشتركت في اصدارها.

ناولتني عددا من مجلة "تايم" الأسبوعية الشهيرة. كان الغلاف التقليدي المعروف للمجلة، المحاط باطار أحمر عريض ، يتألف من صورة فوتوغرافية كبيرة لساقي رجل ضخم غطاهما العلم الأمريكي. وبجوارها عنوان الموضوع الرئيسي للعدد : " هل الله أمريكي؟ "

تطلعت إليها مستغربا ثم ألقيت نظرة جديدة على المجلة

وعنئذ تبينت التحريف الذي لحق باسمها فبدلا من "Time" كتب اسم المجلة هكذا Tyme.

ضحكت في جذل طفولي وقالت : إنها مجلة طلابية اسمها "سبووك" تصدرها جامعة "اموري" بمدينة "أتلنتا". ويصدر كل عدد على هيئة إحدي المجلات الشهيرة ليسخر من طريقة تحريرها والأفكار التي تروج لها.

قلبت صفحات المجلة فوجدت الأبواب التقليدية ل"تايم" الأصلية وبنفس التنسيق والإخراج. عدت إلى الصفحة الداخلية الأولى وقرأت فهرست المحتويات التي تصدرته صورة مصغرة للغلاف أسفل عبارة "المجلة الأخبارية التي تصدر خصيصا للمواطن الأمريكي العادي". وذكر اسم المجلة هنا هكذا: "تايم .. للبلهاء" وتحته عبارة " الجديد في أحط مستوى بين المجلات".

تركتها لي فتصفحتها على مهل. وجدتها تسخر من كل رموز الحياة الأمريكية : تصريحات الإدارة ، الإعلانات المضللة ، الإبتكارات الجديدة التي لا تقدم شيئا، الرجل الوطواط، والرجل العنكبوت . وكي تفلت من الملاحقة القانونية لجأت إلى تغيير حرف واحد في أسماء المؤسسات والشركات التي تتعرض لها، مثلما فعلت مع اسمها هى(×).

(×) تضمن الموضوع الرئيسي الذي أعلن عنه غلاف العدد الصادر في أول ديسمبر ١٩٩٧ عدة آراء بشأن جنسية الله أجمعت على أنه أمريكي بدليل أنه "يتكلم الإنجليزية في الكتاب المقدس". وصيغ رأى آخر بأسلوب المثقفين المتقعر، علي لسان أستاذ في السيمائيات: " إن التجريد النظري الذي أضفى على اللقب الرمزي لاسم "الله" ،إذا ما قدم بشكل سليم من خلال تصنيف المقابلات الدينية والأحاديث مع القدرة الالهية ، يمكن ربطه رمزيا بأي عدد من الأنظمة السياسية القومية. ومع ذلك فمن المؤكد أني إذا أردت أن أحدد مثالا معينا لرابطة من هذا النوع فلا بد أنها ستكون مع الولايات المتحدة".

وردا علي سؤال : " هل الله يفخر بأن يكون أمريكيا؟" قال أحد رجال الدين : "بالطبع. هل تعتقد أنه يريد أن يكون ارهابيا من الشرق =

= الأوسط؟" وقال قس آخر: "لقد أكد الله انحيازه للرأسمالية والسيطرة العالمية. فهو يصف الملك "سليمان" في الكتاب المقدس بأنه أغنى وأحكم من أية أمة أخرى على الأرض. هل تراه كان يتحدث عن زامبيا؟"

وسخر تقرير عن الشرق الأوسط من طريقة "تايم" الأصلية في تناول الموضوع. قال إن مفاوضات العرب والإسرائيليين توقفت بعد أن حاول ثلاث جنود عرب في سن العاشرة إبادة سكان القدس بإلقاء الحجارة عليهم. ففي يوم الأربعاء الساعة الرابعة شرع الجنود الثلاثة في الجري إلى الخلف وهم يلقون الحضي على المارة. وقد استسلموا بعد أن نسفتهم قوة خاصة من طلبة المدارس الإبتدائية الإسرائيلية مسلحة بمدافع أك-٤٧ المقترضة من الولايات المتحدة.

ومضي التقرير يقول إن الهجوم الفلسطيني يدفع حكومة "نتنياهو" إلى اليمين. فقد سبق أن أيد الناخبون الإسرائيليون برنامجه للتفاهم مع العرب بما فى ذلك إتخاذ اجراءات ليبرالية مثل الاعتراف بأنهم كائنات إنسانية. وعقب الهجوم مباشرة أعلن "نتنياهو" أن "إسرائيل" تطالب بختان كل العرب". وعندما لم يستجب أحد لمطلبه غزا الجيش الإسرائيلى "مصر" وهزمها فى عشر دقائق ثم أعلن "نتنياهو": "لقد قمنا بهذا الهجوم دفاعا عن أنفسنا. ولن نتوقف قبل الحصول علي تلك القلفات! (الزائدة التى تقطع عند ختان الذكور)".

واقترح مقال آخر عن مشكلة الجريمة إقامة مكان لإحتجاز كل من يحتمل أن يرتكبها حيث يجري إستجوابه وتحديد براءته من عدمها.

وفي باب الأخبار الطبية التي اشتهرت به المجلة الأصلية، نبأ موافقة هيئة الأغذية الأمريكية على إستخدام الصابون كوسيلة غير سامة للنظافة الشخصية، وذلك بعد جدل استمر سنوات. ونبأ آخر عن دراسة جديثة تؤكد أن تناول الأطفال لمشروب معين من شأنه خفض خطر إصابتهم بأمراض القلب عندما يتقدم بهم العمر خاصة وأنه سيقلل أيضا من فرصتهم في طول العمر.

وعلى طريقة المجلة الأصلية في الترويج للعقاقير الجديدة، أفردت المجلة التقليد صفحتين للعقاقير المضادة للاكتئاب وخاصة "بروساك" و"سودافت" (الاسمان المحرفان يرمزان إلى عقارين شهيرين) بشهادات ممن تعاطوهما تؤكد فعاليتهما. فقال أحد المصابين بالوسواس القهري "كل صباح كنت أجد نفسي مدفوعا إلى أن أغسل أسناني. وفي الليل أيضا.

وضعت المجلة الساخرة في حقيبتي وهبطت إلى مكتبي. عرجت على كهف البريد فوجدت في صندوقي مظروفا يحمل اسم "معهد المراجعة التاريخية".(×)

مزقت طرف المظروف واستخرجت نشرة من اصدارات المعهد. أوشكت أن أودعها حقيبتي عندما لمحت اسم "البرديسي" في صدر صفحتها الأولى. كانت هناك رسالة موجهة إليه من "مارك ويبر" مدير المعهد، يستنكر فيه إتهاما وجهه "البرديسي" للمعهد بمعاداة السامية. وأكدت الرسالة أن التحريف الصهيوني للتاريخ لايقتصر فقط على تاريخ "فلسطين" بل يتضمن أكاذيبا تاريخية بشأن أوروبا في القرن العشرين.

طويت النشرة واتجهت إلى المصعد.

= وقد شفيت تماما بعد تعاطي "سودافت" فمن ساعتها لم أغسل أسناني مرة واحدة". ونشرت المجلة على صفحة كاملة نشرة طبية محرفة للدواء تضم بيانات من قبيل : المواد الفعالة تحت سيطرة مافيا "شيكاغو"، غير الفعالة: مايونيز، الفعالية:له تأثير ملحوظ على القلب إذ يسمح له بالاستمرار في ضخ الدم ، الآثار الجانبية: نمو الشعر في الراحتين، التبول الليلي.

(×) أسسته عام ١٩٧٨ جماعة من المؤرخين الأمريكيين بهدف مراجعة وتصحيح الوقائع التاريخية. وأثار موقفه من قضية "المحرقة" أو "الهولوكوست "غضب المتطرفين من اليهود فألقيت القنابل على مقره عدة مرات ودمرت مخازنه ثم تعرض لحريق مدمر عام ١٩٨٤، أبيدت فيه عشرات الألوف من كتبه ووثائقه النادرة.

** ١١

رويت النباتات وغادرت المنزل متجنبا النظر إلى صندوق البريد والخطابات الملقاة فوق سطحه. وبدلا من الاتجاه نحو شارع "جيري" كما أفعل عادة اتخذت الوجهة العكسية. كانت الحوانيت القليلة مغلقة وظهرت على أبوابها ملصقات حديثة تدعو إلى شرب اللبن وتصور رجلا يسيل الحليب من جانب فمه.

توقفت أمام فرع لبنكي واتجهت إلى ماكينة النقود. وضعت بطاقتي في فتحتها وانتظرت وأنا أتلفت حولي ثم ضغطت الأرقام الكودية وسحبت خمسين دولارا. استأنفت السير بعد أن أغلقت رقبة السويتر في مواجهة الرياح الباردة الآتية من الشاطئ الغربي. وبعد أربعة تقاطعات وجدتني أمام أكبر منتزه في العالم من صنع البشر.

لم أكن قد صدقت "جيني" عندما سألتها عن موقع "منتزه البوابة الذهبية" ، "جولدن جيت بارك"، فأفاضت في تصوير ضخامة مساحته التي تزيد على الألف فدان ، وكيف أن الأيدي البشرية هي التي حفرت بحيراته وزرعت أشجاره العملاقة وغاباته الشاسعة وأقامت تلاله وشقت أنهاره ومساقط مياهها.

اتجهت يسارا في شارع "فولتون" إلى أن بلغت "بوليفار بارك بريزيديو" بعد تقاطعين. مضيت فيه إلى داخل المنتزه دون أن أصادف أحدا. وانحرف الطريق ناحية اليمين فوقفت مترددا. التجأت إلى أريكة خشبية واسترخيت فوقها مستمتعا بالهدوء والخضرة الكثيفة اللامتناهية.

استقر بصري على أجمة من الزنابق تطل على بركة صغيرة. كان سطحها رائقا كالمرآة تحلق فوقه الفراشات.

وخلفها امتدت مساحات شاسعة من الورود وزهور الماجنوليا والداليا.

لمحت جسما غريب الشكل خلف الزنابق. ثم ساعدا عاريا يزينه وشم غريب ورأس حليقة انحنت إلى أسفل. حركت رأسي في عدة اتجاهات إلى أن تبينت يدا تمسك بقدم عارية وتغرز فيها محقنا. وكان بجوارها مقص وشريط لاصق.

نهضت واقفا واكتشفت ممرا للدراجات يتجه جنوبا. انتقلت إليه متحاشيا السير فوق الخضرة وتبعته حتى بلغت ممشى"جون كنيدي" فانحرفت معه جهة اليسار. وبلغت حديقة الشاي اليابانية بعد قليل.

دفعت ثلاثة دولارات ونصف عند المدخل وولجت قطعة من الجنة. كل شئ صغير الحجم دقيق التكوين كأنما صنعه أطفال ماهرون أو صنع من أجلهم. بوابات ومصابيح مزخرفة. أكمات وأشجار مقزمة وبحيرات صغيرة. سمكة ملونة تعوم في كسل. مياه تكركر فوق صخور مغطاة بالطحالب والشلالات الصغيرة. وفي ركن تمثال "بوذا الذي يجلس تحت الشمس والمطر دون مأوى".

انتظرت حتي انتهت مجموعة من التلاميذ من إلتقاط الصور فوق جسر خشبي شديد الميل. ثم عبرت جسرا رشيقا من البراميل إلى شرفة ذات سياج خشبي أحمر اللون تظللها السقوف التقليدية المقوسة. وكنت متشوقا لكوب من الشاي الدافئ.

ولجت قاعة مكتظة بالزبائن ووجدت مائدة ذات مقعدين بجوار مجموعة من السياح الألمان. أحضر لي نادل ذو ملامح أسيوية أبريقا مزخرفا من الشاي الأخضر وطبقا من البسكويت "الكوكيز". ارتشفت الشاي وأنا أتأمل امرأة بيضاء جلست بجوار النافذة. كانت ثلاثينية ذات وجه صبوح وجسد رشيق في بلوزة مخططة بنصف كم وبنطلون جينز وبوت أسود بكعب سميك مرتفع. وكان شعرها البني

اللون طويلا ومعكوصا فوق رأسها. ألقت على نظرة من عينين زرقاوين ثم أشاحت بوجهها ورفعت فنجان الشاي إلى شفتيها. خلتها وحيدة وداعبني الأمل في أن تكون هي.

تطلعت في الساعة ثم أخرجت الرسالة الغامضة الأخيرة:

"إذا كنت ترغب في رؤيتي اذهب يوم الأحد إلى حديقة الشاي في"جولدن جيت بارك". سأنتظرك في الثالثة بعد الظهر تماما. سأتعرف عليك بالطبع وستعرفني أنت أيضا".

طويت الرسالة المكتوبة بحروف الكمبيوتر على نفس نوع الورق الذي استخدم في الرسالتين السابقتين. ولم يكن لدي شك أن كاتبة الرسائل الثلاثة هى نفس الشخص.

لمحت صحيفة ملقاة على المقعد الآخر فتناولتها. كانت جريدة مجانية يصدرها طلبة جامعة "بيركلي"العريقة، الواقعة على الناحية الأخرى من الخليج، مقابل الشاطئ الشرقي ل"سان فرنسيسكو". قلبت صفحاتها الثماني التي تملأها الإعلانات وتوقفت عند عامود بعنوان " الجنس يوم الثلاثاء" له عنوان فرعي هو: "أنا داخل يا عسل!" و لم أملك نفسي من الابتسام وأنا أقرأ إجابة خفيفة الدم من المحررة على سؤال لأحد القراء(×).

(×) الجريدة هي "ديلي كاليفورنيان" الصادرة في ٣ أكتوبر ١٩٩٨. ونص السؤال هو: "لم أمارس الجنس بالفم مطلقا مع امرأة وأحب أن أجرب مع حبيبتي. هل هناك قواعد ونواهي يجب أن أعرفها ؟ وهل هناك طريقة أكيدة تمكنها من الإستمتاع؟"

واستهلت المحررة الرد قائلة إنه -لسوء الحظ-"لا توجد طريقة أكيدة تصلح لكل إنسان". واستدركت قائلة إن هذا لحسن الحظ يترك للسائل خيارات عديدة لأن لكل امرأة ما تفضله في هذا المجال. ثم نصحته بأن يسأل شريكته عما تفضل. وعلى كل فمن الضروري أن يكون غير متوتر وطبيعيا بقدر الإمكان. "فكر في الأمر كقبلة جميلة .. ابدأ ببطء ولا تتسرع بالهجوم بلسانك! ..لاحظ أن البظر شديد الحساسية فلا تبالغ كى لا تسبب ضيقا لشريكتك. وانتبه إلى أن رد الفعل يختلف من امرأة إلى أخري .. كما تختلف الأوضاع أيضا." وانتقلت الكاتبة إلى موضوع آخر وهو رائحة افرازات المهبل وطعمها. وأكدت أن الفرج عضو ذاتى التنظيف وانه أنظف بالتأكيد من الفم العادي.

أعدت الصحيفة مكانها وألقيت نظرة على ساعتي. وجدتها تقترب من الثالثة. واكتشفت أن رجلا أبيض ذا قفا وجسد مدهنين ، وشعر مائل إلى الحمرة، قد انضم إلى المرأة.

تطلعت إلى الساعة مرة أخرى وأنا ألوم نفسي. تخيلت أن كاتبة الرسالة واحدة من طالباتي وأنها الآن ترقبني هي وزملاءها وتضحك معهم على بلاهة البروفسور الكهل القادم من أدغال "أفريقيا".

كنت قد اعتبرت الأمر مزحة "أمريكية" من أحدهم. وتمنيت في أعماقي أن تكون "روزيتا" هي باعثة الرسائل وأن ... وأن ماذا ؟

كل من عمل بالتدريس ليس غريبا عن افتتان طلبته به أو ألاعيبهم معه. حدث ذلك معي عدة مرات وكدت أتورط في إحداها. لكني لم أشأ المخاطرة بسمعتي وخاصة في ظل الظروف التي كنت أمر بها.

حولت نظري إلى شاربة الشاي فرأيت الرجل يميل برأسه ناحيتها ويوجه إليها بضع كلمات. وجرى بينهما نقاش بدت فيه منفعلة. ورأيته يربت على يدها ثم انحنى وقبل أذنها. ثم وقفا استعدادا للانصراف ورأيته يفتح فمه ويحرك لسانه حركه سريعة فضحكت ودفعته بيدها في دلال.

الثالثة والربع . قررت أن أنصرف بعد ربع ساعة أخرى ثم أقنعت نفسي بالبقاء بزعم الاستمتاع بمشهد الحديقة. فكرت في الرسالة السابقة التي تتحدث عن سيقان ..من ؟ "روزيتا" ، أم "إستر"؟ استعرضت ما حدث يومها وحاولت أن أحدد الشخص الذي لاحظ اهتمامي بسيقانهما.

"العرب لا يفكرون إلا في شئ واحد".

لمحت مسز "شادويك" تعبر جسر البراميل وهي غارقة في التفكير. حدقت إليها مذهولا وهى تلج القاعة وتتلفت حولها. وعندما رأتني تهلل وجهها.

نهضت واقفا وأشرت إليها أن تنضم إلى فاقتربت. كانت ترتدي جوبة طويلة بلغت قدمين في حذاء مطاطي.

قالت : هاى.

قلت : هاى.

أبعدت الصحيفة عن المقعد الآخر ووضعت يدي على ظهره إلى أن جلست فجلست بدوري.

قالت : مفاجأة. جميل أنك هنا. المنتزه أجمل مكان في المدينة. ليتك تراه في شهر "مارس" عندما تدب فيه الحياة وتتفتح أزهار الكريز الأحمر. هل زرته من قبل ؟

كانت تتحدث بسرعة. هل تداري ارتباكها؟

قلت إنها المرة الأولى. وأوشكت أن أضيف أني جئت بناء على دعوة ثم ترددت وسكت.

قالت : لا بد أن تزور أكاديمية العلوم. إنها على بعد خطوات.

أشارت ناحية الجنوب واستطردت :ستدفع ٨ دولارات ونصف أو تتنتظر حتي يصبح عمرك ٦٥ سنة لتدفع خمسة دولارات ونصف. ما زال أمامك بعض الوقت .أليس كذلك؟

وضحكت فاغتصبت ضحكة بدوري.

أسندت مرفقيها إلى المائدة وحدجتني بعينيها الذكيتين من خلف نظارتها : به كل شئ عن الزلزال الأخيرالذي وقع منذ تسع سنوات. ومائدة هزازة تعطيك الاحساس به. وأكواريوم وغابة أفريقية بقرودها وفهودها وأسودها وكل شئ تقريبا.

أحضر لها النادل أبريق الشاي والبسكويت فصبت لنفسها فنجانا.

قالت : أنا آتي هنا كل أحد. فليس لدي أسرة ولا ما أفعله.

ارتشفت الشاي وأنا أتأمل وجهها. كان هناك أثر خفيف لشارب وأحمرشفاه.

سألتني عن سير الدروس وعن علاقتي ب"إستر".

رويت لها التعديلات التي أدخلتها على تنظيم الغرفة فانفجرت ضاحكة.

قالت : هي شخصية طيبة وستنسجم معها. ثم فاجأتني :

- ما هي حكاية "روزيتا" ؟

رمقتها مبهوتًا: أي حكاية ؟

وضعت كعكة في فمها ومضغتها على مهل دون أن ترفع عينيها عن وجهي :

-كانت متحمسة جدا عندماسجلت اسمها في حلقتك. ثم لم تعد تحضر كما ألاحظ.

قلت إنها مشغولة حاليا برسالة الدكتوراه وستعوض فترة الغياب.

تحدثنا قليلا عن بقية الطلاب وعن قضية "مونيكا" ثم توقف الحديث. انتظرت أن تقول شيئاً يشير إلى علاقتها بالورود والرسائل الغامضة لكنها غرقت في صمت شارد. تأملت شعرها الرمادي الذي انسدل في اهمال وتطلعت إلى صدرها ثم أشحت برأسي جانبا لأطرد صورة ثديين مترهلين فوق بطن مجعدة وغالبا غابة من الشعر الرمادي. ثم عنفت نفسي.

أليس لديها نفس الأشواق والمشاعر التي أحملها في سنواتي التي تكبرها بعشر على الأقل ؟

قلت : هناك شخص يضع لي ورودا حمراء في صندوق بريدي.

قالت في غير اهتمام :لابد أن لك معجبات كثيرات.

ابتلعت آخر رشفة من الشاي وأعادت الفنجان إلى المائدة. تلفتت حولها ثم قالت :

- الجو هنا أصبح خانقا. وأنا أريد أن أدخن. ما رأيك في أن نغادر ؟

نهضت على الفور وسبقتها إلى دفع الحساب ثم انطلقنا إلى الخارج.

قالت وأنا أشعل لها سيجارتها: متأكد أنك لاتريد زيارة الأكاديمية ؟

قلت : ليس اليوم. عموما أنا لا أحب المتاحف. أشعر فيها بالدوار والاختناق. ربما السبب أني قادم من بلد متخلف.

ضحكت ووضعت يدها على ذراعي ثم سحبتهابسرعة : لا تراع. أنا أيضا أكرهها. هل وراءك شئ ؟ سآخذك إلى مكان تاريخي يغنيك عن ألف متحف.

مشينا في الطريق الذي جئت منه إلى أن بلغنا سيارتها. كانت " ستيشن واجن" يابانية قديمة تشكو الأهمال وتناثرت داخلها الأوراق وزجاجات المياه الفارغة. انسلت أسفل حزام المقعد الثابت وركبت إلى جوارها. اتجهنا إلى مدخل الطريق السريع القريب وانطلقنا فوق جسر "جولدن جيت". وبعد أن دفعت ضريبة المرور انحرفنا يمينا إلى الطريق رقم ٥٨٠ فجسر جديد نقلنا إلى الشاطئ الآخر من الخليج . لزمناه جنوبا حتي التحمنا بالطريق السريع رقـ ٨٠.

سألتها عما إذا كانت ولدت في "سان فرانسيسكو".

قالت : لا. أنا من الريف. من بلدة صغيرة في الوسط الزراعي.

طلبت مني أن أفتح درج التابلوه. وجدت أنابيب رش ومفكات ودفترا أحمر ،عبارة عن الكتاب السنوي لإحدى المدارس. أشعلَت ضوء السقف وطلبت مني أن أفتح الصفحة الأولى.

طالعتني صورة التخرج لفتاة باسمة انقسم شعرها إلى خصلتين معقودتين على جانبي الرأس. تعرفت على أوجه الشبه بينهما في صعوبة. وقرأت أسماء الجمعيات التي كانت بها والجوائز التي حصدتها : جمعية المناظرة، نادي الشطرنج ، مشجعات فريق البيسبول، فريق السباحة.

قلبت الصفحة إلى صورة شاب انسدل شعره فوق جبينه على هيئة "البيتلز".

قالت دون أن تحول وجهها عن الطريق : أول "بوي فريند". يا الله! كنا في زهوة الشباب ومفعمين بالأمل. نلتقي في منتزه وسط المدينة. أونتمشى على شاطئ النهر تحت أشجار البتولا والصفصاف. نديرالراديو الترانزستور المخترع حديثا بصوت منخفض ونسمع "الفيس بريسلي". ندخن السجائرخلسة ونشرب "الكوكاكولا". نتلفت حولنا في خوف قبل أن نتعانق. ثم يعود كل منا إلى بيته لسهرة عائلية يتخللها عزف على البيانو أوألعاب جماعية.

أشارت إلى لافتة تحمل إسم "بيركلي" واستطردت :ثم انفجر كل شئ عندما جئت للدراسة هنا. الموسيقي الصاخبة، الهيبيون، الفهود السود ، الحرية الجنسية ، حرية التعبير، "فيتنام" ، عنف الشرطة، الإضرابات، الاعتصامات ، الشعارات المعلقة على الصدور: "أبيحوا الحشيش"، " الحب بدلا من الحرب" ، "احرقوا بطاقات التجنيد" ، "قاطعوا العنب" ، "تبادلوا زوجاتكم". وكانت هناك أيضا "جون باز".

"التفتت إليّ : هل سمعت أغانيها؟

أجبت بالنفي فانطلقت تغني :

"سوف ننتصر
يوما ما.
في أعماق قلبي ،
أومن

سوف ننتصر،
يوما ما".

كان صوتها عميقا جياشا بالعاطفة حمل كل ما في كلمات الأغنية وموسيقاها من شجن. وخيل لى أنها موشكة على البكاء فتجنبت النظر إليها.

قالت بعد أن عبرنا اشارة مرور : ها نحن قد وصلنا. الجامعة في نهاية هذا الشارع. "تلغراف". ليس هناك أشهر منه في كل "أمريكا". عندما جئت كان يشغي بالموسيقيين والمنجمين والباعة والمجانين والمخدرين والمبشرين والثوار والفوضويين والفنانين والمجرمين وأساتذةالجامعة. وكانت حوانيت الموسيقى تعرض ألبوم "جون لينون" وزوجته اليابانية بصورتهما العارية. والبعض تحمس ومشي عاريا. كانوا رجالا بالطبع. ولم يكن منظرهم جميلا على الإطلاق.

لم أشهد أثرا لكل ذلك. فعلى جانبي الطريق قامت مباني إدارية وسكنية هادئة تبدو منها أضواء قليلة. ثم لمحت على مبعدة ثلاثة شبان في ملابس جلدية سوداء مع كلب ضخم الجثة.

استطردت: انضممت إلى حركة تحرير النساء. ونزلنا الشوارع بشعارات: " هل من الذكاء التظاهر بالغباء؟"، "أنت تكسبين أكثر لو كنت عاهرة حقيقية"،" أقيموا مراكز لصحة الطفل تعمل ٢٤ ساعة"، " لا تستخدموا السوتيان".

رمقتني بنظرة جانبية وضبطتني أبتسم فسارعت تقول : ما الضرر في أن يكون النهدان على حريتهما حتى ولو تهدلا ؟ من الذي قال إنهما يجب أن يبرزا مثل الشرفات؟ إنهم صناع السوتيانات. هاجمناهم. وهاجمنا كل أشكال التضليل الإعلاني. وكل مظاهر النفاق.

تغيرت صورة الشارع فجأة فدبت فيه الحركة وأضاءته الحوانيت. وهاجمتنا الروائح الخانقة للهامبورجروالجبن

المحمر من مطاعم ومقاهي مزدحمة ، مختلطة بصراخ مكبرات الصوت أمام حوانيت الاسطوانات.

توقفت عند إشارة مرور فاستقرت عيناى على فتاة حامل استلقت فوق الرصيف أسفل عامود النور وبجوارها زجاجة مياه و شاب يقرأ في مجلة مصورة.

أشارت "شادويك" إلى حانوت كتب على الناصية اليسرى.

-كانت هذه المكتبة المكان المفضل لالتقاء الثوار. فصاحبها كان من زعمائهم. أما صاحبها الآن فمن أكبر دعاة تنظيف الشارع من كل مظاهر التمرد.

واصلت السير في بطء. كان المارة يعبرون في بساطة وسط السيارات. ودوى صوت سيارة رياضية مندفعة. ثم انتهي الشارع إذ اعترضته أراضي الجامعة.

اتجهت "شادويك" يمينا ثم انحرفت في شارع مواز ل"تلغراف" ومضت في عكس الاتجاه الذي جئنا منه. وبعد عدة تقاطعات صرنا في منطقة شديدة الهدوء.

أشارت إلى ساحة كبيرة مظلمة تناثرت بها بضع شجيرات وقالت : كانت أرضا مهجورة تملكها الجامعة فاحتلتها مجموعة منا أصبحت تلقب ب" الحدائقيين". وأعلنا أن ملاكها الحقيقيين هم الهنود الحمر الذين سرقت منهم بالقوة قبل مائتي سنة. وإذا ظهر واحد منهم وطالب بها سنتركها له على الفوربسرور. أما غير ذلك فلن نتخلى عنها. وأقسمنا أن ندافع عنها. فاشتبكنا مع جنود الحرس الوطني ونحن نهتف "لا للبلدوزرات" ،"السلطة للشعب وبنادقه". وانتهى الاشتباك بمقتل أحد المتظاهرين وإصابة العشرات.

- والآن؟

قالت بنبرة حزينة : كما تراها.

ثم استعادت حيويتها وقالت : أظن يكفي هذا اليوم. الآن نأكل.

انحرفنا في شارع جانبي وسرعان ما كنا نعبر "تلغراف". ركنا السيارة في جاراج متعدد الطوابق. ولجنا ممرا انتشرت على جانبيه المطاعم الصغيرة المتعددة الجنسيات ، من يابانية إلى تركية. اختارت مطعما فيتناميا متواضعا ورحبت بنا سيدة أسيوية دقيقة الحجم أجلستنا بجوار نافذة. وسرعان ما وضعت أمام كل منا إناء متوسط الحجم من الفخار يتصاعد منه البخاروطبقا من براعم الفول الطازجة الخضراءوحبات الليمون وأوراق النعناع. استسغت على الفور طعم الحساء الذي اشتمل على شعرية وقطع مسلوقة من لحم البقر.

قالت وهي تتأمل سطح الحساء منتظرة حتي تخف سخونته: كانت لي وقتها صديقة من القياديات قطعت دراستهاوتفرغت للعمل الثوري. وعندما انتهت حرب "فيتنام" شعرت بالضياع. كان الكفاح ضد الحرب هو أهم شئ في حياتها ولم تنجح في إحلاله بشئ اخر. جربت الهنود الحمر بعض الوقت وغيرها من القضايا بلا فائدة. ثم التحقت بمركز لتعليم اليوجا. وتركته إلى دراسة الأعشاب الطبية ثم الباراسيكولوجي وأخيرا ذهبت إلى "إسرائيل" وانضمت إلى الجيش.

- الإسرائيلي؟

- أهناك غيره؟

أتينا بسرعة على محتويات إنائينا وأحضرت لنا السيدة الفيتنامية طبقي حلوى من الفاصوليا والأرزباللبن.

سألتها: وأنت ؟ أى قضية اخترت؟

قلبت بملعقتها في طبق الحلوى ثم قالت في تردد :

- أنا عضو في اللجنة النقابية لموظفي المعهد. وفي عدة لجان أخرى.

تطلعت في ساعتها ثم أضافت: هناك اجتماع الليلة لنصرة "العراق". تأتي معي؟

أصرت أن تدفع حسابنا قائلة إنه مبلغ زهيد. وأخذنا السيارة من الجاراج بعد أن دفعت ستة دولارات لساعتين انتظار. انطلقنا إلى الطريق السريع رقم ٨٠ فأخذنا الاتجاه العكسي حتى مفترق طرق. انحنينا يمينا وسرعان ما صرنا فوق جسر الخليج. كان مزدحما بالسيارات العائدة من العطلة فظلت قدمها فوق الفرامل.

انحنت تعبث بمفاتيح الراديو حتى وجدت أغنية لم أتبين كلماتها إلى أن رافقتها بصوت عال أقرب إلى الصراخ:

" لم يقل أحد أبدا أن الأمر سيكون سهلا
ولم يقل واحد أبدا أنه سيكون بهذه الصعوبة".

تحسن المرور بعد قليل ثم شعرت فجأة كأنما إستطالت سياج الجسر وأصبحنا نسيرفي نفق مظلم. وأوضحت لى أن الضباب يحل مرة واحدة قادما من المحيط ويلف الجسر كالبطانية.

احتفظت بسرعة لا تتجاوز العشرين كيلومترا في الساعة وأشعلت التكييف الساخن عندما انخفضت درجة الحرارة. وشعرت بضغط الرياح على هيكل السيارة عندما تركنا الجسرإلى شوارع مركزالمدينة المشتعل بالأضواء.

تركنا السيارة في جاراج متعدد الطوابق ومشينا حتى شارع "ميشان". مررنا من أمام مبان عتيقة وجدران لطختها الكتابات. وبدت آثار الزلزال الأخير علي بعض المباني. تناهت إلى سمعي موسيقى أسبانية من أحد المنازل ولاحظت أن الطابع "اللاتيني" يغلب على ملامح المارة وأسماء الحوانيت.

أشارت "شادويك" إلى نقطة بعيدة في الشارع الطويل وقالت: المربع المكون من أربع بلوكات عند الشارع السادس اسمه "مربع الشيطان". سكانه من السكارى والعاهرات والمشردين والمسنين الذين طردتهم المشروعات المعمارية في أجزاء أخرى من المدينة.

أدركت أنها تتحدث عن نفس المنطقة التي حذرني منها "ماهر".

انتظرت حتي عبرنا الطريق ثم استطردت: هناك أيضا البوهيميون الذين اجتذبتهم أجور السكن الأقل وافتتحوا مسارح طليعية ومعارض للفن الطليعي ومقاهي تشرب فيها "الاسبريسو" وأنت تستمع إلى الشعر وحوانيت للكتب السياسية المتطرفة والأدب النسائي ونوادي ليلية مشروعة وغير مشروعة. يمكنك أن تشتري أى شئ هنا وأن تجد أى شئ كما يمكنك أن تفقد نقودك وحياتك وبالنهار أيضا.

بلغنا مبنى حديثا يضم مركز "يربا بوينا" للفنون. صعدنا سلما عريضا واجتزنا بوابة زجاجية إلى ردهة واسعة وقف عدة أشخاص عند باب في نهايتها. كان أغلبهم في منتصف العمر ويغلب عليهم التردد والخجل.

تقدمنا من طاولة صفت فوقها بضع نشرات صادرة عن "مركز الفعل الدولي" وبجوارها لافتة تطلب التبرع بمبلغ يتراوح بين خمسة دولارات وعشرين دولارا. علقت:

- من ليس معه لا يمنع من الدخول.

دفع كل منا خمسة دولارات وولجنا قاعة عرض صغيرة تضم حوالى ثمانين مقعدا. وعندما إمتلأ نصفها صعد إلى المنصة شاب ذكر أنه عائد لتوه من "الخرطوم" مع بعثة لتقصي الحقائق رأسها المدعي العام الأمريكي السابق "رامزي كلارك". وقال إن جولة البعثة كشفت كذب مزاعم الإدارة

الأمريكية وإن مصنع "الشفاء" الذي قصفته يوم ٢٠ أغسطس لا شأن له بإنتاج غازات الأعصاب.

أعقبته سيدة بيضاء أربعينية تدعى "جلوريا دي لا ريفا" ترتدي نظارة طبية لم تنجح في إخفاء قصر نظرها. هاجمت العقوبات المفروضة على "العراق" والتي يتوفى بسببها خمسة آلاف طفل كل شهر. وعرضت لنا شريطا للفيديو يصور رحلة إليه قام بها ٩٠ شخصا في خرق صريح للحصار وللقانون الأمريكي. وقدمت البعثة للسلطات العراقية ما قيمته أربعة ملايين دولار من الأدوية. وتفقد أعضاؤها ما خلفه القصف الأمريكي من دمار وزاروا المستشفيات ومنشئات المياه.

تحدث عدد من الحاضرين في نفس الاتجاه ثم انتهى الاجتماع. وتركتني "شادويك" بضع دقائق تبادلت فيه الحديث مع "دي لاريفا" وزملائها. ثم غادرنا المكان واتجهنا إلى الجاراج.

علقت على لقطات الشريط التي صورت في المستشفيات وظهر فيها أطفال هزيلون جاحظو العيون يعانون نقص الغذاء. قلت:

- هل لاحظت الطبيب العراقي الذي رفع أحد الأطفال أمام الكاميرا؟
- ماله؟
- هل رأيت كيف كان شديد الامتلاء يتفجر صحة؟

توقفت عن السير وسألت:

- ماذا تقصد؟

قلت: مجرد ملاحظة. ربما كان من رجال المخابرات.

أضفت عندما رأيتها مقطبة: أنا أتحدث كمؤرخ. التاريخ لم يعد يكتفي بتسجيل الوقائع وإنما يفتش خلفها.

قالت بنبرة ساخرة: وماذا تقترح إذن؟ أن نمتنع عن مساعدة الشعب العراقي؟

قلت: لا أعرف. أنا لست سياسيا. أنا مؤرخ وفقط.

لم تعلق ومشينا في صمت. وشعرت أنها غاضبة.

كنا قد بلغنا مدخل الجاراج فقلت: سآخذ تاكسي من هنا.

تقدمتني إلى الداخل قائلة: لا ضرورة. سأوصلك.

** ١٢

أجلت البصر بينهم متسائلا في سري: "أيكم؟"

كانوا جميعا حاضرين باستثناء "روزيتا" بالطبع و"فرناندو" الذي اختفى معها. "فادية" بملامحها المتعبة وجسدها المائل على الطاولة. "فرنون" بطيف ابتسامة غامضة في عينيه، في مكانه الدائم إلى جوار "مونا" التي تمضغ شيئا. "سابك" بوجهه الحجري الجامد في المقعد المواجه ل"فرنون"، والوحيد بيننا الذي ارتدى بزة كاملة. "شرلي" بملامحها المصمتة وشفتها السفلى الممتلئة. "دوريس" ببثور وجهها ونظرتها الحالمة. "ميجان" بعينيها الضيقتين المسحوبتين اللتين تحولان دون قراءة تعبيرهما. "لاري" ببشرته المستعدة للاحمرار عند أي كلمة توجه إليه.

كان "فرنون" قد انتهى من عرض ناقش فيه كتابا حديثا صدر للتو عن جامعة "هارفارد" بعنوان "آلاف من السنين التي انصرمت: القرنان الأولان للعبودية في أمريكا الشمالية". واختتم حديثه قائلا: إن الكتاب يعتبر العرق أمرا مصطنعا ويؤكد أن الديموقراطية الأمريكية أوفت بالوعود التي وردت في إعلان الاستقلال.

أعرب "لاري" عن دهشته وقال إن رئيس المحكمة العليا حكم عام ١٨٥٧ بأن إعلان الاستقلال الأمريكي الذي يؤكد

المساواة بين الجميع لا ينطبق على السود. وأضاف : إن الكتاب في رأي يدين "أمريكا" البيضاء. وقد ذكر بالتحديد أنه إذا كانت "أمريكا" البيضاء قد بدأت تسمح بحرية "أمريكا" السوداء، فإنها خلقت في نفس الوقت نظاما محكما من التمييز ضدهم.

أجاب "فيرنون" في تردد أثار حيرتي: هذا صحيح. فبعد مضي ١٣٠ عاما على إلغاء العبودية ما زال السود معزولين في أحياء خاصة بهم تشكو الفقر والبطالة والمرض والعنف. وهم معزولون أيضا في أعمال الخدمات والتمريض والتنظيف ومكاتب البريد ومخازن البيع والنقل وخدمات التليفون ولا تكاد تجد إلا قلة منهم بين الأطباء والمحامين والمهندسين، كما أنهم يحصلون على أجور أقل من التي يحصل عليها نظراؤهم البيض.

أضاف "لاري" مستخدما صيغة الثلث: وهم في نفس الوقت يشكلون ثلث الجيش.

تدخلت قائلا: لقد شاهدت بضع حلقات من مسلسل "كوسبي شو". وأعطاني انطباعا بأنه لم تعد هناك مشكلة خاصة بوضع السود. كما أني رأيتهم يتحركون في كل مكان بحرية وكبرياء.

أمنت "شرلي" على ملاحظتي : بل هناك عنصرية معاكسة. فبعضهم يزعم أن العرق الأسود يتفوق على الأبيض الذي يعجز عن توليد الكروموسومات الملونة للجلد. وأن هذا العجز يؤثر سلبيا علي النمو الدماغي للبيض!

لوح "لاري" بيده في استهانة قائلا: إذا كان بعض السود يحتلون مكانة مرموقة في المجتمع فهم في الحقيقة من وقع عليهم الاختيار من البيض وفق شروط محددة كما أنهم يمتلكون مواهب متميزة وجاءت تصرفاتهم على حساب إنسانيتهم الكاملة. فقد تكيفوا مع الصورة التي رسمهالهم

البيض. السينما قدمت لنا "سامبو" المسلي والزنجي المخيف والفتاة الداعرة والمربية السمينة التي لا توحي بأنوثة من أي نوع. وفي ميداني الموسيقى والرياضة حولت العقلية الرأسمالية السود إلى سلعة حققت المليارات.

خاطبت "مونا" "فرنون" قائلة إن عرضه يميل إلى اعتبار الغرب الاستعماري وحده المسئول عن تجارة الرقيق. في حين أن ممالك وامارات غرب ووسط أفريقيا تتحمل نفس القدر من المسئولية. القبائل المحلية وشيوخها كانوا يختطفون أبناء جلدتهم ويسلمونهم لتجار العبيد.

تحولت إلى وأضافت : ثم هناك العرب. لم تلغ السعودية "الرق إلا عام ١٩٦١ وألغته "موريتانيا" في ١٩٨٠.

تصدت لها "فادية" في انفعال بعد أن اعتدلت في جلستها: الرق ما زال موجودا في أماكن كثيرة. ما رأيك في السويسريين الذين يذهبون إلى "أمريكا اللاتينية" ويشترون زوجات يحتجزونهن في المنازل؟ أو في تجارة الأطفال الجنسية التي تدار من الغرب؟

عقب "لاري": المثير في الأمر أن رجال دين ومفكرين كبارا في عصر التنوير أيدوا تجارة العبيد. بل قال بعضهم إنه إذا كان كل البشر حقا قد خلقوا متساووين وخلق البعض عبيدا، فمعنى ذلك أن الأخيرين ليسوا إذن من البشر! والواقع أن عمل العبيد كان مربحا فلم يجد فيه أحد غضاضة. وبحلول عام ١٧٨٠ كانت كل من "بريطانيا" و"فرنسا" تشحنان ٤٠ ألف أفريقي سنويا لأسواق العبيد وتحققان من ذلك أرباحا طائلة. ولهذا قيل عن حق أن أرباح تجارة العبيد وعائد عملهم في المزارع قاما بري حديقة الرأسمالية الناشئة. وأصبحت "بريطانيا" بالذات أول أمة صناعية ترتفع فوق ظهور عبيدها السود التي مزقتها السياط. ثم قادت الاتجاه العالمي لتحرير العبيد منذ مطلع

القرن التاسع عشر عندما وجدت أنها يمكن أن تستفيد منهم أكثر في المصانع.

أزاحت "شرلي" خصلة الشعر التي تسقط دائما فوق عينها اليسري وهو ما كنت أشك أنها تتعمده وقالت: أعتقد أن الثورة الصناعية اعتمدت على عوامل أخرى خاصة بمصادر الطاقة وتوسيع السوق وغير ذلك. كانت الصناعة ستتطور بالتأكيد بدون الرق وإن كان هذا لا يعني أن أرباحه لم تكن بلا أثر عليها.

أنهيت النقاش عندما وجدته قد استنفذ أغراضه وعمق الدروب التي يمكن أن يؤدي إليها البحث في الموضوع. وقبل أن أشير "لفادية" كي تبدأ عرضها نهضت "ميجان" وتقدمت من ستارة النافذة وأزاحتها. كانت ترتدي نفس الثوب المشقوق من الجانب. والتقت عينانا للحظة خاطفة وهى تعود إلى مقعدها.

ركزت "فادية" بحثها على كتاب "جمال حمدان" الرئيسي "شخصية مصر/عبقرية المكان" (طبعة سنة ١٩٧٠). لم يكن الكتاب متوفرا بالإنجليزية ولهذا تضاءلت فرصة متابعة بقية الطلاب للعرض ومناقشته. لكن ما دفعني إلى اقتراح هذا الموضوع هو أن أفكار "جمال حمدان" تخدم الخط العام الذي حددته للسمينار، كما إنها تتيح لي فرصة استكشاف إمكانياتها في التحليل والعرض.

بدأت بعبارة لأحد زملائي (×) لخص فيها عمل "حمدان" بأنه اعتبر الموقع الجغرافي بمثابة الفرضية الفلسفية التي تفسر تاريخ مصر الطويل اجتماعيا وسياسيا وتحدد ملامح الشخصية المصرية في أخلاقها وسلوكها.

وقالت إن "حمدان" حدد مفهوم البيئة النهرية الفيضية

(×) هو "عاصم الدسوقي" أستاذ التاريخ الحديث بجامعة "حلوان".

التي يسود فيها النظام بسلطة مستمدة من المركز، وتتخلق الحضارة بتكوين مجتمع مستقر وثقافة خاصة بشعب واحد في وطن واحد.

واعتبرت أن من أهم ما توصل إليه "جمال حمدان" هو تحليله للشخصية المصرية وتعدد أبعادها.

امتدحت كتابا آخر له هو "استراتيجية الاستعمار والتحرير"، صدر بعد عام من العدوان الإسرائيلي في ١٩٦٧، لأنه يرفض وضع الفتح الإسلامي والغزو العثماني في نفس المستوى مع الحروب الصليبية وغزو التتار والمغول. فقد وصف الدولة العربية بأنها كانت إمبراطورية تحريرية غير استعمارية حررت المنطقة من ربقة الاستعمار الروماني والفارسي ومن الاضطهاد الوثني وابتزازه المادي. وأن السلطة فيها كانت مشاعا للجميع، لا فضل لعربي على أعجمي أو لجنس على آخر.

واختتمت عرضها بالمقارنة التي عقدها "حمدان" بين العروبة والأمريكية عندما قال إنهما نقيضان في الأصول. فالأخيرة نشأت من هجرة حديثة قامت بها أجزاء من شعوب متنافرة لتتصاهر وتنصهر معا في بوتقة وطن جديد عبر المحيط، بينما العروبة، التي جمعتها أربعة عشر قرنا، قامت من هجرة جزء من شعب واحد لتتصاهر وتنصهر مع شعوب متباينة في أوطان قديمة متلاصقة.

وأثارت الابتسامات عندما ذكرت الرأى الذي أفضى به "حمدان" في أعقاب الانتصار المصري في حرب أكتوبر ١٩٧٣ التي ساندت فيها "الولايات المتحدة" "إسرائيل". فقد قال إن القطبين النهائيين في الصراع بين الإمبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب "الولايات المتحدة" و"مصر". ووصف الصراع بأنه عداء بين أقدم دولة في التاريخ وأحدث دولة هامة فيه.

علقت "مونا" متعجبة من وصف الإمبراطورية العربية بأنها تحريرية. فمايسمى بالفتح العربي هوفي رأيها الحرب الصليبية الأولى.

وقال "لاري" إنه يشتم من العرض رائحة تعصب قومي مبالغ فيه لدى "حمدان".

قلت إن عمل "حمدان" يتميز بلغة خاصة حية مفتوحة على التناقضات والبدائل. وتوصل من خلالها إلى صياغات فذة مثل قوله إن الاستغلال المستمر قد امتص من المصري الروح كما امتصت منه الطفيليات المصاحبة لبيئة الري دمه وحيويته.

ومع ذلك شابت هذه اللغة مسحة رومانسية بتأثير المد القومي وشعاراته في الستينيات. فهو يستخدم عبارات من قبيل "رسالة مصر التاريخية" و"الإمبراطورية التي ضاعت" و" تشرنق مصر داخل حدودها في فترات الضعف !! ". وأحيانا ما يكشف عن تطرف في الشعور القومي يصل إلى درجة التعصب عندمايصف مثلا احتلال "مصر" الفرعونية لأراضي بعض جيرانها بأنه" ليس استعمارا بالمعنى المفهوم وإنما لنشر السلام المصري، "باكس اجيبتيانا"، على طريقة "باكس رومانا". أو عندما يردد الصياغات الساذجة التي راجت في فترة الخمسينيات وبداية الستينيات عن خصوصية الثورة المصرية وكيف أنها تختلف عن الفرنسية التي ظلت طبقية رأسمالية والروسية التي أخذت بديكتاتورية الطبقة العاملة. وأنها ، أي المصرية،ثورة كل فئات الشعب العاملة ضد كل من الإقطاع والبورجوازية على حد سواء، وهي لا طبقية تذيب الفوارق بين الطبقات وتأخذ بالديموقراطية الثورية ولا تنكر الرأسمالية الفردية.

غادرت مقعدي وأنا أواصل الحديث: يمكننا أن نعود في تفسير ذلك التطرف إلى حديثه عن تناقضات الشخصية

المصرية. بل وربما يكتمل فهمنا لعمل "حمدان" بإلقاء الضوء على تكوينه النفسي. فقد كان وسيما شديد الإعتداد بنفسه لدرجة العصابية. وليس مصادفة أنه هاجم - عند استقالته من الجامعة - المجتمع الذي يسمح فقط للرجل المتوسط بالوصول ويضيق بالرجل الممتاز.

وأضفت أن هذا الجانب يمثل إحدي روافد السمينار والسبب في التفاصيل الشخصية التى أشرت إليها عند تناولي لرحلتي كمؤرخ . فهناك علاقة بين المضاعفات العصابية للشخصية وهاجس التكريس للعمل والنتائج التي يتوصل إليها الباحث/ المؤرخ.

اعترضت "فادية" على حديثى قائلة: ما هي إذن الرؤية المغايرة غير الرومانسية ؟

قلت: يمكن الاستعانة بباحث آخر هو "أحمد صادق سعد"(×) تناول نفس الموضوعات بتحليل علمي واقعي يستند إلى عوامل محددة متنوعة حسب كل عصر.

فهويضع مصر في إطار ما أسماه بالتكوينات الشرقية المبنية على النمط الآسيوي للإنتاج مثل "الصين "و"الهند" و"العراق" و"كوريا". وفي رأيه أن هذه المجتمعات تتميز بصفات خاصة هى التي تصورها" حمدان "قاصرة على "مصر". في مقدمة هذه الخصائص خاصية الاستقرار والاستمرار والثبات خلال التغيرات المنتظمة الموسمية. لهذه الخاصية ناحيتان : فمنها تنبع الثقة في الحضارة القديمة الجذور وتراثها الطويل ومنها أيضا تنبع القدرة العجيبة

(×) (١٩١٩-١٩٨٨)، مصري من أبوين يهوديين ، تركي وأسبانية، أجاد عدة لغات وتمكن من العربية وجمع بين النشاط السياسي في قيادة الحركة الشيوعية والبحث النظري. عمل سنوات طويلة في مؤلفه الموسوعي: "تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي" ، (دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩) الذي غطى فيه نحو أربعين قرنا من تاريخ "مصر".

لهذه المجتمعات على استيعاب الغزاة ووضع خاتمها عليهم : فرغم كل شئ أصبح فاتحو "الصين" صينيين في نهاية الأمر، و"المغول" و"العرب" الذين استولوا على "الهند" هنودا ، والأحباش والليبيون والأغريق والرومان والأتراك الخ - الذين حكموا "مصر" - أصبحوا مصريين. ومن ناحية أخرى يوجد وجه آخر لذلك الاستقرار والثبات يتمثل في بطء التطوربل الركود، وأحيانا العودة إلى الوراء تدريجيا.

عدت إلى مقعدي وأفرغت كوبا من الماء من زجاجتي وأردفت: أما عروبة "مصر" فيتناولها "سعد" بطريقة مختلفة. فيلاحظ أن "مصر" تعرضت لاحتلال جيوش عديدة قبل الغزو العربي وبعده. لكنها لم تصبح فارسية أو أغريقية ولا رومانية أوبيزنطية من قبل ولا أصبحت تركية أو فرنسية أو إنجليزية من بعد. وفي هذا الطابع القومي الصلد استثناء هواستعرابها. وقد وقف "حمدان" حائرا أمام هذه الظاهرة وفسرها في البداية بأن "مصر" القبطية أدركت بسرعة أن العرب أتوا بجديد. لكنه لم يلبث أن استدرك قائلا إن العرب لم يأتوا معهم بحضارة ذات بال ومع ذلك بعثت الحضارة على أيديهم حيثما دخلوا. فدورهم كان دور الشرارة التي ألهبت الوقود الحضاري الخامل في "مصر".

أما "صادق سعد" فيقول إن الدين الإسلامي لعب دورا ولا شك في استيعاب "مصر" للعرب الذين سكنوها وفي تحويل المصريين إلى اللغة العربية والكثير من عادات أهل الجزيرة لكن عوامل اقتصادية اجتماعية خاصة كانت العنصر الرئيسي في هذا التحول.

شعرت بالإرهاق فاقترحت أن نستريح قليلا في الكافيتريا. وبينما كنا نغادر القاعة اقتربت مني "شرلي". كانت ترتدي بلوزة حمراء بلا أكمام فوق شورت أبيض مشجر كشف عن ساقين مليئتين قويتين. قالت : إذن نحن

قطبان متعاديان طبقا ل"جمال حمدان" ؟ لن أسمح بهذا أبدا. وابتسمت ابتسامة غامضة قبل أن تبتعد.

هبطنا إلى الكافيتريا وحملنا أكواب القهوة إلى ساحتها الخارجية. لم تكن هناك مقاعد خالية تكفينا جميعا فجلست بجوار "فادية" فوق حاجز حجري.

أعربت عن إعجابي بعرضها وأبديت لها بعض الملاحظات ثم سألتها عن الكيفية التي تنظم بها وقتها.

ضحكت وقالت : أنت ظننت أني أتهرب من الدراسة عندما اعترضت على "بروديل". لكن بص معي: المنبه يدق الساعة الثامنة صباحا. تدخل "سارة" الحمام مع دب وكتاب. ثم تناديني لأقرأ لها ولدبها من الكتاب. أبذل مجهودا خرافيا لأنهض من الفراش وأقول لها إن الدب يفضل الإفطار أولا. في المطبخ تقول إن الدب لايريد بيضة وإنما فطيرة. من نظرتها أعرف أنها ستخرج بمعدة فارغة إن لم تأكل فطيرة. أقوم باعداد الفطيرة. الساعة التاسعة إلا ربع. أمي في الحمام وأنا و"سارة" أمام التليفزيون نشاهد "شارع سمسم"، بينما أساعدها على تناول فطورها. بعد ذلك نخرج وأحملها إلى الحضانة ثم آتي إلى الجامعة ثم آخذها من الحضانة مرة أخرى وأشترى احتياجات العشاء ثم أتولى اعداده. وتتكرر قصة الصباح فلا بد أن أقرأ لها ولدبها قبل النوم. وبعد كل ذلك عندما يسود الهدوء أخيرا يمكنني أن أجلس إلى المكتب.

اختفت الشمس فجأة خلف سحب كثيفة فنهضت واقفا معلنا انتهاء الاستراحة وعدنا إلى القاعة.

كان الدور على "سابك" فاستهل عرضه مشيرا إلى كلمة سابقة لى مؤداها أن الأدب غالبا ما يكون أكثر صدقا في التعبير عن التحولات التاريخية. و لهذا اختار- طبقا لدراسته الأساسية في مجال الأدب - أن يعرض لنا رواية من

تأليف الكاتب الأمريكي المعاصر "المور ليونارد" عنوانها "أربعون جلدة إلا واحدة"، صدرت عام ١٩٧٢.

تجري أحداث الرواية في "فبراير" ١٩٠٩ وفي سجن معزول بصحراء "أريزونا" قرب الحدود المكسيكية، حيث يصل مدير جديد هو واعظ سابق أبيض طيب القلب حسن النوايا مؤمن بتفوق الرجل الأبيض وواجبه في هداية الأجناس الأخرى، أو الأطفال" كما يسميهم. أحضر معه تحت الحراسة سجينين جديدين في العشرينيات محكومين بالمؤبد هما الأسود والهندي الأحمر "الآباش" الذي انتحل لنفسه اسما مكسيكيا ليتجنب الهزء به. خدم الأسود في الجيش واشترك في الحملة الأمريكية على "كوبا" ثم ضرب رجلا أبيض بماسورة فقتله ودخل الليمان. واستقبله قائد الحراس قائلا: سنعطيك شيئا يبعدك عن المتاعب.

كان هذا الشئ عبارة عن سلسلة حديدية تنتهي بكرة ثقيلة. قال المدير الطيب للحارس: لكنه لم يفعل شيئا بعد. فقال رئيس الحراس: هذا صحيح. لكنه لن يفعل عندما تقيده السلاسل. أما الآباش الأمى فكان يعمل في إحدى المزارع وتعرض لسخرية رعاة البقر البيض. لم يبال في البداية، وظل يردد لهم إنه أمريكي مثلهم. ثم فقد أعصابه في يوم وأطلق على أحدهم النار فقتله.

وضع الاثنان في زنزانة تضم عدة أشرار، يتزعمهم "فرانك". في الصباح عندما هم الأسود بالتبول صرخ أحدهم مستدعيا الحراس: عندنا زنجي يتبول في مرحاضنا! ثم فرضوا على الهندي الأحمر أن يتولى إفراغ جردل البول والبراز، بينما رفض الأسود ذلك في إباء، فقرر "فرانك"، تأديبه.

استغل "فرانك" طيبة الهندي أو خضوعه فأرغمه على الاحتكاك بالأسود وافتعال شجار معه، انتهى بوضع الاثنين

في زنزانة التأديب. لكنهما استأنفا شجارهما وتبادلا الاهانات الموجهة إلى جنس كل منهما وتقاتلا رغم قيودهما. إلا أن سخرية النزلاء واستفزازهم المتواصل تجرهما إلى معركة مشتركة ضد الأشرار الخمسة.

هنا يقرر المدير الطيب أن يتحدث إليهما. ويبدأ حديثه مستشهدا بآيات من الانجيل قائلا إن البشر جميعا أخوة. يسأله الهندي: إذا كنا جميعا قد جئنا من نفس الناس فمن أين أتى الزنوج؟ ويسأله الزنجي: أين ذكر الانجيل المكان الذي أتى منه الهنود الحمر؟ ثم يعلق على قصة "نوح" وأولاده الثلاثة و"حام" الذي ذهب الى "أفريقيا" لينسل الزنوج: كيف عرف الانجيل أن الناس كلهم كانوا بيضا قبل ذلك؟ وهو سؤال يحير الواعظ فيقول: في الغالب لأن "آدم" و"حواء" كانا أبيضين. ويضيف: ليس هناك عيب في أن يكون الواحد زنجيا. الرب جعلك كذلك لحكمة. أعني أنه من الضروري أن يكون البعض زنجيا والبعض الآخر هنديا والثالث أبيض. لكننا جميعا أخوة.

ويقول المدير للهندي الأحمر: هناك شئ نبيل في قومك المتوحشين غير المتعلمين لا تجده لدى الكثيرين من البيض. فلم يعرف أبدا عنكم الكذب أو النكث بالوعد. بل أن كلمة الكذب نفسها لاتوجد في لغاتكم.

يضع المدير خطة لاصلاحهما بتنظيم مسابقة للجري بينهما ويشرح الأمر لرئيس الحراس المستخف: هدفي هو إيقاظ الكبرياء لديهما ودفعهما إلى أن يصنعا شيئا من نفسيهما.

يستغل "فرانك" السباق في تنظيم رهان بين السجناء عليهما. وفي نهايته يأمرهما المدير بالتصافح. ثم يتبادلان الحديث ويتصادقان. ويقول المدير لرئيس الحراس المتشكك: إنهما طفلان. وهما يتعلمان الآن العيش مع الرجل الأبيض

والتفاهم معه. نحن لن نحولهما إلى بيض. لن نقول لهما إنهما صارا مثل الرجل الأبيض . سنقول لهما إن الزنوج والهنود أفضل عدائين في العالم. وندربهما جيدا.

هكذا بدأ تدريب الأسود والهندي وتحويلهما إلى عدائين قادرين على الجري عشرين ميلا خارج السجن في فضاء أوحى إليهما برياح الحرية وأمل الهرب. ولم يلبث المدير أن زودهما برمحين من البوص جعلا يتدربان على قذفهما. وأحدث الأسود ندوبا في وجهه وصفهابأنها علامات "الزولو" ، ولون الهندي وجهه بألوان القتال التقليدية لدى الآباش.

خلال ذلك وضع" فرانك "ورفاقه الأربعة خطة للهرب. وفرالخمسة إلى الصحراءفوق الجياد فأرسل المدير الاثنين خلفهم عدوا. ومضت عدة أيام ظن المدير خلالها أنهما انتهزا الفرصة للهرب. وفي اليوم الخامس ظهرا فوق جوادين وهما يسحبان "فرانك" خلفهما.

لم يصدق المدير عينيه وقال: أحب أن أقول الآتي. لقاء ما فعلتماه ولقاء إخلاصكما وشجاعتكما ومخاطرتكما بحياتكما للقبض على هذا المجرم سأعمل شخصيا على أن تعاملا مثل الرجل الأبيض في السجن الجديد.

ظل الأسود والهندي فوق جواديهما يتأملان المدير دون أن يظهر تعبير ما على وجهيهما المدهونين. واستطرد المدير:سأقول لكما شيئاآخر. إذا حافظتما على سجلكما نظيفاً سأطلب تخفيض مدة سجنكما. ما رأيكما ؟

انحنى "الزولو" فوق جواده وقال للمدير الكلمة الأمريكية المألوفة المؤلفة من أربعة حروف. ثم استدارا بجواديهما وانطلقا إلى الصحراء تاركين خلفهما ضبابا من الرمال الناعمة في الهواء.

كف "سابك "عن الحديث وساد الصمت. وظلت الكلمة الأمريكية المألوفة تتردد في الغرفة كأنما علقت بالهواء. جلت

بعيني بين الوجوه حتى استقرتا على وجه"فرنون". كانت نظرة عينيه الساخرة قد اختفت واكتسى وجهه جمودا كاملا.

قلت : هذا كل شئ؟ الدلالة واضحة.لكن العرض ناقص. ربما كان يجب استكماله بالإشارة إلى طبيعة العلاقة الراهنة بين السود والهنود الحمر.

وقبل أن يتمكن "سابك" من الرد دوت عدة طرقات على الباب ثم انفرج كاشفا عن طلاب حان موعد درسهم. كنا قد تجاوزنا الوقت المحدد لنا بعشر دقائق فأعلنت ختام الدرس وغادرنا الغرفة على عجل. ومضيت برفقة "فادية"و"مونا"إلى مكتبة الجامعة الواقعة في الطرف الآخر من الكامبوس.

اخترقنا عدة ممرات بين مساحات العشب الممتدة التي تمرح بها السناجب. وأشرفنا على مبنى ضخم يرتفع عدة طوابق. ولجنا مدخلا رحبا ومررنا بعدة قاعات مخصصة للدوريات تناثرت بها مقاعد وثيرة. ثم انتقلنا إلى باحة واسعة عالية السقف، غلفت جدرانها بالخشب، انتشر بها موظفو المكتبة خلف كاونترات متعددة. عبرنا منفذا إلكترونيا للتفتيش وآخرا للتسجيل في ركن تغطت جدرانه بلوحات زيتية تصور غزو الغرب الأمريكي. وجدت نفسي أمام درج رخامي عريض يشرف على بئر واسعة. انحنيت فوق السياج فتبينت عدة طوابق سفلية يشع منها الضوء الساطع.

صعدنا إلى الطابق الأول ووقفت على عتبته أتملى النظر من قاعة بالغة الإتساع ، تضيؤها أنوار قوية، تحيط بها نوافذ زجاجية عريضة، وتتميزبالنظافة والهدوء التامين.

همست ل"فادية" مستوضحا أمر فتاة نائمة فوق أريكة.

قالت هامسة إن الطلبة يعسكرون بالمكتبة في موسم الامتحانات وتخصص لهم أماكن للدراسة. وأشارت إلى صف

من الغرف الصغيرة يحيط بالقاعة ويبدو شاغلوها من خلال جدرانها الزجاجية.

قادتني إلى خزائن الكتب بينما اتجهت "مونا" إلى طرف القاعة. وقفت بين صفين من هياكل معدنية رصت المجلدات فوق رفوفها. وأوضحت لي "فادية" أن الهياكل تتحرك فوق قضبان بواسطة مقبض يدوي.

اختفت "فادية" بين الصفين التاليين، تبحث عن بعض المراجع. التقطت مجلد "هاوبسباوم" الأخير(×)، الذي يقدم موجزا لتاريخ القرن العشرين. قلبت صفحاته ووقفت عند الفصل الخاص بنهاية الإمبراطوريات. استغرقت في القراءة فلم أشعر بحركة الصف الخلفي الذي انزلق فوق قضبانه مقتربا مني حتى أوشك أن يلمسني.

قفزت مرعوبا من الفرجة الضيقة قبل أن ينسحق جسدي بين الهيكلين المعدنيين الضخمين. وطالعني وجه "مونا". كانت يدها على المقبض الخاص بالصف المتحرك تديره في الاتجاه العكسي لتعيده إلى وضعه الأصلي.

تركت المقبض وأسرعت نحوي وهي تعتذر بأنها أخطأت تقدير اتجاه حركة المقبض. وقادتني إلى أريكة جلدية تهالكت فوقها وقلبي ما زال يدق في عنف.

(×) "عصر النهايات القصوى"، وصدر في ١٩٩٤.

١٣ * *

بدأ اليوم باردا غائما ثم سطعت الشمس فجأة. كان موعدي عند الظهر فذرعت الطريق متمهلا مستمتعا بأشعتها.

اتجهت جنوبا وعبرت عدة تقاطعات. وقبل شارع "فولتون"، الموازي لحديقة "جولدن جيت بارك"، بدأت البحث بين أرقام المنازل حتى عثرت على مبنى العيادة المخصصة للستينيين.

انتظرت حتى تقدمني عجوز أسود يستند إلى ذراع مرافق ثم ولجت ردهة صغيرة في الطابق الأول تكدست بها الكاونترات والمقاعد. توقفت أمام أول كاونتر صادفني وذكرت اسمي وموعدي لسوداء شابة. أومأت إلى المقاعد بأدب كي أنتظر.

اخترت مقعدا في طرف الردهة بجوار كوم من المجلات والصحف فوق طاولة صغيرة. جلست في مواجهة كهلة سوداء في ملابس متواضعة، بسطت ساقا متيبسة أمامها، تتأملها في تركيز كأنما تحاول بث الحياة في شرايينها. طفت بعيني بين الجالسين فوجدت أغلبهم من رقيقي الحال وجميعهم من العواجيز السود والمكسيكيين. رفاقي من الآن.

وجهت اهتمامي إلى المطبوعات الموضوعة فوق الطاولة. تناولت بضع كتيبات دعائية تحمل اسم العيادة. وفهمت أنها تتبع شركة كبيرة وتحصل على مساعدات من ادارة المدينة. ولمحت عددا قديما من جريدة "ديلي كاليفورنيان"(×) فالتقطته على الفور. كنت معجبا بهذه الصحيفة وخفة دم مقالاتها.

بسطت الجريدة وتجاهلت عنوانا عن جريمة اغتصاب في

(×) عدد ٦ أكتوبر ١٩٩٨

الكامبوس وقلبت الصفحات بحثا عن مقال الجنس التقليدي. استقرت عيناى على نبأ عن شركة كبرى تدير أكثر من مائتي مستشفي وعيادة ومتهمة بأنها ابتزت أموالا ضخمة من مساعدات الحكومة. اطمأننت عندما تبينت أنها ليست الشركة التي تتبعها عيادتي. واصلت تقليب الصفحات حتى عثرت على المقال المنشود(×).

(×) "سؤال : دارت مناقشة بيني وبين أصدقائي حول الفانتازيات الجنسية وشعرت أن فانتازياتي غريبة فهي تتضمن السيطرة وما يمكن أن تسميه إس / إم، فهل هذا شذوذ وانحراف ؟

الإجابة :لا بقوة ! فليس هناك شئ شاذ أو منحرف في إس/ إم إذا مورس بأمان وفي حدود المعقول. لنتفق أولاعلى المصطلحات : "إس إم" هو اختصار لمصطلح "سادومازوكي". وغالبا مايضاف إليه الحرفان "ب / بونداج "(الرباط أوالقيد) و"د / ديسبلين"(تأديب). وعادة ما تستدعي هذه المصطلحات صور الساديين الأشرار مصاصي الدماء الذين يسيطرون على مازوكيين ضعفاء عاكفين على تدمير ذواتهم. ولسوء الحظ فإن هذه الصورتمثل تصورا زائفا تماما لحقيقة ال "بي دي إس إم". فاذا مورست لعبة السطوة على الوجه الصحيح لا تكون مؤذية ولا تكون لها علاقة بالقسر أو الإرغام. والحقيقة أن"إس إم "يمكن أن يكون أكثر أشكال المداعبات الجنسية أمانا وحسية. والشرط الجوهري لذلك هو الاتفاق. فلابد للخاضع أن يسمح للمهيمن بالسيطرة. ..

ويعتقد كثيرون خطأ أن المهيمن يكون دائما رجلا والخاضع امرأة. فالخاصية الرائعة ل"إس/إم" هى أنها تمكن الأفراد من استكشاف أدوار للسطوة غير تلك التي يفرضها المجتمع.

وتتعدد أشكال "إس إم" بدرجة كبيرة. فيستمتع كثيرون بأن يتم تقييدهم بالأغلال الحديدية أو الأوشحة والبعض يبالغون فيمارسون الجلد بالسياط أو اليد.

ومن أهم أشكال ممارسة "إس/ إم" التقمص. فكثيرون يستمتعون بتمثيل دور المدرس والطالب، السيد والخادم، الطبيب والمريض. ومن المهم أن نتذكر دائما أن هذا التمثيل، مثل كل الفانتازيات، لا يعني أنك بالضرورة تريدها أن تحدث في الواقع. فكرة التقمص هي أن الفرد يتاح له تمثيل مواقف معينة في محيط آمن خارج الواقع. بذلك يكون إس/ إم عند ممارسته على الوجه الصحيح نموذجا للسلامة العقلية والجسدية، وللتواصل المفتوح.

اقتربت مني سيدة ضخمة سوداء، أنيقة المظهروخاطبتني في احترام :

– بروفسور "شكري"؟ تفضل معي.

خالجني الشك في أنني أول من ينضم إلى العيادة من هذه الفئة الاجتماعية المتميزة وبالتالي قد أكون مؤشرا على تغير اختياراتها ووعدا بأن يتبعني بقية أبنائها.

تبعتها بين أروقة صنعتها قواطع كثيرة من الخشب. وتسلمتني ممرضة سوداء باسمة في رداء أزرق. قاست طولي ووزني وضغطي الذي كان مرتفعا قليلا ثم صحبتني إلى غرفة أخرى. استقبلتني مساعدة طبية بيضاء في أواخر العشرينيات، فارعة الطول ذات وجه ذكوري باسم بلا زينة. خاطبتني بلغة بسيطة تنطقها في بطء وقدرت أنها مدربة على التعامل مع الأجانب والأقليات. استمعت إلى شكواي بشأن ما أشعر به من انسداد دائم في أذني. واستفسرت عن آلامي الأخرى فحدثتها عن الفتق، وحساسية الأنف، وأوجاع العنق والظهر، والخيوط التى تملأ العينين، وفطريات أصابع القدمين والضغط المرتفع، وخيانة الذاكرة.

ملأت ملفا بتفاصيل كثيرة عني وعن أمي وأبي ثم سألتني :

– هل لجأت إلي طبيب في بلدك بخصوص أذنك؟

أومأت بالايجاب.

كانا اثنين في غرفتين متجاورتين. الأول قصيربدين ربض خلف مكتبه كالضبع في انتظار الفريسة. طلب مني أن أقيس السمع في الغرفة المجاورة. انتظرت الثاني في الردهة حتي جاء. كان ضخم الجثة دائم التجشأ له سمات البقال الفاشل الذي يريد أن يترك لدى الناس انطباعا مختلفا. أسر لى بمجرد أن جلست أمامه أنه مهتم بي بشكل خاص فشعرت بالخطر. قاس السمع وكتب النتيجة وأعطاني رسوما بيانية وقال إني أحتاج لعلمية تصليح أنف ونصحني بأن أعمل بنصائح

الطبيب الأول لأنه شاطر. وكانت النصيحة التي أعطانيها ذاك هي أن يجري لي جراحة تحت الأذن يوضع خلالها خرطوم لتسريب مياه متجمعة، كما قال.

قالت إنها ستصف لي دواء واذا لم يأت بنتيجة خلال شهر ستحيلني إلى جراح أو متخصص.

أضافت : أنت تعرف طبعا أن تأمينك لا يتضمن الجراحات. على العموم يمكن أن أستفسر لك عن التكاليف. ثق أني سأجد لك عرضا معقولا.

أنا مهتمة بك بشكل خاص!

اقتادتني المرضة الأولى لتحليل الدم والبول. ولاحظت أن الابتسامة لا تغادر وجهها فسألتها عن السبب. ألقت نظرة على ملفي وقالت : لأني مسلمة.

عدت إلى المنزل وحملت الكومبيوتر النقال وحقيبة أوراقي وغادرته مرة ثانية. صرفت الدواء من صيدلية تابعة لسلسلة "والجرين". ولمحت العدد الجديد من "ديلي كاليفورنيان" معروضا في مدخل حانوت للتبغ فالتقطته واشتريت "نيويورك تايمز" واتجهت إلى المعهد.

انضممت إلى بضع طلاب في المدخل يقرأون ملصقا يعلق على مصرع طالب بإحدي الولايات الشرقية، سحله زملؤه ثم قتلوه لأنه من المثليين. كان العنوان الرئيسي للملصق : "أوقفوا العدوان علي الجييز!" وتحته عنوان آخر: "مصرع "ماثيو شيرد" نوبة صحيان !"(×)

(×) نصه كما يلي : "في السنة الماضية جرى شنق ٢١ مثلي ومثلية. ويوم السبت الماضي جرى الاعتداء على ثلاثة مثليين من الذكور جنوب "ماركت". وفي السنة الماضية طرد أكثر من ألف جندي وجندية من المثليين من الجيش. وفي نفس الوقت تتواصل أزمة "الايدز" وتجني شركات الأدوية بلايين الدولارات من أدوية غالية بشكل مبالغ فيه بينما يموت الآلاف. لقد حان وقت الكفاح. عشرات الألوف تظاهروافي أنحاء البلاد ... فلنضم أصواتنا إليهم. احتجوا على جرائم الحقد وكافحوا من أجل حقوق الجييز!"

صعدت الدرج إلى الطابق الأول ووجدت باب غرفة سكرتيرة "ماهر" مفتوحا فدخلت. كانت الغرفة خالية والباب المؤدي إلى مكتبه مواربا فاتجهت نحوه.

مددت يدي لأطرقه أو أدفعه فاذا به ينفرج دفعة واحدة وتندفع منه "شرلي" منفعلة. وظهر "ماهر" خلفها شاحب الوجه.

استدار وأعطاني ظهره واتجه إلى مكتبه. مد يده وتناول عددا من صحيفة "الجارديان ويكلي" الإنجليزية وناولني اياه قائلا : " شوف يا سيدي ".

وضعت الكومبيوتر فوق حافة مكتبه وألقيت بحقيبتي فوق الأرض. حملت الصحيفة إلى المقعد المقابل وتصفحتها. كانت عددا قديما بتاريخ ٢٠ سبتمبر. وكان الموضوع الذي يعنيه "ماهر" تقريرا من مراسلها في واشنطون،" أندرو مار"، عن فضيحة "كلينتون"، امتلأ بتخطيطات من قلم أحمر اللون.

انهمك في البحث عن شئ في درج مكتبه بينما قرأت أولى تخطيطاته. تعلقت بقضية سابقة مماثلة بطلتها "بولا جونز"، موظفة الاستقبال التي اتهمت "كلينتون" حينما كان حاكما لولاية "أركنساس" بأنه استدعاها بواسطة حارسه الخاص "فرجيسون" إلى جناحه في أحد الفنادق وطلب منها أن تستخدم فمها في إمتاعه، ففضحته وأقامت ضده دعوى التحرش الجنسي. وتعرض "كلينتون" في المحاكمة للتهديد بأن يكشف عن قضيبه أمام الشهود بحثا عن"علامات مميزة" فوقه.

تضمن التخطيط التالي فقرة من تصريحات "مونيكا" روت فيها كيف حضرت احتفال الرئيس بعيد ميلاده الخمسين في ١٨ أغسطس ١٩٩٦، ووقفت وظهرها إليه ثم مدت

يدها ولمسته. ولم يكتف المحقق بذلك فسألها : " لمسته في منطقة المنفرج؟ " فأجابت بالإيجاب.

لكن التخطيطات التالية كانت حول أمور أكثر جدية كشف عنها تقرير "ستار". فعندما كان "كلينتون" حاكما لولاية "أركنساس" أغضى الطرف عن عملية تهريب كميات من الكوكايين تقدر بأكثر من ٧٥٠مليون دولار عبر الولاية ، فحصلت حملته الانتخابية للرئاسة على عدة ملايين من الدولارات.

وخلال تلك الفترة رعا مشروعا عقاريا برأسمال ٧٠٠ مليون دولار قامت به شركة حديثة التأسيس تولت الإدارة القانونية لها شركة محاماة تشارك فيها زوجته. وتقاضت "هيلاري كلينتون" عن تسجيل عقد واحد بهذا الخصوص مائة ألف دولار. كما أنها رتبت مجموعة من القروض هي وشريكها في المكتب "فنسنت فوستر" الذي راجت اشاعات عن علاقة خاصة بينهما ثم انتقل معها بعد ذلك إلى البيت الأبيض مستشارا قانونيا للرئيس.

وكشف "ستار" أيضا في تقريره أن محاميّ "كلينتون"، هددوا "بولا جونز"بكسر ساقيها لكي تتنازل عن دعواها ثم عرضوا عليها أخيرا أكثر من نصف مليون دولار.

لكن الأخطر من هذا كله أن موظفي ولاية "أركنساس" الذين تم استدعاؤهم للشهادة في الفضيحة المالية التي عرفت باسم "وايتواتر"، وقعت بينهم ٢١ حالة وفاة منها زوجة الحارس فرجسون"، والمدير المالي لحملة "كلينتون" الانتخابية. ثم وجدت جثة "فنسنت فوستر" في مكتبه بالبيت الأبيض وفي يده مسدس يوحي بأنه انتحر. ولم يتم ابلاغ النيابة العامة إلا بعد أن قامت "هيلاري كلينتون" بنقل ملفات مكتبه. واتضح أنه قبل شهور كلف أحد رجال التحريات الخاصة بتقصي وقائع القضايا المتصلة بتصرفات

الرئيس عندما كان حاكما ل"أركنساس". وعندماسمع رجل التحريات بمصرع "فوستر" قال لزوجته إنه أصبح رجلا ميتا هو الآخر. وبعد أيام سرقت منه أوراق الملف الذي جمع فيه نتائج تحرياته عن تصرفات الرئيس. وبعد يومين وجدت جثته منحنية فوق مقود سيارته في إشارة مرور. وتبين أنه أصيب بطلقة من مسدس كاتم للصوت.

كان "ماهر" قد عثر على بقايا سيجار فوضعه في فمه وأدار مقعده ليواجه النافذة.

قال : هل قرأت أوسمعت شيئا عن ننتائج التحقيق في هذه الجرائم؟ أبدا. إنما تقرأ يوميا عن شفاه "مونيكا" والتحقيق بشأن بقع الرداء الأزرق. هل رأيت هذه؟

التقط من بين الملفات المصفوفة فوق مكتبه جريدة عربية في حجم "التابلويد" تدعي " أخبار العربي الأمريكي" وقرأ عنوانها الرئيسي : "مونيكا" تقول "كلينتون" وضع سيجاره في فرجي ثم في فمه وقال لى إن طعمه لذيذ".

أثارت تعبيرات وجهي ضحكه وعلق : هل تتصور هذا العنوان في جريدة لديكم؟

أدركت في هذه اللحظة أني عاجز تماما عن فهمه.

وضعت الصحيفة جانبا وقدمت إليه الورقة التي دونت فيها ملاحظاتي عن أوراق المؤتمر المقترح وأنا أقول : هناك أوراق ضعيفة ليس بها جديد بالرغم من قوة الورقة الاستهلالية. ولغو من نوع: "المتشكل المؤسساتي للكائن"، "الضرورة المنطقية لرفض التراتبية كي لاتتأسر الذات برموزها اللغوية"، "توبيئ التسلط التاريخي للجهل". أشياء كثيرة تتداعي إلى الذهن عندما نسمع عن القرن القادم وغابت كلها عن هذه الأوراق.

ألقى نظرة سريعة على الورقة ثم ابتسم :

- ألم يعجبك شئ مطلقا؟

- بلى. هناك ورقة أستاذ الأدب الأردني رغم ما حفلت به من استشهادات وإشادات ب"البرديسي". فهو يدعو إلى اعادة التفكير بجرأة في كل شئ. وهناك ورقة جيدة لأستاذ يمني عن هجرة العقول إلى الغرب وخاصة دور الولايات المتحدة في ذلك(×).

لم يعلق فأضفت :أنا لا أعرف الظروف التي أحاطت بانعقاد هذا المؤتمر لكن أتصور أنه تم بالطريقة العربية وكان يحتاج إلى مزيد من التحضير.

إستمع إلى صامتا وهو يلوك طرف السيجار في فمه ثم أطرق برأسه وقال:

- هل أعددت ورقتك؟

دهشت : ألم تسمع ما قلته؟

أطرق متؤمنا: سمعت. لكن الوقت فات لعمل أى تعديل وربما نعقد مؤتمرا ثانيا فيما بعد. المهم الآن أن ينجح هذا المؤتمر. فكرفي موضوع.

لم أعلق وحدثته عن مشكلة "لاري" وما يواجهه من متاعب فوعدني بأن يبذل ما في وسعه. لكن شعورا خالجني بأنه لن يفعل شيئا أولا يمكنه ذلك.

مال إلى الأمام وقال : فكرتني.

خفض صوته ودعك أرتبة أنفه: ما سأقوله لك يجب أن يبقى سرا مكتوما بيننا.

(×) قدمت "الولايات المتحدة" في النصف الثاني من الستينيات اغراءات عدة لتشجيع الهجرة إليها من العالم الثالث مما وفر لها عددا هائلا من العقول وبلغ عدد المهاجرين من خبراء البلدان النامية إلى "الولايات المتحدة" و"كندا" و"بريطانيا" في الفترة بين١٩٦١ و١٩٧٢ أكثر من ربع مليون خبير حققوا للبلدان الثلاثة الغنية دخلا صافيا قدر بأربعة وأربعين مليار دولار. وقدر أستاذ علم الاجتماع اللبناني "أنطوان زحلان" عددالمهاجرين العرب ممن يحملون درجة الدكتوراه في سنة ١٩٨٠ ب ٢٧ ألف عربي تبلغ نسبة المصريين بينهم ٥٧٪ .

أومأت برأسي: بالطبع.

- هناك حديث يتردد عن جو معادي للسامية في حلقتك.

تطلعت إليه مدهوشا : عندي أنا ؟ كيف؟

تجهم وجهه وتراجع إلى الوراء: لن أقول أكثر من ذلك. وأنت حر التصرف. هذه جامعة عريقة في التقاليد الديموقراطية. وأنت لست بنفسك أنك يمكنك أن تقول أشياء هنا لا تجرؤ على الإشارة اليها في "مصر". لكنها من ناحية أخري تعتمد على تمويل المؤسسات والشركات الكبري والا لن تتمكن من تجديد التجهيزات واستقدام أساتذة مثلك من الخارج. وأغلب هذه المؤسسات كما لعلك تعرف ترفض كل التيارات المعادية للسامية. هل سمعت عن "توماس ثومبسون"؟

- من هو؟

- أستاذ أمريكي. نشر سنة ١٩٩٢ كتابا عنوانه "التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي". لن تجد نسخة منه في مكتبتنا أو المكتبة العامة للجامعة أوأي مكتبة عامة أخرى. وهو نفسه تخلصت منه الجامعة التي كان يتولى التدريس بها. ولم يتمكن من الالتحاق بأي جامعة أخرى. وظل عاطلا عن العمل إلى أن احتضنته جامعة "كوبنهاجن"(×).

- أكان كتابه هو السبب؟

(×) تأكدت فيما بعد من صحة هذه المعلومات من الأستاذ "ثومبسون" (ولد ١٩٣٩) نفسه في اتصال بالبريد الإلكتروني على عنوانه في معهد الدراسات التوراتية بجامعة "كوبنهاجن" الذي التحق به في أغسطس ١٩٩٢. وفي هذا الاتصال ذكر لى أنه تولى التدريس أستاذا مشاركا بجامعة "ماركيلت" بمدينة "ميلواكي" بولاية "ويسكونسين" بين عامي ١٩٨٩و١٩٩٢. وعقب صدور كتابه حالت الجامعة بينه وبين الحصول علي درجة الأستاذية التي تتيح له تعاقدا دائما. وذكر لى أن كتابه صدرت له ترجمة عربية في "بيروت" سنة ١٩٩٥ دون ترخيص منه.

– طبعا لأنه ذهب إلى أن الروايات التوراتية تتعارض مع الأحداث والوقائع التاريخية التي نعرفها عن طريق البينات الأثرية والوثائق التاريخية الأخرى.

قاومت رغبة فى التدخين وأنا أحاول استعادة المناقشات التي جرت أثناء دروسي.

قلت: أنت تعرف كيف أفكر. أنا آخر شخص يمكن أن توجه إليه هذه التهمة.

قال بلهجة من يغلق الموضوع: على أية حال خذ بالك. أظن أنك تريد أن تأتي إلينا مرة أخرى؟

فكرت في الثلاثين ألف دولار التي سأحاول العودة بنصفها على الأقل وهو مبلغ يساوي راتبي أو معاش تقاعدي في المستقبل القريب لأربع سنوات على الأقل.

قلت بمكر: المبلغ لا يشجع.

قال : من الممكن زيادته.

قمت واقفا وأنا أقول: أوكي.

حملت حقيبتي وكومبيوتري وغادرته إلى مكتبي.

دققت الباب ثم فتحت ودخلت. كنت أردد بصوت خفيض "تومسون تومبسون.. تومسون تومبسون" وقد أعجبني الايقاع.

طالعتني ثلاثة وجوه على الحائط الذي تجلس "إستر" في مواجهته : "بيجين" و"نتنياهو" و"شارون" في ملصق عريض. وأسفل كل وجه قائمة بالمذابح التي ارتكبها صاحبه في حق الفلسطينيين ثم عبارة بحروف كبيرة.

قرأت العبارة بصوت مرتفع : "الدولة اليهودية هي المكان الوحيد في العالم الذي تعمل فيه فرق قتل قانونية وتجاز فيه سياسة الاغتيال".

انطلقت من فمي الصيحة الأمريكية المعهودة : واو !!

استدارت نحوي في حدة وقالت بصرامة : ماذا حدث؟

أشرت باصبعي إلى الملصق دون أن أتكلم.

كانت ترتدي بنطلونا من الجينز وبلوزة بكمين قصيرين كشفا ذراعيها اللذين أثارا إعجابي.

قالت: آه. أنت من العرب الذين يضعون كل اليهود في سلة واحدة. اعلم إذن أني ضد "الليكود" وسبق أن استنكرت في بيان للصحف تصريح لأحد وزراء "نتنياهو" وصف فيه الفلسطينيين بأنهم كلاب.

قلت : عظيم.

أعطتني ظهرها من جديد وبدأت تدق على جهاز الكومبيوتر ثم قالت : الفلسطينيون شعب مثل بقية الشعوب.

كنت في مزاج تكرار الايقاعات فرددت : شعب مثل بقية الشعوب.

توقفت عن الدق والتفتت إلى مرة أخرى: هل تسخر مني؟

– أبدا.

وضعت حقيبتي فوق مكتبي وأخرجت منها أوراقي ثم جذبت المقعد المجاور للطاولة وجلست. كانت ما تزال ملتفتة إلى بنصف جسدها. بسطت أوراقي أمامي وأنا أردد : "تومسون تومبسون".

سألتني: ماذا قلت ؟

أجبت : "تومسون تومبسون".

قالت : تقصد "توماس تومبسون" ؟

قلت أجل. هذا هو. هل قرأت كتابه ؟

ترددت لحظة ثم قالت : لا.

طرق الباب وانفرج عن "جون" الخبيرالإلكتروني، ذي الجسم الرياضي الطويل، وشعر الرأس الأشقر المعقوص من الخلف في خصلة على هيئة ذيل حصان.

رحبت به وأشرت له بالجلوس. استخرجت الكومبيوتر من حافظته هو والمحوّل الصغير ثم تطلعت إلى جهاز التليفون الذي استأثرت به زميلتي فوق مكتبها وأوصلته بجهازها.

أدركت الموقف فنهضت قائلة إن موعد محاضرتها أزف. فصلت جهازها عن التليفون وحملته ثم غادرت الغرفة.

احتل "جون" مقعدها وناولته جهازي قائلا: أتمنى أن ننجح هذه المرة.

كانت هذه هي المرة الثالثة التي أحضر فيها الكومبيوتر ليجري عليه تجاربه من أجل تثبيت برنامج للبريد الإلكتروني. وكان قد عرض علي أن أتركه له يوما كاملا لكني رفضت خوفا من أي عبث بمحتوياته.

أوصل جهازي بالتليفون واستخرج عدة أقراص من حقيبته ثم بدأ تجاربه. وعدت إلى أوراقي لكني وجدتني عاجزا عن التركيز فاستخرجت ما معي من صحف لأتسلى بها حتى ينتهي.

بدأت ب "ديلي كاليفورنيان". بحثت عن عامود الفتاة خفيفة الدم فوجدته مخصصا لأحد الشبان(×).

(×) نشر بعدد ١٢ أكتوبر١٩٩٨ وجاء به:" العام هو ١٩٩٥. كان لي في "بيركلي" عدة شهور وما زلت حائرا بالنسبة لهويتي الجنسية. هل أنا "جيي" أم الأمر لا يتعدى مرحلة عابرة ؟ ثم أين هولاء المثليين. لا أرى أحدا منهم . هكذا حاولت اقامة علاقات مع النساء من جديد. .حاولت بشدة. لكن بالطبع كان الأمر بلا نتيجة. لم تستجب الفتيات لشاب يبدو عقله شاردا طول الوقت كما أني كنت ما أزال عاجزا عن تخيل علاقة جسدية مع امرأة . ..

ثم كان ذات مساء بارد في "نوفمبر". .كانت وحدتي وعزلتي قد أثقلتا علي. كنت قد سمعت في الأشهر الماضية عن مكان يدعي "كاسترو" .. فقررت أن أذهب إليه. ركبت "البارت" دون أن أعرف أين يقع ... ولحسن الحظ جاء مجلسي إلى جوار اثنين منهم . ورغم أني لم أجرؤ على سؤالهما

= عن مكان "الكاسترو" قررت أن أتبعهما وبالفعل غادرا القطار في شارع "باول" واستقلا خط الباص "ك" وأنا خلفهما. وسرعان ما كنت في قلب أمريكا المثلية.

للوهلة الأولي بدا لي الكاسترو حيا ضخما : بلوكات من الأضواء المتلألئة، وواجهات الحوانيت الجذابة ، وأطنان من الرجال ! كانوا جميعا يبدون سعداء وهم يتمشون على الأرصفة وقد تماسكت أيديهم ويضحكون في صخب. بينما كنت أنا وحيدا تماما. مشيت وبي رغبة حارقة في الالتحاق بهذا المجتمع. لكن كيف ؟ كنت غارقا في أفكاري فلم ألحظ رجلا بدأ يتتبعني. وعندما توقفت لأتأمل بعض القمصان في نافذة رأيت انعكاس صورته في الزجاج. قال : " هاي بيبي .. أنت ظريف".
قلت وأنا أستدير لمواجهته : "شكرا." كان يبدو ثملا للغاية. قال" هل تحب أن تأتي معي الليلة؟" اقترب مني فاجتاحتني رائحة الخمر. أجبت متلعثما : "كلا. شكرا". وأزحت اليد التي وضعها على كتفي، ومضيت مبتعدا بأسرع ما أستطيع.

في طريق العودة تساءلت عما إذا كان هذا مصيري : مطاردة الرجال في الشوارع ، واغراق وحدتي في الخمر. إذا كان هذا هو مايفعله المثليون فلن أكون مثليا. وفي اليوم التالي حلقت شعر رأسي وتلفنت لأفضل صديقاتي وقلت لها إنني تأكدت من استقامة هويتي الجنسية، من أني لن أكون مثليا.

ودارت في رأسي مناقشة حادة حرمتني من النوم ليلا. ..إذا كنت فعلا غير مثلي ، فلماذا أفكر دائما في الرجال ؟ وأخيرا قررت أن أحضر إجتماعا للمثليين شاهدت إعلانا عنه في نزل الطلبة. لكني لم أجرؤ على الوقوف أمام الإعلان لمعرفة مكان الانعقاد وموعده. تسللت من غرفتي لألقي نظرة سريعة على الإعلان ثم عدت مسرعا إلى فراشي عازما علي الذهاب إليهم .

يوم الثلاثاء التالي مضيت مسرعا إلى المبني رقم ٢ وأنا أتطلع إلى الخلف لأتأكد من أن أحدا لايرى وجهتي. وعندمادخلت المبني رأيت ملصقا يعلن عن الاجتماع ورقم الغرفة. ثم توقف قلبي عندما رأيت شابا يتجه إلى الملصق وينتزعه ثم يعجنه في يده ويلقي به بعيدا. أوشكت أن أعود ادراجي لكني تلوت صلاة سريعة وواصلت طريقي إلى أن وجدت نفسي أمام باب الغرفة. لكني لم أجد الجرأة على فتحه.
عندما سمعت أصوات ضحك داخل الغرفة خفت.... جريت إلى الحمام وألقيت المياه على وجهي. ومن جديد وقفت أمام الباب منتظرا حتى يزول

استغرقت في قراءة المقال حتي النهاية. وحانت مني التفاتة إلى "جون" فوجدته قد وضع طرفا من جدائل شعره الطويلة في فمه وأخذ يمضغها في ضيق.

تحول إلى قائلا : أنا أسف. هناك شئ لاأفهمه. لا مفرمن الالتجاء إلى الشركة المنتجة.

كنت قد فكرت في هذا الحل لكنني تراجعت عندما علمت بتكلفته.

قلت إني سأفكر في الأمر وشكرته على جهده. جمع أقراصه وأعادها إلى حقيبته ثم حملها وانصرف.

فصلت الجهاز عن التليفون وأعدته إلى حافظته هو والمحوّل. حملتها في يد وحقيبة أوراقي في اليد الأخري وغادرت الغرفة.

لم تكن "جيني" في غرفتها ووجدتها في كهف البريد تدس بعض المظاريف في صناديق الأساتذة. أبلغتها بما قاله الخبير الالكتروني فلم تعلق. انتظرت حتى انصرفت فتقدمت من صندوقي.

= رعبي.. وأخيرا دخلت الغرفة. ويا إلهي ! الجميع كانوا يبدون عاديين طبيعيين وفي غاية الجمال والتكامل. لا أذكر ماذا كان موضوع النقاش ذلك الأسبوع لكني أتذكر أني لم أفه بكلمة وأني حملت معي عند العودة بعض الإحساس بالأمل.

اخترت للفصل الدراسي الثاني موضوع "الهويات الجنسية البديلة في أميركا المعاصرة" وهو أحد الفصول الأساسية للدراسات الخاصة بالمثلية والجنسانية المزدوجة والجنسانية المتحولة (أى الانتقال من جنس إلى آخر بواسطة الجراحة مثلا). أصبحت أكثر ثقة بهويتي لكني كنت ما أزال أنتظر، ربما إجابة حاسمة. وهذا ما حدث بالضبط ففي ربيع ١٩٩٦ في الاجتماع الثالث أو الرابع للدرس لاحظت صبيا ظريفا. ولاحظني هوبدوره. وفي ذلك اليوم سألني أن أعلمه كيف يستخدم "الانترنت" لإنجاز واجب منزلي. وبعد أيام قليلة خرجنا سويا في لقاء غرامي: أول لقاء لي مع رجل".

كانت هناك الإعلانات الملونة المعهودة وأسفلها رسالة جديدة مرفقة بزنبقة زرقاء.

** ١٤

شغل الحانوت مساحة واسعة حفلت بكافة أنواع الأجهزة الصوتية. وفي نهايتها وقف شاب أسمر ملتح في بداية الثلاثينيات خلف مكتب واطئ من الخشب. ابتسم لى وسألني بالعربية عن أحوالي.

كان مصريا من "أسيوط" تعرفت به في الأسبوع الأول من وصولي عندما كنت أبحث عن بطاقة للتليفون. وهو الذي أرشدني إلى البطاقات التي تتيح الاتصال عبر الأقمار الصناعية بأسعار زهيدة لا تتجاوز ثمانية سنتات داخل "الولايات المتحدة" و ٥٦ سنتا ل"مصر". كما باعني راديو صغيرا أنيق الشكل بأقل من عشرة دولارات. ويبدو أنه كان يريد التخلص منه أو شعر بأن هذا المبلغ هو مستوى مشترواتي.

سألته عن مشروعاته بالنسبة لرأس السنة. قال إنه ينوي زيارة "مصر" لأول مرة منذ ١١ سنة.

قلت: ياه . مدة طويلة.

قال: كنت مطلوبا للتجنيد. أما الآن فقد سويت أموري ودفعت الغرامة المقررة.

– حصلت على الجنسية طبعا؟

اتسعت ابتسامته وهو يرفع يده مبسوطة في وضع القسم : أقسم بالولاء ل"الولايات المتحدة" أولا وأخيرا. وأن تكون المصلحة الأمريكية فوق كل اعتبار وأن أراعي المصلحة والأمن القومي الأمريكيين ، سواء كنت هنا في الوطن أو في "مصر".

قلت : بصحيح؟

قهقه ضاحكا: ده اجراء شكلي للحصول على الجنسية. مصلحة يعني. الوطن هو "مصر" فقط.

أردت أن أهون عليه فقلت : الوطن هو المكان الذي يشعر فيه الواحد بالأمان.

قال: تمام. الجنسية الأمريكية أمان في "مصر" كمان. أنا لي اثنين قرايب اختلفا حول ملكية قطعة أرض في الصعيد. واحد منهما عنده الجنسية الأمريكية. تعرف ماذا حدث؟ استنجد بالسفارة فتدخلت لدى وزارة الداخلية المصرية وعلى الفور راحت قوات الأمن المركزي موقع الأرض ومكنته من ملكيتها. شفت؟

أعربت عن ادراكي لحقائق الحياة واشتريت بطاقة تليفون جديدة. غادرت الحانوت واتجهت إلى مشرب على الرصيف المقابل. انتظرت حتي مرت مجموعة من اليهود الأصوليين بملابسهم السوداء السابغة، ولحاهم وقبعاتهم بينهم سيدة غطت رأسها فيما يشبه الحجاب الإسلامي. ولجت حديقة داخلية غير مسقوفة انتشرت بها المدافئ الكهربية الضخمة. جلست في ظل إحداها وطلبت من نادلة سوداء جميلة كوبا من القهوة الممزوجة باللبن.

رفعت الكوب إلى فمي وأنا أستعيد درس اليوم الذي قدمت فيه حلقة جديدة من مسيرتي. لم يكن ثمة شك في أني نجحت في الاستحواذ على اهتمام الطلاب بحكاياتي الفضائحية التي انتهيت من احداها قبل ساعة.

كنت قد بدأت محاضرتي بمدخل استفزازي. قلت إني ألفت في طفولتي أن أسمع تعبير "أمريكاني" يطلق على أي سلعة ذات مظهر براق وسريعة التلف. فقد خلقت الحرب العالمية الثانية طلبا على سلع واحتياجات لم تعد الصناعة الإنجليزية أوالألمانية قادرة على تلبيتها. وغُمرت الأسواق

بمنتجات سعى صناعها الأمريكيون وراء ربح سريع فلم يعتنوا بجودتها. ولم أتصور أن الأمر شمل البشرأنفسهم إلى أن التقيت "بربارة".

ظهر الاهتمام على وجوه طلابي وتأهبوا لاعترافاتي الفضائحية فلم أخيب ظنهم.

شرحت لهم كيف أن صدمة "جمالات" لم تتلاش سريعا كما حدث مع "رجاء". وكيف فشلت محاولاتي في العثور على فتاة تثيراهتمامي ، أوتتقبل عاطفتي. وكنت قد تخرجت سنة ١٩٦٠ بتقدير جيد فسجلت اسمي في الدراسات العليا. وكنت أتردد على منزل أحد الأساتذة لأرتب له بطاقات بحث يقوم به. وهناك التقيت صديقة أمريكية لزوجته الأيرلندية حلت ضيفة لديهما مع ابنتها، في زيارة صيفية قصيرة. ومن الطبيعي أني أحببت الفتاة والحقيقة أني أحببتها من قبل مجيئها. فلم يكن لزوجة أستاذي من حديث طوال شهرين سوى الزيارة المرتقبة.

كانت الفتاة في سني ومغرمة بالرسم أي مشروع فنانة. شقراء قصيرة ذات فم ملتو قليلا، وأظافر عريضة لأصابع اليدين والقدمين. لكنها تمتعت بعينين زرقاوين جميلتين ورائحة عطر خفيف أحاطها بجو ساحر خصوصا وأن العطور الأجنبية كانت غير متوافرة في ذلك الوقت باعتبارها من الكماليات.

أخذتها إلى "خان الخليلي" و الأهرامات والمساجد والقلعة. استعرضت معلوماتي ولو أني أشك أنها فهمت شيئا من إنجليزيتي المتواضعة كما كنت بالمثل أجد صعوبة في تمييز لكنتها الأمريكية المضغومة. وفي ليلة قمرية استأجرنا قاربا وقمنا بنزهة نيلية. وانتهزت الفرصة لأفضي لها بحبي. لم تعلق بشئ ثم سألتني بعد قليل : ثم ماذا؟ السؤال المعهود عن الاستراتيجية التي لم أفكر فيها مطلقا.

أعدتها إلى المنزل محبطا واعتبرت أني خسرت المعركة. وبدأت أنسحب لاعقا جراحي فتوقفت عن التردد على منزل أستاذي. وكان أن اتصلت بي بنفسها ودعتني إلى السينما.

كنت يومها مصابا بأنفلونزا ودرجة حرارتي مرتفعة لكني ذهبت. لم يخطر ببالي أنها ربما كانت تسعي وراء مايسمى في بلادها"تكنج "، أى بضع قبلات ولمسات وربما مساعدات متبادلة. فلم تكن لي خبرة بهذا الشكل من المغازلة. ثم أن درجة حرارتي كانت تشل أي رغبة. لذلك لم أستجب لها عندما قربت رأسها مني في الظلام والصقت فخذها بفخذي.

بعد يومين رافقتها هي وأمها وزوجة أستاذي إلى الأقصر. ذهبنا بالطبع إلى معبد "الدير البحري". مررنا بتماثيل "حتشبسوت" في صورة" أبي الهول" وصعدنا المدرجات العريضة الثلاثة. ولأول مرة أجدني في حضرة المعبد العظيم الذي أقيم في سفح الجبل. ووقفت مبهورا بالجمال القائم على احساس رفيع بالتناسب والتناسق.

أفرغت كوب القهوة وأشرت للنادلة كي تحضر لي غيره. تذكرت المشاعر التي غمرتني ساعتها وكانت مزيجا من الروع والغشية. ولعل الشمس بأوارها المصبوب هي التي هيأت لي أن الحياة دبت في المكان. فقد رأيت المئات من قاطعي الأحجار وعمال الذهب يتسلقون الحبال تحت فرقعة السياط، ويتساقط منهم العشرات تحت الأقدام، ثم يتوسط "رع" المنيع السماء، بسطوته التي تخذي العين، فيتوقف العمل، ويتلقون الخبز والبصل فرحين، بينما ينساب النهر كالفضة الساكنة، وتتساقط المياه نقطة نقطة في الساعة المائية، ونقطة نقطة يرتفع مستواها حتى العلامة الخامسة فيهبط "رع" إلى مرقده، ومن المباني الواطئة المسقوفة بالقش التي تضم ورشات المعبد، يتقاطر العمال بأجساد

حناها التعب، قطاع الحجر المغطون بغبار الجرانيت، عمال التحنيط المحاطون بروائح النطرون والتوابل، ناسخو البرديات ونساجو الأقمشة، الزجاجون والصياغ، الفخازيون والنجارون، أفرادا وجماعات يخرجون إلى الشوارع وأكواخ طينية تغطيها أوراق البردي وتظللها الأشجار...

أعادتني أم "بربارة" إلى الواقع، متشكية من الحرارة، معلنة سخطها على تاريخ تحول إلى أحجار. ولجنا المعبد وطفنا بالجدران التي انتزع ذهبها و شوهت نقوشها. ومع ذلك أمكننا أن نتبين قصة مولد "حتشبسوت" من الإله، عندما تقمص "آمون" صورة "تحتمس الأول" وضاجع زوجته الملكة لتحمل بها. وأوشكت الأم أن تشتبك معي عندما قلت إنها القصة نفسها التي تبنتها المسيحية.

أحضرت لي النادلة السمراء كوب القهوة الثاني ومعه فاتورة الحساب. وأشعلت سيجارة وأنا أتذكر بقية الرحلة وكيف واصلنا الرحلة إلى "أسوان" وحللنا بفندق "كاتاركت" القديم. انطلقنا على الفور إلى موقع العمل في "السد العالي" حيث كان يجري تحويل مجرى"النيل" ليصنع بحيرة واسعة تقام فوقها محطة كهرباء ضخمة. كنت فخورا بالمشروع الذي يضع أساس التصنيع والتنمية، بينما عمدت الأم إلى التهوين من أمره بتعليقات متعالية استفزتني. ودار بيننا جدال عنيف نددت فيه بموقف بلادها عندما دفعت البنك الدولي إلى سحب عرض تمويل المشروع. هنا أسفرت الأم عن عدائها لى وحرصت ألا تتيح لى الانفراد بابنتها. وصرت أصحبهن بغير حماس وفي وجوم.

في اليوم التالي ذهبنا في الصباح إلى متحف صغير في جزيرة "الفنتين" الواقعة وسط النيل. أخذنا قاربا من أمام الفندق إلى شاطئ الجزيرة. طفنا بأرجاء المتحف والفتاة تنظر إلى بين الحين والآخر باسمة. كانت تتعمد الالتصاق

بي بعد أن تبحث بعينيها عن أمها لتتأكد من مكانها. وكان التصاقنا سهلا بسبب إمتلاء ردفيها وضيق المكان. لكني كنت يائسا محبطا أكاد أختنق من الحرارة والرطوبة. لهذا رحبت عندما اقترحت العودة. بحثنا عن أمها وزوجة أستاذي فلم نعثر لهما على أثر. عرضت أن ننتظرهما لكن"بربارة" قالت إنهما سبقتانا في الغالب. هكذا عدنا وحدنا إلى الفندق وهى تتقدمني في عجلة. وطلبت مني أن أنتظرها في حجرتي ريثما تأخذ دوشا. أخذت أنا الآخر دوشا سريعا وانتظرت. ولم تلبث أن فتحت الباب ودخلت. كان هناك شئ في عينيها دفعني إلى احتضانها. وفوجئت بلسانها في فمي. لكن الأمور لم تسر كما هو متوقع.

عند ذلك توقفت عن الحديث متجنبا نظرات "فادية" و"فيرنون" التي بدا فيها الاستهجان. ثبت عيني على الحائط المواجه في صمت وأنا أعيش التجربة من جديد.

هل ساعدتها على خلع ردائها أم هي التي خلعته؟ لم تكن ترتدي تحته شيئا. علت شفتيها ابتسامة مترددة وهي تتابع نظراتي إلى ثدييها الصغيرين وأردافها المكتنزة وكتلة الشعر الأسود بينهما. ولم يخطر ببالي وقتها أن هناك تناقضا بين لوني شعري رأسها وعانتها.

جذبتها إلى الفراش وهي تتمنع قائلة: "وي مست نُت". يجب ألا نفعل. أو تذكرت أن أمها ستبحث عنها وتعثر علينا. انهلت بالقبل على ثدييها وأنا أردد: العصفوران الصغيران. عبارة تذكرتها من إحدى الروايات فيما أعتقد. احتضنتني بقوة ورقدت فوقها. قالت: "تيك كير". خذ بالك. أدركت أنها تخشى الحمل فطمأنتها وقررت أن أنتبه. لكن المشكلة حلت بطريقة أخرى إذ قذفت بمجرد أن لمستها. ويبدو أنها ارتاحت إلى هذه النتيجة فقد هبت واقفة وارتدت ثوبها وغادرت الغرفة مسرعة.

تطلعت إلى ثمانية أزواج من العيون في ترقب فهربت منها إلى النافذة.

ماذا لو قلت لهم ما حدث بعد ذلك؟ وكيف انحنيت علي الفراش أجمع ما تناثر من شعر عانتها وأضعه في ورقة أودعتها جيب قميصي إلي جوار القلب تماما؟

قلت متجاهلا التفاصيل إن شيئا لم يحدث بيننا. ولم أكتسب معارف جديدة سوى ما تعلق بألوان شعرها واختلافها بين الرأس وبقية الجسد. وظننت ذلك أمرا طبيعيا عند الأمريكيات. وعدنا إلى "القاهرة" في المساء. وفي الصباح التالي كنت قد حصلت على مفتاح مسكن أحد أصدقائي وملأت براده باللحوم والفواكه وزجاجة نبيذ. ثم اتصلت بها فجاءت.

كان منظرها نذيرا بالشؤم. فقد كانت واجمة ولفت جبهتها بشريط ملون رافعة شعرها القصير إلى أعلى. احتضنتها فتخلصت من ذراعي في رفق وأبعدت وجهها عندما أردت تقبيلها. جلسنا في الشرفة ورفضت أن تأكل أو تشرب وقالت إنها مضطرة للانصراف بعد قليل.

جرى بيننا نقاش عقيم. ونفذ صبري في النهاية. فقلت لها إني لا أفهم مسلكها. قالت إنها لا تحبني. احتددت عليها قائلا: بماذا تفسرين إذن ماحدث في "أسوان"؟

تجنبت النظر إلى وقالت: الحر كان السبب.

انفجر الجميع ضاحكين. انتظرت حتى توقفت ضحكاتهم ثم قلت: انتهى الأمر ورافقتها صامتا إلى منزلها. وسافرت في اليوم التالي. وبعد أيام لاحظت زوجة الأستاذ اكتئابي فنصحتني بألا أبتئس وقالت إنها أرادت أن تحذرني من قبل لأن الفتاة لاتحب الرجال وتعيش مع صديقة لها بترحيب من الأم التي تخشى أن تفقدها إذا ما ارتبطت برجل.

تعالت الضحكات من جديد وعندما هدأت انتقلت إلى الجانب الأكاديمي. كنت قد سجلت نفسي للحصول على درجة الماجستير لدى أستاذ جديد عائد من البعثة. لكن الأستاذ "بيبة" استدعاني وقال إنه يفضل أن يتولى الإشراف على رسالتي بنفسه وابتسم ابتسامة صفراء. لم يسعني أن أرفض

لأنه كان يتمتع بنفوذ ضخم وعلاقة وثيقة بأجهزة الأمن. وكان الشيوعيون يملأون السجون وبينهم كثير من معارفي خاصة صديقي "رشدي". وساد جو من الرعب والنفاق الذي لم يخدع أحدا. حتى "حلمي عبد الله" اعتقل عدة شهور، رغم أنه أصدر كتابا عن القومية العربية يردد المعزوفة السائدة.

وكنت خلال السنة التمهيدية قد استمعت لمحاضرة عن التاريخ المقارن لأستاذ زائر من جامعة "دمشق" - لعله كان الدكتور "عبد الكريم رافق" - تحدث فيها عن أهمية دراسة التاريخ المقارن (×).

استهواني حديثه فقررت أن أقتحم هذا المجال برسالة الماجستير. وكانت القوانين الاشتراكية قد تتابعت في تلك السنة: قانون توزيع الأرباح على عمال الشركات والمؤسسات ومشاركتهم في مجالس إدارتها، ومنع فصلهم تعسفيا، وقانون الحد الأعلى للمرتبات، وقانون تخفيض ايجارات

(×) ضرب مثلا بفترة الدولة العثمانية التي امتد سلطانها على ثلاث قارات وشمل معظم أقطار الوطن العربي فصار لما يحدث في الدولة ككل آثاره ومضاعفاته في مختلف بقاعها. فالدارس لتاريخ "اليمن" مثلا يلاحظ أن ثورات عسكرية مهمة حدثت فيه في ستينيات القرن السادس عشر. ووقعت ثورات مشابهة في "مصر" في نفس الفترة من جانب العساكر في الريف ضد الحكم العثماني وهاجموا كبار التجار المصريين في "القاهرة" وأحرقوا ممتلكاتهم. وكان السبب هو انهيار العملة الفضية في الدولة العثمانية التي كانت الرواتب تدفع على أساسها. وحدث تمرد عسكري مماثل في بلاد "الشام" بعد عقدين لنفس السبب، وفي "بغداد" في مطلع عشرينيات القرن السابع عشر، وفي شمال "أفريقيا" بل وفي "الأناضول" و"البلقان".

وذكر الأستاذ أن استيراد أوروبا للفضة والذهب من أمريكا إثر اكتشافها، وبخاصة عن طريق الأسبان، أحدث ثورة نقدية أثرت على العملة الفضية العثمانية التي تدنت قيمتها وتدنت بالتالي القدرة الشرائية للعساكر فدفعتهم إلى الثورة. ومن شأن هذا التكامل في الأحداث والأسباب والعوامل أن ينقلنا من التاريخ القطري إلى العربى فالعثماني فالأوروبي لإدراك العوامل العميقة التي أثارت مثل هذه التمردات في فترات متقاربة وعلى مستوى الدولة العثمانية ككل.

المساكن، وقانون جديد للإصلاح الزراعي وآخر يمنع الأجانب من تملك الأراضي الزراعية. لكن الأهم كان تأميم ١٤٩ شركة تجارية وصناعية وإسقاط التزام شركتي "ترام القاهرة" والكهرباء الأجنبيتين.

أحدثت هذه القوانين صدمة هائلة. وبقدر ما استجابت لمطامح الطبقات الشعبية وأعطتهم الأمل في المستقبل، بقدر ما أثارت ذعر الملاك وسخطهم. ومنهم بالطبع حمو الأستاذ "بيبة". وترددت أصوات خافتة تستنكر الإعتداء على حق الملكية باعتباره تاريخيا ومقدسا.

لم يكن هذا صحيحا فيما يتعلق بتاريخ "مصر" التي لم تعرف الملكية الفردية للأرض طوال خمسة آلاف سنة. ففي العصر الفرعوني كانت الأرض كلها ملكا للفرعون وصارت بعدها للملوك والسلاطين واقتصر اقتطاع بعضها على حق الانتفاع. وفي العصر الحديث أعلن "محمد علي" نفسه المالك الوحيد لها تاركا للفلاح حق الانتفاع وحسب. ثم بدأ في إقطاع أجزاء منها لأفراد أسرته الألبانية ولمن رضى عنهم من المصريين. ولم تتحول إلى ملكيات فردية حقيقية إلا في عهد حفيده "سعيد". وكانت هذه الملكيات غير الشرعية هي الأساس الذي قامت عليه بعد ذلك بقية أشكال الملكية من تجارية وصناعية. وظلت الأخيرة حكرا لدائرة ضيقة من المتمصرين وأعوان الانجليز الذين غدروا ب"عرابي" وساعدوا على احتلال البلاد في ١٨٨١. ووصل الأمر قبل ثورة ١٩٥٢ أن كان نصف في المائة من مجموع السكان يملكون نصف الدخل القومي.

هنا قال "لاري" ساخرا إن "الولايات المتحدة" في وضع أفضل لأن الفئة الثرية بها لا تقل عن خمسة بالمئة من السكان.

واصلت حديثي قائلا إن التأميم لم يكن تصحيحا لظلم تاريخي بقدرما كان حلا لمشكلة اقتصادية. فالرأسمالية المصرية كانت ضعيفة وجردها هذا الضعف من الجرأة والخيال. فبدلا من الإقدام على مشروعات ضخمة تؤتي أكلها بعد عقود، اقتصرت أحلامها على الربح السريع الذي يتحقق من المشروعات الخدمية والاستيراد. ولهذا لم يكن أمام الدولة، المقبلة على خطة تصنيع وتحديث طويلة الأمد، إلا أن تضع يدها على الأصول الضروريةلذلك.

المهم أني قررت القيام بدراسة مقارنة لتاريخ الملكية الفردية للأرض في "مصر". وفوجئت بالدكتور "بيبة" يرفض. انصب اعتراضه على أن التاريخ المقارن ليس من المواد المقررة. وأن كتاب "هارنشو" "علم التاريخ"، هو أساس منهج البحث المعتمد في جامعتنا، وهو منهج يلتزم بالإطار الوصفي للحدث دون محاولة تفسيره بدعوى الحرص على حياد الباحث. لكني اشتممت عداءه الشخصي لموضوع التأميم.

اتجه اهتمامي إلى الحضارة الفرعونية ومرحلة سقوطها التي استمرت قرنين خضعت "مصر" بعدهما للأشوريين والأثيوبيين طوال أربعة قرون حتى الغزو الفارسي. واعترض الأستاذ "بيبة" مرة أخري بدعوى أن الموضوع الفرعوني ليس مستحبا بسبب القومية العربية. كما أن الفترة التي اقترحتها تتضمن سيطرة أسر ليبية ونوبية على مصر الأمر الذي يثير نفس الحساسية.

خيرته بين الفترة الفارسية التي استمرت قرنين حتى دخول "الأسكندر"، والفترة التالية التي حكم فيها البطالسة اليونانيون البلاد لمدة ثلاثة قرون. اعترض مرة أخرى مستخدما حجة التقسيم المعتمدفي البحث الأكاديمي لمراحل

التاريخ المصري. ثم وصل إلى بيت القصيد. كان يريدني أن أعمل في موضوع عن "تاريخ الشعوبيين في اليمن" وهو تعبير راج في تلك الفترة وكان يوصم به كل من يشتم منه اعتراض أو معارضة للصورة التي أراد بها "عبد الناصر" فرض الوحدة العربية. وعرفت أنه يقوم بدراسة كبيرة عن الحركات "الشعوبية" في الوطن العربي، ووزع أجزاءها على طلاب الماجستير ليتمكن من استغلال ما يتوصلون إليه من نتائج.

لم أشعر بميل للموضوع الذي اقترحه وأدركت في نفس الوقت أن معاداته لن تجلب لي غير الضررفتوصلت معه إلى حل وسط وهو أن أتناول فترة الفتح العربي ل"مصر".

خيمت على الكآبة عندما وصلت إلى هذه النقطة من درس اليوم ومن ذكرياتي. ودبت البرودة في أطرافي رغم حرارة المدفأة فقررت الانتقال إلى الداخل. حملت كوبي وألقيت نظرة على فاتورة الحساب. وجدت إشارة إلى أن البقشيش غير مدرج وعبارة تقول: "نقترح دولارا". ولجت القاعة الداخلية مبتسما إذ تذكرت الاتهام الموجه إلى المصريين بأنهم أمة البقشيش.

كانت القاعة على شكل مستطيل استقر في نهايته بار مرتفع أسفل جهاز تليفزيون ضخم الحجم. وتوزع عدد غير كبير من الرواد حول الموائد الخشبية وعيونهم معلقة بالجهاز. استقرت عيناى على ظهر فتاة بيضاء ممتلئة سوداء الشعر تجلس فوق أحد مقاعد البار العالية. كانت ترتدي بلوزة وبنطلون متباعدين يكشفان لحم ظهرها العاري. وإلى جوارها شاب أبيض ممتلئ لف ذراعه حول وسطها. كانا يضحكان ويتبادلان قبلات عميقة وطويلة. ورأيتها تميل برأسها على صدره. ثم اعتدلت ضاحكة وهبطت عن مقعدها

واتجهت نحوي. مرت بي في خطوات سريعة عنيفة تشبه خطوات الفرس الجامح. كانت تبتسم بوجه متهلل تجمعت دماؤه في حمرة قانية فوق الوجنتين. ولاحظت أنها لا تحمل حقيبة يد أو كيس نقود فتوقعت عودتها. وبالفعل عادت بعد قليل إلى مقعدها بجوار رفيقها الذي كان يتابع مباراة كرة في التليفزيون. وعاد يحيطها بذراعه ويهمس لها دون أن يرفع عينيه عن الجهاز.

انتقل بصري إلى شاب وفتاة بملامح فيتنامية في طرف البار. كانت قد استدارت نحوه فكشفت جوبتها القصيرة عن ساقين بديعتين، لكن وجهها نطق بالغباء والضجر. أما هو فانصرف بكليته لمشاهدة المباراة وهو يتحسس ساقيها.

جلت بنظراتي بين الموجودين فوجدت الرجال يتابعون المباراة في استغراق والنساء يتململن في جلستهن. استقرت عيناي على ظهر نصف عار لوحته الشمس لامرأة أربعينية بجوار رجل ضخم رمادي الشعر وطفل في الخامسة أو السابعة ترك مقعده إلى حجرها. انحنت فوقه وقبلته وقبلها هو عدة مرات ثم بسط جسده بحيث استقر رأسه في حجرها وأراح ساقيه فوق حجر الرجل. ووضع الرجل يده على ساقي الطفل وأخذيربت عليهما. انحنت المرأة على الطفل من جديد وأغرقته بالقبلات بينما استقرت يدها فوق ظهر يد الرجل تداعبها بأصابعها.

كان وجه الطفل في مجال رؤيتي. وتعلقت عيناي بملامحه الوادعة حتى بدأ يسبل عينيه في طمأنينة.

** ١٥

فتحت الباب ل"ميجان" وصديقها وتقدمتهما إلى الصالة. كان شابا أسمر رياضيا في عشرينياته. وخلته عربيا إلى أن قال إنه من "بورتريكو" ويدعى "هوجو". كان يرتدي سويتر قديما من الشامواه وحذاء "ريبوك". أما هي فكانت ترتدي معطفا طويلا من الجلد الأسود خلعته كاشفة عن جوبة خضراء قصيرة وجوارب سوداء شفافة.

قدمت إليهما الشاي ثم قدت الشاب إلى المكتب حيث كان الكمبيوتر في انتظاره. واستخرج هو من جيب سترته عدة ديسكات ورفع غطاء الكومبيوتر وشغله.

تركته يجري تجاربه بعد أن أوصلت الجهاز بالتليفون. وجلست أمام "ميجان" بجوار المدفأة. سألتها عن سر ملامحهاالشرق أسيوية فقالت إن أبيها ياباني.

- ولد في اليابان؟

قالت : لأ هنا. في معسكر اعتقال.

انتزعت منها بالتدريج التفاصيل. ففي أعقاب العدوان الياباني على "بيرل هاربور" سنة ١٩٤٢ جمعت السلطات أكثر من مائة ألف من اليابانيين الأمريكيين في معسكرات اعتقال استمرت عدة سنوات. كانت ظروف المعتقل سيئة فقد كدست العائلات في غرف ضيقة وحرم أفرادها من ممارسة شعائرهم الدينية أو الحديث باللغة اليابانية في الاجتماعات العامة. وأجبروا على تحية العلم وإنشاد الأغاني الوطنية الامريكية وإعلان ولائهم ل" أمة واحدة منيعة يتمتع جميع أبناؤها بالحرية والعدالة". لكن السلطات لم تتمكن من منعهم من الانجاب.

افترت شفتاها الدقيقتان عن ضحكة قصيرة وقالت : الحروب تبرر كثيرا من الفظائع.

التفت إليها "هوجو" قائلا: قولي له الحقائق.

تحول إلي : كانت هناك أكاذيب كثيرة. فقد اتُهم الكثيرون من الذين ولدوا في "اليابان" واستقروا في "الولايات المتحدة" عدة عقود بأنهم لم يتقدموا للحصول على الجنسية الامريكية واحتفظوا بولائهم للإمبراطور. بينما كان القانون الأمريكي وقتها يحرم منح الجنسية لأي ياباني مهما طالت إقامته.

استطرد بانفعال : العملية كلها كانت نموذجا حيا للرئاء الأمريكي. المدعي العام لكاليفورنيا في ذلك الوقت، "ايرل وارين" اعترف في فبراير ١٩٤٢ بأن أحدا من اليابانيين لم يرتكبْ حتى الآن أيَ عمل من أعمال عدم الولاء أوالخيانة. وأن هذا في حد ذاته دليل على أنهم ينوون ذلك في المستقبل!! "وارين" هذا صار كبير قضاة المحكمة العليا ووضع التقرير الشهير عن مصرع "كنيدي" الذي نفى وجود مؤامرة لاغتياله.

سألته عن نوع دراسته فهز كتفه : لم أدرس شيئا.

وضعت "ميجان " ساقا على ساق فحرصت على تجاهلهما.

قالت: المصالح الاقتصادية هي السبب. اليابانيون الأمريكان كانوا منافسين أشداء في السوق. واليمين هو الذي حرك الحملة ضدهم.

هز "هوجو" رأسه في عناد: غير صحيح. . الجميع اشتركوا في الحملة. كان الديموقراطيون الليبراليون على رأسها.

عاد إلى عمله غاضبا وابتسمت. بدا لى أنه نقاش متكرر بينهما. ولم يلبث أن التفت إلى ثانية وقال: خلاص. يمكنك الآن أن تستخدم البريد الإلكتروني.

غادرت مقعدي وانحنيت على كتفه أتأمل الشاشة. وفعلا كان هناك مربع يطالبني بإدخال اسم وكلمة سر كى يجري الاتصال.

سألته : كيف نجحت بهذه السرعة؟

ابتسم في زهو: الموضوع بسيط . المعالج لديك متخلف يحتاج إلى برنامج في مستواه. وأنا أحتفظ بكل البرامج القديمة.

نهضت "ميجان" واقفة وبدأت ترتدي معطفها. وجمع الشاب ديسكاته وأعادها إلى جيبه وهو يقول : إذا حدثت أي مشكلة يمكنك أن تتصل بي عن طريق "ميجان".

سألته عما يجب أن أدفع له فرفض أن يتقاضى شيئا. ألححت فأصر على الرفض.

قالت "ميجان" ونحن نتجه إلى الباب : هل يمكنني أن أطلب منك شيئا؟

كنت منتشيا بنجاح العلمية وبجمال سيقانها فقلت : اطلبي أي شئ.

قالت : أريد تزكية منك لأحصل على منحة دراسية .

قلت : اكتبي الصيغة المطلوبة وأنا أوقعها.

قالت: كتبتها .

كانت واثقة من قبولي.

استخرجت من حقيبة يدها ورقة مكتوبة على الكمبيوتر تفيد أني معجب بأدائها وأرى أنها تستحق المنحة المذكورة. وقعتها لها وانصرفا.

أسرعت إلى الجهاز ووضعت اسمي وكلمة سر. فتحت بريدي وحررت رسالة جماعية بالعنوان الجديدلكل العناوين التي أراسلها. وبعثت برسالة مماثلة إلى "جيني".

كانت الساعة قد أشرفت على الواحدة بعد الظهرفتناولت غداءا خفيفا ثم ارتديت سترتي وغادرت

المسكن. لمحت فوق المائدة المجاورة للباب خطابا موضوعا بشكل عمودي إلى جوار الجدار ويحمل اسمي بخط كبير. فتحت الخطاب وقد بدأ قلبي في الخفقان. وجدته من جيراني اليقظين : "كي يتم التقاط قمامتك أو مواد التدوير "الريسيكلينج" يجب أن تضعها على الناصية اليسرى للمدخل صباح كل ثلاثاء".

وضعت الخطاب في جيب سترتي وانطلقت إلى الخارج. لم يكن ثمة أثر لبسطات البيع المعهودة أمام المنازل في أيام الآحاد. فقد كان اليوم باردا مظلما ينذر بالمطر.

خرجت إلى بوليفار "جيري" وسرت حتى محطة الباص. وضعت دولارا في صندوق صحيفة "نيويورك تايمز" و أخذت نسخة. انتظرت الباص رقم ٣٨ طويلا حتى جاء. دفعت دولارا ونصف للبطاقة وجلست أمام صبي وفتاة في سن المراهقة ، لا يتعدى عمر كل منهما الثالثة عشرة. كانا متماسكي الأيدي ويتبادلان نظرات والهة. وشرعا يتبادلان القبل العميقة دون أن يعبئا بأحد أو يعبأ بهما أحد. تابعتهما طويلا في حسد حتى نزلت قرب بوليفار "فان نس".

بسطت خارطة مواصلات المدينة وحاولت أن أحدد موقعي وأقرب وسيلة مواصلات أواصل بها رحلتي. فشلت في تتبع خطوط المترو والباص والترولي باص والترام السياحي. ولم يكن منها الكثير إذ يعتمد الجميع على سياراتهم الخاصة. وبالإضافة إلى ذلك لم تكن قراءة الخرائط من نقاطي القوية.

قررت أن أعمل بالمثل المصري القائل بأن من يسأل لا يتوه. لمحت فتاة في معطف طويل تغذ السير نحوي فاتجهت إليها. بسطت "الخارطة وسألتها أن تساعدني. توقفت وأنصتت لي. قلت إني أريد الذهاب إلى "مرفأ صائد السمك". لم تتعرف على المكان وعجبت لذلك. فهو من أشهر

الأماكن السياحية. وقدرت أني أسأت النطق فأدرت الخارطة لأريها إياه. أحنت رأسها لتتأمل المكان الذي أشرت إليه بأصبعي. ثم تطلعت إليّ بنظرة غريبة. واكتشفت أني كنت أعرض عليها الجانب الآخر من الخارطة الذي يصور ولاية "كاليفورنيا" بأكملها. عدلت وضع الخارطة وإذا بها تتراجع فجأة وتهرول مبتعدة.

لمحت سيارة أجرة فأشرت إليها وأبرزت الخارطة للسائق فأقلني إلى الطرف الشمالي الغربي للمدينة مقابل ثمانية دولارات. وألفيت نفسي وسط زحام كثيف من عائلات كاملة وسائحين أوروبيين وغابة من الحوانيت وأكشاك الطعام التي تعرض الأحياء البحرية ومنها سرطان في حجم ضخم لا يقل ثمن الواحد منها - بعد شيه فوق صينية معدنية ضخمة-عن ١٣ دولارا. وكان هناك مبنى يعلن عن عرض حي للزلازل التي ضربت المدينة.

عثرت بسهولة على الرصيف رقم ٣٩ الذي يطل على حوض من عشرات الفقمات الضخمة. كانت الساعة تقترب من الثالثة وهو الموعد الذي ضربته لي الرسالة الأخيرة بعد اعتذار غامض عن إخلاف الموعد السابق. وقفت مدة مستندا إلى السياج أتأمل الفقمات وهي تتقلب فوق بسطات خشبية ثم تلقي بنفسها في الماء محدثة ضجة ورذاذا. بعد قليل بسطت صحيفة "النيويورك تايمز" وقلبت صفحاتهابغير تركيز.

توقفت عند إعلان على صفحة كاملة يتضمن بيانا من مجموعة من رجال الطيران المتقاعدين ، بعنوان "أوقفوا التغطية" !

مررت بعيني فوق سطور البيان: "..بعد انفجار طائرة TWA الرحلة ٨٠٠ وتحطمها على ساحل "لونج أيلاند" سجل مكتب التحقيقات الفيدرالية شهادة ١١٥ شاهد عيان قالوا

إنهم رأوا شيئا يُعتقد الآن أنه صاروخ يندفع إلى أعلى في السماء ثم ينفجر....

وقد رفض مكتب التحقيقات الفيدرالي إعلان هذه الشهادات ورفضت هيئة سلامة النقل الوطني أن يظهر واحد من هؤلاء الشهود في جلسة الاستماع النهائية عن أسباب المأساة....

لماذا السرية ؟ إن أقوال شهود العيان توضح أن الهيئات الحكومية تغطي على السبب الحقيقي لمأساة الطائرة...

إن "أمريكا" في حاجة لأن تعرف الحقائق...."

تطلعت حولي بامعان ثم عدت إلى الصحيفة وقلبت صفحاتها. اجتذبتني مناقشة غريبة عن الأسلحة المثلى. فقد ذكر أحد الكتاب أن المسدسات الأوتوماتيكية من عيار ١٠ ملليمتر هي أفضل سلاح دفاعي بفضل طاقته التي تتجاوز عيار ٩ ملليمتر وتبلغ نصف عيار "ماجنوم" الرهيب. وعارضه شرطى زاعما أن المسدس المذكور شديد الخطر لأنه يمكن أن يصيب الأشخاص القريبين من الهدف.

طويت الصحيفة وتأملت جموع المارة دون أن أتعرف على أحد. سرت متمهلا ووقفت أتأمل أربعة من الشبان غريبي الهيئة، بجوار لافتة تقول: "التقطوا صورة معنا مجانا!" كانوا شابين– أشقر وأسود – وفتاتين. الأشقر صفف شعره في ثلاث خصلات مدببة كالقرون وارتدى سترة جلدية مزخرفة بدوائر معدنية كالمسامير. وغطى الأسود رأسه بقبعة نابليونية وارتدي سترة من الشرائط الملونة فتحها بيديه ليكشف عن صديرية سوداء كتب عليها باللون الأصفر: "طظ في الشرطة". ولم تعبأ إحدى الفتاتين بالبرد فارتدت فانلة بحمالتين كشفت عن ساعدين وكتفين بضين ولونت

وجهها بأصباغ كثيرة وجعلت شعرها على هيئة أشواك القنفذ النافرة ووضعت في يديها قفازين بلا أصابع. أما الثانية فأزالت الشعر تماما من نصف رأسها وجعلت النصف الآخر على هيئة ريش الهنود الحمر ولونته بالأحمر.

لم يكن الأطفال وحدهم الذين استجابوا لدعوة الشبان الأربعة فقد انضم إليهم رجل خمسيني وقور الهيئة وقف وسطهم وناولني كاميرته راجيا تصويره. واتخذ الشبان الأربعة أوضاعا غريبة وبالغوا في تعبيرات وجوههم وحركوا أصابع أيديهم الوسطى في إشارات بذيئة.

التقطت لهم عدة صور ثم أعدت الكاميرا إلى صاحبها الذي بدت عليه السعادة. واصلت السير مع المارة حتى صرت في مواجهة الجزيرة البعيدة التي أقيم فوقها سجن "الكاتراز" الرهيب حيث قضى "آل كابوني" سنواته الأخيرة.

عدت ادراجي وأنا أتطلع حولي بحثا عن مرسلة الخطاب. ومرة أخرى تصورت أنها تقف في مكان قريب يمكنها من رؤيتي بسهولة. وشعرت بالخزى من سلوكي الصبياني.

استندت مرة أخري إلى السياج المطل على الفقمات التي كانت تنبح مثل الكلاب. استخرجت من جيب سترتي صفحة من جريدة "ديلي كاليفورنيان" (×) تضم حلقة جديدة من اعترافات الشاب المثلي، أو قصة "خروجه من الخزانة" كما أسماها. حكى كيف صارح أهله وكيف تلقت أمه الخبر ببساطة إذ يبدو أنها توقعت شيئا من هذا القبيل: "هكذا بدأت الرحلة العظمى. أول ما خطر لأبوي أنها مرحلة أمر بها فطلبا مني العودة إلى الجامعة والتركيز على دراستي آملين أن تذوب " ميولي المثلية" بحلول الصيف".

(×) بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٩٨.

لكن التوتر تصاعد بينه وبين أبويه بمرور الوقت وتوج أخيرا بأن اتخذ قرارا بالانقطاع عن الدراسة لمدة سنة يتكفل بإعالة نفسه خلالها. "كانت تلك الفترة الأصعب بالنسبة لنا جميعا. ... لكن خطوط الاتصال بيننا ظلت مفتوحة ...وإذا كنا أنا وأهلي قد حققنا شيئا في السنتين والنصف سنة الماضيتين فهو أننا صرنا نحترم آراء بعضنا البعض ، فلم تطلب مني أمي التخلي عن مناصرة حركات المثليين ومطالبهم ، ورحب أهلي بالرجال الذين أخرج معهم ..لقد تقبلوني".

وختم الشاب حديثه مؤكدا أن قصته ليست نموذجا صالحا للاستنساخ "فما استغرق مني ثلاث عطلات أسبوعية قد يأخذ من آخرين سنوات. نصيحتي لمن لم يخبر أحدا بعد أن يتريث. لابد من أن يكون على ثقة من قراره. ويواصل الحلم بروعة الحياة على الجانب الآخر من باب الخزانة".

أشارت عقارب ساعتي إلى الرابعة فقررت الانصراف. خطوت إلى الساحة ومررت بتمثال فضي تجمع حوله الأطفال. تجاوزته ثم عدت أتأمله بامعان. كان رجلا حيا دهن وجهه وملابسه بلون فضي وتجمد في مكانه، وكان هناك رجل مثله بلون ذهبي.

استأنفت السير حتي نادى على عجوز اقتعد الأرض وأشار إلى لوحة صغيرة من الورق المقوى أمامه كتب فوقها أنه لن يكذب على أحد. فما سيعطونه من نقود سيشرب بها بيرة. أعطيته بعض الفكة واتجهت صوب المواصلات.

ازداد الهواء برودة. لم يكن هناك مطر لكن كثافة الضباب وبلله أشعراني برذاذ خفيف. وكونت أضواء النيون دوائر متوهجة مغبشة. وبدت الأجسام مشوهة والأصوات مبهمة.

مشيت قليلا على غير هدى ثم أخذت سيارة أجرة إلى

منزلي. وجدت إعلانا انتخابيا تحت عتبة الباب الخارجي. وكان يعدد فضائل أحد المرشحين لانتخابات مجلس المدينة. عرفت أنه يملك شركة للرهن العقاري رأسمالها ٢ مليون دولار وبها ١٢ مستخدما،وأنه تبنى مشروعا لتوفير السكن المناسب للطلاب قرب الجامعة، ولاعادة تخطيط المنتزهات، وأنه رجل أعمال ناجح وتقدمي يناصر المشروعات الجديدة ويطالب المؤسسات الطبية الضخمة بتقليل "انعكاساتها السلبية" على البيئة ، ويحظى بتأييد النادي الديموقراطي ورابطة الشرطة ورجال الاطفاء. وأبرزت صورته الطائفة الأخرى التي يسعي للظفر بتأييدها. فقد وقف فيها إلى جوار شاب نحيف خجول وتحتها هذه العبارة : ""جورج" مع شريكه أمام منزلهما".

دق جرس التليفون بمجرد دخولي مسكني. أسرعت إليه وقلبي يدق. رفعت السماعة وقلت : هالو. لم يرد عليّ أحد وسمعت صوت تنفس ثم انقطع الخط.

أعددت لنفسي فنجانا من الشاي. ثم فتحت الثلاجة وتأملت محتوياتها لأختار عشائي. ولمت نفسي على أني لم آكل في الخارج .

حملت الشاي إلى المكتب. جذبت الأوراق التي دونت فيها ملاحظاتي على مؤتمر المثقفين. ثم فتحت الكمبيوتر وقلبت بين محتوياته التي تضم أغلب أبحاثي وخواطري. ثم نحيت الكمبيوتر جانبا وبحثت بين أوراقي حتي عثرت على بطاقات التعريف التي دونها طلابي. سجلت أسماء الفتيات - بما فيهن "روزيتا"-في ورقة وأضفت إليها أسماء "جيني" و"فيفيان" و"شادويك". وبعد تردد كتبت اسم"إستر". ثم خطر لي فجأة خاطر. بحثت في لهفة عن الرسائل الثلاث الغامضة حتى وجدتها. قرأت سطورها بإمعان وتبينت أنها لا تضم ما

يشير إلى جنس كاتبها. أوشكت أن أضحك وأنا أتساءل : لماذا افترضت أن المرسل امرأة ؟ لماذا - في مكان مثل "سان فرنسيسكو"- لا يكون رجلا؟

انتقلت إلى مقعد التليفزيون وأدرت قناة أخبارية. انقسمت الشاشة على الفورإلى عدة نوافذ خصصت الرئيسية منهالحوار مع شخصية معروفة جاء اسمه في شريط أسفلها. لم أتمكن من تبين الاسم إذ استبدل بنبأ انفجار في "كوسوفا". انتقل بصري إلى شريط آخر تحته موجزأنباء اليوم وقبل أن أبدأ القراءة إجتذبني شريط ثالث - متحرك أيضا- بأسعار أسهم الشركات الكبري ثم أحوال الطقس ومواعيدالطيران. هربت إلى نافذة متحركة في الجهة اليمني لأحوال المرورفوق الطرق السريعة للولاية. شعرت بالدوار فغيرت القناة.

تتابعت إعلانات تطالبني بأن أنضم إلى الناجحين والفائزين وأبتعد عن الخاسرين الفاشلين. وتكرر واحد منها يشيد بمقدرة المنجمين على معرفة المستقبل. وأعقبها برنامج "قاضي الشعب" الذي يدير محاكمة فعلية تفصل في المشاكل الناشبة بين المواطنين. استمعت إلى صاحب كلبة حملت بدون اتفاق بينه وبين صاحب الذكر المسئول. انصبت شكواه على أنه صار الآن مضطرا للانفاق على أولادها. واعتبر القاضي الواقعة اغتصابا من كلب لكلبة يتطلب التعويض.

توقفت عند حلقة جديدة من المسلسل الوثائقي عن "الاسكندرالأكبر"، خصصت بالكامل لغزو "مصر". ومع بداية التعليق اعتدلت جالسا في انتباه.

فقد استهل المعلق حديثه قائلا إن "الاسكندر" "حرر" مصر من الحكم الفارسي سنة٣٣٢ قم. ومضى يصف كيف رحب المصريون بالفاتح العظيم الذي اعتبروه حليفا لهم في صراعهم مع الفرس.

كان هناك كثير من التجني في هذا العرض يتنافى وحقائق التاريخ. فالذين رحبوا ب"الاسكندر" هم مواطنوه أساسا. فعندما تدهورت الدولة الفرعونية استعان ملوكها الضعاف بمرتزقة أجانب من الأغريق الذين انهمروا على البلاد واستوطنوها وساعدوا الجيش الفارسي على احتلال "مصر" ثم أتاحوا ل"لأسكندر" غزوها. لم يكونوا وحدهم فقد تواطأ معهم كهنة "آمون" الذين انفصلوا عن الشعب وكونوا طبقة من الأثرياء لا يعنيها غير الحفاظ على نفوذها وثروتها ولو بالاعتماد على الأجنبي. هكذا استقبلوا "الأسكندر" بالأحضان وتوجوه ابنا للإله المصري "آمون". ثم التفوا حول "بطليموس"- أحد قواده- عندما استقل بمصر، مؤسسا حكم البطالسة الذي استمر ثلاثة قرون.

تغنى العرض أيضا بازدهار "مصر" البطليمية. فقد صارت أكبر مزرعة قمح في العالم القديم وكان ما يرسل منه كل عام إلى "روما" يطعم سكانها لمدة أربعة شهور. لكنه تجاهل كيف احتكر البطالمة أكثر أنواع التجارة، واحتكر ملوكهم ملكية جميع الأراضي الزراعية وفرضوا الضرائب الباهظة على المصريين. وظل هؤلاء طبقة غريبة مستعبدة ، يثور أبناؤها بين الحين والآخر، ويلجأون إلى أشكال متعددة من المقاومة، من الإضراب عن العمل إلى الهروب الجماعي في الصحراء. واعتبرهم كهنة "آمون" شعبا غير نظيف. وبلغت احتجاجاتهم ذروتها قبل ميلاد المسيح بنصف قرن.وأدت إلى خلع الملك فاستنجد بالجيوش الرومانية لإعادته إلى العرش.

هذا هو الجو الذي ولدت فيه "كليوبترة"، آخر ملوك البطالمة، والتي خصص لها العرض مساحة هامة بسبب ما أحاط باسمها من هالة خلقتها أسطورة السجادة والثعبان وغذتها السينما. ركزعلى غرامياتها وكيف أن استهتارها هو الذي أدى إلى ضياع عرشها، ووقوع "مصر" تحت الحكم

الروماني. وتجاهل بذلك استمرارها في سياسة استنزاف الشعب واعتمادها على "روما". وقد قادتها هذه السياسة إلى أحضان "يوليوس قيصر" الذي كان في ضعف عمرها. ثم إلى "مارك أنطوني" وانتحارها.

سجلت على ورقة إشارة إلى الموضوع لأتناوله في محاضراتي. وتناهى إلى سمعي دق طبول متكرر تبينت أنه صادر عن مسكن جيراني. تابعت إعلانات المساج والمرافقات التي أكدت أن هناك فتيات ساخنات متلهفات على مرافقة من يشاء في الفندق أو المنزل وعلى استعداد للقيام بكل ما يطلب منهن. تفرجت بعض الوقت على صورهن ثم أغلقت التليفزيون وقمت أبحث عما يؤكل.

** ١٦

تركت لي "فادية" في الصندوق عدد صحيفة "الأهرام" المصرية الذي احتوى على نبأ حادث القطار المأساوي.

كانت العناوين مصاغة بالطريقة المألوفة فرد فعل رئيس الجمهورية أهم من تفاصيل الكارثة نفسها: "الرئيس يتابع عمليات إنقاذ وعلاج المصابين ويتلقى برقيات التعازي في ضحايا الحادث"، وبعد الرئيس بقية المسئولين: "وزير النقل والمواصلات ينتقل إلى موقع الحادث ويتفقد سير العمل"، ثم قرار الكوارث التقليدي: "الوزير يصدر تعليمات بإتخاذ الاجراءات اللازمة لضمان عدم تكرار مثل هذه الحوادث في المستقبل". وأخيرا الحقائق: "٤٨ قتيلاو ٨٠ مصابا في كارثة قطار "كفر الدوار".

قلبت الصفحات بحثا عن التفاصيل حتي وجدتها في صفحة الحوادث: كان القطار متجها في الخامسة مساء من "الأسكندرية" إلى "كفر الدوار" مكتظا بالركاب من الطلاب

والعمال عندما توقف فجأة بين منطقتي "الخورشيد" و"البيضا". وظل متوقفا لمدة ٦ دقائق شوهد خلالها مساعد السائق وبعض الكمسارية يهرولون بين العربات قائلين إن جهاز الفرامل توقف فجأة دون سبب. وبعد إصلاح الفرامل واصل القطار سيره ثم بدأيزيد من سرعته بشكل ملحوظ حتى بلغت بين ٩٠ و ١٠٠ كيلو ساعة وهي السرعة القصوى. وعند دخوله محطة "كفر الدوار" تلقى العامل المختص إشارة بتحويله إلى خط التخزين لإخلاء الطريق أمام القطار الفرنسي السريع الذي كان في طريقه من "الأسكندرية" إلى "القاهرة". وعندما حاول السائق (الذي توفي في الحادث) إيقاف القطار فوجئ بعطل جهاز الفرامل. واستمر القطار في سرعته حتي نهاية خط التخزين فأطاح بالصدامات الأمامية وقفز فوق الرصيف في طريقه إلى الساحة المواجهة للمحطة حتى اصطدم بالنصب التذكاري المقام وسطها. هنا انقلبت القاطرة هي والعربتان الخلفيتان المكدستان بالركاب بينما تداخلت بقية العربات.

قرأت أيضا أنباء الزيارة التي قام بها وزير الدفاع الأمريكي "وليام كوهين" إلى "الرياض" لتفقد عدة آلاف من أفراد القوات الأمريكية في قاعدة الأمير "سلطان" الجوية. وكان قد أعلن أنه تلقي ردودا ايجابية للغاية حول اقتراح انشاء شبكة صواريخ لحماية المدنيين والعسكريين في منطقة الخليج من الصواريخ الإيرانية. وتجنب الرد على سؤال بشأن خطر صواريخ الدمار الشامل الإسرائيلية التي تهدد المنطقة.

لم يكن هناك شئ آخر في صندوق بريدي فأغلقته وطويت الصحيفة وغادرت الكهف. ابتسمت لي "فيفيان" ابتسامة عريضة وهي تلوك قطعة من صندوق الفطائر المعهود. ولمحت "جيني" خلف مكتبها تتبادل حديثا ضاحكا مع "مونا".

ولجت غرفتها فاستقبلتني هاتفة: مبروك البريد الإلكتروني.

قلت : وصلتك رسالتي؟

قالت: ووزعت عنوانك على الجميع.

سألتني "مونا" إذا كانت "إستر" في مكتبها فقلت إني لا أعرف لأني قادم للتو من الخارج. قالت وهي تتجه نحو الباب: سأقول لها شيئا وألحق بالدرس على الفور.

وضعت "جيني" يدها على شعرها الذي كان حديث التصفيف وقالت :

– يعجبك الشعر الأشقر؟

ابتسمت وقلت: جدا.

قالت : أنا متأكدة.

استدرت مغادرا وصعدت الدرج على مهل وأنا أفكر في عبارة "جيني".

كان الجميع متواجدين فيما عدا "مونا". اتجهت إلى مكاني تحت السبورة ووضعت حقيبتي على الطاولة. وسرعان ما وصلت "مونا" واحتلت مقعدها المعهود بجوار "فرنون".

مددت يدي بالصحيفة إلى "فادية" فقالت : حادثة فظيعة يا أستاذ.

تساءلت "مونا" عن الأمر فذكرت لها "فادية" تفاصيل الحادث. عقبت "مونا" بأنها قرأت ذات مرة أن "مصر" فقدت ٦٨ ألف فرد في أربعة حروب مع "اسرائيل" على مدى الخمسين سنة الأخيرة ، بينما قتلت حوادث الطرق والقطارات أكثر من ربع مليون مصري في فترة زمنية لا تتجاوز ٢٢ سنة.

لم أدر بماذا أعلق فاكتفيت بالتعبير عن شكي في دقة هذه الأرقام ثم بدأت محاضرتي على الفور.

قلت إني توصلت مع الدكتور "بيبة" إلى اختيار فترة الفتح العربي ل"مصر" في منتصف القرن السادس الميلادي إطارا عاما لموضوع الماجستير. فكرت في أن أتناول بالتحليل ظاهرة فريدة في التاريخ المصري هي تغيير الشعب لدينه مرتين، في فترة لا تتجاوز خمسة قرون : الأولى في ظل الاحتلال الروماني عندماتحول من الديانة الفرعونية إلى المسيحية والثانية في ظل الفتح العربي عندما تحول إلى الإسلام. بينما تمسك بديانته في ظل الاحتلال الفارسي ثم اليوناني الذي أعقبه. كما أن اليهودية لم تجذبه.

أردت أن أنطلق من طبيعة الاحتلال الروماني. ففي ظله ازداد الاستغلال وبعد أن كان نهب "مصر" يتم داخلها بواسطة اليونانيين الحاكمين بمعاونة كهنة "آمون"، تحول النهب إلى الخارج لصالح روما. وتضاعفت أشكال التمرد والرفض وانصرف الناس عن ديانة "آمون "وزاد الهروب إلى السمتنقعات والصحراء فرارا من الضرائب.

كان اليهود مشاركين في الاستغلال كما أن إلههم كان قاصرا عليهم وحدهم ويبدو متعطشا للحرب والدماء. في حين أن المسيح ومن بعده "محمد" ..

قاطعتني "فايدة" بنبرة لوم: صلى الله عليه وسلم.

قلت لها: عليه الصلاة والسلام. بصي. هذه عبارة لازمة في الخطاب الديني. لكن خطابنا هنا علمي بحت. ولا يمس ما يستحقه النبيّان من احترام وتوقير.

استأنفت الحديث: خاطب المسيح و"محمد" البشرية كافة، داعيين إلى السلام والمحبة والمساواة. واستهوى المصريين نداء المسيح من فلسطين :" بع كل ما تملك ووزع على الفقراء" ، ولمسوا بأنفسهم كيف عاش المسيحيون الأوائل

دون أملاك شخصية وكيف كانوا يوزعون أغذيتهم وثيابهم ولا يتاجرون فيما بينهم.

عنصر آخر جاذب هو اعتقاد المصريين بأن المسيح هو "حورس" الإله الفرعوني وأن التثليث المسيحي الذي يتجلى في "الأب والابن والروح القدس" هو التثليث الفرعوني الذي تجلى في "ايزيس" و"أوزوريس" و"حورس". ولم يغير اعتناق الإمبراطور "قسطنطين" للمسيحية في مستهل القرن الثالث الميلادي من الأمر شيئا فقد استمر الاستغلال الاستعماري وانفصلت الكنيسة المصرية عن الرومانية تعبيرا عن التناقض بين الجانبين. واستمر التناقض ثلاثة قرون أخرى، اشتدت خلالها معاناة المصريين، إلى أن ظهر الفرسان العرب على حدود البلاد بدين جديد يقدم وعدا طازجا بالحرية والمساواة فتقبلوه(×).

لم يسترح "بيبة" إلى هذا الاختيار. كان وقتها يرأس فرع منظمات الشباب التي شكلتها الحكومة سنة ١٩٦٥ ويلقي المحاضرات في معهد الدراسات الاشتراكية الذي أنشأته. وصار "حلمي عبد الله" مساعده الرئيسي. وشاع أن الأخير- الذي صار معيدا بالكلية ويستعد للحصول على الدكتوراه- يكتب تقاريرا أمنية عن الطلبة. وتلاحقت كتب الاثنين عن "الاشتراكية العربية" وخصائصها الفريدة. وتكرر ظهور -اسميهما في الندوات والمؤتمرات والصحف. فقد كانت

(×) أضاف "أحمد صادق سعد" إلى ذلك عاملا هاما يرتبط بنمط الإنتاج السائد في كل من "روما" و"مصر" والجزيرة العربية. فقد اعتبر الفاتحون العرب "مصر" بأرضها وثرواتها وبشرها، ملكا لأمة الإسلام أي الدولة الجديدة .وتطابق ذلك مع أساس النمط السائد في الاقتصاد المصري وهو النمط الآسيوي. .ففي حين حاول الأغريق والرومان فرض الملكية الفردية الخاصة لوسائل الإنتاج لم يأت العرب بنمط مغاير عن المصري مما ساعد على رفع الحاجز الاقتصادي بين الجانبين.

النخبة الحاكمة تلتقط من هو قادر على تقديم غطاء نظري لسياستها القومية المعادية للاستعمار ولسيطرة رأس المال بعيدا عن الشيوعية والشيوعيين.

لم يكن لوقفه من الموضوع الذي اخترته علاقة بذلك بقدر ما ارتبط بنزوعاته الشخصية. كان حريصا على ألا تخرج الأبحاث والرسائل الجديدة عن دائرة تخصصه الضيق وألا يحقق أحد من زملائه أوطلبته اختراقا ما في البحث. ولم أجسر على معارضته فقبلت التخلي عن هذا الموضوع واتفقنا في النهاية أن أقوم بتحقيق إحدى المخطوطات كما هو المألوف في أغلب رسائل الماجستير.

وقع اختياري على مخطوطة "المردفات من قريش" ل"أبي الحسن علي بن محمد المدائني"(×). والمقصود بالمردفات النساء اللاتي لم يكتفين بزوج واحد وأردفن زوجا بعد زوج.

قادني إلى هذه المخطوطة غرامي بتتبع أخبار نساء أرستقراطية "قريش" القويات المثقفات، اللاتي تزوج منهن الرسول، وبدأ رسالته في كنف رائدتهن: "خديجة". وهن اللاتي واجهن الرسول مطالبات بحقوقهن عندما سألنه عن السبب في أن القرآن لم يذكر شيئا بشأنهن. فاستجيب لهن وجاءت "سورة النساء" بقوانين الأرث الجديدة التي جردت الرجال من امتيازاتهم. فلم تعد المرأة تورث كما تورث النياق وأشجار النخيل وهو الوضع الذي كان سائدا في الجزيرة العربية بل صار لها الحق في أن ترث. وكان لذلك وقع القنبلة بين سكان المدينة الذكور الذين امتعضوا: من تناقص أموالهم نتيجة اخراج المرأة من أرصدة التركة ثم مشاركتها فيها.

تضمنت المخطوطة سيرة ثماني وعشرين امرأة من

(×) توفي ٩٣٨ بعد قرنين وربع قرن من الهجرة.

القرشيات البارزات على رأسهن "سكينة" ابنة "الحسين" وحفيدة الرسول التي ماتت عن عمر يناهز السبعين. تزوجت "سكينة" ست مرات وكانت تشترط في عقود زواجها عدم طاعة الزوج إلا فيما يقره عقلها وألا يتزوج زوجها عليها. وقد قاضت أحدهم لأنه انتهك شرعة الزواج الأحادي الذي فرضته عليه في عقد الزواج وتزوج عليها. كما أنها لم تخف عشقها لبعض أزواجها. وكانت تستقبل الشعراء في منزلها وتحضر مجالسهم.

كانت هذه المخطوطة محققة بالفعل بواسطة محقق شهير من رواد تحقيق النصوص وأول من كتب عن قواعد هذا العلم هو "عبد السلام هارون" (١٩٠٩ – ١٩٨٨)، ونشرت ب"القاهرة" سنة ١٩٥٠. ولم يكن في عزمي أن أعيد تحقيقها فقد قام الأستاذ "هارون" بهذا العمل علي أكمل وجه طبقا للتقليد السائد في تحقيق النصوص : التأكد من صحة النص وصحة نسبته إلى صاحبه ومكانة الأخير العلمية ثم أسباب تأليف النص وإضاءة بعض الجوانب من مصطلح أو معنى لفظ أو تعريف بحدث أو واقعة أو مكان ثم توثيق ما ورد به من أبيات الشعر.

انصرف اهتمامي إلى جانب آخر هو ما تكشف عنه المخطوطة من تغيرات طرأت على المجتمع القرشي نتيجة الفتوحات. فمثلا ، عندما قتل "عبد الله" ابن "أبي بكر الصديق" في إحدى غزوات الأيام الأولى للإسلام ترك لزوجته "عاتكة" سبعة دنانير مما أثار غضب أبيه فقال: "كيف يتحمل جزاء ما اكتنز من دنانير وهو سبع كيات بالنار، كية لكل دينار ؟". هكذا كانت نظرة المسلمين الأوائل للاكتناز.

ولم تمض سنوات قليلة حتي تغيرت هذه النظرة الزاهدة، وأتخمت "قريش" بثمار الفتوحات، كما اتضح من مثال "عائشة بنت طلحة" التي اشتهرت بجمال خارق حدا

بسيدة أخرى من سيدات "قريش" لأن تدفع ألفي درهم لجاريتها كي تمكنها من رؤية سيدتها عارية. وقد خطبها "مصعب بن الزبير" (الذي كان متزوجا من "سكينة" إبنة الحسين" السابق الإشارة إليها) بعد أن أصدقها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثلها ، فعلق الشاعر "أنس بن أبي أنس بن زنيم" على ذلك قائلا :

يضع الفتاة بألف ألف كامل ...وتبيت سادات الجنود جياعا.

وكان "مصعب" مغرما بها حتي أنه أراها لأحد معارفه ثم قال له بما أنك رأيتها فلابد لك من هبة وأعطاه عشرة آلاف درهم وعشرين ثوبا.

وتقدم "أم كلثوم "ابنة "علي بن أبي طالب" وأرملة "عمر بن الخطاب" مثالا آخر للترف الذي عاينته "قريش". فعندما أراد "سعيد بن العاص" أن يخطبها بعث إلى أخويها "الحسن" و"الحسين" بمائة ألف درهم.

كشفت الرسالة أيضا عن السلوكيات السائدة. ف"مصعب" المذكور لم يكن يقدر على جماع زوجته "عائشة بنت طلحة" إلا بعد أن يمزق ثيابها ويضربها.

ظاهرة أخري كانت مدار بحثي هي تتابع حلقة ضيقة من الشخصيات البارزة - من قادة وزعماء وولاة بل وخلفاء - علي مجموعة محدودة من نساء "قريش". أردت أن أستكشف الدافع : هل هو النخوة (في حالة الأرامل) أو الشهوة أو العصبية أو المظهرية أو القبلية أو المنفعة (في حالة الوارثات). وهو التساؤل الذي يطارد من يتتبع مثلا سيرة واحدة مثل "عاتكة" أرملة "عبد الله ابن أبي بكر". فعقب مصرعه رددت شعرا تعهدت فيه بأن لا تجف دموعها عليه. ثم خطبها "عمر بن الخطاب" فذكرت له الوعد الذي التزمت به فطلب منها أن تستفتي "علي بن أبي طالب" (وهو في نفس الوقت والد "فاطمة الزهراء" زوجة "عمر") فأفتى بأن ترد إلى أهل زوجها ما أخذته منهم وتتزوج ففعلت. لكن "عليا" لم

يلبث أن مر بخدرها ليلة زواجها وردد شعرها التي تعهدت فيه بألا تكف عن البكاء فبكت وغضب "عمر" من "علي". وعندما قتل "عمر بن الخطاب" خطبها "طلحة بن عبيد الله" ثم تزوجها "الزبير بن العوام" وعندما قتل هذا خطبها "علي بن أبي طالب"، مما يوحي بأن عينه كانت عليها طول الوقت. فقالت له : أشفق عليك من القتل ، لم أتزوج رجلا إلا قتل. فتزوجها "محمد بن أبي بكر" فخرجت معه إلى "مصر" فقتل وانتهى بها المطاف زوجة ل"عمرو بن العاص"، فاتح "مصر" وواليها الأشهر.

وهناك "ميمونة" ("أم حكيم")، من ذرية "أبي بكر الصديق"، التي كانت زوجة ل"عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك" وتزوجت تباعا من عمه الخليفة "سليمان بن عبد الملك" ثم من عميه الآخرين"يزيد بن عبد الملك" ثم "هشام بن عبد الملك " اللذين توليا الخلافة فيما بعد.

ومنهن أيضا "أم سلمة" وكانت زوجة ل"الحجاج بن يوسف"، فطلقها فتزوجها الخليفة "الوليد بن عبد الملك " الذي قاسى المصريون في عهده من ولاية أخيه "عبد الله" عليهم إذ اختلس أموال الخراج وارتشى واضطهد الأقباط ونفذ أوامر أخيه الخليفة بفرض اللغة العربية لغة رسمية ل"مصر".

ويبدو أن "أم سلمة"هذه كانت ذات جاذبية خاصة مما عرضها للاغتصاب على يد أخيه "سليمان"(×) الذي تلاه في الخلافة.

(×) لم تتجاوز مدة خلافة "سليمان بن عبد الملك" سنتين وعدة أشهر إذ توفى سنة ٧١٨: وكانت الدولة الأموية قد بلغت ذروتها وبدأت في الاضمحلال حتي انهارت تماما بعد ثلاثين سنة. وقد اشتهر هذا الخليفة بنهم دائم إلى الطعام سيطر عليه ليلا ونهارا حتي صار مضرب الأمثال في الشره. وجاء في كتاب "المردفات من قريش"عن "أم سلمة": "فتزوجها الوليد بن عبد الملك ، فأعجلها سليمان وعليها درع فأدخله من وراء الثوب، ثم طلقها فتزوجها هشام بن عبد الملك".

قبل الدكتور "بيبة" خطتي على مضض. وفي مطلع سنة٦٧ أتممت الرسالة وناقشتها أمام لجنة من ثلاثة أساتذة برئاسته. وكان هو السبب في أنها أجيزت بتقدير متواضع رغم إعجاب الأستاذين الآخرين بها. واستجبت لإعلان عن وظيفة تدريس بالكلية فتقدمت إليها لكن كل شئ "باظ" عندما شنت "إسرائيل" الحرب في "يونيو" من نفس السنة.

سألتني "شرلي": ألم تكن هناك غراميات في تلك الفترة؟

سقطت عيناي على فمها ثم تمعنت في ملامحها بحثا عن أي أثر للسخرية. لكن وجهها لم ينطق بشئ. تذكرت تعليق "جيني" و قدرت أن كل كلمة تبدر مني هنا تنتقل بسهولة إلى الخارج.

قلت : لم يكن هناك شئ ذو بال.

حقا؟

قلت : كانت "نبيلة" سمراء ذات عيون واسعة تشبه عيون أيقونات "الفيوم" الجاحظة، وساقين بديعتين كشفتهما الجوبة القصيرةالتي ترتديها دائما. فقد كنا في عصر الميني جوب. كانت في سني وتعمل في مركز للبحوث الاجتماعية. نموذج للفتاة المصرية الجديدة المتحررة والمثقفة التي أبحث عنها. لم تتزوج ولا تؤمن بالزواج. التقينا لدى صديق مشترك وانصرفنا سويا وقضينا الليلة حتى الصباح في شوارع "القاهرة "على أقدامنا. كانت صامتة أغلب الوقت تتطلع إلى في فضول وأنا أتحدث بلا توقف عن نفسي وقراءاتي ومشروعاتي وعن التاريخ المقارن وكيف أنوي أن أصير مؤرخا لا يشق له غبار. ولاتجيب على أسئلتي عن حياتها الشخصية إلا بمقدار. أبوها مات من زمن وأمهاقعيدة إحدى قرى الصعيد. لا أشقاء أو شقيقات. لا تذكر أول رجل

في حياتها. حائط من الغموض أثار فضولي. وكان مقر عملهاقريبا من الجامعة فصرنا نلتقي كل يوم تقريبا.

توقفت مترددا وأنا أنقل بصري بين وجوههم المتلهفة. هل أشبع فضولهم وأروي ما حدث؟

كيف استسلمت لإلحاحي ودعتني إلى مسكنها الذي تقيم فيه بمفردها. شقة صغيرة تسودها الفوضى. أطباق متعفنة في حوض المطبخ. قطة حبيسة كشرت عن أنيابها عندما أردت مداعبتها. قالت إنها لا تغادر الشقة أبدا. قلت: وماذاتفعل بشأن الذكور؟ قالت إنها لا تختلط بهم. -كيف؟ قالت وهي تضمها إلى صدرها وتتحسس قمة رأسها دون أن تنظر إليّ: لأنها لا تريدهم. تركتني أغسل كوبين للنبيذ الذي أحضرته معي. ورفضت أن تشرب. شربت وحدي وأنا أتكلم وهي تستمع جالسة في مقعد هزاز وقطتها في حجرها وثوبها القصير يكشف عن ساقيها حتى منتصف فخذيها وهي تتأملني في براءة. بعد كأسين كنت منحنيا فوقها. أعطتني شفتيها ببساطة.لكن دون انفعال. ثم أعلنت أنها تخشى الذهاب معي إلى الفراش كي لا أصدم. وجالت برأسي الخمور أغرب الخواطر :هل هي رجل تحت هذه الملابس أم ليست لها فتحة؟ تحديتها بعناد الأطفال. فهزت كتفها مستسلمة كأنما تحملني مسئولية ما سيقع. تقدمتني إلى غرفة نومها فأشعلت نورها. ووضعت القطة على أرض الصالة ثم أغلقت الباب دونها. انقضت القطة على الباب تخمشه وتقدمت هي من الفراش وأعطتني ظهرها. جذبت الجوبة إلى أسفل ورفعت البلوزة إلى أعلى وبقت بقميص داخلي أسود. استلقت على الفراش وهي تتجنب النظر إلى. خلعت ملابسي في تردد وانضممت إليها. وكأنما شعرت القطة بهذا التطورفبدأت تهاجم الباب بكل جسمها وترتمي عليه في عنف. أحطتها بذراعي ومددت يدي إلى صدرها. عريت ثدييها وتحسستهما ثم ضغطت عليهما وهي تتأمل يدي في فضول. نقلت يدي إلى ساقها فرفضت أن تفسح لها مجالا وقالت: أرجوك. لا تحاول. سأرفضك. وتكرر اصطدام القطة بالباب وتكررت محاولاتي ورفضها. وفي لحظة ما استولى على اليأس أو تمكن مني النعاس فاستغرقت في

النوم. واستيقظت بعد قليل لأجدالنور ما زال مضاء وهي تقرأ في هدوء كأنما لم يحدث شئ. والقطةمتكومة بيننا.

قلت : تعلقت بها لكن الظروف لم تكن مواتية لعلاقة ناجحة.

ظهرت علامات الاحباط على وجوه طلابي. لكني كنت قد اتعظت فتجنبت التفاصيل.

اللقاءات العقيمة. الساعات الطويلة التي راقبت فيها منزلها لأرى من يتردد عليها. الشكوك التي راودتني في أن تكون نسخة من "بربارة" ثم لم أكتشف مايبررها. معلومات صديقي التي أطلقتني خلف كل من عرفها من الرجال. من رفض الإفصاح عن طبيعة العلاقة التي ربطته بها. من تحدث عنها كامرأة سهلة لفظها في الوقت المناسب وما زالت تطارده. ومن قال إنها تكره الرجال لأنها تعرضت للاغتصاب في طفولتها. لم أعرف أبدا ماإذا كانت تستمتع برفض الرجال بعد أن تلوح لهم بأنها صيد سهل. أم تتعذب في محاولة لتجاوز صدمة ما.

قطعت الطريق على أي أسئلة في هذا الشأن بمواصلة الحديث عن مسيرتي العلمية. فقد تم تجنيدي بعد العدوان الإسرائيلي في ٦٧ وقضيت سنوات حرب الاستنزاف حتى حرب "أكتوبر"٧٣ في أحد المكاتب العسكرية ب"القاهرة". كانت فترة صعبة للغاية بالنسبة لي على كل المستويات تخللتها صدمة موت أبي ثم موت "عبد الناصر". لكن وجودي في "القاهرة" - الذي تحقق للأسف بوساطة-مكنني من العناية بأمي التي أصابها شلل تام. كما أتاح لي مواصلة القراءة. هكذا قرأت "طه حسين" الذي طفر بأصول البحث في التاريخ الإسلامي طفرة هائلة إذ خرج به من نطاق المقدسات والمحظورات والمحرمات إلى موضوع للبحث والتحليل.

انطلق "طه حسين" من مجال الأدب (×) فذهب إلى أن الكثرة المطلقة مما اصطلحنا على اعتباره من الشعر الجاهلي وضعت بعد ظهور الإسلام بواسطة القبائل والقصاص والرواة والمفسرين و الشراح والمؤلفين والخلفاء. بل ذهب إلى التشكيك في ما نسب إلى شخصيات تاريخية مثل "امرؤ القيس" من سيرة وشعر معتمدا التحليل التاريخي واللغوي. وقال إن الإشارة إلى شخصيات معينة في الكتب المقدسة لا تكفي لإثبات وجودها التاريخي.

وقال "طه حسين" إن أسباب انتحال الشعر تنطبق على انتحال الأحداث التاريخية من أجل دعم موقف ما. وذهب إلى أن " كل ما يروى عن "عاد" و"ثمود" و"طسم" و"جديس" و"جرهم" والعماليق موضوع لا أصل له .... وكل ما يروى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر خليق أن يكون موضوعا. والكثرة المطلقة منه موضوعة من غير شك ..".

وقال: " ويجب حقا أن نلغي عقولنا - كما يقول بعض

(×) عرض طه حسين (١٨٩٨-١٩٧٣) الذي عرف بلقب "عميد الأدب العربي"، أفكاره الثورية في كتاب صغير بعنوان "في الشعر الجاهلي" أحدث ضجة كبرى عند نشره سنة ١٩٢٦. فقد أحال شيخ الأزهر إلى النائب العام تقريرا من علماء الأزهر يتهمون فيه الكتاب بأنه كذب القرآن وطعن على الرسول ويطالبون باتخاذ الوسائل القانونية ضده. وتقدم أحد نواب البرلمان ببلاغ مماثل. وجرى التحقيق معه بواسطة "محمد نور"، رئيس النيابة الذي أثبت في محضره اعتراضه على النتائج التي توصل إليها "طه حسين" وعلى التهمة الموجهة إليه في الوقت نفسه. فقال إن المؤلف "كتب ما كتبه عن اعتقاد تام" وإنه "إذا كان قد أخطأ فيما كتب إلا أن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شئ وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدي شئ آخر"، وخلص إلي "أن غرض المؤلف لم يكن مجرد الطعن والتعدي على الدين بل إن العبارات الماسة بالدين التي أوردها في بعض المواضع من كتابه إنما أوردها في سبيل البحث العلمي مع اعتقاده أن بحثه يقتضيها. وحيث أنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر، فلذلك تحفظ الأوراق إداريا".

الزعماء السياسيين - لنؤمن بأن كل ما يروى لنا عن الشعراء والكتاب والخلفاء والقواد والوزراء صحيح لأنه ورد في كتاب "الأغاني" أو في كتاب "الطبري" أو في كتاب "المبرد" أو في سفر من أسفار "الجاحظ".

استقى "طه حسين" آراءه في مناهج البحث من مقدمة "ابن خلدون" التي أعد دراسة جامعية حولها. ثم تأثر ب"ديكارت" ومنهجه في الشك وأفاد منه في مرحلة التحقيق. ثم استفاد من "ماركس" و"فرويد" في مرحلة التفسير. فصار أول مؤرخ عربي يهتم بالعاملين الاقتصادي والنفسي. وتجلى ذلك في دراسته الفذة عن صدر الإسلام التي صدرت في جزئين، "الفتنة الكبري" و"على وبنوه". فقد اعتبر الصراعات التي نشأت عقب وفاة الرسول نتيجة طبيعية للتطور الاقتصادي والاجتماعي بعد الفتوحات الكبرى، إذ تكونت طبقة أرستقراطية ثيوقراطية اقتنت الضياع الواسعة وتطلعت إلى الصدارة السياسية. وفي نفس الوقت لم يهمل دور الطبائع الإنسانية في هذه الصراعات.

عكفت بشغف على مؤلفات "طه حسين" العديدة التي أضاءت لى حقبة هامة من التاريخ. وأدركت أن ما نعرفه لا يشكل كل الحقائق التي حدثت، وما وصل إلينا منها يخضع لاعتبارات خاصة بالمؤرخ والواقع الذي عاشه في أكثر الأحيان(×).

(×) تناول زميلي الدكتور "محمود اسماعيل" هذا الموضوع بالتفصيل في كتابه "قضايا في التاريخ الاسلامي" (دار العودة بيروت ١٩٧٤) مشيرا إلى أن الوثائق الخاصة بالتاريخ الإسلامي من اتفاقيات ومعاهدات وعقود ملكية وأعطيات الجند ومتحصلات الجباية وغيرها مما كانت تحويه سجلات الدواوين اختفت من جراء الصراع الداخلي بين القوى السياسية المختلفة التي تولت الحكم أو نتيجة الغزو الخارجي. والقليل الذي وصلنا من وثائق التاريخ الإسلامي عبثت به يد التحريف والتزييف. وحفلت المراجع والحوليات بالخرافات والروايات الأسطورية فضلا عن عدم الدقة ناهيك عما لعبته الأهواء السياسية والدعاوي المذهبية والأوضاع الطبقية والنعرات العصبية والنزعات العنصرية من دور في طمس حقائق هذا التاريخ

كنت أتردد على الجامعة كثيرا في تلك الفترة. وكانت تموج بالحركة والاعتصامات التي تطالب بشن الحرب من أجل تحرير أراضينا المحتلة. لكني قبعت في المكتبة نائيا بنفسي عن كل هذا. فلم أتعرض لأذى عندما اقتحمت قوات الأمن المركزي الجامعة وفضت اعتصاما بالقوة. ولا عندما طاردت تجمعات الطلاب في ميدان "التحرير" التي رددوا فيها هتافهم الشهير "إصحي يامصر". ولا عندما ظهرت جماعات الطلبة المسلحة بالسكاكين والجنازيرالتي تكونت بتشجيع من "السادات".

وفي أكتوبر ١٩٧٣ خاض الجيش معركة التحرير وألحق هزيمة موجعة ب"إسرائيل". وحانت فرصتي لكي أواصل مسيرتي الأكاديمية.

كان "بيبة" قد ترك الجامعة إلى قيادة الاتحاد الاشتراكي، وبالتحديد أمانة الدعوة والفكر. واختفي أغلب الأساتذة في دول الخليج، ومن بينهم "حلمي" الذي حصل على الدكتوراه في عام ٦٧ برسالة عن "الجذور التاريخية للاشتراكية الناصرية". ولم أجد مشرفا لرسالتي سوى أحد أساتذة التاريخ الإسلامي البارزين. ودفعني تأثري بمنهاج "طه حسين" -وربما أيضا بتمرده الذي بدأ برسالته للدكتوراه عن " ذكرى أبي العلاء" - إلى أن أجعل من محاولة نفض الغبار عن إحدى ظواهر التاريخ الإسلامي المجهولة وأقصد بذلك الحركة القرمطية، موضوعا لرسالتي. ولم أدر أني بذلك كنت أدخل عش الدبابير.

ألقيت نظرة على ساعتي وفتحت باب التعليقات والنقاش. ولاحظت نظرة انتصار في عيني "فيرنون" كأنه قد أمسك بي متلبسا.

قالت "فادية" وهي تسوي غطاء رأسها الأخضر اللون: إنك تعطي الانطباع بأن التاريخ الإسلامي الذي نعرفه ملئ

بالأكاذيب. من الممكن أن نقبل هذه المقولة على أساس ضرورة التحقق من تفاصيله. لكن هذا يجب ألا يمتد إلى المقدسات ليس من الممكن التشكيك في الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن.

قلت: ذلك كان "طه حسين". ونلاحظ أنه قرر في التحقيق الذي جرى معه أنه كمسلم لا يرتاب في وجود النبيين "ابراهيم" و"اسماعيل" وما يتصل بهما مما جاء في القرآن، لكنه كعالم مضطر إلى أن يذعن لمناهج البحث فلا يسلم بالوجود العلمي التاريخي لهما. هو يقصد أن مايرد في كتاب الله يجب أن يؤخذ في سياق الدعوة وبالتالي فكثيرمماجاء به هو من باب الرمز وله دلالة دينية أكثر منها تاريخية. وليس من الضروري أن يكون حقائق تاريخية. ولا بد من اعمال العقل للتفرقة بين ما هو حقيقي وما هو رمزي. خذي مثلا قصة عصا "موسى" وشق البحر أو"يونس" في بطن الحوت أمثال هذه القصص تهدف إلى تصوير ما يمكن أن تحققه قوة الإيمان وليس من الضروري أن تكون قد حدثت بالفعل. هذه قضية قديمةفي الفقه الديني تتعلق بمناهج تفسير النصوص وتأويلها.

لم يبد عليها الاقتناع فأضفت: من ناحية أخرى هناك الكثيرمما هو مختلق فيما وصل إلينا. لا بد أنك قرأت في صحيفة "الأهرام" مقالا لعالم دين يدعى الدكتور"محمد وهدان" يزعم فيه أن الرسول نهى عن قتل البراغيث وينسب إليه أنه قال: " لا تسبوها فنعمت الدابة ..فانها أيقظتكم لذكر الله تعالى". هل يمكن أن يقول الرسول كلاما كهذا؟ هل يمكن لأي عاقل بله متعلم أن يصدق ذلك؟ هل يعقل أن الدين الوحيد الذي يأمربالنظافة والاغتسال خمس مرات يوميا يحض على عدم التعرض للبراغيث التي تنقل التيفوس

والطاعون؟ الواقع أن أحاديث كثيرة نسبت للرسول وخصوصا ضد النساء.

علق "لاري" قائلا : في السنوات الأخيرة اكتشف المؤرخون وعلماء اللاهوت حقائق خاصة بالكتاب المقدس لم تكن معروفة من قبل. تبينوا مثلا أن العهد القديم تجميع ملتبس لوثائق مستقلة من مصادر مختلفة. وأن مواد عديدة من التوراة الراهنة مأخوذة من شريعة "حمورابي" وغيرها من الشرائع القديمة. وأكثر التراتيل والمزامير والأناشيد الدينية مقتبسة من الكنعانيين ومن المصريين: مزامير "داوود" من أناشيد "أخناتون"، وقصة "أدم" و"حواء" وشجرة التفاح تعود جذورها إلى "سومر" وهي مصورة على نقش سومري. وقصص الفردوس و"هابيل وقابيل" و"نوح" والطوفان جاءت في التوراة مشابهة لمدونات السومريين والبابليين. كذلك قصة "يوسف" مع امرأة سيده وولادة "موسى" منقولة عما رواه "سرجون" الأول ملك الأكديين (٢٣٨١-٢٣١٦ ق.م.) عن نفسه. كما لم ترد أى إشارة مكتوبة أو منقوشة عن المسيح إلا بعد خمسين عاما من وفاته. إذ كتبت الأناجيل الأربعة بين عامي ٧٠ و١١٠. ليس هناك شك في وجود المسيح وفي صلبه فهذا موجود في التاريخ الرماني لكن كثير مما نسب إليه أساطير تناقلتهاالشفاه طوال خمسين سنة. لم تكن هناك صحف أو وسائل اتصال أو تسجيلات. لنا أن نتخيل كم المخترعات والتشويهات التي وقعت في تلك الفترة.

تحداه "فيرنون" قائلا :إذن أنت لا تصدق القصص المروية عن المسيح؟

لم يرتدع "لاري": بص. المسيح ترك أثره على العالم كما فعل بقية الأنبياء. ومن الواضح أن كل شئ حولنا لم ينشأ صدفة وإنما بارادة إله. لكن لماذايجب أن ندعم إيماننا

بالأساطير؟ ألا يمكن أن نؤمن من غيرها؟ الإيمان الحقيقي لا يحتاج إلى مايدعمه، لاإلى شئ مادي أو برهان من أي نوع. لقد كتبت الأناجيل متفرقة لأغراض مختلفة ولم يتم تجميع "العهد الجديد" إلا في القرن الرابع الميلادي باللغة اليونانية على لفائف البردي. البردي طبعا كان يصنع من نبات ينمو على شاطئ "النيل" وهو الورق الوحيد وقتها لكنه يتميز بسرعة التحلل. هكذا اختفى النص الأصلي. لكن صنعت نسخ. وبالتالي كانت هناك تغييرات. وحدثت تغييرات أخرى في العهدين القديم والجديد أثناء الترجمة من اليونانية والعبرية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأخري. فهل ينتقص هذا من إيمان المؤمن؟

لم يرد أحد فانتهزت الفرصة لإعلان ختام النقاش.

مضيت إلى غرفتي مباشرة فوجدت فوق مكتبي باقة من الورد مرفقة بورقة من "فيتز" يذكرني فيها بالجولة التي وعدني بها في المدينة. لم تكن الورود هي المفاجأة الوحيدة في ذلك اليوم فعندما عدت إلى منزلي وفتحت الكومبيوتر وجدت رسالة بالبريد الإلكتروني تتألف من سطر واحد دون توقيع : " شعري كله بلون واحد".

١٧ * *

تباطأت السيارة أمام بوابة حديدية في سور ارتفاعه ثمانية أقدام. وتبينت في ضوء الغسق مساحة هائلة من الخضرة تتخللها عدة نخلات ويقبع في نهايتها قصر تشع منه الأضواء الكهربية. وكان ثمة ملعب للتنس قرب المدخل ثم عدة مبان صغيرة متناثرة ميزت بينها بيتا للنباتات وعدة أكواخ ومساحة لامعة السطح قدرت أنها حوض سباحة.

تصورت أن هذه وجهتنا لكن "إستر" تجاوزت السور وولجت شارعا جانبيا غير ممهد وتوقفت في مكان انتظار ضيق تطل عليه مخازن متعددة الطوابق. غادرنا السيارة الصغيرة فلفحنا الهواء البارد. تقدمتني إلى مبنى معدني ، من النوع الذي يمكن فكه ونقله إلى أي مكان، طليت جوانبه المتعرجة بلون أبيض، وتوجته لافتة من النيون تمثل رجلين في الملابس المكسيكية المألوفة.

ولجنا قاعة مزدحمة برواد يغلب الطابع اللاتيني على أغلبهم وتشي سماتهم بأنهم من الطبقات العاملة. كان المكان نظيفا عابقا برائحة "الشيلي" وزيت الطهي ودخان السجائر. وأجبرتني الحرارة على خلع معطفي.

قادتنا نادلة بدينة قصيرة متجهمة ، ذات ملامح مكسيكية، إلى مائدة في المنتصف ثم مضت إلى مطبخ مكشوف في طرف القاعة يتولاه رجل ضخم في مريلة بيضاء منشاة فوق "تي شيرت". تناولت منه صينية حملتها إلينا. كانت تضم صحنا من فطائر الذرة المحمرة قليلا ، "تورتيلا"، وطبقا على شكل القارب به قطعتان من الزبد، ودورقا من الماء وكوبين.

أخذت "إستر" قطعة "تورتيلا" و دهنتها بالزبد وطوتها ومضغتها بسرعة ثم شربت ماء. وفعلت مثلها.

رويت لها ماذكره لي أستاذ الدراسات التوراتية من عدم الخلط بين اللحوم ومنتجات الألبان.

قالت وهي تقضم : أنا آكل كل شئ. وأنت؟

قلت : مثلك.

بعد قليل أحضرت النادلة حساء من كرات اللحم تصاعد منه البخار. واشتدت الحرارة فخلعت "إستر" سترتها الصوفية كاشفة عن بلوزة سوداء بلا أكمام. ألقت السترة فوق ظهر مقعدها وهي تتجنب النظر ناحيتي كأنما شعرت بوقع عيني على ذراعيها العاريتين.

قالت : هل ذقت "البورنيتو"؟

أبديت جهلي فاستطردت : الكلمة تصغير للبغل بالأسبانية. ساندوتش من الخبز الرقيق يحتوي على فول وأرز وزبادي و"أفوكاتو" ولبنة. يمكن أن تأكله مسطحا أو ملفوفا. هناك حانوت خاص به في "ميشان". أنا أعشقه فهو يذكرني بساندوتشات "الفلافل" الإسرائيلية.

رفعت إصبعي في وجهها قائلا: العربية.

قطبت جبينها وأوشكت أن تحتد ثم تمالكت نفسها وانفرجت أساريرها. مدت يدها ولمست يدي ثم أبعدتها.

قالت : لا داعي لأن نختلف حول ساندوتش.

قلت : المسألة ليست مجرد ساندوتش. إنها حقائق التاريخ.

وضع الطعام حدا للنقاش إذ أحضرت النادلة لكل منا صحنا من الخزف بقطع من اللحم وخضراوات متنوعة ميزت بينها حبات الذرة والفلفل الأخضر. وأضافت صحنا صغيرا من خليط عصير الليمون والفلفل والزيت.

بدأنا نأكل في صمت وقد خيم علينا جو من التوتر.

جانت مني نظرة إلى شعرها الأشقر وهي محنية برأسها. كانت بعض جذوره تميل إلى الدكنة.

مصبوغ؟

لم يكن برسالة الكومبيوتر اعتذار عن عدم الحضور في موعد "فخ السائح" كما حدث مع الموعد السابق في "جولدن جيت بارك". ولا ورد بالطبع. الورد جاء منفصلا من "فيتز". ولم تضم خانة الراسل سوى حرف "إكس" الانجليزي مكررا ثلاث مرات. ولهذا ظننت للوهلة الأولى أنها من أحد مواقع البورنو التي تغير دائما على بريد الشبكة.

شخص آخر؟

المؤكد أن كاتبة الرسالة أو كاتبها قد سمعت أو سمع بقصتي مع "باربارة".

قالت فجأة: وقعت اليوم مشادة بيني وبين تلميذتك "مونا".

رفعت حاجبي ولم أعلق.

استطردت: غضبت بسبب الملصقات التي أعلقها في الغرفة.

"موساد" أو "سي اي إيه"؟ وما هو الهدف؟ توريطي في شئ ما؟ التمهيد لفضيحة عن التحرش الجنسي؟ وهل أنا مهم إلى هذه الدرجة؟ أم مجرد مزحة ثقيلة من عابث أومخبول؟ تبدو عاقلة ورزينة وحصيفة. لكن المسلسلات التليفزيونية الأمريكية حافلة بالشخصيات التي تبدو طبيعية تماما ثم تتكشف عن أهواء وأعماق غريبة.

رفعت إصبعها إلى فمها وأزالت نسيلة من اللحم علقت بشفتها السفلى.

قالت: هل تعرف أنها تضع باروكة؟

لم أعن بالتعليق على ما اعتبرته من قبيل النميمة النسائية.

أصرت: واضح أنك لم تفهم.

تطلعت إليها متسائلا.

ابتسمت وقالت: اليهوديات المتعصبات مثل المسلمات يعتبرن شعر الرأس عورة ولابد من إخفائه تماما عن الأنظار. هن يستخدمن الحجاب مثل المسلمات تماما. ومن لا تحبه تغطي رأسها بالشعر المستعار.

انهمكت في الأكل بينماكنت أتخيل "مونا" في ملابس الحجاب السابغة.

قالت بعد لحظة: بين طلابي يهود أمريكيون لا يعرفون شيئا. يعترضون إذا ما استشهدت بكتابات "ادوار سعيد." ولا يحبون الحديث في السياسة. فأتعمد الإشارة إلى دراسات المؤرخين الجدد.

حكيت لها عن "لاري" والصعاب التي يواجهها فلم تعلق.

قالت: مرة كنت أتحدث عن مذبحة قرية "كفر قاسم" سنة ٥٦. هل تعرف القصة؟

قلت: لا أذكر التفاصيل.

بدا عليها الانبساط لأنها ستتولى تنويري.

– فرض الجيش الإسرائيلي حظر التجول على سكان القرية. لكن مائتين من مزارعيها العرب كانوا في الحقول ولم يعلموا بالقرار. وذهب الجندي المكلف بمدخلها إلى قائده يطلب منه الرأي فيما يفعل عند عودتهم فقال له القائد "يرحمهم الله". واعتبر الجندي هذا التصريح تفويضا بالقتل.

– قتلهم؟

– عن آخرهم.

مددت يدي والتقطت ملعقة صغيرة ملأتها بخليط الليمون والزيت ووزعته فوق محتويات طبقي من الخضراوات.

–انزعج الطلاب من القصة وبعضهم تأثروا وبكوا

والبعض الآخر اعترض على كلامي وشكك في صحته. لم يتصوروا أن "إسرائيل" يمكن أن تقوم بعمل غير أخلاقي.

رويت لها تعليق "مونا" على مذبحة "دير ياسين".

تابعت : وفي مرة كنت أحدثهم عن توزيع المياه في "المناطق". أقصد الأرض المحتلة (وابتسمت). هناك منطقة لا تختلف عن "بيفرلي هيلز". مجموعة من المنازل المستقلة لسكان من الطبقة الوسطى في مشهد طبيعي بديع في ظل التلال العربية. كل منزل به مرج من الحشائش وحمام سباحة يستلقي حوله المستوطن الإسرائيلي وأسرته. بينما يسير الفلسطينيون عدة كيلومترات حاملين مياه شربهم في علب الصفيح الرخيصة. في قلب المنطقة الفلسطينية ٥٢١ مستوطن يهودي يقوم علي حمايتهم ٤٠٠٠ جندي إسرائيلي. أيعقل هذا؟ إنه سلوك غير يهودي. ومع ذلك يقره كثيرون من اليهود.

لم أفهم ما تعنيه بإشارتها المتكررة إلى السلوك اليهودي، أو بالأحرى ، غير اليهودي.

أنهت طبقها وتراجعت إلى الخلف في مقعدها. واختفت يدها أسفل سطح المائدة. وشككت في أنها تفك الزرارين الأخيرين من بلوزتها.

قالت وهي تتحاشى النظر إلى : حتى زوجي وهو من أصل عربي. عراقي.

لم أشأ أن أستفسر وتركتها موقنا أنها راغبة في الفضفضة.

– دبت بيننا الخلافات ثم جاءت "الانتفاضة" التي أصابتني بالاكتئاب.

أومأت برأسي متصورا مشاهد القتلى من الأطفال الذين يدافعون عن أنفسهم بالحجارة.

لكنها أوضحت الأمر بقولها: كانت صدمة قاسية لي عندما اشترك بها عرب "إسرائيل".

أشعلت سيجارة. ورفعت النادلة محتويات المائدة فطلبنا قهوة.

سألتها : أين ولدت؟

لم يعجبها السؤال لكنها أجابت: ولدت ونشأت في "إسرائيل". أهلي بولنديون نزلوا "فلسطين" في العشرينيات أو الثلاثينيات. هم الرواد : "الصابرا" أو "خالوتسين".

– تعيشين هناك؟

– لا. هنا.

أحضرت لنا النادلة كوبين من القهوة. وارتشفت قهوتي الخفيفة في غير حماس وأنا أتأمل وجهها المستدير وعينيها الزرقاوين اللتين تزحف الدهون نحوهما.

لماذا وضعونا معا في غرفة واحدة؟ ولماذا علقت الملصق الجرئ؟

سألتني :هل تتابع "نيويورك تايمز"؟

أجبت: أحيانا.

قالت : منذ أيام قليلة تصدرت صفحتها الأولى أنباء مباحثات "عرفات" و"نتنياهو" في "ميريلاند". وظهر "عرفات" في صورة وإلى يساره "نتنياهو" وإلى يمينه مترجم ثم "دنيس روس "المبعوث الأمريكي للشرق الأوسط و"أولبرايت" وزيرة الخارجية. هل تعرف أن كلهم يهود؟حتى المترجم.

قلت : رأيت الصورة لكني لم أنتبه لذلك.

– كان "عرفات" يبتسم ابتسامة عريضة وفي حالة انبساط تام. إنه يتصور أنه سيحصل على حقوقه. لكن ليست لديه فرصة.

سألتها عن الحل.

قالت : يجب أن تأخذ "إسرائيل" ما أعطته لها الأمم المتحدة في ٤٨ لأنه تم بتراضي دول العالم. أما ما أخذته في ٦٧ في حرب غير أخلاقية فيجب أن يعود بالكامل إلى أصحابه.

قلت : موقف أخلاقي.

قالت : وعملي أيضا. مصلحتي هي السلام مقابل الأرض.

تابعت النادلة وهي تقترب وفي يدها ماقدرت أنه ورقة الحساب. وضعتها على سطح المائدة مقلوبة علي ظهرها وفي مكان محايد وإن كان أقرب مني. ثم انصرفت.

مددت يدي إلى الورقة فوضعت يدها فوقها:

قالت : أنا الداعية.

تمسكت بالورقة وأنا أقول : تعرفين العرب.

هزت رأسها عدة مرات : سيكون سلوكا غير يهودي.

قلت وأنا أسحب يدي: الدفع ؟

وانفجرنا ضاحكين.

أضافت : ثم أني أحتفل بالعيد.

– أي عيد ؟

–العيد القومي. خمسون سنة على قيام "إسرائيل".

نهضت واقفا استعدادا للمغادرة. ارتديت معطفي وجذبت هي سترتها. وعندما دست فيها ذراعا لمحت خصلة من الشعر الأشقر أسفل إبطها.

التقت عيوننا فقالت بخبث : عندك اعتراض؟

ارتبكت وقلت : على ماذا ؟

– على احتفالي بالعيد ؟

هزت كتفي وأنا أتحرك في اتجاه الخروج: : هذا شأنك.

١٨ * *

هتفت مواطنتي الاسكندرانية عندما رأتني :

– هل سمعت عن حادث القطار ؟

كانت تتعمد اضفاء لهجة أجنبية على عربيتها ولا تلبث أن تنسى الأمر بعد قليل.

قلت وأنا اتجه إلي حامل الصحف العربية :

– قرأت عنه في " الأهرام".

انتهت من محاسبة شاب أسود اشترى مجلة ملاكمة ثم ناولتني صحيفة عربية تصدر من "باريس" :

– هناك تفاصيل جديدة.

كانت الصحيفة مطوية على أنباء الحادث فمررت ببصري عليها: السائق أعلن لمساعده فور تحرك القطار من "الأسكندرية" وجود ضعف في الفرامل... الصحف الحكومية تلقي بالمسئوولية على ظاهرة الركوب فوق سطح القطار بسبب ازدحامه أو هربا من دفع ثمن البطاقة.. صحف المعارضة تؤكد أن الصيانة قاصرة على القطارات الفاخرة فقط..قائمة بحوادث سابقة مماثلة أشهرها مقتل ٥٢٥ عاملا مصريا في العبارة "سالم"..صحيفة متطرفة ألقت المسئولية على "سليمان متولي" الذي يتولى وزارة المواصلات منذ ثمانية عشر عاما وزعمت أن صفقات التليفونات التي تمت في عهده رافقتها عمولات تقدر بملايين الدولارات.

اشتريت نسخة من الصحيفة وأخري من "الكرونيكل" ثم واصلت طريقي إلى المعهد. وفوجئت بتجمعات غير عادية في مدخله. تذكرت أن اليوم مخصص لإضراب عام احتجاجا على إلغاء قانون" الفعل الإيجابي." وكان هذا القانون الذي

صدر سنة ١٩٦٤يحتم على الجامعات قبول نسبة معينة من السود والأقليات العرقية بين طلابها بصرف النظر عن مستواهم العلمي.

عانيت طويلا في فهم المشكلة. فقرار الإلغاء الذي اشتهر بالقرار ٢٠٩ صيغ بطريقة مربكة. إذ دعا إلى تحقيق المساواة التامة بين الطلاب بإلغاء كل اعتبار للجنس أو اللون أو العرق عند قبولهم، والاعتماد فقط على مستواهم العلمي. وبدا لي ذلك أمرا معقولا للغاية إلى أن أطلعت على حجج المعارضين. فهم يرون أن التميز الإجتماعي الذي يتمتع به البيض يتيح لهم التفوق في دراستهم على عكس غيرهم.

اتجهت مباشرة إلى قاعة الدرس ووجدت "فادية" قد سطرت بالقلم الفوسفوري الأحمر على السيورة عنوان الدرس:

قراءة المدينة : "القاهرة" نموذجا

اتخذت مجلسي المعتاد أسفل السبورة وطالعني على الجدار المقابل ملصق بصورة كاريكاتيرية لمحافظ "كاليفورنيا" يخطب في الطلاب قائلا: "لا أفهم لماذا يريد السود أن يصبحوا أطباء ومحامين بينما توجد وظائف كثيرة في "ماكدونالد"؟

أوشكت أن افتتح الدرس عندما اقترح "لاري" التضامن مع الطلبة والأساتذة المعارضين للقرار ٢٠٩. سألته حائرا: كيف ؟

قال : يمكننا أن نعقد الدرس خارج الكامبوس وتبلغ الإدارة بذلك.

اعترضت "مونا" وأيدتها"شرلي". والتزم الآخرون الصمت بمافيهم "فرنون" و"سابك".

قررت الأخذ باقتراح "لاري" وغادرنا القاعة. سبقوني إلى خارج المبني بينما مضيت إلى مكتب الإدارة.

وجدت "شادويك" مشتبكة في نقاش حاد مع أستاذ في قميص مزركش بألوان صارخة يلوح بغليون في يده فذكرني على الفور بالأستاذ "بيبة". أبلغتها بما قررته مع طلبتي فطلبت مني أن أكتب مذكرة بذلك موجهة إلى مدير المعهد.

أعطتني ورقة فانتحيت ركنا وكتبت الإخطار المطلوب باختصار. وسمعت "بيبة" الأمريكي يقول إن قانون "الفعل الإيجابي" الملغى يمثل تمييزا صارخا ضد البيض. وردت عليه "شادويك "بأن عدد الطلبة الذين ينتمون لأقليات عرقية قد انخفض بشكل ملحوظ منذ إلغائه.

قدمت الورقة ل"جيني" ولحقت بطلابي في الخارج. وجدتهم يقفون بالقرب من منصة خاصة بأعضاء النادي التابع للحزب الجمهوري تعلوها لافتة عريضة تحتج على الاحتجاج .

غادرنا أرض المعهد والتجأنا إلى حديقة مجاورة فجلسنا في حلقة فوق العشب. ولاحظت أن الطلاب احتفظوا بنفس ترتيب جلوسهم في القاعة الداخلية. فجلس "فيرنون" إلى جوار"مونا" وفي مواجهة "سابك". وجلست "شرلي" بجوار"فادية" في مواجهتي.

كان "فرنون" هو الوحيد الذي جلس متربعا كأنه في مسجد. ومد الآخرون سيقانهم أمامهم بما فيهم "ميجان" التي حرمني بنطلونها من الإطلال على ساقيها. وخلعت"دوريس" معطفا من "النايلون" وتمددت فوقه مسندة رأسها إلى كفها. أما "فادية" فقد جلست معتمدة على ركبتيها مستندة بمؤخرتها الكبيرة إلى كعبيها. كانت قد أحاطت عينيها بطبقة كثيفة من الكحل، وصبغت فمها بلون أحمرخفيف، وغطت رأسها بوشاح ملون، وارتدت بنطلونا فضفاضا وبلوزة طويلة بلغت ركبتيها تحت سويتر من الجلد.

بدأت في شئ من الارتباك بأن "القاهرة" تعتبر أقدم

مدينة في العالم. صحيح أنها شيدت قبل ألف وأربعين سنة إلا أن موقعها كان دائما مركزا لعاصمة "مصر" قبل ذلك بعدة آلاف من السنين. فطوال الألفية الأولى من العصر الفرعوني كانت العاصمة هي " منف" التي تبعد عشرين كيلومترا عن "قاهرة" اليوم. وفي القرن السادس الميلادي شيد الفاتحون العرب للعاصمة مدينة "الفسطاط" التي صارت من أحياء "القاهرة" المعاصرة.

اعتدلت في جلستها وثنت ساقيهاإلى جانبها فأصبحت تجلس فوق العشب. وصفت فتح "مصر" على يد الجيش الفاطمي سنة ٩٦٩ وكيف كلف الخليفة" المعز"قائده الصقلي ببناء مدينة"تقهر الدنيا". وقالت إن القاهرة لم تقهر أحدا غير أهلها. فقد تتابع عليها الغزاة والمتسلطون من كل الأنحاء والأجناس. وفيما يبدو لم يؤثر ذلك في قدرتها على الاستمرار والنمو حتي أصبحت واحدة من أكبر مدن العالم.

تبنت فادية بعد ذلك منهج "جمال حمدان" في أثر الموقع. فقالت إن "القاهرة" تمتد بين مجموعتين معماريتين: الأولى فرعونية في الغرب ، تكونت حول الأهرامات، أضخم مقبرة في العالم ، والثانية في الشرق حول مسجد القلعة ذي القبة والمئذنتين الرفيعتين ، تركيتي الطراز. وبذلك دمغها التدين بطابعه.

قالت إن أقدم أجزاء القلعة شيد منذ ثمانية قرون بواسطة "صلاح الدين الأيوبي" الكردي الذي صار بانتصاراته على الصليبيين رمزا لمقاومة التدخل الأجنبي. لكن البناء الفعلي تم بإشراف أحد أعوانه المسمي "قراقوش " والذي صار اسمه مرادفا للاستبداد الغبي.

هل جمع الاثنان بذلك خلاصة التاريخ المصري؟

استطردت : سجلت القلعة أيضا بداية عصر فريد انعقدت فيه السلطة طوال خمسة قرون ونصف قرن لسلالات

من العبيد (مغول وأرمن ويونانيين وايطاليين وصقليين وبرابرة وسودانيين وترك وكرد وتركمان وشركس) جرى استيرادهم من آسيا الصغري ووسط أوروبا بالآلاف ليكونوا جنودا مرتزقة ثم أصبحوا فرسانا وأمراء. وهم الذين نثروا حول القلعة مئات المآذن والقباب بينما تفننوا في وسائل النهب والقتل والتعذيب للمواطنين العزل. فلم يكد "صلاح الدين" نفسه يستولي على السلطة من الفاطميين حتي قام بأكبر مذبحة لجنود هم السود وأحرق أحيائهم بنسائها وأطفالها. وأمر "الناصر محمد" بتنفيذ ما يقرب من ١٥٠ عملية اغتيال بالسم والتجويع والقتل. وكان السلطان "فرج بن برقوق" ، الذي تولى السلطة في العاشرة من عمره، يستعرض المسجونين في برج القلعة ليلا وهو مخمور فيذبح بعضهم بيده ثم يبول على جثثهم.

اختارت "فادية" سيرة "المؤيد"، أحد سلاطين "المماليك" المشهورين، نموذجا لهذه الطبقة الغريبة. فقد أحضره تجار الرقيق إلى "مصر" وهو بعد صبي في الثانية عشرة من عمره حيث عرض للبيع في أسواقها واشتراه السلطان المملوكي "برقوق" فعلمه القراءة والفقه والفروسية والمصارعة. هكذا تأهل للاشتراك في الصراعات الدائرة بين أمراء المماليك وانتهي به الأمر إلى السجن في حفرة قذرة قيدت يديه وساقيه وعنقه إلى جدرانها بالسلاسل الحديدية. وأثناء هذه المحنة نذرلله إن تيسر له ملك "مصر" أن يجعل مكان السجن مسجدا ومدرسة. وفيما يبدو استجاب الله للدعاء إذ تولى السلطة في سنة ١٤١٢ وشرع على الفور في تنفيذ النذر. بدأ بهدم السجن ثم انقض رجاله على بيوت الأهالي يخلعون منها الرخام اللازم لبناء المسجد الذي يعتبر اليوم تحفة معمارية. وخلال ذلك تفشى في البلاد طاعون دام عاما كاملا . واكتملت القصة كلها بعد خمس سنوات بنهاية

مألوفة، كررها "ايفان الرهيب" قيصر روسيا بعد قرن. إذ نمى إلى علمه أن الأمراء يرغبون في تولية ابنه بدلا منه. فدس له السم في الحلوى ولم تنقص السنة إلا ولحق به ودفن إلى جوراه.

توقفت عن الكلام ومدت يدها إلى حقيبة يدها فاستخرجت زجاجة مياه رفعتها إلى فمها ثم استطردت: انتهى هذا العهد المظلم على يد الفتح العثماني في ١٥١٧ عندما استنجد المصريون بالسلطان "سليم" ليخلصهم من مظالم السلطان "الغوري".

وانتقدت "فادية" المؤرخين من أمثال "جمال حمدان" الذين يستخدمون تعبير "الغزو" عند الحديث عن "الفتح العثماني". واتهمتهم بأنهم لم يميزوا بين الحروب الداخلية في الأمة الإسلامية طمعا في السلطة وبين الغزو الأجنبي طمعا في الثروة ومن أجل الاحتلال. وقالت إن الدولة العثمانية هى التي حافظت - رغم ما تفشى داخلها من قهر وظلم وفساد-على وحدة الأمةالإسلامية ضد أطماع القوى الاستعمارية الاوروبية.

شردت أتابع مجموعة من الطلبة مع أستاذهم يبحثون عن مكان يجلسون فيه. وكانت بينهم طالبة ترتدي شورتا ضيقا فوق ساقين عاريتين. وعجبت كيف أنها لا تشعر بنسمة البرد التي تتخلل الجو. وتابعتها وهي تجلس ثم تقترض سترة زميل لها وتبسطها فوق فخذيها، كأنما استجابت لخواطري.

لحظت أن "مونا" تتأملني بشبح ابتسامة وهي تمضع قطعة "كوكيز". وعجبت لقدرتها على أن تأكل طول الوقت دون أن يظهر أثر على جسدها النحيف. رفعت عيني إلى شعرها البني الداكن وتمعنت هيئته. لم يسعني الجزم بما إذا كان طبيعيا أو مستعارا.

حولت اهتمامي إلى "فادية" التي كانت تقول: استمر المماليك كطبقة حاكمة في ظل السيطرة العثمانية وتصدوا بغير نجاح لحملة "نابليون بونابرت" سنة ١٧٩٨. وكان حرافيش القاهرة ورعاعها هم الذين أجبروا القوات الفرنسية على الانسحاب بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر. وعادت السلطة للسلطان العثماني والمماليك وعرفت مصرأربع سنوات من الفوضى أوشك فيها المصريون على تولي مقدراتهم بأنفسهم. لكن قادتهم اختاروا جنديا ألبانيا من الجيش التركي وصعدوا به إلى "القلعة" وفرضوه على السلطان العثماني في "استامبول". وكان "محمد علي" هو الذي قضى نهائيا على طبقة "المماليك" بالمذبحة الشهيرة التي جرت في "القلعة"، ودشن المشروع التحديثي الأول في تاريخ "مصر" الحديث فأقيمت المصانع والمدارس وأرسلت البعثات إلى الخارج. لكن هذا المشروع لم يقيض له النجاح إذ أجهضه الاستعمار الغربي. كما أجهض المشروعين التاليين ل"عرابي"في أواخر القرن التاسع عشر و"عبد الناصر" في منتصف القرن العشرين.

تدخل "فرنون" متعجبا: كيف تحمل المصريون كل هذا العذاب؟

ترددت ضحكات قصيرة فاستطرد وهو يتأمل ورقة أمامه: إذا لم أكن مخطئا فأنت تتحدثين عن أربعة قرون من المعاناة المتواصلة.

خمسون قرنا على الأقل تنظر إليكم!

أجابت: استطاع المماليك أن يبقوا على حكمهم تلك القرون الطويلة بفضل مقاومتهم العنيدة للغزاة الصليبيين والمغول والعثمانيين.

تدخلت بدوري: "صادق سعد" يقدم تفسيرا واقعيا لهذه

الظاهرة. فقد تكونت طبقة ملاك واسعة ومختلطة تضم علماء وتجارا وحرفيين من أصول مصرية ومملوكية شركسية وعثمانية. لهذا نجد أن العلماء والتجار والحرفيين كثيرا ما ناصروا المماليك والعثمانيين وأيدوهم.

تساءل "سابك": كيف سقطت دولتهم إذن ؟

قلت: في العصر المملوكي انفردت "مصر" بسرة العالم تجاريا وتحكمت في طرق التجارة. كان عصرا ذهبيا من الناحية المادية والحضارية. فقد تجمعت لدى المماليك ثروات خرافية أنفقوها على الحركة المعمارية والفنية والأثرية. ثم انتهى هذا الدور فجأة عندما تم اكتشاف طريق "رأس الرجاء الصالح" في أواخر القرن الخامس عشر وتحولت إليه التجارة العالمية.

لاحظت أن البقية الذين بدوا غير مبالين في مستهل الدرس بدأوا يولونه اهتمامهم عندما تجلت لهم مقدرة المصريين الفذة على التحمل والصبر.

خاطبت "فادية" قائلا: هناك نقطة أحب أن أشير إليها. فمن حقك أن تقومي بتوصيف الغزو العثماني كماتشائين. لكن الحقائق التاريخية الثابتة لا يجب تجاهلها. فقد جرد السلطان "سليم" "مصر من صفوة الانتلجنسيا وحمل معه إلى "اسطنبول" ١٨٠٠ من رجال الدين والقضاة والصناع والتجار والبنائين والحرفيين مما تسبب في القضاء على خمسين حرفة وصناعة. كما قتل أكثر من مائة ألف شخص. ويجمع المؤرخون على أن الاحتلال العثماني الذي استمر ثلاثة قرون كان عصر ركود وتخلف تامين.

استأنفت "فادية" العرض فوصفت أحوال "القاهرة" في عهد "محمد على" وكيف تأثرت بمشاريعه وبدأت تخرج من أسر الحواري الضيقة المظلمة والقذرة. ووضع حفيده "اسماعيل" مشروعا شاملا لتطوير المدينة على غرار

النموذج الغربي. وكان يعتمد مفهوما مغايرا للتحديث عن ذلك الذي اتبعه جده ، يقوم على التبعية والمظهرية ، بدد به ثروات البلاد وأغرقها في الديون.

أعجبني تقويمها لعصر "اسماعيل" الذي اختلف بشأنه الباحثون، وإدراكها لدور الحرب الأهلية الامريكية- التي فتحت السوق العالمي أمام القطن المصري- في انتعاش طبقة وسطى أعلنت موقفها على لسان قائد الجيش "عرابي" أمام القصر الفخم الذي شيده "اسماعيل" على نسق قصر "باكنجهام" الإنجليزي.

قالت : لم تكن المواجهة متكافئة وتمخضت عن الاحتلال الإنجليزي الذي دام ثلاثة أرباع القرن (١٨٨٢-١٩٥٤) تدعم فيه الجزء الأوروبي من المدينة. وفي عام ١٩٥٢ احترق هذا الجزء مما عجل بثورة الجيش وإسقاط النظام الملكي وإنهاء الاحتلال.

توقفت لتلتقط أنفاسها ثم قالت: ولأول مرة منذ العهد الفرعوني تمتعت "مصر" بالاستقلال الكامل في ظل حاكم مصري من أبنائها.

انتقلت بعد ذلك إلى تطور "القاهرة" في العهد الجمهوري. قالت إن الثورة بادرت بوضع خطط متكاملة للتنمية الشاملة على النموذج الغربي تركز أغلبها - للأسف- في العاصمة. وأدى التوسع في التعليم ومشروعات التنمية الزراعية والصناعية إلى تحسن أوضاع طوائف واسعة من مستأجري الأراضي الزراعية وصغار الملاك والعمال الصناعيين والحرفيين فانتقلوا إليها. ولم ترحب "اسرائيل" بأن تصبح "مصر" قوة صناعية فشنت الحرب عليها في ١٩٦٧ واضطرت البلاد إلى تأجيل كثيرمن المشروعات السكنية والخدمية. وهجر أكثر من مليون ونصف مليون مصري مدنهم التي دمرها العدوان وتزاحموا في الوادي الضيق

الذي يشكل ٣ ٪ فقط من أرض مصر بينما يضم ٩٦ ٪ من سكانها. وكانت "القاهرة" هي وجهتهم المفضلة لأن كل شئ مركزبها : نصف الكم الصناعي الوطني جميعا وربع أطباء البلاد وأكثر من ثلث صيدلياته وقرابة الثلثين من مجموع وسائل النقل والمواصلات السلكية واللاسلكية والتليفزيون ودور السينما الراقية والمسارح.

وتسارعت هذه العملية في السبعينيات نتيجة الانفتاح والهجرة الداخلية والخارجية على السواء. وتمخضت هذه التطورات عن صعود نخبة من المضاربين والسماسرة ووكلاء الشركات الأجنبية قفزت على تضحيات البلاد واستغلتها لصالحها وتخلت عن أي خطط استراتيجية للتنمية في صالح المكاسب الآنية، فأوصلت "القاهرة" إلى مشهدها الحالي: مدينة صاخبة لا تهدأ بالنهار أوالليل يبيت بها قرابة ١٣ مليونا من القاطنين يصبحون بالنهار ١٦ مليونا، يشكلون قرابة ربع سكان البلاد، يتحركون مكتئبين وسط السيارات المتلاحمة والباصات المكدسة والزمامير الحادة، أسفل كباري علوية، بين أبراج سكنية ضخمة بألوان قبيحة تعلوها الديشات، تطل على مقابرسكنية تبرزمنها هوائيات التليفزيون، أوعلى ناس يطهون في الهواء الطلق وسط أكوام القمامة أو يقلبون بينها بحثا عن شئ يوازنون به دخولهم المتواضعة، وآخرين يخوضون في مخلفات متعفنة بينما يتحدثون في تليفونات محمولة. ويبدو المرورفي فوضى وشرطته في عجز كامل وهم يحاولون إيقاف السيارات بأيديهم بعد أن فشلت المصابيح الحمراء في ذلك.

ابتسمت وأنا أتصورها تعوم في شوارع "القاهرة" بعد "كاليفورنيا" ذات المرور المنضبط وحقوق المشاة المقدسة.

واصلت : ... ويتزايد سكانها بمعدل مائة ألف في الشهر، تفتك الأمراض والتلوث بأعداد كبيرة منهم. ويضطر أكثر من

مليون شخص للحياة داخل عشش كرتونية أوفي المقابربينما فيها وحدها مليونا شقة مغلقة. وتعيش الغالبية تحت خط الفقر بينما ترتفع نفقات المعيشة يوميا في خط مواز لخطوات تنفيذ طلبات صندوق النقد الدولي. وينخرط مليونا مصريا في أعمال هامشية :باعة جائلون، منادو سيارات، حمالون، عمال نظافة، ماسحو أحذية الخ. ويهرب الأطفال من المدارس إلى الشوارع. وتقدرالمصادرالرسمية المصرية عددهم ب٨٠٠.٠٠٠ بينما يضيف "اليونيسيف" مليونين آخرين.

توقفت وتناولت زجاجة المياه من حقيبة يدها فدفعتها إلى شفتيها ثم مسحتهما بمنديل ورقي. شرعت في تلخيص العرض الذي قدمته واختتمت بالنتيجة النهائية التي توصلت إليها. قالت إن جغرافية "القاهرة" وتاريخها يؤكدان أن التدين هو سمتها الأساسية، وأن التغريب أدى إلى فشل مشروعات التحديث.

لم أكن متفقا معها تماما في هذه النتيجة ولم يحل هذا دون إعجابي بالجهد الذي بذلته واستفادتها من الإرشادات التي قدمتها إليها.

قالت "شرلي": بوسعي أن أفهم ظاهرة الصحوة الدينية التي أشارت لها"فادية". فهي موجودة الآن بوضوح في المجتمع الأمريكي أيضا. لكن ما لا أفهمه أو أستسيغه هو الحجاب.

الموضوع المفضل لديهم جميعا.

أجابت "فادية" على الفور في حدة: هو أحد فروض الدين الإسلامي. نصت عليه آية في القرآن.

رفعت يدي معترضا وقلت: هذه قضية لم تحسم. فكثير من العلماء يؤكدون أن التعاليم الإسلامية الأساسية لاتنص عليه.وفي رأي أنه ظاهرة تاريخية لا دينية. بدليل

تغير النظرة اليه من فترة إلى أخرى . فالسلطان المملوكي "قايتباي" - وهو واحد من ألمع اسلاطين المماليك ولعله الوحيد الذي تولى السلطة مرغما وأراد أن يتخلى عنها طوعا أكثر من مرة - منع النساء من تغطية الرأس بالطرحة أو المنديل الحريري المحلي بالجواهر. وكان السلطان الذي اشتهر بالتقوى بالغ الحزم فأصدر أوامره بأن يضرب رجال المحتسب أي امرأة تخالف قراره. وسرى الخوف بين النساء فصرن يخرجن حاسرات الرؤوس وعند عودتهن إلى منازلهن يستمتعن بارتداء الغطاء المحرم !

وطالبتهم بقراءة مؤلفات المفكرة المغربية المعاصرة "فاطمة المرنيسي" وخاصة كتابها(×) الذي ذهبت فيه إلى أن الآية التي أشارت إلى الحجاب نزلت في ظرف خاص قويت فيه شوكة أعداء الإسلام وتشككوا في نجاحه وصدرت عنهم

(×) "الحريم السياسي"، الطبعة الثانية ١٩٩٣،ترجمه "عبد الهادي عباس" عن الفرنسية ونشرته دار "الحصاد". وانطلقت فرضية الكتاب من أن مجتمع الجزيرة العربية كان مجتمعا عبوديا ينقسم إلى أحرار وعبيد. وعندما ساوى الإسلام بين المرأة والرجل في الإرث رفض الرجال هذه القوانين الجديدة ثم حاولوا الضغط على الرسول لتعديلها وأخيرا لجأوا إلى تفسير النص كحيلة للتخلص منه. وتعرض الرسول إلى مواجهات حرجة كما حدث في معركة "حنين".

وتؤكد "المرنيسي" أن الرسول أصر على أن تكون علاقته بالمرأة متميزة فيها مشاركة وتبادل للرأي وحياة خاصة مفتوحة على الناس. كان رجلا حييا بالغ التهذيب يرفض العنف الجسدي ضد المرأة وقد فاجأ المحيطين به برقته مع نسائه لأن الكثيرين من الصحابة وعلى رأسهم "عمر" لم يترددوا في صفعهن. بل ورفض قتل الأسرى أو التمثيل بالمهزومين ورفض وجود رجال دين مشجعا المسلم على أن يتدبر لوحده فهم النص الذي يجب فك رموزه بالعقل. واستعمل أعداؤه هذه الميزة ليهاجموه وخاصة في السنوات الحرجة التي قارب فيها الستين من عمره وتدهورت فيها أحواله الصحية بسبب السن وبسبب تعرض المدينة للحصار من قبل المشركين.

تجاوزات في حق الرسول ونسائه. كان الهدف من الآية إذن هو حماية نساء الرسول وتلقت دعما من المتشددين الصارمين أمثال "عمر بن الخطاب" وغالبية الذكور الذين تعرضت مكانتهم القبلية والاقتصادية ثم الذكورية للتهديد.

التفت إلى "شرلي" وقلت: الحقيقة أن الرجل المعاصر هو الذي تحجب ! لقد اختار الانسحاب لنفسه ولأسرته من حياة معقدة مربكة، والارتداد إلى صورة عن ماضي أكثر بساطة وأيسر على الفهم فضلا عما يعد به هذا الارتداد أيضا من سلام وطمأنينة ينتظرانه في الجنة. الانسحاب هو بديل للجنون والانتحار والمخدرات. وبالنسبة للمرأة هو أكثر هذه الأشكال أمانا وقبولا من المجتمع. وهو على أية حال اختيار أقل دارمية من ذلك الذي تقدم عليه أختها المسيحية عندما تدخل الدير!

شعرت من العيون التي حدقت في أن هناك ضرورة للإيضاح فاستأنفت حديثي: لقد ورث الرجل المصري مركز السيد في المجتمع لكنه عجز عن ممارسته فما حققته المرأة من مكاسب في ميدان التعليم والحياة العامة هدد هذا المركز، بمثل ما هدده عجزه عن التكيف مع مجتمع في حالة تغيير مستمر، على كافة المستويات، لم يستقر بعد على "شفرة" مقبولة من الغالبية تضمن الحياة الآمنة.

أنظروا إلى ما تعرض له المصرى على مدى العقود الأربعة الأخيرة ... تحمل التضحيات في الكفاح من أجل الاستقلال إلى أن خرج آخر جندي إنجليزي من البلاد في ١٩٥٤، وتحمل تضحيات أخرى عندما عادوا بعد عامين، في صحبة الإسرائيليين والفرنسيين، وحتى خرجوا من جديد، ثم تحمل أعباء المشروع التحديثي الذي تبنته الطبقة المتوسطة بقيادة "جمال عبد الناصر"، مؤمنا بالفلسفة التي طرحتها هذه الطبقة حول التصنيع والعدالة الاجتماعية، سعيدا بما

توفر له من سكن رخيص وفرصة للعمل وتأمينات اجتماعية ورعاية صحية وتعليم مجاني لأولاده ، قانعا بالحصول على احتياجاته الأساسية من مؤسسات القطاع العام، متنازلا عن الكماليات، غير عابئ بالقيود التي فرضت على حريته في إبداء الرأي. وتحمل نصيبه من جديد في النتائج الفادحة للعدوان الذي قامت به "إسرائيل" عام ١٩٦٧، وفي حرب الاستنزاف التي تلته ثم حرب التحرير في ١٩٧٣ التي اعتبرها نهاية المطاف وإيذانا بأن تتحقق الآمال القديمة في مستقبل أفضل.

لكنه فوجئ بنفس الطبقة الحاكمة تقول له إن سياسة التصنيع والتخطيط والقطاع العام هي السبب فيما يعانيه من متاعب ، وأن فرصة التقدم الوحيدة أمامه تكمن في "الانفتاح الاقتصادي" و" الخصخصة"، وإتباع نصائح البنك الدولي. ومن جديد آمن بالفلسفة المعروضة عليه وانتعشت آماله عندما رأى السلع الأجنبية تغرق السوق رغم عجزه عن شرائها، وبدا مستعدا للتغاضي عن ارتفاع تكاليف المعيشة وفساد الجهاز الحكومي واتساع الهوة بين الطبقات وزيادة التبعية للخارج، في انتظار المستقبل الزاهرالموعود.

لكن الأعوام تمر لا تحمل معها سوى الوعد بمزيد من المعاناة....

فقدت الخيط فجأة فتوقفت. وعندما طال صمتي خاطبت "دوريس""فادية" متسائلة:

– ما لا أفهمه هو موقف سكان "القاهرة" من نظافتها. عندما زرتها منذ عامين راعتني قذارة الشوارع.

ظهر الارتباك على "فادية". وأنقذها المطر الذي بدأ يتساقط خفيفا. أعلنت نهاية الدرس ونهضت واقفا وانطلقت نحو المعهد برفقة "فادية" و"فرنون".

بسطت "فادية" مظلتها لتحتوينا فتناولتها منها

ورفعتها فوق رأسينا. سألتها عن ابنتها فقالت إنها تسأل عني دائما وتريد دعوتي إلى المنزل.

افترقنا في مدخل المبنى واتجهت إلى مكتب "ماهر". لم أجده فصعدت إلى مكتبي. التقيت مسز "كلين" في صحبةالأستاذ الإيراني. ولمحتني "جيني" فظهرت في عينيها نظرة متفكهة. تجاهلتها وولجت كهف البريد بعد أن وجهت التحية ل"فيفيان". وجدت الأستاذ الروسي أمام صندوقه المجاور لصندوقي. انتحى جانبابسرعة وهو يعتذربصورة مبالغة وكأنه يعتذر عن بقائه على قيد الحياة. ولم يكن في صندوقي سوى مظروف تنبعث منه رائحة غريبة. واستخرجت منه جريدة مطوية معطرة برائحة البخور.

بسطت الجريدة فطالعني اسمها: "النداءالأخير" الصادرة عن حركة المحترم"لويس فاراخان"، المسماة ب"أمة الإسلام". قلبت صفحاتها القليلة بسرعة وتوقفت عند إعلان عن "مزارع محمد" التي تهدف إلى تشجيع الشعب الأسود في"أمريكا" على الاستقلال بإنتاج طعامه وملبسه ومأواه. وذكرت سطورالإعلان أن المحترم "لويس فاراخان" قد التقط عباءة المحترم "ايليا محمد" وأن منظمة "أمة الاسلام" اشترت عام ١٩٩٤ مساحة ١٦٠٠ أكرا من الأراضي الزراعية في ولاية "جورجيا" كان يملكها في السابق المحترم "ايليا محمد". وأن هذه الأرض ستعطي هذا العام بطيخا وكنتالوبا وذرة حلوة وجزرا وكرنبا زرعت كلها دون استخدام الكيماويات.

وكان هناك إعلان عن كتاب "رحلة حياتي في السفرمع الرجل الحكيم المحترم "ايليا محمد"، للأم "تاينيتا محمد". ثم شرح لآيات من القرآن جاء فيه أن الله قد حل في شهر"يوليو" من عام ١٩٣٠ في شخص سيدنا "فرد محمد"،

الذي يستحق الثناء إلى الأبد، وهو المسيح الذي انتظره طويلا المسيحيون و"المهدي" الذي انتظره طويلا المسلمون.

طويت المجلة مبتسما لأقرأها على مهل وأتعرف على الإسلام الأمريكاني. ثم عدت فبسطتها ودققت النظر في صدر صفحتها الأولى. كانت هناك إشارة إلى أنها تصدر في "نيويورك". ولم أكن قد لمحت أثرا لها بين الصحف الموزعة في "سان فرنسيسكو". قلبت المظروف الذي احتواهافلم أجد عليه طوابع بريد أوأية بيانات عن الراسل ممايوحي أنه وضع باليد.

هل وزع على كل الصناديق أم استهدفني شخصيابالتحديد؟

لن تتذكر "فيفيان" شيئا بالطبع. أجلت البصر حولي في الصناديق. لم يكن ثمة أثر لمظروف مشابه في صناديق المساعدين المفتوحة. أما تلك الخاصة بالأساتذة فكلها مغلقة.

انحنيت على الصندوق الذي يعلو صندوقي وشممت رائحته. وانتقلت إلى الصندوق الذي يعلوه ثم بقية الصناديق المغلقة وأنا أتلفت نحو المدخل خوفا من أن يراني أحد في هذا الوضع المضحك.

شممت تقريبا أغلب الصناديق دون أن ألتقط رائحة البخور المميزة.

"فرنون عبد الرحمن" ؟

أم "فيفيان" ؟

وما أهمية الأمر؟

ماذا جرى لي؟

طويت الجريدة من جديد وغادرت الكهف.

١٩ * *

اشتد المطر وهبت رياح عنيفة أوشكت أن تحطم مظلتي. ولم يفت هذا في عضد آلاف المشردين بلا مأوى الذين تدفقوا على وسط المدينة وهم يرفعون لافتات تطالب في خط ركيك بوظائف وسكن.

كنت قد رأيت أعدادا كبيرة منهم في الأيام السابقة التي اشتد فيها البرد فجأة، معلنا بداية موسم الأمطار القاسي الذي يستمر ثلاثة شهور. صادفتهم منكمشين في مداخل البيوت قرب أفخم الفنادق بحي "نوب هيل" ونائمين فوق الأرائك قرب الحوانيت الكبيرة في ساحة "يونيون سكوير" ومتجمعين بالمئات بجوار المركز المدني وفي نواصي حي "هيت -أشبري" وعلى أبواب مراكز الإيواء التي لا توجد بها أماكن كافية وأمام كنيسة "سيدة الالام" في انتظار وجبة مجانية. لكنني لم أتصور أنهم بالعدد الذي قدرته صحيفة "الكرونيكل" وهو ١٦ ألف شخص، أي قرابة اثنين في المائة من سكان المدينة.

اتجهت يسارا في شارع "ديلمار" ثم يمينا في "بيدمونت" ويمينا مرة أخرى في "أشبري". وسرعان ما بلغت التقاطع الشهير بين "هيت" و"أشبري".

تحولت قطرات المطر إلى صخور صغيرة فاحتميت بالجدار أسفل ملصق لسلسلة مطاعم جديدة للوجبات السريعة تصور طفلا سمينا يقضم في نهم وفرح ساندوتشا هائل الحجم. وجاءت وقفتي إلى جوار شاب هزيل أقعى خلف كوب لجمع الفكة ثبتت فيه بمشبك غسيل لافتة من الكرتون تعلن أنه مصاب بالايدز ولا أحد يريد علاجه.

نفضت مظلتي عدة مرات ثم أغلقتها واستندت إلى الجدار. استسلمت لمقارنات شوارعية غير مجدية. ف"سان فرنسيسكو" تضم أماكن أكثر نظافة وأناقة من هذه الناصية، ومع ذلك فسطح الرصيف مستو وذو نسق موحد، والسيارات لها مواقف معلومة ومحددة.

انتزعتني من خواطري فتاتان مرتا أمامي في نشاط دون أن تعبئا بالمطر. ذكرتاني على الفور بالمرأة المصرية في الستينيات أو السبعينيات، سافرة الوجه عارية الرأس، مزهوة برشاقتها وأنوثتها.

أما الآن فهي تمشي متعثرة مضطربة الخطى، غالبا ما تستند بيدها أو جسدها كله إلى أقرب جدار، تئن من الحرارة الخانقة تحت وطأة الملابس السابغة التي تغطي أجساما نفخها طعام غير صحي وحياة بلارياضة تحفل بصنوف العلل، ينقضي جزء كبير منها في مقعد أمام التليفزيون أومتمترسة في سيارة يقودها زوج مكتئب أو منكمشة في ميكروباس يحملها من عمل ممل طول اليوم إلى مسكن في حي عشوائي، وقد اكتسب وجهها الأسمر المنتوف الشعر جيدا أسفل الحجاب شراسة ينطلق عنانها في معارك الصراعات الصغيرة.

مرت من أمامي مجموعة من المتظاهرين يتقدمهم شاب عريض القامة حلق رأسه على طريقة الهنود الحمر. كان يرتدي سترة جلدية ثبتت بها رقعة على شكل النجمة، وبنطلونا واسعا على طراز "الباراشوت" ينتهي ببوت أسود اللون. وزينت علامة السوبرمان الساق اليمنى لبنطلونه، وعبارة "طظ في الدنيا" الساق اليسرى. وحمل فوق رأسه لافتة بهذه العبارة: " أوقفوا القتل".

سمعت نداء باسمي وتبينت مسز "شادويك "في سيارتها المتداعية. أشارت لي أن أنضم إليها فبسطت مظلتي وعبرت الشارع جريا. فتحت لي الباب فنفضت المظلة عدة مرات وارتميت إلى جوارها وأنا أتنهد في ارتياح.

سألتني : إلي أين ؟

قلت وأنا أثبت حزام الأمان : لامكان. كنت أتتبع المظاهرة.

قالت : اذن ابق معي. ثم أوصلك.

قادت السيارة حتى التقاطع التالي ثم مضت في شارع جانبي ودارت يمينا في أول تقاطع ثم يمينا مرة أخرى. وأصبحنا من جديد في شارع "أشبري".

قلت : تبحثين عن شئ ؟

قالت : عن مكان للانتظار .

قلت : هناك لافتة في المظاهرة تطالب بوقف القتل. ماذا يقصدون؟

قالت وهي تدلف إلى شارع آخر:

- ألم تقرأ في الصحف عن السفاح الذي يتعقب المشردين ويذبحهم من أعناقهم أثناء نومهم في مداخل البيوت؟

قلت : أنا لا أقرأ أخبار الجرائم عادة.

- هناك شائعة بأن البلدية استأجرت هذا السفاح ! لأن العمدة وعد بتخليص المدينة منهم.

لاحظت أنها تتجاهل أماكن خالية للانتظار وتواصل الدوران في نفس الدائرة. وأخيرا لمحت مكانا قرب الناصية فانسابت إليه.

أغلقت الموتور وأسندت رأسها إلى ظهر المقعد وهي تتأمل المتظاهرين. كانت في هيئتها المألوفة التي تشي بالإهمال وقد غطت جوبتها الطويلة بمعطف من الجلد امتلأ سطحه بالخدوش.

استطردت : يوم الجمعة الماضي بدأت سلطات المدينة تطوق جموعهم وتنقلهم بعيدا عن وسط المدينة والمناطق السياحية. مثلما فعلت مدينة "أطلنطا" أثناء الدورة

الأولومبية. أو تلقى القبض على أعداد منهم وتحتجزهم عدة أيام ثم تفرج عنهم بكفالة مقدارها ثلاثين دولارا وغرامة مقدارها ثلاثين أخرى. المضحك أن المحتجز يكلف المدينة في اليوم ما يزيد بنسبة الربع عما تتكلفه لو وفرت له مأوى ومأكل.

قلت: لكن ماذا يدفع بهم إلى الشارع؟

أزاحت خصلة من شعرها الرمادي بعيدا عن عينها وقالت: حسب الدراسات ثلثهم مرضى عقليون والثلث الثاني مدمنو مخدرات، والثلث الأخير فقد أفراده وظائفهم أو عجزوا عن مجاراة ارتفاع الأجور.

الثلث مرة أخرى!

انحنت فجأة وأشارت بإصبعها إلى مجموعة من المتظاهرين:

- هل تري هذا الكهل؟

تتبعت إصبعها دون أن أميز الشخص الذي تقصده.

قالت: الذي غطى رأسه بالمخروط البلاستيكي.

كان هناك العديد منهم لكني لم ألبث أن تبينت الشخص الذي تقصده. كان قصير القامة متين البناء يمشي بخطوات شبه عسكرية دون أن يتطلع يمنة أو يسرة.

قالت: كان حارسا لدينا وفقد عمله عند تخفيض الميزانية. تشاجر مع المديرواعتدى عليه بالضرب فقضى بضعة شهور في السجن. وعندما خرج لم يجد مكانا غير الشارع. ثم اشترك مع آخرين في احتلال مخزن قديم إلى أن قام أحد الأفاقين بتقسيم المكان إلى غرف تفصل بينها حوائط من الخشب مدعيا أنه يملك المبنى. وأجر الغرفة الواحدة بمائة دولار في الشهر. ثم جاءت شركة واشترت المكان واستصدرت حكما بإخلائه من المقيمين. وقام البوليس بطردهم. فعاد إلى الشارع.

تساءلت في دهشة: أليس له أية حقوق؟ كيف أمكن طرده في البداية؟ ماذا فعلت النقابة؟

-لم يكن عضوا فيها. بص. هناك أساليب معقدة تضع الموظفين والعمال أمام الأمر الواقع. مثلا تقسيم المؤسسة الواحدة إلى أقسام إدارية وإنتاجية. أو تكليف مؤسسات صغيرة ببعض أعمالها. وهنا يجري تشغيل العمال والموظفين السابقين بأجور أقل وبدون تأمين صحي. عدد ضخم الآن منهم يعمل بنظام اليومية. وتحت الضغط المتواصل والخوف من فقدان الوظيفة ينسحب كثير من العمال من النقابات. في كل "أمريكا" الآن لا يزيد عدد العمال النقابيين عن عشرة بالمائة من عددهم الإجمالي.

لا بد أن علامات الدهشة ظهت على وجهي لأنها قالت: أنت من الناس الذين يتصورون الجنة هنا. هل تعرف ماذايؤرقني طول الوقت؟ أن أستيقظ ذات صباح لأجد نفسي عجوزا في أسمال، غير قادرة على شراء قطعة لحم، يساعدني شاب رقيق على صعود الترام، وأتوسل لبائع الخضراوات القريب من منزلي أن يصبر على حتى يأتي شيك الضمان الإجتماعي الهزيل.

لم أعلق بشئ وواصلت هي: هل تحب أن تسمع بعض الأرقام: بين ١٣٧ مليون يمثلون القوى العاملة الأمريكية هناك ٣٨ مليون يعملون بعض الوقت و٣٥ مليون يعملون وقتا كاملا بأجور تكفي بالكاد لإعاشتهم ثم ٨ مليون عاطل و٧ مليون أجبروا على قبول التقاعد المبكر فانخفضت أجورهم إلى الربع و٥ مليون داخل السجون. رأيت؟ هل تعرف أن النسبة بين أدنى أجر وأعلاه داخل الموسسة الواحدة هو واحد إلى مائة وعشرين؟

أخذت كثافة المظاهرة في التناقص بعد أن ابتعد قلبها

الرئيسي. ولفت نظري في الصفوف الأخيرة رجل تام الأناقة في معطف ثقيل أسود من الصوف. أشرت إليه قائلا:

– "مروان".

لم يبد عليها أنها عرفته فأضفت: أستاذ أدب فلسطيني. متزوج من أمريكية. التقيته عند "ماهر".

لم تهتم وواصلت:

– الأجانب لا يعرفون أن نصف الأمريكيين ينفقون سبعين في المائة من دخولهم على السكن الذي يمكن أن يضيع منهم بسهولة إذا تخلفوا عن دفع الإيجار أو قسط الملكية. عندئذ يتنقلون بين أصدقائهم وأقاربهم ويتركون طفلا هنا وآخر هناك. وبعد إقامة قصيرة في أحد الملاجئ ينتهي بهم الأمرفي الشارع.

سكتت لحظة وفتحت درج التابلوه المغطى بجلد حائل اللون، وتناولت علبة علكة قدمت لي قطعة منهاثم قالت:

– سأقول لك شيئا مرعبا. في كل نصف ساعة يتسرب ٥٠ صبيا من المدارس في "الولايات المتحدة". وفي نهاية كل عام يبلغ عددهم مليونا. كل هؤلاء يذهبون إلى الشارع.

– كيف يعيشون؟

– حياة الصراصير والفئران. الأرصفة، قنوات الصرف، حاويات القمامة، محطات الباص وواجهات الحوانيت ومداخل البنايات. يتبولون ويتبرزون إلى جوار السيارات المركونة. البعض يعيش على جمع الفوارغ وغيرذلك من محتويات القمامة. وإذا أسعدهم الحظ نالوا بعض الحساء في بدرومات الكنائس، وتمتعوا بحمام ساخن في أحد الملاجئ.

تلاشى ذيل المظاهرة واستأنف الشارع حركته العادية. لاحظت أن اهتمامها موجه إلى جماعة من الشبان احتموا من المطربواجهة مطعم للبيتزا: فتاة بيضاء بشعر أشقر ملبد بلله المطر وبنطلون جينزممزق وبوت عسكري وسترة جلدية

تبدو منها بلوزة بوشم صيني، رجل أصلع أربعيني أو خمسيني يرقد كلب ضخم تحت قدميه، شاب ثلاثيني صفف شعر رأسه على هيئة رماح وارتدى سويترا كبير الحجم غطى يديه ورقبته، فتاة صغيرة لا تتجاوز العاشرة بجوار لعبة على شكل أرنب كبير وضعته في حامل أطفال جرار.

استأنفت "شادويك" الكلام بصوت هادئ متأمل: أغلب هؤلاء الشبان يعانون من حياة عائلية مفككة. الأب والأم يتشاجران طول الوقت أو مشغولان بنفسيهما. لا تشعرالطفلة أنها في بيت. تأخذ شرائطها الموسيقية وتغادر المنزل. تترك المدرسة وتبدأ حياة الشارع. في الرابعة عشرة يقبض عليها بتهمة السرقة من حانوت، وبعدها بثلاثة شهور بسبب السكرفي الطريق. في الخامسة عشرة يقبض عليها مرة ثالثة بتهمة حيازة "ماريجوانا" وبعدها بسبعة شهورتبدأ في استخدام المخدرات الثقيلة. "الكراك" رخيص ويحدث ادمانا في الحال. يلتقطها قواد. في السادسة عشرة يقبض عليها بتهمة الدعارة. ثم بتهمة سرقة ترانزستور. ثم تلد طفلا في الثامنة عشرة ويقبض عليها بعد شهرين بسبب الدعارة. خلال ذلك تكون فقدت القدرة على القراءة. يجد لها أصحاب القلوب الطيبة عملا في تفريغ السلع بمتجر كبير. عشرون ساعة في الأسبوع مقابل أربع دولارات ونصف في الساعة. بعد فترة لا تحتمل وتعود إلى الشارع.

تابعت شجارا نشب بين أفراد المجموعة وصاحب مطعم البيتزا. وانتهى الشجار بأن حملت الفتاة الشقراء بطانية وكيس نوم متآكل الأطراف وثبتت على ظهرها حقيبة مدرسية ثم انتقلت مع رفاقها إلى الرصيف المقابل.

قالت "شادويك" بصوت منخفض كأنما تخشي أن تسمعها الفتاة: هل تري الأساور التي تغطي رسغيها؟ الهدف منها إخفاء آثار المحاقن. يداها قذرتان وأظافرها سوداء مثل الفحم.

جلدها دائما ملتهب. وهناك آلام مستمرة في رسغيها وكعبيها وقدميها نتيجة النوم فوق الأسفلت.

وضعت الفتاة حقيبتها إلى جوار الجدار واستندت إليه ثم مدت يدها إلى المارة.

امنحني الفكة.

غمغمت "شادويك" : أيام العطلات والأعياد موحشة. المدينةكلها تحتفل. المساكن مضاءة بالدفء والطعام والأسرة. وهي في الشارع.

تعجبت : لماذا لا تذهب إلى أهلها؟

– أحيانا تفعل. عندما تضجر وتحن إلى البراد وورق التواليت. ثم تغادربعد قليل. لم تعد تحتمل الجدران. أو غسل الصحون. تبكي في حضن أمها. تريد الخلاص. لكن كيف؟ أصبحت مدمنة للشارع.

أشارت إلى الشاب ذي الرماح : كم تقدر عمره؟

بدا لي في حوالي الثلاثين.

قالت :لم يتجاوز العشرين. وأسفل هذا السويترآثار غزات المحاقن في يديه وعنقه. يحقن نفسه بمزيج قذر من الكوكايين والهيروويين والماء أربع مرات يوميا. الجرعة ثمنها ١٥ دولارا. ولهذا يبيع الماريجوانا.

– هل هو صديقها ؟

– تقصد هل ينام معها؟ إنه لا يهتم بالجنس ولا يستطيعه.

– لكن كيف عرفت كل ذلك ؟

قالت وهي تدير مفتاح الموتور وتدقق النظر في المرآة الجانبية :

– انها ابنتي.

٢٠ * *

التصقت عيناي بشفتي "شرلي" لكنني لم أستوعب ما قالته لأني كنت عاجزا عن التركيز. وظلت كلمات الرسالة التي طالعتني في الصباح ببريدي الإلكتروني تتردد في رأسي.

كانت هناك في الواقع رسالتان : الأولى من "لاري" حوت مقتطفات من التقرير السنوي الذي يصدره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة(×). الرسالة الثانية استهلت بكلمة غريبة هي "كلبي" Kalby وتلتهاعبارة موجزة نصها:"عندما تنظر إلى تنتصب حلمتا ثديي على الفور".

عبارة مثيرة أرسلت الدماء في عروقي. واقترن ذلك بشعور عارم بالارتياح إذ خيل إلى أنها حسمت الأمر بالنسبة لهوية الراسل ، إذا افترضنا أنه ومرسل الزهور شخص واحد. أليس انتصاب الحلمات عرضا أنثويا؟ ولم ألبث أن شعرت بانقباض عندما تذكرت أن بعض النساء لا يتأثرن بمداعبة الحلمات ، وأن بعض الرجال حساسون للمسها ومداعبتها.

انتبهت إلى أن "شرلي" تخاطبني :

(×) جاء بها أن "الولايات المتحدة" لديهاأكثر من ٦٠٠ خط تليفون لكل ١٠٠٠ فرد بينما "أفغانستان" لديها خط واحد لكل ١٠٠٠ فرد. وتنفق "الولايات المتحدة" على مواد التجميل ٨ مليارات دولارسنويا بينما تحتاج الدول النامية إلى ٦ مليارات سنويا لتوفير التعليم العام، وإلى ٩ مليارات سنويا للحصول على مياه الشرب النقية والصرف الصحي. وتحتاج الصحة الوقائية والتغذية في العالم النامي إلى ١٣ مليار دولار بينما تنفق "أوروبا" ١١ مليار دولار على الأيس كريم وتتغذي القطط والحيوانات الأليفة ب١٧ مليار دولار سنويا.

– لعلك يا أستاذ لم تلاحظ أن علم "سان فرنسيسكو" وخاتمها يصوران طائر العنقاء الخرافي المصري منبثقا من النار.

هززت رأسي مؤكدا أني لم أفعل(×).

كنت قد طورت فكوة "فادية " عن المقارنة بين تاريخ "القاهرة " و"سان فرنسيسكو" إلى عرض مستقل عن كل مدينة.

اتسعت ابتسامتها وهي تضيف : وفقا للأسطورة المصرية فان هذا الطائر الخرافي يعمر خمسة قرون أو ستة ثم يحرق نفسه في نهايتها. لكنه لا يلبث أن ينبعث من رماده وهو أتم ما يكون شبابا وجمالا. وهو الأمر الذي تكرر عدة مرات في تاريخ كل من "القاهرة" و"سان فرنسيسكو".

كانت ترتدي بمناسبة محاضرتها رداءا من قطعتين وحذاء بكعب بدلا من الحذاء المطاطي، ووضعت طبقة واضحة من اللون الأحمر فوق شفتيها، أبرز امتلاءهما. وفيما يبدو صففت شعرها خصيصا وأسدلت خصلة منه فوق جبينها العريض.

قالت إن "سان فرنسيسكو" تعرضت لكوارث عديدة منذ إنشائها في سنة ١٧٧٦، قبل قرنين فقط. لكنها كانت تنهض من الرماد بعد كل كارثة وقد تجددت، تماما مثل طائر العنقاء.

(×) لم يكن الاستخدام الأمريكي للأسطورة المصرية بأمر جديد. فقد شاهدت قبل سنتين في قناة "هيستوري"الفضائية فيلما وثائقيا عن حرب "فيتنام" بعنوان "قيام العنقاء": وتناول الفيلم عملية لاصطياد كوادر "الفيتكونج" أشرفت عليها وكالة المخابرات الأمريكية "سي أي إيه" في أواخر ١٩٦٧ وأطلقت عليها إسم الطائر المصري، وبلغ عدد ضحاياها حتي عام ١٩٧١حسب تقديرات لجان الكونجرس أربعين ألفا. وقد وصفت مجلة "كاونتر سباي "في عدد ربيع /صيف ١٩٧٥ هذه العملية بأنها " أكبر برنامج للقتل الجماعي المنظم شهده العالم منذ معسكرات الموت النازية".

جاهدت لأتابع "شرلي"وهي تستعرض الكوارث التي تعرضت لها "سان فرنسيسكو" في حياتها القصيرة. فإلى جانب الزلازل، التي وقع أحدثها منذ عشر سنوات فقط، احترقت المدينة عدة مرات. فقد كانت أغلب منازلها عشية القرن التاسع عشرمن الخشب والقماش وتضاء بمصابيح الزيت.

نفس حرف"إكس" المكررثلاث مرات في رأس الرسالة. من الممكن نظريا تتبع مصدر الرسالة لكن هذا يتطلب خبيرا من طرازرفيع. مثل "ميجان"؟

حانت مني نظرة إليها فوجدتها تتابع "شرلي"بتركيز وهي تقشر موزة هائلة الحجم. ولاحظت أن "لاري" يسجل ملاحظات سريعة فوق بطاقات صغيرة نشرها أمامه. فوجهت اهتمامي إلى حديث الكوارث.

– ... هناك ايضا الأزمات الاقتصادية التي بلغت حد الانهيار عدة مرات. وهوالأمر الذي يفسر الحالة النفسية لسكانها فهم يعيشون في انتظار "الحدث الكبير" أي الزلزال الذي يتجاوز مقياسه ٥ر٧ "ريختر".

مضت تستعرض تاريخ المدينة منذ إنشائها على يد مجموعة من المستوطنين الأسبان المسلحين حتي انهارت الإمبراطورية الأسبانية وأعلنت "المكسيك "استقلالها في ١٨٢١ فأصبحت "سان فرنسيسكو" جزءا منها.

لكن الحكم المكسيكي لم يستمر أكثر من ربع قرن إذ ظهرت "الولايات المتحدة" على المسرح. توافد أبناؤها أولا في صورة تجار ثم تحولوا إلى مستوطنين. وهنا عرضت "واشنطون"على "المكسيك" شراء "سان فرنسيسكو" بثلاثة ملايين ونصف مليون دولار. وعندما رفضت شنت عليها الحرب في ١٨٤٦ وضمت المستوطنة مع "تكساس".

ولم تمض سنة إلا واكتشف الذهب في " كاليفورنيا"

فضمتها "الولايات المتحدة" إليها. وتدفق عليها الباحثون عن الثراء من كافة أنحاء المعمورة وتحول سكانهابسرعة إلى خليط من الشعوب واللغات والثقافات.

ثم تكررت المعجزة بعد عشر سنوات باكتشاف أكبر منجم للفضة في التاريخ بنفس المنطقة. وتأهلت "كاليفورنيا" للثورة الصناعية.

لو استعنت بميجان أو أبلغت الادارة سأصبح أضحوكةالجميع. وماذا عن المباحث الأمريكية، إف بي أي؟ هذه لديها من الوسائل ما يمكنها من الوصول إلى شخص المرسل مهما تخفى وراء مواقع وعناوين مزيفة. وبعد ذلك؟ لا أنكر أني صرت أستمتع بلعبة الرسائل المجهولة وأتوقعها كل صباح في صناديق بريدي الثلاثة: بالمنزل والمعهد والكمبيوتر!

شرحت "شرلي" كيف وجدت الثورة الصناعية التي عرفتها "انجلترا" في القرن الثامن عشر أرضا خصبة في "الولايات الأمريكية" الشمالية حيث الأراضي الغنية بالأخشاب والمواد الخام. وحيث الطموح الفردي والتنافس والصراع. وحيث الملكيات الصغيرة التي شجعت الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس فصار لكل مزرعة ورشتها وأدواتها ومبتكراتها.

استورد الأمريكيون المحركات البخارية من "انجلترا" ثم أدخلوا عليها الضغط العالي. وقادت كل تكنولوجيا جديدة إلى غيرها : ساعات الحائط والبنادق إلى ساعات اليد وآلات الحياكة وهلمجرا. وأصبحت الزراعة صناعة. وأدى كل هذا إلى اجتثاث السكان الأصليين عدة مرات لافساح الطريق أمام القادمين الجدد المتعطشين إلى الأراضي.

ولأول مرة في التاريخ صار بوسع الناس العاديين امتلاك السلع الصعبة المنال : ساعات، دراجات، تليفونات، راديوهات، أجهزة منزلية ، سيارات. وتيسركل ذلك بابتكارات في التسويق: الشراء بالتقسيط، الأوكازيونات،

حق إعادة السلعة واستبدالها. وأدى الاستهلاك الكبير إلى تشجيع الإنتاج الكبير والعكس صحيح. وأصبحت "الولايات المتحدة" مهد الديموقراطية والمشروع. فماسح الأحذية يمكنه أن يصير مليونيرا.ولم يكد عام ١٨٧٠ يحل حتى صارت صاحبة أكبر اقتصاد في العالم.

و"كلبي" ...

ليس لها وجود في القاموس . أهي عربيةبحروف لاتينية ؟ كلب من أكون؟ إهانة أم تدليل؟ ألا يعز الأمريكيون كلابهم وقططهم وينفقون عليها مايكفي نصفه لتأمين مياه الشرب لسكان العالم؟ هل يعرف الشخص اللغة العربية ؟

حانت مني نظرة سريعة إلى "فادية" وعندما شعرت بنظرتي حولتها إلى "دوريس" التي كانت شاردة كعادتها. استقرت نظرتي على يديها المبسوطتين فوق سطح المائدة. كانت أناملهما ملونة بلون قرمزي يجذب الانتباه إلى الامتلاء المدور أسفلهما.

وجهت اهتمامي إلى "شرلي" التي كانت تتحدث عن ازدهار "سان فرنسيسكو" في ظل النظام الأمريكي. وكيف صارت الآن من أحدث المدن وأكثرها تقدما تكنولوجيا رغم أن عدد سكانها لا يتجاوز ٨٥٠٠٠٠ نسمة. حقا إنها لا تستطيع أن تفخر بآثار الماضي مثل "القاهرة". لكن لديها آثار من نوع آخر، ذي فائدة عملية. ففيهايقع مقر شركة "ليفي شتراوس" الذي اخترع بنطلونات "الجينز" الأزرق من قماش الخيم أثناء حمى البحث عن الذهب. وبها أيضا حي "كاسترو"، الذي يتركز فيه المثليون.

أغلقت "شيرلي" كراستها وهي تختم قائلة : إن "الجينز" و"الكاسترو" يعبران عن المدينة: الاختراع، الطموح الفردي، الحلم بالفرصة الثانية الذي جذب المهاجرين من كل مكان وفرض عليهم التعايش، ثم الحرية. بوسعنا أن نعتبر

هذه السمات مدخلا مناسبا لقراءة المدينة مثلما كان التدين- حسب "فادية"- هو المدخل بالنسبة ل" القاهرة".

لحظت أن وجه "لاري" احمر عند ذكر ال"كاسترو" وأرجعت هذا إلى انفعاله وهو يستعد للنقاش.

جذب إحدى البطاقات التي سودها قائلا: العدد الأكبر من الحرائق التي عرفتها المدينة في مستهل تاريخها له قصة يمكنها أن تلقي الضوء على ماضيها وحاضرها.

استعرض ظروف نشأة المدينة وكيف اعتمد النشاط التجاري بها على البضاعة القادمة من الساحل الشرقي. وكانت هذه البضاعة تأتي بشكل اعتباطي. فلم تكن لدى تجار الساحل الشرقي فكرة عن نوع الطلب الذي ينتظرها. و لو علموا به فان الزمن الذي يستغرقه النقل في البحر حول القارتين الأمريكيتين - الوسيلة الوحيدة وقتها-قد يجعلها بلا فائدة.

لهذا اختار تجار "سان فرنسيسكو" أن يكونوا وكلاء للشاحنين الشرقيين مقابل عمولة على الأرباح. فإذا بيعت البضاعة بسعر أعلى من التكلفة حقق الجانبان مكسبا. أما إذا فقدت البضاعة في الطريق أو بيعت بأقل من تكلفتها تحمل الشاحن الشرقي الخسارة وحده ولم يتعرض التاجر المحلي إلى أذى.

وضع البطاقة جانبا وتناول غيرها وقال : ولم يلبث تجار المدينة أن اكتشفوا طريقة يحققون بها مكاسب هائلة.

توقف لحظة وهو يدير بصره بيننا ثم استطرد: فإذا قام حريق ضخم في مخازن سلع معينة ارتفعت أسعارها. حتي أضأل السلع ثمنا يمكن إكسابها قيمة الندرة بتنظيم حريق مناسب. ويصيح التجار مطالبين بشنق "المجرمين" بينما هم الذين دبروا الحريق.

عرض بالتفصيل بعد ذلك كيف جمع أربعة بقالون في "كاليفورنيا"- عرفوا ب"الأربعة الكبار"، هم "ستانفورد"

و"هوبكنز" و"كروكر" و"هنتنجتون" ثروات هائلة من الحرائق الملائمة. ثم كونوا شركة لمد خط حديدي إلى الساحل الشرقي لم يتكلف سوي ٥٨مليون دولارا بينما حصلوا له من الحكومة على ١٢٠مليون دولارا.

قاطعته "شرلي" بانفعال قائلة : هذا الخط هو الذي جعل الانتقال بين الساحلين الشرقي والغربي يتم في سبعة أيام بعد أن كان يستغرق من أربعة شهور إلى ستة. والفضل في ذلك يعود إلى ما تميز به هؤلاء الأربعة من خيال واستعداد للمخاطرة.

لم يتأثر "لاري" بانفعال "شرلي" ورد بهدوء: هذا صحيح. وقد جنوا الثمار بسخاء. فبالزيادة المسروقة من الخزانة الفيدرالية شيد الأربعة إمبراطورية تجارية ومالية قامت على الاحتكار. بدأوابشراء الخطوط الحديدية الصغيرة التي كانت تربط خليج "سان فرنسيسكو" بالأقاليم المجاورة كما اشتروا أغلب العابرات والقوارب والسفن العاملة في الخليج. وفي النهاية أحكموا قبضتهم على وسائل النقل وأسعار الشحن. وبرشوة المشرعين والساسة حصلوا مجانا على أراض غنية بالأخشاب والتربة الخصبة. ومكنتهم الأجهزة التنفيذية من طرد المزارعين من أراضيهم وتوجت عمليات الطرد بمذبحة "ماسل سلوج" في سنة ١٨٨٠ التي هيأت لهم إقامة إمبراطوريات عقارية.

توقف وأخذ يبحث بين البطاقات حتى استخرج واحدة وقال: هناك أيضا قدر كبير من المبالغة في الحديث عن "سان فرنسيسكو" كمدينة التسامح والتعايش. فقد قامت المدينة عمليا فوق جثث الهنود الحمر. وتعرض المهاجرون الشيليون الأوائل للاضطهاد من جانب المستوطنين البيض. وعندما اكتمل بناء خط حديد الشرق وقعت أزمة اقتصادية حادة فألقى هؤلاء باللوم على المهاجرين الصينيين الذين عملوا في

بنائه. وجرى اضطهادهم وملاحقتهم ووشمهم بالحديد المحمي أو قطع ألسنتهم وآذانهم وحرق محلاتهم. وتكرر الأمر بعد ذلك خلال الحرب العالمية الثانية مع اليابانيين ثم مع السود الذين حلوا محلهم. حتي منتصف الستينيات كانت بعض المطاعم تعلق على أبوابها لافتة" ممنوع دخول الزنوج والكلاب".

ظهرت ابتسامة غامضة على شفتي "فرنون".

قالت "شرلي" وهي تتحسس القلم بيدها من أسفل إلى أعلى: هذا كله أصبح من أمور الماضي.

أجابها لاري: الحاضر ابن الماضي. وأب المستقبل. ولهذا ندرس التاريخ. ما رأيك في الأب"سيرا"؟

قطبت حاجبيها وقالت: ماله؟

- هو كما تعرفين الذي أمربنباء "ميشان دولوريس "على ناصيتي "ميشان" والشارع السادس عشر في ١٧٩١. وتعرفين أيضا أن له تمثالا بقاعة المشاهيرفي "واشنطون". وأن الكنيسة أعلنته من الأبرار الخالدين منذ عشر سنوات. وسيكون غالبا أول قديس كاثوليكي في الولاية نتيجة ذلك. وربما تعرفين أيضا أنه كان يتلذذ بتعذيب الهنود الحمر وشنقهم بالجملة وكان صاحب الدعوة الشهيرة إلى ذبح كل العرق الهندي.

قالت: كيف اذن وجد "سابك "بيننا. و"فيرنون" أيضا؟

قال وهو يتطلع إلى الحائط الذي التصق به وجه محافظ "كاليفورنيا" الكاريكاتوري: هذا الوجود صار الآن مهددا بعد إلغاء قانون الفعل الإيجابي.

جمع بطاقاته ومضى يرتبها بينما أخذ"سابك" الكلمة.

كان يرتدي بزة كاملة كعادته في المناسبات، تضم قميص مزركشا بألوان صارخة اختفت داخله سلسلة تحيط بعنقه.

قال: ليس صحيحا أن "سان فرنسيسكو" تخلو من الآثار القديمة. فعلى مبعدة عدة شوارع من هنا توجد مقابر هنود

"الأوهلون" الذين ربما عاصروا المصريين القدماء. لكنهم على عكس الفراعنة لم يتركوا خلفهم قلاعا أو مبان دائمة.لم يحفظوا أي سجلات لماضيهم. ربما بسبب تخلف حضارتهم أوانعدام الأعداء أوخوفهم من ذكر الموتى. ولحسن الحظ أن الأمريكيين يحولون كل شئ إلى فرجة واستثمار. فأقاموا قرية كاملة في موقع إحدى قراهم البائدة التي يرجع تاريخها إلى ٤٠٠ سنة قبل الميلاد. وأتاحوا لمن يشاء -مقابل ثلاث دولارات ونصف للسيارة- أن يشهد ويتعلم اعداد عصيدة من جوز البلوط، وتقليم رؤوس السهام، وصنع الحبال والسلال والشباك من الحشائش، وبناء القوارب.

كان يتحدث في بطء شديد كأنما يستعصي عليه التعبير أو يخشى الوقوع في خطأ لغوي.

- كانوا مسالمين وأنتجوا ثقافة رقيقة موسيقية وغير حربية. كانوا متخلفين ولهذا استقبلوا المستوطنين الأسبان المسلحين في ذهول وقد ظنوهم آلهة وخضعوا لهم بسهولة. لكنهم سرعان ما اكتشفوا الحقيقة. فقد اهتم الأسبان بتحويلهم إلى المسيحية وتجريدهم من أراضيهم لانقاذ أرواحهم. وباستخدامهم في الزراعة والحصاد وتربية الماشية لتغذية أرواح الأسبان أنفسهم. وسار الحكام المكسيكيون (من البيض) على نفس المنوال. ولم يتغير الموقف بعد أن ضمت "الولايات المتحدة" المدينة إليها.

وصف بالتفصيل كيف كان يتم احتجازالهنود في حظائر أشبه بحظائر الكلاب لا يخرجون منها إلا للتغوط الجماعي في حفر مفتوحة أو للعمل الاجباري في الحقول والطواحين. فكانوا ينفقون بعد أسابيع قليلة من الاجهاد وسوء التغذية. أما من تمكنوا من الهرب فكان الجنود يطاردونهم كما يطارد رعاة البقر الجاموس البري. وخلال جيل واحد تم محو قراهم وتقاليدهم القديمة وأغلب أبنائهم.

ورقد خمسة آلاف هندي في قبور بلا شواهد في كنيسة "ميشان دولوريس"، "سيدة الآلام".

اختتم سك حديثه قائلا: "الأوهلون" ليسوا إلاقطرة في بحر من ١٢٠ مليون انسان في أنحاء "الولايات المتحدة" تمت إبادتهم عن عمد في جريمة لم يعرف التاريخ الإنساني مثلها.

تحول جانبا والتقط حقيبة جلدية، تغطي سطحها زخارف غريبة الشكل. فتحها واستخرج منها كتابا عرض غلافه علينا:

– صدر هذا الكتاب للتو عن جامعة "ييل"، للمؤرخ الأميركي المعاصر "شلدون واتس"(×). وهو يسجل كيف أمر قائد الجيش البريطاني عام ١٧٦٣ بإجراء مفاوضات سلام مع الهنود وإهدائهم بطاطين ملوثة بميكروب الجدري "لإستئصال هذا الجنس اللعين"، حسب قوله. وانتشر الوباء بين أربعة شعوب هندية وأتى على أكثر من مائة ألف طفل وشيخ وامرأة وشاب.

قالت "شرلي": الأوروبيون جلبوا معهم أمراضا جديدة دون قصد. ماحدث للهنود الحمر يعتبر مأساة. لكن يجب اعتبارها من قبيل الأضرار الهامشية التي تواكب انتشار الحضارة.

هز "سابك" رأسه عدة مرات ناحية اليمين وناحية اليسارفسقط شعره الغزيرفوق عينيه. وتخيلتها أسفل تاج من الريش.

أزاح شعره عن عينيه وقال: قبل أن يبني "جورج واشنطون" عاصمته كان متفرغا للاستيلاء على أراضي الهنود والمضاربة بها وجمع ثورة هائلة. وفي عام ١٧٨٢ وافق

(×) "الأوبئة والتاريخ: المرض والسلطة والامبريالية"،شلدون واتس، جامعة ييل ١٩٩٨.

الكونجرس على مشروعه الذي يتلخص في خردقة الأراضي الهندية بالمستوطنين. فإمتد المجال الاستيطاني من شاطئ الأطلسي في القرن السابع عشر إلى شواطئ الهادي في منتصف القرن ١٩.

وفي ١٨٣٠ سن الكونجرس قانون "الترانسفير" أو الترحيل القسري. فجرى ترحيل الهنود بالقوة من شرق "المسيسيبي" إلي غربه وصار من حق كل مستوطن أن يطرد الهندي من بيته وأرضه وأن يقتله إذا لم يستجب لصوت العقل. وووجه "توماس جفرسون" رسول الحرية الأمريكية وكاتب وثيقة الاستقلال إلى وزير دفاعه عبارة شهيرة: "سنفنيهم ونمحو آثارهم من هذه الأرض. إننا مجبرون على قتل هؤلاء الوحوش أو طردهم مع وحوش الغابات إلى الحدود".

تحول إلى "شرلي" واستطرد: الأمر لا يقتصر على الماضي. في سنة ١٩٧٤ اكتشفت طبيبة هندية في سجلات المستشفي الذي تعمل به في ولاية "أوكلاهوما" عمليات تعقير تجري على نطاق واسع للهنديات بذرائع مختلفة.

تحدته قائلة: لماذا لا تقول لنا كيف وصلت أنت إلى هنا؟

انفعل "سابك" وفكرت أن أتدخل لايقاف النقاش لكنه تمالك نفسه بسرعة وأجاب ضاحكا:

– أنا لست من "الأوهلون". ولهذا بقيت على قيد الحياة.

استطرد: لكني ولدت في معزل مخصص للهنود. وجرى على الفور ترحيلي مع غيري من الأطفال إلى معسكرات مدرسية حيث قاموا بغسل أمخاخنا. منعونا من الحديث بلغتنا أو ممارسة شعائرنا الدينية أوارتداء ملابسنا التقليدية أو تزيين شعورنا على عادة الآباء والأجداد. علمونا كيف نستمتع بمشاهد قتل الهنود في أفلام الكاوبوي. إنها

الخطة التي وضعت للتذويب الثقافي باعادة صياغة ذاكرة الهنود ووعيهم.

التفت إلى "شرلي" وقال: هل عرفت إذن كيف وصلت إلى هنا؟

وقبل أن تتمكن من الرد، انتزعت "دوريس" عينيها من النافذة والتفتت نحوي قائلة: هناك سؤال يطرحه هذا النقاش. المصريون والهنود الحمر تعرضوا للغزو الخارجي. لكن المصريين - فيما يبدو- حافظوا على أنفسهم كتلة متماسكة بينما تم إفناء الهنود الحمر. فلماذا ؟

لم تكن اذن غائبة عنا.

أجبتها: المؤكد أن هناك عوامل عديدة لذلك. وفيما يتعلق بالمصريين أريد أن أذكركم بحديثنا السابق عن خصائص النمط الآسيوي للانتاج كما في "العراق" و"الصين". أهم هذه الخصائص هي خاصية الاستقرار التي تسمح باستيعاب الغزاة. وخاصية التجانس. كان المصريون دائما أمة واحدة بينما توزع الهنود الحمر على مائة شعب وأمة.

قالت "فادية" وهي تسوي غطاء رأسها: وماذا بشأن الفلسطينيين ؟ يبدو لي أنهم معرضون للانقراض مثل الهنود الحمر تماما.

اعتدلت "مونا" في جلستها استعدادا للنزال.

قلت وأنا أجمع أوراقي وأعيدها إلى حقيبتي معلنا نهاية الدرس : هناك دائماشئ من التضليل في الانسياق وراء قياس التمثيل عند دراسة التاريخ.

** ٢١

قالت لي "شادويك" وهي تغمز بعينها: وضعت لك شيئا في صندوقك .

مضيت فورا إلى كهف البريد ووجدت في صندوقي منشورا يدعو لانتخاب "جلوريا لا ريفا" (×) لمنصب محافظ "كاليفورنيا"، تصدرته صورة للسيدة التي رأيتها في اجتماع نصرة "العراق". وحدد المنشور برنامجها بأنه الدفاع عن حقوق طبقة العاملين من أفروأمريكيين ولاتينو وسكان أصليين و أسيويين وعرب وبيض ،رجالا ونساء ، مثليات ومثليين ومزدوجي الجنسوية ، ومن أجل مجتمع خال من العنصرية والعداء للمثلية الجنسية، وضد التدخل الأمريكي في الخارج وحصار "كوبا" و"العراق"، وضد التلوث ، وضد طرد السكان من منازلهم. وذكر أنها ستعمل على إعفاء أصحاب الدخول التي تقل عن ٥٠ ألف دولار من الضرائب، وعلى إعادة دفع مقابل لساعات العمل الإضافية ، ووقف وحشية الشرطة والحد من إنشاء السجون وإلغاء عقوبة الاعدام.

توقفت عند عبارة كتبت بالبنط الثقيل:الرأسمالية

(×) عضو نقابة عمال المطابع واللجنة القومية لحزب العمال العالمي الأمريكي. ولدت ١٩٥٤في "نيوميكسيكو" من أسرة مختلطة. فأبوها ساعي بريد متقاعد وأمها المكسيكية عاملة في مصنع ملابس. دخلت الجامعة بفضل قانون "الفعل الايجابي" و انضمت لحزب العمال العالمي في ١٩٧٨ . قادت مظاهرة من ربع مليون مواطن في يناير ١٩٩١ ضد الحرب الأمريكية في الخليج . واشتركت في تنظيم مسيرة من ربع مليون مهاجرسنة ١٩٩٤ في "لوس انجلوس" . تحدت الحصار المفروض على "العراق" وزارته في مايو ١٩٩٨ مع تسعين شخصا.

تقوم على اعتبارات الربح لا على تلبية احتياجات السكان. إن ثروات المجتمع من حقنا نحن العاملين . يجب أن تكون ملكنا وأن نتشارك فيها".

ألقيت نظرة على ساعتي ومضيت إلى المصعد وأنا أقلب المنشور. طالعتني في ظهره العبارات التالية : "كاليفورنيا" هي أغني ولاية في أغنى بلد في العالم ومع ذلك لا يتمتع سبعة ملايين نسمة بها بالرعاية الصحية ولا يجد ثلاثة ملايين عملا وتنفق الولاية على انشاء السجون أكثر مما تنفق على التعليم . ... إن ست من أغنى مواطني "الولايات المتحدة" على رأسهم "بيل جيتس "- صاحب "ميكروسوفت" الذي يملك ٥١ مليار دولارا- يملكون الآن أكثر مما يملك ٤٠ بالمئة من السكان أي أكثر من ١٠٠ مليون نسمة ...الشركات الكبرى منذ خمسين سنة كانت تدفع نصف الضرائب الفيدرالية وهي الآن تدفع أقل من ١٠بالمئة ، وممثلوها يسيطرون على كل مستويات الحكومة".

أقلني المصعد إلى الطابق الأرضي ووجدت "فيتز" في انتظاري أمام مدخل المبنى في سيارة "ستوديوبيكر" قديمة من طراز "سيلفر هوك".

فتح لي الباب الجانبي وقال بمجرد أن جلست وثبت حزام الأمان :

– هل سمعت ؟ سفاح المشردين وقع.

– لا لم أسمع. ماذا حدث؟

– قبضوا على شاب أبيض حاول ذبح مشرد نائم في الحي الصيني. وقال للشرطة إنه مصاص دماء وإنه يشرب دماء ضحاياه. .

– هل اعترف بالجرائم السابقة؟

قال وهو يتجه إلى بوليفار "جيري": ليس بعد. اطمئن. سيعترف.

علي طريقتنا؟

كان يرتدي معطفا سابغا من الجلد الأسود ويحيط جبهته بعصابة حمراء كالتي يرتديها القراصنة. طويت المنشور ووضعته في جيبي وسألته عن رأيه في "جلوريا لا ريفا". قلب شفته في ازدراء وقال : السياسيون...لا أثق بهم.

بلغنا البوليفار فاستدار فيه يمينا حتي الحي الياباني.

قلت : هل يمكن أن تنجح؟

قال : مستحيل. سبق أن رشحت نفسها لمنصب المحافظ منذ عدة سنوات. المجنونة رشحت نفسها أيضا لمنصب نائب الرئيس منذ سنتين.

مضينا من أمام المركز الياباني وعند كاتدرائية ضخمة على ناصية اتجهناجنوبا نحو مركزالمدينة.

–سأريك أولا "تندرلوين "الشهير وبعد ذلك نذهب إلى ال"كاسترو". لحسن الحظ أن الضباب خفيف اليوم.

لم نمض بعيدا فبعد عدة تقاطعات اتجهنا يسارا ومضى يطوف الشوارع الجانبية ببطء بحثا عن مكان انتظاروهو يربت على قطع نرد من حجم كبيرتدلت من مرآة القيادة.

ولجنا شارعا تجمع عند ناصيته عدد من الشبان السود. وعندما لمحونا أخذوا يشيرون لنا كي نتوقف. لكن "فيتز" أغلق النافذة المجاورة له واندفع مبتعدا. وفوجئنا بعد تقاطعين بأن الشارع مغلق للاصلاحات.

رجع بالسيارة إلى الخلف حتى التقاطع السابق ثم انحرف فيه وهو يقول مغتصبا ضحكة:

– لم أفهم أنهم يحذروننا. في هذه المنطقة يجب أن تفترض الأسوأ دائما.

تركنا السيارة في مكان انتظار مجاني وانطلقنا على أقدامنا. غطيت رأسي بالطاقية الصوفية وزررت سترتي جيدا. أما هو فترك رأسه عارية.

ميزت مبنى المركز المدني على مبعدة وتعرفت على ملامح المنطقة التي اقتربت منها يوم زرت المكتبة العامة. ثم فقدت كل قدرة على التمييز، إذ قادني في شواع امتلأت بالحانات الرخيصة وصالونات المساج، والبقالين الفيتناميين، وحوانيت الأشياء المستعملة والتالفة، والشبان الذين ثقبوا آذانهم وشفاههم وحواجبهم بمختلف أنواع الحلقان، والعائشين داخل معاطفهم فوق الأرصفة. وهاجمتني رائحة بول القطط من مدخل أحد البيوت، مختلطة برائحة الكاري، وصوت أوبرا قديمة من مدخل البيت التالي. وكدت أتعثر في كيس نوم ملفوف مستند إلى الحائط أسفل ملصق الطفل الذي يلتهم " البرجر"بشراهة. ولاحظت أن جل الحوانيت محاط بقضبان حديدية متينة.

انحرفنا في شارع هادئ خلا من الحوانيت. امتدت على جانبيه بنايات سكنية من الطوب الرمادي يتدلى الغسيل فوق أسيجة شرفاتها الصغيرة. بدا الإهمال عليها كما على كل شئ في الحي. ومرت بنا عجوز أسيوية قصت شعرها على طريقة "ماو تسي تونج". وتبعهتا امرأة بيضاء طويلة في "تريننج سوت" ملون تمارس رياضة الجري.

قال : الإيجارات هنا رخيصة بسبب خطورة المكان. ولهذا تجد أكبر تجمع لكبار السن متحصنين خلف أبواب محكمة الاقفال. أغلبهم من "فيتنام" و"كمبوديا" و"لاوس". نجوا من الحروب ليعيشوا بقية عمرهم في رعب.

تبينت من لافتة أننانسيير في شارع " لاركين" ثم انحرفنا يمينا في شارع "تورك" ثم في شارع آخرظهرت به أضواءالنيون الحمراء. مررنا بعدة حوانيت للأجهزة الجنسية التعويضية. وظهرت في الواجهات أحجام خرافية منها. وكان ثمة دمية في حجم امرأة بالغة وبجوارها لافتة تشيد بقدرة فمها المطاطي على إشباع من يشتريها.

حكيت له تجربتي مع حانوت ال"بيب شو". قال :هل جربت "فيديو ستريب بوكر"؟

هززت رأسي نفيا فأوضح : تضع ربع دولار واذا كسبت تشاهد امرأة تخلع حذاءها. وهنا يحين موعد وضع ربع جديد. وهكذا. أما اذا خسرت فلن تر شيئا.

توقفت أمام كهل أسود قرفص أمام مجموعة من الكتب المستعملة وعلب البطاريات القلمية مفروشة فوق الرصيف. ووجدت صعوبة في قراءة أسماءبعض الكتب إذ كان الظلام قد حل رغم أننالم نبلغ الخامسة بعد.

قال : بعد ساعة أو اثنتين يظهر القوادون ومروجو المخدرات والأشقياء والمدمنون والعاهرات من كل لون : بيض وسود وصفر.

لحظت فتاة سوداء رشيقة استندت إلى الجدار وهي تدخن وتتفرس في المارة. بكرت فيمايبدو إلى العمل.

لمح اتجاه نظرتي فقال : لا تظن أن حياتها سهلة. فهي تعيش في رعب دائم من التعرض للقتل أوالتشويه أو "الايدز".

انتقل اهتمامي إلى سيارة جلست فوق مقدمتها فتاة شقراء بمكياج ثقيل ترتدي جوبة قصيرة وسترة صوفية كبيرة الحجم كشفت عن صدر عامر. وكانت تضع إحدى ساقيها اللتين غطتهما جوارب بيضاء فوق الساق الأخرى.

قال "فيتز": هل يمكنك أن تري ما بين ساقيها؟

ارتبكت وقلت : لا.

قال : لو دققت النظر سترى خصية رجل. إنها "ترانسفستايت".

كانت الجرعة المعلوماتية أكبر من طاقتي على الفهم ومن تجربتي في الحياة. كنت أعرف بأمر من يتنقلون بين الجنسين بحثا عن الوضع الأمثل أو لتصحيح أخطاء

الطبيعة.لكني لم أعرف بالضبط المعنى الدقيق لهذا المصطلح الذي ارتبط في ذهني بمن يستمتع من الرجال بارتداء الملابس النسائية.

– أمامك رجل كامل. والشعر الذي تراه ليس إلا باروكة.

–والصدر أيضا مستعار؟

– لا. الثديان حقيقيان. هرمونات الأنوثة."استروجين" و"بريمارين" و"بروفيرا". نما الثديان وبقيت الحمامة. وهذا يخرجه من دائرة "الترانسفستائت" الحقيقي. الأخير يقطع تماما مع ماضيه ويتخلص من الحمامة والخصية.

راح ذهني إلى "البرديسي" الذي يدعو إلى "القطع التام مع الماضي" من أجل تحديث العالم العربي.

تمهلنا عند الناصية لنفسح الطريق لرجل وقور ذي شعر فضي يرتدي ملابس كاملة بالغة الأناقة. كان يسير على مهل وهو يطوح بحافظة جلدية مسطحة. وقدرت أنه موظف في بنك أو شركة كبرى.

علق "فيتز": زبون. أغلبهم يسعون خلف الحمام الذهبي أو "الإس إم".

قلت: "الإس إم" أعرفه لكن ما هوالحمام الذهبي؟

بدت عليه السعادة بمهمة تثقيف البروفسور القادم من الأدغال.

قال: بعض الرجال لايستمتعون ولا حتى ينتصبون إلا إذا تبولت المرأة فوقهم. إنهم أصحاب الضمائرالمعذبة.

من جديد مررنا بالمشردين المقرفصين بجوار أكواب الفكة. والمنكمشين في مداخل الأبواب مستندين إلى أكياس قمامة لامعة تضم ممتلكاتهم. ولفت نظري على الناحية الأخرى مكتبة للكتب الدينية بجوارحانوت لتأجير شرائط البورنو.

بلغنا مطعما صينيا رخيصا بجواردارقديمة للسينما

زينتها حروف الإكس الثلاثة فذكرتني بمراسلتي المجهولة. وأمامها انتشرت مجموعات صغيرة من الشباب، من مختلف ألوان البشرة، دسوا أيديهم في جيوب معاطفهم أو ستراتهم الجلدية وأخذوا يتقافزون فوق أقدامهم جلبا للدفء وهم يتطلعون حولهم كأنما ينتظرون.

التقت عيناي بعيني شاب أسمر البشرة، انتحى جانبا وثني ساقه خلفه مستندا بقدمه إلى الحائط. كان يرتدي بنطلونا ضيقا من "الجينز" وصديرية من الجلد فوق "تي شيرت" أسود. ويضع في أذنه سماعة "ووكمان". حدق في بنظرة ثابتة أجبرتني على إبعاد عيني.

قال "فيتز": الأفضل ألا تنظر إلى أحد وإلا وقعنا في مشاكل. هذا الشاب يبيع جسده للرجال.

أوشكت أن أتعثرفي مخلفات كلب ثم سألته: ماالذي يدفعه إلي ذلك؟

ضحك من سذاجتي: ما الذي يدفع المومس إلى ذلك؟ الفقر والتعود. هناك أيضا حلم التمثيل في أفلام البورنو. وهو بالنسبة للشبان حلم بعيد المنال. لا يحققه منهم إلا من يستطيع القذف عدة مرات.

تعرفت على مبنى "يربا بيونا" الذي حضرت فيه مع "شادويك" اللقاء مع "لا ريفا". تجاوزناه إلى حديقة واسعة خلفه. وأشار "فيتز" إلى ركن في الحديقة قائلا: هنا رأيت لأول مرة في حياتي رجلين يتبادلان القبلات.

انتابني شعور غامض بالقلق ولم أعلق. سرنا في صمت في اتجاه محطة المترو. وتظاهرت بالاهتمام بواجهة حانوت للاسطوانات المستعملة وبواجهة مسرح طليعي في بدروم بناية قديمة. ثم مررنا ببارين متجاورين أحدهما مخصص للرجال والثاني للنساء.

كأننا في المملكة السعودية!

ركبنا المترو وجلست بينما وقف يتأمل وجهه في زجاج الباب ويضبط العصابة التي تحيط بجبينه. كنت قد تصورت أنها جواز مرور لحي "تندرلوين"، وفكرت الآن أن "كاسترو" هو بيت القصيد.

نزلنا بعد خمس محطات وخرجنا إلى تقاطع شارعي "كاسترو" و"ماركت". شعرت في الحال أني انتقلت إلى حي مختلف يتميز بالنظافة والهدوء. وفاجأني هذا كأنما كنت أتوقع صخبا وعنفا مماثلين لما تتميز به "تندرلوين"، وربما أكثر.

قلت : أول مرة سمعت فيها عن هذا الحي تصورت أنه ينتسب إلى الزعيم الكوبي.

انفجر ضاحكا وقال : "فيدل" بالذات يكره "الجييز" ويسجنهم. أما "جوزيه كاسترو" فكان من أبرز قادة المقاومة المكسيكية ضد الاحتلال الأمريكي.

مضينا على مهل من أمام حوانيت عادية ، مثل أي حي عادي. ولمحت علما كبيرا مرفوعا فوق مبنى ذي طالع رسمي . كان العلم مكونا من خطوط متجاورة بكل درجات الألوان المعروفة. استفسرت من "فيتز" عن الأمر فقال: إنه علم الحي.

استوقفتني امرأة هزيلة القوام تعرض للبيع علب الواقي الذكري. هززت رأسي رفضا وعندئذ لمحت القرنين.

كانا يبرزان من رأس رجل قادم في اتجاهنا. وأسفل عباءة أرجوانية نفخها الهواء من حوله بدا عاريا تماما إلا من كيلوت صغير من الجلد الأسود وبوت مماثل. وعندما حاذانا رأيت طبقة ثقيلة من الألوان فوق وجهه.

قال "فيتز" ونحن نواصل السير: الكل الآن يستعد ل "الهالووين". وهم هنا يتفننون في ذلك. لوبقيت معنا حتى الصيف سترى كيف يحتفل أهل الحي بيوم الحرية المثلية

الذي يأتي إليه الناس من كل بقاع الدنيا. ينطلقون في موكب من أمام البلدية خلف علم الحي.

لاحظت بعد قليل أن برد الخريف لم يفلح في كبح الرغبة في التعري. حتى الذين اضطروا لارتداء معاطف سابغة كانوا يكشفون خلال حركتهم عن سواعد غطتها الوشوم وسيقان جديرة بالتأمل.

كان هناك جو من الحيوية الجنسية لايمكن إخطاؤه. وكأنما شعر "فيتز" بتيار تفكيري إذ قال : اليمين المسيحي والمحافظون يهاجمون الحي بصورة مستمرة. هم لايكرهون "الجييز" لما يفعلونه في السرير. ما يستفزهم هو أن "الجييز" يستمتعون بذلك.

سكت برهة ثم قال : حادث "ماثيو شبرد" كان فظيعا. لكن "الجييز" لم يفعلوا شيئا لمقاومة الحقد. إنهم موزعون على الأيديولوجيات السياسية والعرقية. ولا يناضلون ككتلة واحدة من أجل حقوقهم.

بلغنا مقهى "فلور" الذي يحتل ناصية شارعين آخذا شكل المثلث. ولجنا حديقة محاطة بسياج من الزجاج، امتلأت بالجالسين من الرجال والنساء أسفل المدافئ الضخمة وأنوار النيون الساطعة. وتناهت إلينا من الداخل أصوات عالية وضحك وموسيقى معدنية ثقيلة.

جلسنا في الخارج إلى مائدة يتوسط سطحها حامل صغير لنموذج من علم الحي. طلبنا من فتاة بيضاء ذات ملامح أسيوية جميلة حساء عدس مع بيرة لي وعصير جزر له.

قال "فيتز" وهو يخلع سترته الجلدية: بعد عودتي من "فيتنام" تعرفت بواحدة مغرمة ب"البونداج". عندما قيدتني أول مرة وجدت نفسي مستمتعا. لا من جراء الخوف وإنما من إدراكي أني عاجز عن الحركة والقيام بأي شئ. هل تفهم ما أعني؟

أطرقت برأسي. كنت أفهم جيدا.

قال: الذكر مطارد بضرورة الأداء. الأنثى أيضا. لكنها تستطيع أن تخفي مشاعرها بعض الشئ وأن تتظاهر بالاستمتاع. لعنة الذكر أنه مكشوف.

تطلع حوله وقال: أروع شئ أن ترقد مستسلما دون أن تكون مضطرا لعمل شئ.

كنت على وشك أن أقول له أنه حلم مشترك لابيني وبينه فقط وإنما ربما مع أغلب الرجال. ثم أدركت أن هذا التصريح قد يورطني فيما لا أحب.

أحضرت لنا النادلة العدس وقطعتين من الخبز. استطعمت الحساء على الفور وارتشفته في شهية وأنا أتأمل مجموعة قريبة من شابين وفتاتين محاولا إدراك طبيعة العلاقات التي تربط بينهم. ولم يلبث أحد الشابين أن انصرف برفقة الفتاتين. ومدد الشاب الباقي ساقيه على مقعد وأخذ يفك خصلة شعره المربوطة على هيئة ذيل حصان ويعيد ربطها من جديد. ثم لفت نظري رجلان جلسا متواجهين إلى يميني. كان أحدهما شابا أشقر في العشرين بينما كان الثاني في الأربعين أو الخمسين، أبيض البشرة، أسود شعر الرأس ويرتدي "بونشو" مكسيكي من الصوف. كان ممتلئ الجسم طويل القامة ذو ملامح ذكورية وسيمة. وكان الاثنان يأكلان من طبقي سلاطة خضراء في صمت.

لاحظت أن ملامح الشاب جامدة وحركاته بطيئة وآلية. وعندما رمقتهما مرة أخرى كان الرجل ذو "البونشو" يدفع الحساب ثم نهض واقفا. وتبعه الشاب وهويجذب سوستة سترته الجلدية ليغلقها. ويبدو أن السوستة استعصت عليه، إذ خف الرجل إلى مساعدته ومد يده إلى بداية السوستة قرب منفرج الشاب. ولحظت أن يده تمهلت قليلا وهو يتأمل الشاب باسما. ثم أحنى رأسه وقبله في شفتيه. لم يعن

بأنظار الآخرين ولا تطلع إليه أحد فيما عداي. ولم يظهر أي تعبير على وجه الشاب. وفي هذه اللحظة أدركت أنه مخدر.

كان "فيتز" مستغرقا في دراسة الشاب الجالس الذي يعقد خصلة شعره. ولاحظ اهتمامي بالرجلين فتحول بجسده ناحيتهما وراقبهما حتى انصرفا. ثم استدار نحوي وفرج ساقيه على سعتهما وهو يتطلع إلي في تركيز.

احتفظت بعيني في مستوى عينيه الزرقاوين وقلبي يدق في شئ من الخوف. وعرفت في هذه اللحظة ما تشعر به الفريسة أمام الصياد.

فصل المدرسة الابتدائية. الأرض الحجرية الباردة. الشرفة الصغيرة ذات المشربية. مدرس اللغة الإنجليزية الذي يسكن قريبا من منزلنا. عيناه الصفراوان الدامعتان دائما خلف نظارة طبية سميكة. ساعده الأيمن المشلول وأصابع يده القابضة دائما على صحيفة مطوية. يكتب باليسري ويضربنابهاعلى ظهر الكف بسن المسطرة. الصفوف الخلفية للطلبة كبار السن أو الذين تكرر رسوبهم. بعضهم بشوارب خفيفة وأغلبهم في بنطلونات طويلة وأنا ما زلت بالبنطلون القصير. أحدهم يدعوني إلى الجلوس بجواره. يشعرني هذا بالأهمية. أعطانا المدرس ظهره ورفع يده اليسري ليكتب على السبورة. وتناول جاري يدي الصغيرة ووضعها فوق قضيبه المنتفخ. وكانت هناك ابتسامات تشجيع من الجالسين في الخلف. ماحدث بعدذلك غير واضح. هناك زيارة قام بها المدرس لمنزلنا. وأخرى قام بها أبي للمدرسة. ثم علقة ساخنة تعرض لها الولد في طابور الصباح واختفى بعدها.

سألته عن جيراني وعن شكاواهم مني. ضم فخذيه واعتدل في جلسته وهو يجول بنظراته بين الحاضرين. قال إنه لم يسمع منهم شيئا جديدا. وتلكأت نظراته عند صاحب ذيل الحصان.

حدثته عن تليفون "مصرايم" الغامض فضحك قائلا: هذا هو "هوبس". يحب دائمامداعبة مستأجري مسكنه.

ذكرت له أمر الرسائل والورود التي أتلقاها ؛قال في غير مبالاة: "أمريكا" هكذا. الوحدة الشديدة والعزلة التي يعيش فيها الناس تدفعهم للقيام بأشياء غريبة.

سألته مترددا: هل تعيش وحيدا. أقصد هل لديك...

قاطعني : أسرة؟ كلا.

تطلع في ساعته وقال: لن أستطيع توصيلك إلى منزلك. سأصف لك الطريق ويمكنك أن تذهب سيرا على الأقدام. أو أستدعي لك سيارة أجرة. تذكر أن تؤمن بابها جيدا.

قلت : لماذا؟

قال: يمكن لأي لص أن يهاجمك عند إشارات المرور.

قلت إني أفضل السير فأرشدني إلى الاتجاه الذي أتبعه في الشارع السابع عشر. تركته جالسا بالقرب من الشاب صاحب ذيل الحصان وخرجت إلى الطريق. ضغطت طاقيتي فوق رأسي ودسست يدي في جيبي سترتي وانطلقت.

حرصت على السير في منتصف الرصيف بعيدا عن مداخل البيوت والحوانيت. وعلى تجنب التحديق في أحد. سرت بعض الوقت خلف فتاتين سوداوين أحاطتا خصريهما بساعديهما.ثم تركتهما عند الناصية واتجهت شمالا في الطريق إلى بوليفار "جيري". كدت أصطدم برجل أسود اندفع نحوي وهو يوجه الشتائم بأعلى صوته. وشممت رائحة الخمر قبل أن أجرى مبتعدا.

لم يعبأ الرجل بي وواصل طريقه وهو يصيح ويسب بأعلى صوته. توقفت عن الجري وأنا ألهث وتطلعت خلفي. لم أجد له أثرا ولمحت سيارة أجرة فأشرت إليها.

كان السائق أسمر البشرة وعانيت صعوبة في فهم لهجته. كررت عدة مرات اسم شارعي إلى أن استوعبه بعد أن عطشت حرف الجيم. وقاد السيارة في صمت خيل إلى أنه مشوب بالتوتر.

بلغنا شارعي بعد عشر دقائق. أوقف السيّارة على الناحية المقابلة لمنزلي قائلا: سأطلب منك النزول هُنا لأواصل في هذا الأتجاه.

أعطيته ستة دولارات وغادرت السيارة. عَبرت الشارع المهجور وفتحت الباب الخارجي. وجدت باب مسكني مفتوحا على مصراعيه ومصباح الصالة مضاء.

وقفت مأخوذا برهة عاجزا عن الحركة. أنصت لأي صوت في الداخل فلم أسمع غير موسيقى الطبول لدى جيراني. شعرت بقليل من الاطمئنان. فكرت أني ربما نسيت إطفاء النور وإغلاق الباب عندما غادرت المنزل في الصباح.

تقدمت في خطوات حذرة وقلبي يدق. طفت بأرجاء المنزل فلم أجد شيئا غير عادي. عدت إلى الباب فأغلقته بقفليه. مضيت إلى الحمام فتبولت وغسلت يدي ثم أسرعت إلى جهاز الكمبيوترفشغلته. ضغطت على أيقونة البريد الإلكتروني واستعرضت قائمة محتوياته. كانت تتألف من المجموعة المعهودة التي تغير على البريد رغم كل وسائل الحماية: من مبتكرات حماية جديدة ، ومزايا موهومة لأنواع من بطاقات الائتمان ،ووعود بأرباح فورية بمئات الألوف من الدولارات إلى عروض مغرية من مواقع البورنو.

ألفت أن أزيل كل هذه الرسائل بانتظام خوفا من الفيروسات ولانعدام ثقتي في وعودها. ولم يفت ذلك في عضد أصحاب مواقع البورنو بالذات. ولعل الحيرة أصابتهم في شأني فجربوا معي المواقع المتخصصة بحثا عن لوني بين ألوان قوس قزح : الأثداء الكبيرة في حجم كرة القدم، الصغيرة في حجم الليمون، الشقراوات والسوداوات والصفراوات واللاتي لا لون لهن ، الواعدات بمتعة لم يسبق

لها مثيل من أفواههم أو في مؤخراتهم ، المثليون والمثليات ، الخاضعات والمسيطرات، التلميذات، الأطفال، المحارم، الكلاب والجياد والقرود، السياط والسلاسل، ربات البيوت ، والمشاهير.

كنت أمني النفس بسيجارة أدخنها في الحديقة لكن المطر لم يتوقف فقررت التمرد. دخلت الحمام وأغلقت بابه على ثم واربت المصراع الزجاجي لنافذته وجلست فوق قاعدة المرحاض وأشعلت سيجارة. طالعتني صورتي في المرآة المواجهة وتناهى إلى سمعي دق الطبول لدى جيراني. كنت قد لاحظت أنهما يديران هذه القطعة الموسيقية بالذات مرة في الأسبوع قبل ميعاد النوم. وخطر لي أنها ترافق عزفا من نوع آخر وأنهماقد يكونا الآن في أحضان بعضهما البعض.

في أي وضع، وأي لون من ألوان الطيف؟

وأيها لوني ؟

* * ٢٢

عندما وضعت خطة هذا السمينار، كانت تحدوني الرغبة في تأمل تجربتي العامة في الحياة بجانبيها العلمي والشخصي. تصورت أن محاولة صياغتها في كلمات ثم مشاهدة انعكاسها على عقول أخرى قد تضيء بعض جوانبها وخاصة فيما يتعلق بحياتي الداخلية. فلم يحدث أن عكفت على دراسة بعض حلقاتها واستخلاص مدلولاتها البعيدة، شأني في هذا شأن أغلب الناس الذين ينشغلون بالحياة نفسها عن تأملها. إلا أني لم ألبث أن بدأت أتحفظ في حديثي عن نفسي بعد أن وجدت أن ما أقوله يجد طريقه خارج قاعة الدرس. لكن هذا لم يمنعني من الحفر في الذاكرة واستخراج مواقف اختفت في ثناياها، وخصوصا تلك التي رافقت مرحلة إعداد رسالة الدكتوراه.

لم يعترض الأستاذ المشرف على اختياري لموضوع "القرامطة". فبالرغم من أفكاره الرجعية كان من الجيل القديم المتمسك بالقيم الأكاديمية التقليدية. واكتفى ببعض التحفظات التي تلاشت عندما عرضت عليه خطتي.

انطلقت من أن مشروع الرسول تضمن المساواة الإنسانية على كل الأصعدة. وطوال عقد كامل حلق الحلم بمجتمع مثالي تنتهي فيه الولاءات القبلية وينصهر فيه الجميع في أمة واحدة يربطها رباط روحي في ممارسة ديموقراطية. لكن هذا المشروع تعرض لانتكاسة عندما بدأت الفتوحات تعطي ثمارها وتكونت الثروات عن طريق الاستثمارات التجارية والزراعية. وتوج ذلك باستيلاء "بني أمية" على السلطة فتراجعت مبادئ العدالة والمساواة.

وارتفعت أصوات الاستنكار والمعارضة في كل مكان، واتخذت المقاومة أغطية دينية ومذهبية وعصبية.

وتفاقم الوضع في ظل الدولة العباسية. فقد تجمعت الثروات في أيدي قليلة وصار للبيوتات التجارية مكانتها على صعيد السلطة كما عظم الإقطاع الزراعي وبات رجال السلطة يملكون العديد من القرى ويحصلون على المزيد بشتى السبل من شراء واغتصاب. وجلب كبار الملاك والتجار والقادة العسكريين الرقيق -وخاصة الأسود- للعمل في مزارعهم والجواري للخدمة في مخادعهم.

في هذا الجو نشأت الحركة "القرمطية" في ريف "العراق". استقطبت على الفور سائر العناصر والعصبيات المقهورة(×) وتمكنت من إقامة دولة في "البحرين" بعد عشر سنوات. ولم يتفق أحد من المؤرخين الأوائل والمعاصرين على مصدر الاسم الذي عرفوا به. فقال البعض إنه نسبة إلى مؤسس الحركة وهو حمال فقير يدعى "حمدان بن الأشعث" وسمي ب"القرمط" لأنه كان قصيرا ذا خطوات متقاربة، في قول، ولأنه كان أحمر لون البشرة في قول آخر. وذهب آخرون (××)إلي أن كلمة من أصل فارسي هو "كرامتة" ومعناها فلاح أو قروي.

والواقع أن المؤرخين اختلفوا في أمور كثيرة بشأن "القرامطة" لما أحاط بسيرتهم من غموض بسبب تحامل الروايات ضدهم نتيجة العداء السياسي والمذهبي. اتهمهم

(×) ورد أول ذكر لها عند "الطبري" فقال إنه في سنة ٢٧٨ هجرية (٨٩١ م) ذاعت أخبار حركة "القرامطة" بسواد "الكوفة" ثم انتقلت الي "الشام" وبعدها عادت إلي "العراق" ومنها إلى "الأحساء"، علي ساحل الجزيرة العربية المواجه ل"البحرين".

(××) "محمد عبد الفتاح عليان" في "قرامطة العراق" الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٠، و"سهيل زكار" في "تاريخ أخبار القرامطة"، سنة ١٩٧٠.

المؤرخون الأوائل بأنهم أبطلوا التكاليف الشرعية مثل الصلاة والزكاة والصيام والحج وبأنهم إحدى فرق الزنادقة والملاحدة من الفرس الذين يدينون بدين "زرادشت" ويعبدون النار ويبيحون المحرمات. ونسبت إليهم أمور غير منطقية: "الخمر حلال عندهم ولا غسل مع جنابة والمرأة مشاع والقبلة إلى بيت المقدس واللواط مباح" كما ذكر أحدهم. وتورط في ذلك عدد من المؤرخين الكبار مثل "ابن الجوزي" (×) في موسوعته عن تاريخ الملوك والأمم ومثل "البيروني" الذي كان من أنصارهم ثم انقلب عليهم ليحافظ على حياته ومصدر رزقه(××).

ومع ذلك ظهرت لدى بعض المؤرخين وخاصة "الطبري" إشارات إلى التزامهم بالفرائض. وأن أنصارهم سموا أنفسهم "المؤمنون المتصورون بالله والناصرون لدينه والمصلحون في الأرض". وذكر غيره عرضا أنهم كانوا يحرمون شرب الخمر وأنهم كانوا يحملون أعلاما بيضاء كتب عليها: "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين". وأفتى "أبو حنيفة النعمان"، أحد أصحاب المذاهب الأربعة المعتمدة، بالقتال إلى جانب "القرامطة"، حسب ما يقول "الخطيب البغدادي" في مؤلفه عن تاريخ "بغداد".

(×) ولد في بغداد سنة ٥١٠ هجرية وتأثر بالفقه الحنبلي وصار واحدا من أعلامه.

(××) مما ساعد المتهجمين عليهم قيام أحد زعمائهم المتأخرين، "أبو طاهر"، بمهاجمة الكعبة ٩٢٩م (٣١٧هج) واختطاف الحجر الأسود الذي احتفظوا به اثنين وعشرين عاما بهدف إذلال الخليفة ومحاولة تحويل مكاسب الحج إلى دولتهم. والغريب أن هذا الفعل لم يتمخض عن تكفيرهم وانما اقتصر على أن يكون مادة للهجوم عليهم. هذا بالرغم من أن "الحجاج الثقفي" لم يتعرض للإدانة بسبب حصاره للكعبة وقذفها بالمنجنيق وإحراقه جزءا منها أثناء حصاره ل"ابن الزبير".

لكن النص الوحيد الذي أنصفهم حقا هو شهادة الرحالة الإيراني "ناصر خسرو"، وهوأيضا النص الوحيد المتوفرلشاهد عيان(×).

كانت المادة الخاصة بالقرامطة متناثرة في عشرات المجلدات القديمة. فلم يفرد أحد من المؤرخين القدامى بحثا كاملا عنهم. وربما كانت أول معالجة مركزة ودقيقة لتاريخهم

(×) ولد "خسرو" عام ١٠٠٣ وفي عام ١٠٥٠ زار "الأحساء" عاصمة دولة "القرامطة" التي حكمها مجلس من ستة أشخاص ،ووصف مشاهداته في كتابه الشهير "سفرنامة" الذي ترجمه الدكتور "يحي الخشاب" إلى العربية وصدرت طبعته الثانية في "بيروت" عام ١٩٧٠. وقد وصف "الحسا" بأنها مدينة كبيرة جميلة جنوب "القطيف" بسبعة فراسخ "غرب البحرين" وبينهما بحر، ومحاطة بأسوار حصينة وبها عيون ماء عظيمة يستهلك كله بها "... "وفيها أكثر من ٢٠ ألف محارب وقيل أن سلطانهم أعفاهم من الصلاة والصوم ...لكنهم يقرون ب"محمد" وبرسالته ". وكان للسلطان ثلاثون ألف عبد زنجي وحبشي يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين. ولا يفرض الحكام ضرائب على الرعية وإذا افتقر إنسان أواستدان ساعدوه حتي يتيسر عمله. وهم يرفضون الفائدة والربا "فإذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذي له " ، "وكل غريب ينزل في المدينة وله صناعة يعطى ما يكفي من المال حتي يشتري ما يلزمه من عدد وآلات ويرد إلى الحكام ما أخذ حين يشاء"، وإذا تخرب بيت أو طاحون أحد الملاك ولم تكن لديه القدرة على الإصلاح ، أمرواجماعة من عبيدهم بأن يذهبوا إليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون دون مقابل.

وفي المدينة "مطاحن مملوكة للسلطان تطحن الحبوب للرعية مجانا ويدفع السلطان نفقات إصلاحها وأجور الطحانين". ويوجد مسجد. ويتم البيع والشراء بواسطة رصاص في زنبيل يزن ستة آلاف درهم فيدفع الثمن عددا من الزنابيل وهذه العملة لا تسري في الخارج. وهم ينسجون فوطاجميلة ويصدرونها إلى "البصرة" التي تبعد عنهم خمسين فرسخا.

"ويحيب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع ولا يشربون الخمر مطلقا"، ويحتفظون بجواد مهيأ بعناية أمام قبر مؤسس الدولة "أبي سعيد الجنابي" ليستخدمه حين عودته إلى الحياة كما يعتقدون وبالمدينة تمر كثير حتى أنهم يسمنون به المواشي.

هى التي قام بها المستشرق الهولندي "ميكال يان دي خويه"(×) سنة ١٨٦٢. أما المؤرخون المحدثون فقد سار أغلبهم على نهج القدامى، بينما نزع البعض الآخر إلى عصرنة الحركة(××) ووصفها بالاشتراكية.

وتعود جذور الموقف الأخير إلى المفكر الفلسطيني (×××) الذي أطلق على دولة "الأحساء" لقب "الجمهورية العربية الاشتراكية".

وكان هناك بالطبع ما يبرر هذا الاتجاه. فقد كانت الدولة القرمطية تحتكرالاقتصاد أو - بالتعبير العصري- ملكية وسائل الإنتاج (مطاحن الحبوب ومعامل الجلود). وقد ألغت كافة أنواع الضرائب وأنشأت نوعا من المصارف التعاونية المملوكة للدولة لمساعدة المحتاجين من أصحاب المهن. وابتدعت نظاما تدريجيا للعدالة الاجتماعية أسمته بنظام "الألفة"، وصل إلى إلغاء الملكية الخاصة. وأقامت في كل قرية مختارا من الثقات يجمع عنده أموالها من غنم وبقرومتاع ويقدم لسكانها حاجتهم من المأكل والملبس. وشجعت الصناع على التخلي عن ولاءاتهم القبلية والتجمع في"اخوانيات الحرفة".

لكن كيف يمكن إطلاق صفة الاشتراكية، وهي مفهوم عصري مرتبط بأوضاع اقتصادية واجتماعية وثقافية

(×) ترجمها من الفرنسية "حسني زينة"، ونشرتها دار" ابن خلدون"، بيروت.

(××) علي رأس هؤلاء زميلي الدكتور "محمود اسماعيل" في مؤلفه الرائد " الحركات السرية في الإسلام" ، "روزاليوسف" ١٩٧٣، الذي وصف فيه الحركة القرمطية بأنها" تجربة رائدة في الاشتراكية".

(×××) ولد سنة ١٨٧١ في القدس وتعلم في روسيا القيصرية وأتقن ١٦ لغة. له ٣٧ كتابا باللغة العربية أشهرها "تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام"، الذي صدر برعاية صديقه الأديب المعروف "خليل السكاكيني" في القدس سنة ١٩٢٨.

مختلفة، على دولة تحتفظ بملكية عامة من ثلاثين ألف عبد من الزنوج والأحباش يعملون بالزراعة وفلاحة البساتين، مهما كانت تقدميتها بالنسبة لعصرها، والتي تتضح بجلاء أكثر في وضع المرأة؟(×)

صادف هذا الخط في التفكير هوى في نفس المشرف، إذ أرضى قناعاته المحافظة ونفوره من أي تنظيم اجتماعي ذي صبغة يسارية وفي نفس الوقت أشبع احترامه لتقاليد البحث العلمي. وانطلقت أعمل على هذا الأساس.

كنت سعيدا بأن أموري انتظمت أخيرا، وأن مقعد الأستاذ الجامعي صار قاب قوسين أو أدنى كما يقولون.

وذات يوم كنت خارجا من مكتبة الكلية بعد رحلة طويلة بين صفحات كتاب "النوبختي" عن فرق "الشيعة"، في محاولة لتقصي علاقة "القرامطة"ب"الاسماعيلية"، فعرجت على بوفيه الكلية. وفي نفس المكان الذي رأيتها فيه لأول مرة منذ ستة عشر عاما بالضبط كانت تجلس.

عرفتها بالطبع على الفور وفقدت توازني عندما التقت عيناي بعينيها اللوزيتين الواسعتين السوداوين ووجهها المستطيل بالوجنتين البارزتين والأنف المستقيمة. أنا الذي تصورت أني قد نسيتها.

وقفت أحدق فيهامنعقد اللسان. وابتسمت هي في رقة وخاطبتني قائلة:

– تغيرت؟

(×) لعبت المرأة القرمطية دورا بارزا في الحياة الاجتماعية ولهذا فإنها لم تحجب أو تمنع من الاختلاط بالرجال. ولم يكن هناك تعدد للزوجات أو زواج للمتعة. بينما كانت الدعارة شائعة في الدولة العباسية وكان الخليفة "عضد الدولة" يأخذ ضريبة على العاهرات ويزعم أن وجودهن حماية للرعية من الجند العزاب.

تلعثمت وأنا أحاول الرد عليها فوضعت يدها على حافة المقعد المجاور وقالت: اقعد.

جلست إلى جوارها في صمت ولم ألبث أن استجمعت مداركي وسألتها عن أخبارها وعن "حلمي". قالت إنهما كانا طوال السنوات الخمس الماضية في الجامعة الخليجية وإنها صارت أم لطفلتين ودكتورة أيضا رغم أنها لم تمارس التدريس بسبب أعبائها المنزلية. وإنهم في "القاهرة" من شهر وعاد "حلمي" إلى الخليج قبل أيام وبقيت هي لإنهاء بعض الأوراق التي يحتاجها ثم تلحق به.

– وأنت؟

لم يبد عليها أنها فوجئت بعدم حصولي على الدكتوراه حتي الآن. وجاءني انطباع أنها تعرف كل شئ عني.

أنهت كوب العصير الذي كانت تشربه ونهضت واقفة، باسطة جسدا مفرودا متينا.

قالت: لازم أطلع للعميد. أشوفك بعدين.

تابعتها بعيني وهي تخطو مبتعدة. وكأنما خطر لها خاطر فتحولت إلىّ قائلة:

– ألا تحب أن تري بناتي ؟

قلت : طبعا.

قالت : إيه رأيك تمر على بكره؟ عندك حاجة؟

لم تنتظر إجابة كأنما أيقنت من قبولي. ووصفت لي منزلها في شارع "جامعة الدول العربية" بحي "المهندسين".

في مساءاليوم التالي اعتنيت بمظهري واشتريت باقة زهور وغالبت اضطرابي والهوة التي أحسست بها في أحشائي وذهبت إليها في الحي الذي صار رمزا على التحولات الاجتماعية الجارية في البلاد.

كان المنزل كما توقعت من البنايات الحديثة التي بنيت

على عجل بعد حرب "أكتوبر" لتستوعب شريحة جديدة من البشرانفردت بثمارها، وتغذت بدماء ضحاياها، واستفادت من فضلات العوائد البترولية وعزمت على إلحاق البلاد بركب العصر بتزويدها ب "سفن أب" و"كوكاكولا" و"مارلبورو"، وأربعين نوعا من السيارات الحديثة.

ولجت مدخلا مهيبا اصطفت أمامه سيارات "مرسيدس" و"بيجو". صعدت درجات رخامية عالية قبل أن أكتشف هشاشة الجدران ورداءة دهاناتها. ورافقني البواب في مصعد ذي باب من الألومنيوم الرقيق يتعذر إغلاقه فيظل أحد مصراعيه مفتوحا.

استقبلتني "جمالات" بذراعين عاريين مرفوعين في الهواء حتى يجف طلاء أظافرها. كانت ترتدي فستانا أبيض اللون ينتهي عند ركبتيها، ويلتصق بجسمها ابتداء من استدارة الكتفين، حيث انطبقت عليهماحافة الرداء كما انطبقت على قاعدة رقبتها.

قادتني إلى صالة واسعة مفروشة من الحائط إلى الحائط بموكيت أبيض اللون يشبه فراء الخراف، البدعة التي وفدت من الشمال، عبر الخليج، دون اعتبار لطبيعة الجو الحار.

جلست في فوتيه ضخم وسط فوضى ضاربة: صناديق من الكرتون من أحجام مختلفة، بينها واحد لجهاز تليفزيون كبير الحجم. قطع ملابس ولعب أطفال متناثرة. تليفزيون أبيض وأسود استلقت أمامه على الأرض طفلتان إحداهما في السادسة من عمرها تحمل ملامح أبيها، والثانية في الثالثة، قطعة من أمها.

حاولت "جمالات" إحداث شيئ من النظام في المكان بينما كنت أتأمل ما طرأ عليها من تغير. فقد امتلأ جسدها واختفى ما كان يميزها من خفر وحل مكانه جلال ورصانة المرأة المدركة لما تملك من جمال وأنوثة.

انهمكت في اعداد العشاءلطفلتيها وإقناعهما بتناوله على المائدة. ثم خضعت لرغبتهما في البقاء أمام التليفزيون. وكنت قد حاولت التقرب منهما ومداعبتهما. لكنهما عاملتاني بجفاء، ربما لأن اهتمامهما تركز على متابعة ضحكات " اسماعيل يسن" البلهاء. ولم يمنعهما هذا من التدخل بمجرد أن يبدأ حديث بيني وبين أمهما، فتستفسر إحداهما عن أحد مشاهد الفيلم وتشكو الثانية من شيئ ما.

صبت لى فنجانا من الشاي وجلست أمامي واضعة ساقا فوق ساق. ووجدت صعوبة في تحويل عيني عن قصبتها الممتلئة المشدودة.

سألتني عن سبب تأخري في الحصول على الدكتوراه التي حصل عليها "حلمي" في ٦٧ أي منذ تسع سنوات. ذكرتها بأنه كان متقدما عني وأني أضعت سنتين في رسوب متكرر ثم سبع سنوات في حرب الاستنزاف.

قالت: ولم تتزوج؟

سددت نظري إلى عينيها مباشرة وقلت: لم أجد من تستحق.

حدثتها عن شلل أمي، واضطراري للبقاء إلى جانبها، الأمر الذي حرمني من الاختلاط بالناس ومنعني من التقدم لإحدى البعثات.

ابتسمت ثم حدثتني عن الملل الذي تعانيه في الخليج وسألتني إذا كنت قد قرأت كتاب"حلمي" عن "السادات" الذي أصدره بعد حرب "أكتوبر"، ووصفه فيه ببطل الحرب والسلام. أجبت بالنفي فوعدت بأن تعطيني نسخة ثم أفضت إلى بأنه يتردد على "القاهرة" بانتظام ليساعد إبنة رئيس الوزراء في الحصول على الليسانس. قالت إن هذا الأمر سر وناشدتني ألا أبوح به لأحد.

انتهى الفيلم وبدأت محاولة اقناع الطفلتين بالاغتسال

والالتجاء إلى الفراش. وأخيرا استقرت أمامي وهي تتنهد. كنت أرتعش. وقمت فجأة وانحنيت فوقها. لم تفاجأ. بادلتني قبلة سريعة ثم تناولت يدي قائلة: تعالى.

تبعتها إلى مخدعها. وتركتني لتطمئن على طفلتيها في الغرفة المجاورة. عادت بعد لحظات فاحتضنتها. تخلصت مني وأطفأت النور، مكتفية بضوء الصالة عبر الباب المفتوح. ثم أعطتني ظهرها وطلبت مني أن أفك لها سحاب الفستان. جذبته إلى أسفل بيد مرتعشة فاشتبك بخيط وعجزت عن تخليصه. تعجبت ضاحكة من أن رجلا في سني لم يكتسب بعد مهارات التعامل مع ثياب المرأة. تولت هي نزع ردائهاوسوتيانها فتدلى ثدياها المنتفخين. همست أنها أرضعت مرتين. لم أعبأ بتهدلهما ولابرائحة الكاوتشوك من أثر السوتيان وهبطت بفمي فوق حلمة حتى استطالت وتصلبت فانتقلت إلى الثانية. ورمقتهابطرف عيني فألفيتها تتأملني في استغراق.

أبعدتني عنها بعد لحظات واستلقت فوق الفراش. أعطيتها ظهري وتخلصت من ملابسي. ثم رقدت بجوارها واحتضنتها. وكانت هي التي أمسكت بزمام المبادرة فجذبتني فوقها ومدت يدها فوضعتني داخلها. تحركتُ برفق وأنا أمتص شفتيها مدققا النظر في وجهها. رددت اسمها قائلا إني أحبها. أغمضت عينيها ثم فتحتهما والتقت عيوننا لكنها لم تكن تنظرإلى. أرهفت أحاسيسي لألتقط مكامن لذتها مصمما على امتاعها وعلى أن أحفر اسمي في جسدها وذاكرتها. هاجمتني الشكوك والهواجس. وخضت معركة يائسة وأنا أحاول السيطرة على نفسي إلى أن بدأت عيناها تفقدان تركيزهما وارتعشت عدة مرات ثم شهقت. شعرت أنها غابت في دنيا خاصة بها ليس لي مكان فيها. وفجأة ظهرت الصغيرة عند مدخل الغرفة وهي تبكي بحرقة.

أبعدتني عنها وقفزت خارج الفراش وهي تلتقط روبا وتغطي عريها. انحنت على الطفلة وحملتها مهدهدة ثم مضت بها إلى غرفتها وتركتني راقدا وسط خليط من الروائح الفواحة والأحاسيس الملتبسة التي تجمع بين الانتصار والإحباط.

عادت بعد قليل واستلقت بجواري. احتضنتها من جديد ثم رقدت فوقها واستقبلتني بغير حماس. سألتني بعد دقائق عما إذا كنت عازفا عن الانتهاء. كنت فعلا مستمتعا بالبقاء داخلها، بالسيطرة على جسدها، ،متوجسا من أن ينتهي كل هذا فجأة. قلت إني أتمنى لو كنا متزوجين لكي تكون في أحضاني طول الوقت فضحكت ساخرة.

عندئذ تركت العنان لنفسي فوق بطنها. ونهضت هي على الفور وأسرعت إلى الحمام وعند عودتها طلبت مني الانصراف لأن الطفلة قلقة ولا تريد أن تنام.

تلفنت لها في اليوم التالي كما اتفقنا فلم ترد. تلفنت عدة مرات في ذلك اليوم واليوم الذي تلاه. ثم ذهبت إلي منزلها وعلمت من البواب أنها سافرت.

وجدت صعوبة في استئناف العمل في الرسالة. كان مشهد لقائنا يخايلني دائما. أستعرضه لحظة بلحظة ويداعبني الأمل فى أن تكون نادمة على فراقي. ولاألبث أن أعجب كيف أنها لم تفه باسمي مرة واحدة بينما كنت أردد اسمها طول الوقت؟ لماذا تجنبتني بعد ذلك؟ لقد التذت بالتأكيد وهو حسب الخبراء دليل التورط الكامل. ولم أكن قد عرفت بعد أن الالتذاذ درجات وذروات وأنه بقدر ما يمثل الأساس في لقاء مشبع وناجح فإنه قد لا يعني شيئا على المدى البعيد. ومع الزمن ونضوجي حلت محلها أسئلة من نوع آخر، أكثر واقعية: أكان ما حدث مجرد نزوة عابرة؟ هل كانت تمر بأزمة ما وأرادت أن تثبت لنفسها أنها مازالت مرغوبة؟ هل أرادت أن تنتقم من"حلمي" لسبب ما؟

مرت أسابيع وأنا عاجز عن العمل رغم تشجيع المشرف لي. ولم يلبث أن خذلني بوفاته المفاجئة في سنة ٧٨. وقام مجلس أساتذة القسم بتوزيع الرسائل التي كان يشرف عليها على بقية الأساتذة. وجئت من نصيب الأستاذ "عبد الظاهر" أو بالأصح جاء هو من نصيبي.

رحب الدكتور "عبد الظاهر" بخطتي للرسالة مما أصابني بالذهول. لأنه كان معروفا بميوله الدينية وبإعلانه أن الاعتقاد في الخلافة شرط من شروط الإسلام. وبالتالي كان أبعد شخص عن الاهتمام برسالتي ذات الموضوع الشائك. قدرت أن الأقدار تقف في صفي. وحرصت على محاولة لقائه كل فترة لأطلعه على تقدمي كي لا تكون هناك مفاجآت. وحرص هو بدوره على تجنب هذا اللقاء. ثم بدأت أسمع إشارات عابرة عنه يهاجم فيها التيارات الإلحادية بين الأساتذة وفي الرسائل العلمية. وبلغني أن الطلاب يلقبونني ب"أبي جهل". ومضى بعض الوقت قبل أن أدرك الفخ الذي وقعت فيه. كان "عبد الظاهر" يستخدم رسالتي لإرهاب هيئة التدريس بالتدليل على التوغل المزعوم للتيار الإلحادي في الجامعة ، معفيا نفسه من كل مسئولية. فليس هو الذي أقر الموضوع منذ البداية كما أنه لم يقبل الإشراف عليها إلا مكرمة منه لروح زميله المشرف السابق.

وكان "السادات" هو الذي أنقذني منه في سنة ٨١ عندما اعتقل كل ألوان الطيف السياسي من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. فقد كان بين المعتقلين، هو و"رشدي". وسارعت بنقل الإشراف على رسالتي إلى أستاذ عائد من بعثة في ألمانيا. وبعد اغتيال "السادات" بشهرين ناقشت الرسالة وحصلت على الدكتوراه أخيرا بمرتبة الشرف. أصبحت عضوا في هيئة التدريس ، وتصورت أن أصعب مرحلة في حياتي قد انتهت. لكني كنت واهما.

** ٢٣

أثبتت نصيحة "شادويك" بشأن جدول محاضراتي فائدتها، إذ مكنتني من تلبية دعوة للاشتراك في اجتماع ل"مركز التعاون من أجل السلام في الشرق الأوسط" في "نيويورك".

وصلت مطار "لاجارديا" بعد خمس ساعات من الطيران. واستقبلني اثنان من أعضاء المركز : شاب يهودي/أمريكي من أصل عربي وصديقته أو زوجته الفلسطينية/الأمريكية السمراء. أقلتني سيارتهما عبر شوارع متوهجة بالأنوار تكدست بها أكياس القمامة السوداء وتدوي بها طول الوقت صفارات سيارات الشرطة والاسعاف.

كان "بن" شابا لطيفا ودودا وكانت زوجته، "هناء"، بالغة الرقة. أخذت تشرح لي معالم المدينة إلى أن اكتشفت أني زرتها من قبل فسألتني عن حياتي في "سان فرنسيسكو". حكيت لها ظروف سكني وكيف أذهب إلى المعهد سيرا على الأقدام. سكتت فترة ثم سألتني عما إذا كنت أعرف قيادة السيارات. أجبت بالإيجاب. وبعد عدة دقائق سألتني عما إذا كانت لدي سيارة في "القاهرة".

تكرر هذا النسق طوال الطريق إلى منزلهما. تسألني عن شئ بطريقتها الهادئة الناعمة. وبعد مدة توجه سؤالا يستكمل إجابتي وهي تتأملني من خلف نظارة طبية خفيفة الدكنة. ولم ألبث أن شعرت أن كل كلمة أو حركة تبدر منها معدة سلفا وأن مخها يعمل طول الوقت في حساب الخطوة التالية. أما "بن" - الذي تولى القيادة-فلم يوجه لي إلا

عبارات قليلة ولم يسألني عن شئ.

توقفت السيارة أمام مبنى سكني في منطقة عربية بحي"بروكلين". حملت حقيبة السفر اليدوية وانتظرتهما حتي أودعا السيارة جاراجا قريبا. وجدت نفسي بجوارحانوت للكتب صفت في واجهته روايات "نجيب محفوظ" وأشعار"فاروق جويدة" وكتب "أنيس منصور". وزينت الجدران الداخلية بصور "عبد الوهاب"و"فريد الأطرش" و"عبد الحليم" و"أم كلثوم" أما الواجهة فاحتلتها صور"راغب علامة" و"عمرو دياب" في إعلانات عن حفلاتهما.

تقدماني إلى مسكن صغير بالطابق الثاني يتألف من حجرتين وصالة، تميز بالبساطة والأناقة والترتيب. أعطياني الغرفة الأصغر التي تواجه مخدعهما. اغتسلت ثم انتقلت إلى الصالة وجلست في مواجهة لوحة كبيرة من النقاط الملونة تمثل مدينة "القدس". وأحضرت لي "هناء" كأسا من النبيذ. بينما انهمك "بن"في اعداد "بيتزا" أكلناها في المطبخ حول مائدة خشبية صغيرة وأنيقة.

لاحظت أن العلاقة بينهما بالغة التهذيب. فهما يتكلمان بصوت خافت ودون انفعال كما لوكانا حديثي التعارف أو مجرد أصدقاء. ولم أتأكد من أنهما على علاقة حميمة إلا عندما رأيت يده تداعب قدمها وتتحسس ساقها.

سألتني "هناء" عن السبب الذي دعاني للاعتذارفي البداية عن عدم الحضور. قلت إن موضوع الاجتماع وهو "المتغيرات الثقافية بالعالم العربي في ظل الخصخصة" موضوع واسع يتطلب متخصصين لست واحدا منهم.

قالت: وهذا هو بالضبط الهدف من اجتماع الغد. تعيين المتخصصين الذين سيساهمون في ورشة العمل.

أضفت بعد لحظة:

– هناك أيضا تمويل مؤسسة" كورد " للورشة المزمعة

فهو سيثير نفور الكثيرين بسبب سمعتها.

أطرق "بن" برأسه قائلا: الحقيقة أن هذا الأمر كان موضع مناقشات حادة بين أعضاءالمركز. إذ اعترض كثيرون عليه. المشكلة أننا بلا تمويل ذاتي ونعتمد على المساهمات الخارجية من الأشخاص والمؤسسات.

عرض على ملفا بالتبرعات التي تحصل عليها المنظمة ومصادرها من مؤسسات مختلفة. ولمحت قائمة بأعضاء مجلس الادارة فتصفحتها. توقفت عند أحد الأسماء وتذكرت صاحبته على الفور.

كانت "جنيفرهندرسون" تعمل في مكتب استعلامات السفارة الأمريكية بالقاهرة من عشر سنوات أو أكثر وزارتني لتعرض على دعوة للقيام بجولة في "الولايات المتحدة" تستمر شهرا. وكنت سأذهب لولا أن "حلمي عبد الله" أغار على المنحة في إحدى زياراته الخاطفة ل"القاهرة".

حكيت لهما القصة فلم يعلقا بشئ. وانشغلت "هناء" بالبحث عن شريط فيديو حتى وجدته فوضعته في الجهاز وهي تقول:

– يمكنك الحصول على منحة من "فولبرايت" لوأردت.

حمل الفيلم اسم سفينة تدعى "أمستاد" أقلت الأفارقة الذين اصطادهم تجار العبيد الأمريكيون. وفي الطريق ثار الأفارقة واستولوا على السفينة. لكن جهلهم بطريق العودة مكن الأمريكيين من استعادة سيطرتهم. وقادوا السفينة بنجاح إلى الشاطئ حيث جرت محاكمة المتمردين.

أعلنت رغبتي في النوم بعد انتهاء الفيلم. واستغرقت في نوم عميق إلى أن أيقظتني رائحة القهوة التي أعدها"بن". أفطرت وأنا أتصفح عناوين "النيويورك تايمز" ..اقتراح توبيخ الرئيس "كلينتون" لكذبه أمام القضاء. يوم الهولوكست العالمي. ... الذهب النازي في سويسرا.. .

أصحاب المساكن يضاعفون حملتهم من أجل تغيير القوانين التي تحول دون زيادة الإيجارات... دعوة للتبرع لأطفال "اسرائيل" الجوعى.

قرأت تفاصيل مصرع أستاذ جامعي نزل في منتصف الليل بحثا عن سجائر. ودخل بقالية مفتوحة فوجد شابا يهدد صاحبها بمسدس. وعندما شعر الشاب بالأستاذ التفت نحوه وأطلق عليه الرصاص.

عثرت في ركن على خبرين من "سان فرنسيسكو" قرأتهما باهتمام. الأول عن عمدة المدينة الذي تعرض لقذوفات من الفطائر قامت بها جماعة تسمي نفسها "كتيبة الخبيز البيوتكنولوجية". وأعلنت الجماعة أنهاتريد جذب الانتباه إلى مشكلة المشردين. وكان الثاني عن شرطي عثر في الواحدة صباحا على مشرد عمره ٣١ سنة نائما في مخيم "ألاميدا"،إحدى الضواحي، فأيقظه. وهب الشاب مذعورا وهو يمد يده دفاعا عن نفسه فأطلق عليه الضابط النار في مقتل.

غادرتنا "هناء" لبعض شؤونها. وأبدت أسفها لأني لن أبقى للغد لتصحبني في جولة بالمدينة. حملت حقيبتي وأقلني "بن"بسيارته إلى مقر المنظمة. استقبلني شاب سوري وفتاة أمريكية بيضاء، سمينة ومرحة. وتعرفت إلى الأمينة المنتخبة حديثا وهي يهودية أمريكية وإلى سيدة خمسينية ضخمة بوجه منتفخ ترأس مكتب مؤسسة "كورد" في "مصر"، ثم ولجنا قاعة صغيرة توسطتها طاولة طويلة التف حولها المشاركون.

بدأ الاجتماع على الفور ورأسه "لندساي"وهو أستاذ لتاريخ الشرق الأوسط، بدأ حياته شيوعيا وكتب عن مصائر اليهود المصريين وعن الإسلام السياسي. كان قد خلع سترته وشمر كمي قميصه عن ساعدين مفتولين ولم يضيع وقتا.

قال إن الهدف من الاجتماع هو الإعداد لورشة عمل في السنة القادمة ستبحث خمس نقاط هي: أثر الإنفاق الحكومي على العمل الثقافي وعلى استقلالية المثقفين، نظرة المبدعين العرب إلى أنفسهم وإلى دورهم، تأثير انتهاء الحرب الباردة على التعبير الثقافي وعلى المبدعين اليساريين بوجه خاص، تأثير تنامي الأصولية الإسلامية على التعبير الثقافي،التطبيع الثقافي مع "إسرائيل".

نقلت البصر بين الجالسين. كنت أعرف بعضهم بالاسم والتقيت باثنين منهم على الأقل من قبل في "مصر" والخارج،إحداهما مصرية سمراء دقيقة الحجم،تقيم ب"الولايات المتحدة"،نسيت اسمها. وكان أغلبهم من جيل واحد يصغرني بعقدين أو عقد ونصف، ويحملون درجات علمية عالية في تخصصات مختلفة، وممن يوصفون بالراديكالية، ويعرفون اللغة العربية فيستخدمون كلمة منهابين الحين والآخر.

بدأ النقاش حول أهداف الورشة المقترحة، والجمهور الذي تتوجه إليه. ونوه "لندساى" بأهمية التركيز على الجوانب العملية.

تدخلت ممثلة"كورد" قائلة: لن نقول للمبدعين العرب ما يجب أن يفعلونه. ونحن لا نشجع أي اتجاه فكري أو فني.

وقبل أن تنتهي من حديثها تلقت هزات رأس متفهمة من أستاذة للعلوم السياسية، لها دراسة معروفة عن العلاقة بين الخطاب الرسمي و الممارسات الثقافية في سوريا.

اعترضت المصرية مطالبة بموقف واضح مما أسمته "فساد التوجهات الثقافية للعهد الناصري".

تذكرت اسمها إذ سبق أن أثارت ضجة بكتاب لها عن "الإسلام وكتابة الجسد".

انتقل النقاش إلى نقطة جديدة. وتابعت بإعجاب اسلوب

"لندساي" في إدارة الاجتماع بكفاءة وإقتدار.

أخذنا فسحة قصيرة فهرعوا إلى مائدة صغيرة في المدخل، صفت فوقها زجاجات المياه وأواني القهوة والشاي وبعض الساندوتشات والفطائر. وتبادلت الحديث مع أستاذ شاب في التاريخ المقارن بإحدى جامعات الجنوب يدعى "روجرز" ذكر لي أنه يعمل في بحث عن "التأسيس الاستعماري والقومي للخطاب الجمالي في مصر القديمة".

استغرقت بعض الوقت في محاولة استيعاب مدلول العنوان الطويل وخف هو إلى نجدتي قائلا وهو يضع يده على ذراعي:

- لا تراع. إنه مجرد عنوان ولا أعرف بعد ما سأكتبه تحته.

ضحكنا وقدمني إلى زميلة له ذات وجه نحيف وعينين غائرتين، متخصصة في الأنثروبولوجيا، قائلا إنها تعد دراسة كبيرة عن طرد اليهود من "مصر".

استفسرت: الأسطورة القديمة أم الحديثة؟

ابتسمت: الخمسينيات.

أنقذني "لندساي" من جدل لاطائل من ورائه إذ دعا الجميع إلى الطاولة.

دار النقاش المركز حول الاعتبارات العملية: المدى الزمني للتحضير، ولانعقاد الورشة ذاتها، طبيعة البحوث المطلوبة والرحلات الميدانية. ثم انتقل إلى تحديد مكان عقد الورشة. وقالت المصرية إن المكان المقترح هو "القاهرة" لكنها تشك في أنه يمكن أن يحفز المصريين على الاشتراك. واقترحت عقدها في "إيطاليا" أو "أسبانيا".

بدا أن الجميع يميلون للأخذ بهذا الرأي فانتقل النقاش إلى تحديد الشخصيات التي ستوجه إليها الدعوة.

أخذ "لندساي" يستعرض الاسماء المرشحة. بدأ

ب "البرديسي" وأكاديمي مصري معروف بالدراسات الإسلامية، وآخر متخصص في تاريخ الفنون يقيم في "الولايات المتحدة"، مخرج مسرحي مصري يقيم معظم الوقت في "فرنسا" ومخرج سينمائي سوري ذي شهرة عالمية، مفكر لبناني يساري، عالمة اجتماع أردنية اشتهرت بكتاباتها عن قهر المرأة، أديبة لبنانية تكتب بالفرنسية والإنجليزية، مدير فلسطيني لمركز دراسات بالأراضي المحتلة.

تأملت الجالسين الذين نجح "لندساي" في تعبئتهم، وبث فيهم النشاط والحماس. كانوا يتحدثون في تركيز واختصار وهم يفتحون أقواسا في الهواء بأصابعهم، بينما عيونهم معلقة بشفاه السيدة المانحة.

قاومت شعورا جارفا بالاكتئاب وألقيت نظرة على ساعتي. حسبت الوقت الباقي على اغلاق أبواب متحف "المتروبوليتان". وانتبهت على صوت "لندساي" يطلب رأي فاقترحت بعض الاسماء ثم خطر لي خاطر فابتسمت وأنا أقترح اسم "حلمي عبد الله".

انتهى الاجتماع بعد نصف ساعة وخرجت برفقة "روجرز" وزميل له أعلنا رغبتهما في مرافقتي إلى المتحف. أقلنا الباص ووصلنا قبل موعد الإغلاق بنصف ساعة. تنقلنا بين القاعات الأربعين المخصصة للجناح المصري (×) والتي ازدحمت بعشرات التوابيت الضخمة حتى بلغنا معبد "دندرة" الذي أهداه "جمال عبد الناصر" للولايات المتحدة تقديرا لمساهمتها في إنقاذ معابد "أسوان" من مياه السد العالي.

(×) يضم الجناح المصري أكثر من ٣٦ ألف قطعة يعود أقدمها إلى ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وأكثر من نصف المجموعة ثمرة التنقيب الذي قام به المتحف في "مصر" لمدة ٣٥ سنة ابتداءمن سنة ١٩٠٦.

عثرت أخيرا على التمثال الكامل للجميلة(×). كان من الجرانيت الأحمر ويصور "حتشبسوت" في حجمها الطبيعي جالسة فوق العرش، ويديها فوق فخذيها. تأملت قوامها المشوق الذي غطاه رداء نسائي حتى قدميها. ثم رفعت عيني إلى الوجه الباسم الذي أحاط به غطاء الرأس الملكي، والفم العريض الذي فتنني منذ الصغر.

بدا نهداها مستديرين ومتباعدين، وبطنها جميلة التكوين ذات لمسة حسية واضحة.

هل أرادت حقا أن تكون رجلا؟

اكتشفت عندما غادرنا المتحف أن رفيقي يجهلان المدينة. وبدونا مثل ثلاثة من القرويين في محطة "مصر".

سمعتهما يتحدثان عن معرض للصور يريدان مشاهدته. وخلع "روجرز" حقيبة يده المعلقة من كتفه بحزام رفيع ثم أعادها مكانها بعد أن لف الحزام حول عنقه.

قال له صديقه: ما فعلته خطر. ألم تسمع عن الممثلة العجوز التي لقت مصرعها في "بارك أفنيو" الأسبوع الماضي؟

لم يسمع "روجرز" بالخبر فروى صديقه التفاصيل. كانت المسكينة حريصة فربطت حزام الحقيبة حول عنقها لتحول دون اختطافها من يدها. وبينما هى تستعد لعبور الطريق عند التقاطع امتدت يد من نافذة سيارة وتعلقت بالحقيبة. وانطلقت السيارة فجذبت العجوز خلفها واختنقت بحقيبتها.

(×) نجحت المؤامرة على اسم "حتشبسوت" مئات السنين حتى أوشكت أن تختفي تماما ثم تجلت حقيقتها تدريجيا في الكشوف المتعاقبة. وظهر صدر هذا التمثال سنة ١٨٦٩ في متحف "أودهيدين" بمدينة "لايدن" الهولندية. ثم عثرت بعثة متحف "المتروبوليتان" على أجزاء أخرى منه قرب معبد "الدير البحري" في أوائل عشرينيات القرن الماضي، وقام المتحف أخيرا بتجميع أجزائه، وانتصر التاريخ!!

خلع روجرز الحقيبة من جديد وأمسكها بيده وهو يتلفت حوله. وتعلقت عيناى بملصق ملون يمثل طابورا من الرجال والنساء والأطفال يتصدره عنوان كبير: "انضموا إلى المعركة ضد الأمية". وقرأت في ذيل الملصق: "في عام ٢٠٠٠ سيكون اثنان من كل ثلاثة أمريكيين أميين. هذا صحيح. فهناك اليوم ٧٥ مليون بالغ لا يستطيعون القراءة".

ولجنا محطة لمترو الأنفاق وعكف رفيقاي على دراسة خارطة للاتجاهات. تبينا الطريق أخيرا فاتجهنا إلى الرصيف. مررنا بشاب أسود في بزة سوداء كاملة، يعرض في أدب مجلة "النداء الأخير" الصادرة عن حركة المحترم "لويس فاراخان"، فأعطيته دولارا وأخذت المجلة المعطرة برائحة البخور. كانت صفحتها الأولى تحمل نبأ عن حي "بروكلين" مفاده أن المنظمات السوداء والسمراء، بدعوة من الملك "تون"، قائد "منظمة الشارع للملوك اللاتين"، اتفقت فيما بينها على تجنب العنف. وعددت زاوية خاصة بعضا من تعاليم المحترم "ايليا محمد": السود هم شعب الله المختار، البعث يتمثل في تحريرهم، ولا بد من الانفصال عن البيض بتقسيم "أمريكا" بينهم وبين ٢٠ مليون أسود. وتلى ذلك إشارة إلى نجاح الحركة في تنظيم مسيرة من مليون مسلم منذ شهور.

أقلنا المترو إلى "القرية"، حي المثقفين والأدباء والفنانين. تجولنا قليلا في الشوارع المزدحمة التي تحف بها بيوت قديمة واطئة. ثم جلسنا في بار غريب اسمه "ك ج ب"، على اسم جهاز المخابرات السوفيتي الشهير، تمتلئ جدرانه بملصقات السنوات الأولى من الثورة البلشفية، وصور "لينين" بمعطفه الأسود وقلنسوته الشهيرة يخطب في العمال والجنود، وزوجته "كروبسكايا" في ملابس عسكرية.

شربنا بيرة مكسيكية وانتقلنا إلى معرض الصور. ولجنا مكانا واسعا من عدة قاعات تناثرت في أنحائها تماثيل من الزجاج تصور لقاءً جنسيا بين رجل وامرأة في أوضاع مختلفة. واحتلت الجدران صور فوتوغرافية ملونة، في أحجام ضخمة، تمثل ذات الرجل والمرأة في نفس الأوضاع.

لم يكن وجه المرأة واضحا في الصور إلا أن صديق "روجرز" قال إنها "شيشيونا" الممثلة الشهيرة التي رشحت نفسها عارية لانتخابات البرلمان الايطالي (×). أما الرجل فهونفسه زوجها النحات الأمريكي "جيف كوونز". وكان يقف خلف قائم خشبي يصل ارتفاعه إلى ذقنه، يشرف منه على الزوار الذين كانوايبتسمون في ارتباك وخجل وهم يتأملون قضيب سيادته في الفتحات المختلفة لجسد زوجته. كان يرتدي بزة سوداء عتيقة وربطة عنق سوداء دقيقة العقدة ويواجه الناس بوجه أبيض جامد خال من التعبير، حريصا على ألا تلتقي عيناه بعيني أحد.

طفنا بجميع القاعات على مهل ثم خرجنا. وشرعنا نبحث عن مكان نتناول فيه طعام العشاء.

(×) أسست الممثلة الايطالية "شيشيونا" أو "ليونا شتالر" حزب الحب في عام ١٩٧٩ ودخلت البرلمان الايطالي في ١٩٨٧بعد أن نالت عشرين ألف صوت. وفي عام ١٩٩١ تزوجت النحات الأمريكي ثم طلقته فيمابعد.

٢٤ * *

قدمت "ميجان" عرضا طموحا، توخى المقارنة بين نموذجين للتحديث من خلال ثلاث تجارب، تجمع بينها فترة متقاربة هي منتصف القرن التاسع عشر، وهي اللحظة التي كانت "الولايات المتحدة" تتحول فيها بسرعة إلى القوة الاقتصادية الأولى في العالم.

تبنّت وجهة نظر المدرسة السائدة في الأكاديميا الأمريكية والتي تركز على فشل ما تسميه "النمو من أعلى أو التصنيع بالأمر" و"التنمية المبتسرة". والتي تسخر ممن يلقون على عاتق "الإمبرياليين وعملائهم المحليين" مسئولية فشل هذا النوع من التحديث. واتخذت لذلك مثالين، من "باراجواي" و"مصر"، اعتمدت فيهما على "الكتاب الأخير ل"ديفيد لاندز"، أستاذ التاريخ الاقتصادي في جامعة "هارفارد"، الذي صدر للتو تحت عنوان "ثروة وفقر الأمم"(×). واختارت للنموذج المقابل المعجزة اليابانية.

(×) ينتمي هذا الكتاب الذي جاء في ٦٥٠ صفحة مستنداإلي أكثر من ١٥٠٠ مرجع، إلى المحاولات الموسوعية التي ميزت كتابة التاريخ في النصف الثاني من القرن العشرين. ويتقاطع في أكثر من موضع مع مجلد "برودويل" الضخم عن الحضارة المادية. وهو يحاول أن يجيب على سؤال رئيسي: لماذا اغتنت بعض الأمم وافتقرت غيرها؟

ومنذ البداية يحاول التقليل من أثر النهب الاستعماري في هذا التباين بين مصائر الأمم، بل ويقطع بأن الاقتصاديات الأوروبية لم تكسب على الإطلاق من المستعمرات. ولا يمل من اتهام المعادين للإمبريالية والرأسمالية والعنصرية والرق (ويسمي على رأسهم "ادوار سعيد" و"سمير أمين" و"نعوم شومسكي" و "حليم بركات") بأنهم "تبريريون". وإذا كان يعترف أحيانا كثيرة بآثام النظام الغربي في حق بقية الشعوب، فإنه لايلبث أن يتملص من نتائج هذا الاعتراف. فمستوطنو الجزائر

قالت إن " باراجواي" وقعت بعد الاستقلال عن "أسبانيا"، تحت الحكم الديكتاتوري ابتداء من عام ١٨١٤. كان أول ديكتاتور، دكتور"جاسبار دي فرانسيا" ، يعقوبيا متطرفا، معاديا للملاك والبرجوازيين ، سعى إلى إنشاء جمهورية المساواة ، فقمع النخبة الأسبانية القديمة. ومنع البيض من التزاوج فيما بينهم وفرض عليهم أن يتزاوجوا مع الهنود والمولّدين والسود.

وأراد خليفتاه ،"لوبيز"الأب والإبن ، تحويل البلاد إلى"اسبارطة" متنورة، فجعلوا المدرسة الأولية إلزامية ومجانية ، يرتدي معلموها ملابس رسمية. وأعطوا لكل تلميذ "فلوت"، تقديرا لأهمية الموسيقى، وهي الأهمية نفسها التي أولتها مدارس "محمد علي" للموسيقى في نفس الفترة.

اعتمدت "ميجان" على أوراق تناثرت أمامها في غير نظام وعندما جاء ذكر "محمدعلي" ابتسمت لي. ففي نقاش سابق بيننا أثناء تحضيرها للموضوع ، تكشف جهلي باهتمامات "محمد علي"الموسيقية.

قالت إن قادة "باراجواي" صمموا على بناء اقتصاد وطني والحصول على السلاح الضروري للدفاع عنه، فاستوردوا من "أوروبا" القوارب والمحركات البخارية ومسبكا للحديد وأسلحة قديمة وصغيرة. ودفعوا ثمن

= الفرنسيون ، في عرفه، كانوا أبرياء لأنهم أحبوا شعبها وطبيعتها وصدموا عندما ووجهوا بالكراهيةمن جانب الوطنيين ! والهولنديون والإنجليز كانوا يسعون إلى التبادل لا الاحتلال لكنهم رفضوا أن يتعرضوا للسرقة والاستغلال بواسطة التجار والرسميين المحليين، وعندما واجهوا المتاعب طلبوا العون من حكوماتهم! ونماذج التنمية المستقلة "دون كيخوتية". وهو يتجنب بالمرة ذكر المشروع الناصري والعدوان الإسرائيلي الذي أجهضه، اللهم إلا في إشارة عابرة يقول فيهاعن العرب: "لو لم تكن" إسرائيل" موجودة لأمسكوا برقاب بعضهم البعض". كما يدعي أن ظاهرة الإمبريالية تلاشت في النصف الثاني من القرن العشرين.

المشتريات من حصيلة الصادرات الضئيلة ومن قروض متواضعة. وشرعوا في مد خط حديدي ووضع أساس شبكة للتلغراف. لكن العمل سارببطءبينما أثارت هذه التجربة الثورية استياء الدول المجاورة. هكذا تكون في عام ١٨٦٤ حلف ثلاثي من"البرازيل" و"الأرجنتين" و"أوروجواي" نجح في سحق الوباء بعد ثلاث سنوات من المقاومة ، مات "لوبيز" وابنه في نهايتها مع سبعين بالمائة من السكان.

ملأت كوبا من القهوة من ترموس أحضرته معها قبل أن تنتقل إلى النموذج المصري. شرحت كيف تهاوت الإمبراطورية العثمانية نتيجة العزلة الفكرية والتخلف التقني والتبعية الصناعية. وقالت إن "مصر" وحدها - من بين أجزاء الإمبراطورية المترامية الأطراف- هي التي شذت عن ذلك وانطلقت في عملية تحديث شاملة بعد أن نامت طويلا في ظل المماليك حتي نسيت العجلة ، التي سبق أن طارد بها فراعنتها الغزاة.

أرجعت هذا التطورإلى الدور الشخصي ل"محمد علي". قالت إنه تميز بالطموح والخيال ولم ير في "مصر" ولاية محدودة المدة وإنما ضيعة شخصية ومجال للنمووالتطور.

ونظر إلى هذا التطور كعملية متكاملة تشمل الزراعة والصناعة والتعليم. وليحقق كل هذا استقدم الفنيين الأجانب. وكان أغلبهم من الفرنسيين غيرأنه اكتشف أيضا "الولايات المتحدة" عندما سمع عن كثرة المخترعات الميكانيكية بها وقدرتها الفائقة على استغلال قوة البخار في الصناعة فبعث يشتري منها مضربا للأرز ومعصرة لزيت بذرة القطن مقابل حاصلات مصرية.

سددت صادرات القطن طويل التيلة الذي ابتكره له مستشاروه الفرنسيون كلفة طموحاته الاقتصادية والعسكرية. وجاء الباقي من محاصيل أخرى، بيعت مثل

القطن من خلال وكالات حكومية، الأمر الذي جنبه الالتجاء إلى فرض المزيد من الضرائب. وابتداء من عام ١٨٢٠ ، انصب الجزء الأكبر من هذه المداخيل في جهد تعليمي وصناعي ضخم : مدارس فنية وعسكرية، مصانع للنسيج والمعادن والكيماويات والحبال والسلاح والسفن(نجحت في إنزال أول سفينة تجارية حربية من صنع "مصر" في سنة ١٨٤٨). بل سعى إلى شراء الآلات الأوروبية وتقليدها ، كما فعلت "الولايات المتحدة" بالضبط قبل نصف قرن. ولتحقيق هذا الهدف احتكر "محمد علي" تصدير محصول القطن ووضع القيود في وجه استيراد السلع القطنية الأجنبية. وأثار ذلك جنون المصالح الصناعية والتجارية الأوروبية. ففرضوا على "مصر" "حرية التجارة" في عام ١٨٣٨وجردوها من الحواجز الجمركية وقيود السوق الضرورية لحماية الصناعات الوليدة.

انضمت "ميجان" بعد ذلك إلى "لاندز" في هجومه على من حملوا الغرب مسئوولية فشل مشروع "محمد علي"، معتبرا أن المشروع برمته كان خاسرا من الأساس. والمشكلة الأولية في رأيه تكمن في عجز "مصر" الثقافي والاجتماعي فالمستثمرون المحليون كانوا نادرين وأغلبهم من الأقليات القبطية واليهودية واليونانية. والصناعة المحلية كانت تتم في حوانيت وأكواخ يفتقر أصحابها إلى المعرفة والمال والرغبة في التحول إلى الميكنة. وحده "محمد علي" تخيل اقامة مصانع في "مصر" وأقامها بقرار سلطوي، بينما لم تكن البلاد جاهزة لثورة صناعية، شأنها شأن "باراجواي"بعد عقد ونصف عقد، وشأن "مصر"نفسها اليوم.

التجأت "ميجان" إلى إناء القهوة مرة أخرى وراقبت شفتيها الدقيقتين وهما ترتشفان السائل الأسود برهافة العصفور، قبل أن تنتقل إلى الجزء الأخيرمن عرضها.

قالت إن التدخل الخارجي الذي تمثل في فرض حرية التجارة على "مصر" تكرر مع اليابان بعد خمس عشرة سنة. فقد وجه لها الكوماندور الأمريكي "بيري" سنة ١٨٥٣إنذارا بفتح أبوابها أمام التجارة الدولية. وعلى عكس ما حدث مع "مصر" اعتبر هذا التاريخ بداية تحديث "اليابان". وفي اللحظة التي تهاوت فيها "باراجواي" بعد عقد ونصف عقد أمام التدخل الثلاثي ، كان اليابانيون يبنون بتركيز ونظام يتميزون بهما.

بدأوا باستئجار الخبراء والفنيين الأجانب وإرسال العملاء إلى الخارج ليجلبوا تقريرا عينيا عن أحوال "أوروبا" و"أمريكا". لم يضيعوا فرصة واحدة للتعلم : بريد ، توقيت جديد ، خدمة عسكرية للجميع أنهت احتكار فرسان "الساموراي" للسلاح ثم محت دورهم في المجتمع. هنابدأ التصنيع.

ومنذ البداية قرروا تجاوز السلع الاستهلاكية إلى صناعة الآلات والمحركات والسفن والقاطرات والموانئ. ولعبت الحكومة دورها في ذلك بتمويل عمليات الاستكشاف في الخارج واحضار الخبراء الأجانب وإقامة المباني والتركيبات اللازمة والمشاركة في المشروعات التجارية. لكن الأهم هو موهبة وتصميم الوطنيين اليابانيين الذين كانوا مستعدين لتغيير مهنهم ومسيرة حياتهم من أجل القضية العامة، وقنعوا بأجور بائسة وعمل متواصل بلا يوم راحة. يضاف إلى ذلك نوعية العاملين وخاصة المهرة منهم الذين تشكلت مهاراتهم من خلال عمل الفريق تحت إشراف دقيق. كل هذا صنع المعجزة اليابانية.

كانت تتحدث بحماس مبرر. ولم تفقد هذا الحماس عندما افتتح "فيرنون" النقاش قائلا إن عرضها لم يوضح سر النجاح الياباني والفشل المصري. فالبلدان أطلقا عملية

التحديث في نفس الحقبة التاريخية تقريبا لكن "اليابان" تمكنت من التمثل السريع للتكنولوجيا وطرق التنظيم الاقتصادي في حين تخلفت "مصر".

ردت عليه معددة أسباب التفوق الياباني : فموقعها الجغرافي حماها من التدخل الخارجي عبر تاريخها الطويل. كما إنها تمكنت من الاستفادة من التراكم المالي والمدخرات التي جمعت في سنوات العزلة، وهوالأمر الذي حال النظام المملوكي دون حدوثه في "مصر".

ترددت لحظة ثم أضافت وهي تنقل البصر بيني وبين "فادية" : ربما أيضا الفرق في السمات الشخصية. فالياباني يتميز بالانضباط والتفاني في العمل. وهناك أيضا الديموقراطية.

وجدت نفسي مدفوعا للتدخل. لكن "لاري" سبقني قائلا وقد اندفعت الدماء إلى وجهه كالعادة : "اليابان" في الظاهر بلد ديموقراطي لكنه ليس كذلك في الواقع. فهو محكوم جيدا بمجموعة قليلة متداخلة من البيروقراطيين والرأسماليين وعصابات "الياكوزا" أو المافيا. هذه المجموعة لم ينتخبها أحد. ومعظم اليابانيين يعرفون هذه الحقيقة. فلماذا يقبلون بها ؟ إنه سؤال يمكن توجيهه في أماكن كثيرة مثل "الولايات المتحدة" و"مصر". لماذا يطيع الناس بإرادتهم السلطة القائمة؟

جال ببصره بيننا ثم وجه الحديث وجهة أخرى. قال وهو يتحسس قرطه إن لديه شكوكا كثيرة بشأن مصطلح "المعجزة اليابانية". هناك فعلا منجزات صناعية. لكن إلى أي مدي هي من صنع الشعب الياباني نفسه؟ ألايجلس الكومندور "بيري" الآن على رأس الشركات اليابانية العملاقة؟ وألا تحتل القوات المسلحة الأمريكية أكثر من ١٥٠قاعدة عسكرية منتشرة في الجزر اليابانية، تضم عشرات

الألوف من الجنود الأمريكيين المعفيين من الخضوع للقوانين والمحاكم المحلية؟ وألا تحتفظ هذه القوات - على الطريقة الاستعمارية القديمة -بحق قمع الاضطرابات الداخلية؟ ثم ما هو الإعجاز في الأزمات المتوالية التي يعانيها الاقتصاد الياباني؟ هذا العام وحده ، ١٩٩٨، الذي لم ينته بعد، انتحر أكثر من ثلاثين ألفا من العمال اليابانيين، أغلبهم بسبب الطرد من العمل. وحسب المصادر اليابانية أيضا زادت نسبة الوفيات بين العاملين بسبب العمل المفرط والإرهاق.

عقبت "فادية" على الجزء الخاص ب"مصر" فقالت إن الاستشهادات التي أوردتها"ميجان" من كتاب " لاندز" محيرة. فهو يفترض أن التصنيع لا يمكن أن ينجح دون حماية جمركية وإعفاءات ضرائبية وحسومات على أسعار النقل وقوة عمل رخيصة وتسهيلات ائتمانية وسياسات تعليمية، الخ. وهي كلها أمور لا يمكن أن توفرها-حسب قوله-سوى حكومة تتمتع بنصيب كبير من الاستقلال السياسي والمالي. ومن ناحية أخرى يقول إن تحقيق الاستقلال السياسي والمالي يتطلب المرور بالتصنيع. تماما مثل قضية البيضة والفرخة ، أيهما أسبق؟

أجبت مختتما النقاش : موقف "لاندز" واضح منذ أول كتاب له في الستينيات(×). لكن هناك بعض الحقيقة في

(×) هو "بنوك وباشوات" (١٩٥٨) الذي يمثل رسالته لنيل الدكتوراه ، وترجمه إلى العربية أستاذ الرياضيات المصري "عبد العظيم أنيس" ("دار المعارف" سنة ١٩٦٦)، وتناول فيه أعمال النهب التي قامت بها شركة قناة "السويس" والمستثمرون الإنجليز والفرنسيون والألمان والنمساويون واليونانيون لخزانة "مصر" وفلاحيها ، والأساليب الماكرة التي التجأوا إليها لدفع البلاد إلى هاوية الإفلاس ثم الرقابة الثنائية حتي مؤامرة الاحتلال البريطاني في ١٨٨١.

لكن "لاندز" لم يكن ذلك المؤرخ الموضوعي الذي ينحاز إلى جانب الحقيقة انحيازا مطلقا. فهو يقول في نهاية الكتاب: "كان معظم

تشخيصه لحالة "محمد علي". وأقصد بذلك آثار العهد المملوكي ثم العثماني على الحياة الاقتصادية والثقافية ل"مصر"(×). وهذا لا ينفي أنها كانت أول محاولة من مجتمع متخلف غير غربي لبناء اقتصاد صناعي حديث. ولا شك في أن التدخل الأجنبي - الذي توج بالاحتلال الإنجليزي في ١٨٨١ قد وأد ثورة "مصر" الصناعية أو عطلها على الأقل لمدة قرن كامل.

= الأوروبيين في "مصر" يعيشون وفقا للمبادئ .....غير أن الجميع كانو متفقين على أن المجتمع المصري متخلف ..وأن مقاييس السلوك المقبولة في "أوروبا" - قيم الأمانة والتعامل العادل والتعقل، الخ. التي تشكل على الأقل المبدأ في العلاقات الاجتماعية والمالية في الغرب - ينبغي أن تعدل حتى تناسب ظروف هذه البيئة الغربية" !! وقد لاحظ "عبد العظيم أنيس" بحق في تقديمه لترجمة الكتاب "أن المؤلف، رغم كل منهجه العلمي وعرضه الصريح وأمانته التاريخية، لم يبرأ من تأثير الدعاية الاستعمارية". وهو تعقيب مهذب يضعه في موقع الضحية البريئة، على عكس ما كشف عنه مؤلفه الأخير.

(×) أورد "أحمد صادق سعد" في المرجع السابق الإشارة إليه المقتطف التالي ل"فردريك أنجلز" الذي يلمس وجه الشبه بين محاولة التحديث المصرية وبين المحاولة الروسية في العهد القيصري: "إن المحاريث البخارية الخاصة بالخديو- يقصد "محمد علي" - والراقدة في النيل، وكذلك آلات الدراس الخاصة بالنبالة الروسية والواقفة دون حراك في عنابرها، لهي برهان على الآتي: للبخار الخ أيضا شروطه التاريخية المسبقة اللازمة، تلك التي - وإن كان يسهل إقامتها نسبيا- الا أنه لا بد من أن تقام على أية حال".

ويقول "سعد" إن التحول الرأسمالي كان في بدايته عندما قام حكم "محمد علي" وفي ظله قطع هذا التحول شوطا واضحا لكنه لم يصل إلى النضج وظل النسق المصري محتفظا بالكثير من السمات الانتقالية. وأدى تقييد نظام "محمد علي" بأهداف التصدير إلى إدخال الاقتصاد المصري في النطاق الرأسمالي العالمي بأزماته كما أن التحولات التي حدثت كلفت الشعب المصري ثمنا هائلا (ثقل الضرائب واحلال القطن

أعلنت عن استراحة قصيرة دعوتهم خلالها إلي شرب القهوة على حسابي احتفالا بعيد "الهالووين". هبطنا إلى الطابق الأرضي وغادرنا المبنى من الباب الخلفي المطل على الكافيتريا. تقدمتني "ميجان" في طابور طويل وجاهدت نفسي حتى لا ألمس مؤخرتها الصغيرة المدكوكة التي أبرزها ضيق بنطلون الجينز. وحل دوري فدفعت حساب المشروبات بينما تعاونت "فادية" و"ميجان" في حمل أكواب القهوة إلى الآخرين. وتبعتهما على مهل وسط الزحام حاملا قهوتي. وعندما بلغت المائدتين اللتين تحلقوا حولها وجدتهم مشتبكين في نقاش حاد حول قصاصة من صحيفة أمريكية تحملها "شرلي".

ذكرت لي "فادية" أن القصاصة تشير إلى فتوى لأستاذ بجامعة "الأزهر" المصرية بشأن مرض الصرع. فهو يزعم أنه يمكن أن ينشأ عن فعل الأرواح الشريرة. ويتم شفاؤه إذا ما خاطب المعالج الروح الشريرة باسم الله وأمرها بالخروج من الجسد الذي تلبسته.

دافعت "فادية" عن الفتوى، وانضم "فيرنون" إليها، بينما سخر منها "لاري" و"شرلي"، وتابع "سابك" النقاش

= محل الزراعات الغذائية ثم الأوبئة والحروب وبدء انهيار النظام الصناعي المصري منذ ١٨٤٠ لضخامة التكاليف وتعبئة العمال في الجيش) وتمخضت من ناحية أخرى عن تكوين طبقة كبار الملاك والسيطرة التجارية الأجنبية على "مصر" والتي صارت بعد ذلك مالية ثم عسكرية أيضا.

ويعارض "صادق سعد" الأطروحة المنتشرة في الحركة الوطنية المصرية والتي ترى أن الاستعمار دون غيره سبب التخلف. ففي رأيه أن هذه الفكرة تنطلق من فرضية غير تاريخية وغير علمية تقول أن "مصر" كانت في سبيل النهضة لو لم يتدخل الاستعمار. لقد كانت "مصر" متخلفة قبل الاستعمار الأجنبي وبفعل نظامها الخاص ثم عملت الطبقات القديمة مع القوى الأجنبية على استمرار التخلف المصري وجعله مزمنا.

باهتمام شديد دون أن يعلق بشيء. وتدخلت "دوريس" قائلة إن كثيرا من الأمريكيين يعتقدون بوجود شياطين تسكن الإنسان وتؤكد وجودها بما يعتريه من تقيؤ وتشنجات في العنق و بل يمكنها أن تُنطق الناس بلغات أجنبية.

أمن "لاري" على حديث "دوريس" قائلا إن أبرشية "شيكاغو" عينت طاردا متفرغا للأرواح الشريرة يبارك المصاب باسم "المسيح" ويرتل فقرات من "التوراة" ثم يأمر الروح الشريرة بالرحيل. وأضاف: هذه ظاهرة قديمة اختفت في الستينيات. ويبدو أنها عادت الآن.

أوقفت النقاش المحتدم طالبا منهم الصعود لنستأنف الدرس. وانتظرت حتي تقاطروا في بطء نحو الباب ثم تبعتهم. وعندما تجاوزت المدخل لمحت ملصقا صغيرا في حجم صفحة الكراس مثبتا في لوحة إعلانات. تألف الملصق من صورة فوتوغرافية لرأسين حليقين متقاربين.

ظننت في البداية أنهما لفتاة سوداء وشاب أبيض إلى أن تبينت الرموش الطويلة في الرأس الأبيض وملامحه الأنثوية ثم أعدت قراءة العنوان : "رقص كويير". تذكرت أن "كويير" هو أحد المصطلحات التي تطلق على المثليات فأعدت تأمل الملصق. كان يحمل في أعلاه عنوانا لموقع على "الانترنت". وظننت أن في الأمر مزحة إلى أن قرأت في الأسفل اسم القاعةالتي سيعقد بها الحفل وتاريخه.

عدت أتأمل الصورة في فضول. كانت الفتاة السوداء عارية الكتفين. والأخرى أيضا فيمايبدو وإن لم يظهر منها غير عنقها. خالجني انطباع بأن السوداء أطول قليلا من البيضاء رغم تقارب رأسيهما. ثم تبينت السبب فقد كانت عيناها متجهتين إلى أسفل ، إلى شفتيّ الفتاة البيضاءالتي ثبت قرط في إحداهما، بينما أحاطت رأسها بيد امتلأت أصابعها بالخواتم. وبدت الأخرى مستسلمة خاضعة تتأمل

مترقبة شفتي السوداء المنفرجتين. كان في هيئةالسوداء نوع من الإعتداد والسطوة بينمابدت البيضاء خاضعة مستسلمة.

لمحت ملصقا مماثلا في طرف اللوحة فانتزعته وطويته ووضعته في جيبي. وصعدت إلى قاعة المحاضرات.

قمت بتقديم "مونا" فذكرت أنها وعدتنا بدراسة عن مذبحة "دير ياسين" الفلسطينية وأنها غيرت رأيها وفضلت أن تتناول مذبحة أخرى مصرية ، جرت في قرية "دنشواي"بعد ربع قرن من الاحتلال الإنجليزي ل "مصر".

تناولت"مونا" نظارة قراءة من حقيبة يدها ووضعتها فوق أنفها ثم قرأت من كراستها تفاصيل الحادثة المشهورة.

ففي ١٣ يونيو ١٩٠٦خرج خمسة من ضباط الجيش الإنجليزي للصيد في قرية "دنشواى"، فجاس بعضهم خلال أجران القمح وأطلقوا رصاصهم على بعض الحمام ، فأصابوا زوجة المؤذن. كما أصابوا جرنا يملكه فاشتعلت فيه النيران. أهاج ذلك الزوج وبقية الأهالي فهاجموا الضباط وتولى الغفر تجريدهم من أسلحتهم واحتجازهم بينما تمكن ضابطان من الفرار. كان أحدهما جريحا في رأسه وبعد أن جرى عدة أميال في حر الظهيرة وقع أرضا. وعثرت عليه سرية بريطانية ميتا وبجواره قروى يحاول اسعافه ببعض الماء. اعتقد الإنجليز أنه القاتل فضربوه حتى الموت بكعوب البنادق.

تحرك الجهاز الإداري بسرعة وألقى القبض على مئات من الأهالي وقبل انقضاء سبعة أيام على الحادث تشكلت محكمة خاصة وحدد لانعقادها يوم ٢٤ يونيو. كان أغلب أعضائها من الإنجليز ولم يكن بها من المصريين إلا "بطرس غالي"وزير الحقانية رئيسا للجنة وأحمد فتحي باشا زغلول ،

شقيق "سعد زغلول" الذي تزعم الثورة بعد ١٣ سنة. وقدمت السلطات للمحاكمة ٥٢ متهما طالب الادعاء بإعدامهم.

وبعد ثلاثة أيام صدر حكم المحكمة بالإعدام شنقا لثلاثة، وبالأشغال الشاقة المؤبدة لاثنين وبمدد متفاوتة لثمانية وبالجلد خمسين جلدة لخمسة، على أن يتم التنفيذ في اليوم التالي دون مجال لمراجعة الحكم أوتخفيفه.

نصبت المشانق في القرية وتم إعدام المتهمين على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأبنائهم. وعرت البلاد كلها صدمة كانت بمثابة نقطة التحول في تاريخ الاحتلال البريطاني، إذ انتهت بها فترة من السلام والهدوء لتبدأ مرحلة من النضال المستمر ضده.

خلعت "مونا" نظارتها ورفعت عينيها عن كراستها قائلة إن الباحث الإسرائيلي "ماتيتياهو بيليد" (×) شكك في مصداقية هذه القصة. فالمحضر الوحيد بشأنها سجله مصرى لا يعرف الإنجليزية وبالتالي لم يكن بوسعه فهم شهادة الشهود الإنجليز. وتختلف هذه التسجيلات في مواقع كثيرة عما نشرته "الاجيبشان جازيت" التي يفترض أنها أقرب إلى السجل الرسمي. وهكذا بالرغم من مائتي صفحة من المذكرات التي دونت بالعربية أثناء المحاكمة لا توجد وثيقة معتمدة لكل ما جرى أثناءها. ويضاف إلى ذلك تعدد الصيغ التي راجت بعد الإعدامات عن وقائع الحادث. كل هذا يجعل الشك فيما يكون قد حدث حقيقة أمرا واردا. وهو موقف مربك للمؤرخ.

وضعت "مونا" نظارتها من جديد وعادت إلى كراستها

(×) ولد في "حيفا" عام ١٩٢٣. وبدأ حياته العسكرية عام ١٩٣٨ في صفوف عصابات "الهاجاناه" و"البالماخ" الصهيونية. واشترك في قيادة الهجوم الإسرائيلي على "مصر" سنة ١٩٦٧ثم تقاعد من الخدمة العسكرية بعد سنتين برتبة ماجور جنرال. وبعد سنتين أخريين حصل على الدكتوراه

قائلة: اهتم "بيليد" بالأعمال الأدبية التي تناولت المذبحة ومنها قصيدة مشهورة للشاعر "صلاح عبد الصبور" يقول فيها: "شب "زهران" قويا ونقيا / يطأ الأرض خفيفا وأليفا". أكد "بيليد" أن "زهران"، طبقا لمحضر الحادث، كان مجرما موسميا ذا تاريخ طويل في خرق القانون ووصفته المحاضر بأنه زعيم العصابة الذي حث القرويين على الاساءة إلى الضباط.

واستشهد "بيليد" بقصة أخري هي "عذراء دنشواى" ل "محمود طاهر حقي" نشرت بعد ثلاث سنوات من الحادث، وتصور القرية على أنها موطن صراعات وعداوات بين أهلها تجعل سوء النية وحب الانتقام دوافع قوية وحقيقية لسلوكياتهم. وطبقا للقصة فإن بعض المتهمين أدانتهم شهادات كاذبة لمواطنيهم. كما أن وكيل النيابة "ابراهيم الهلباوي" كان شرسا في هجومه على القرويين وأبدى خضوعا تاما للبريطانيين معبرا عن مصري طموح مصمم

= في الدراسات العربية من جامعة "لوس أنجلوس" وصار أستاذا للعربية الحديثة في جامعة "تل أبيب"، ورأس قسم الدراسات العربية من ١٩٧٤-١٩٧٧. وكان أيضا أستاذا زائرافي مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة "هارفارد" الأمريكية وفي "السوربون" الفرنسية وباحثا بالمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي. ونشر دراسة عن أعمال "نجيب محفوظ" الفائز بجائزة "نوبل". وفي ١٩٧٥ شارك في تأسيس المجلس الإسرائيلي للسلام الذي عقد اتصالات منتظمة بمنظمة التحرير الفلسطينية. وفي ١٩٨٤ شارك في تأسيس القائمة التقدمية للسلام وهي حزب يهودي عربي دعا إلى المساواة بين كافة مواطني "إسرائيل" بصرف النظر عن القومية والجنس والدين كما دعا إلى حل النزاع العربي الإسرائيلي على أساس الاعتراف المتبادل بحق الأمتين في تقرير المصير وتأمين الوجود. وفي عام ١٩٩١ حضر إلى "القاهرة" وطلب مقابلتي فاعتذرت عن عدم لقائه. وأرسل لي بضع أسئلة عن عملي بلغة عربية ركيكة للغاية فلم أرد عليها.

على إرضاء سادته. وقدر "بيليد" أن القصة تصور الطموح الفردي على أنه مصدر مأساة "مصر"، كما تصور الغياب التام لروح الأخوة والتضامن القومي بين المصريين.

ورفعت "مونا" يديها الاثنتين لترسم علامات التنصيص حول عبارات "بيليد": "...إن الخنوع للأجنبي والجفاء بل العداء لبني الوطن كان ظاهرة عادية أثناء الاحتلال البريطاني ل"مصر". ويرجع نجاح وكيل النيابة إلى أن شخصية "الهلباوي" تضمنت خصائص شعب "لا يتورع عن أي تصرف وضيع وخسيس إذا ما كان يخدم طموحاته الشخصية .." ثم إن " أحدا لم ينازع في أن الشهادات التي قدمت في المحكمة ضد المتهمين من بعض القرويين كانت زائفة.... والأكثر مدعاة للالتفات هو أن كافة أفراد أسرة "الزايد" قدموا شهادات معادية للمتهمين". وبناء على هذه الشهادة دفع "الهلباوي" بأن موت الضابط البريطاني كان عن سبق اصرار"(×).

مدت يديها إلى نظارتها فخلعتها وأغلقت الكراسة وتطلعت إلى بثبات وبشئ من التحدي.

كنت معتادا على ردود أفعال الطلاب ومحاولات إثبات الذات الساذجة. وكنت أعتبرها مقياسا لتفاعلهم مع دروسي ودليلا على نجاحي.

قلت في هدوء: هناك نقطتين : النقطة الأولى هي حق المؤرخ في التشكك والتمحيص وتصحيح الوقائع. أنا معه مائة في المائة. وسترون كيف عانيت أنا شخصيا من جراء تمسكي بهذا الحق. وعلى المستوى الإنساني البحت لا يمكن

(×) "دنشواى بين الواقع والتخييل" ، مجلة "عالم الإسلام" بالالمانية مجلد ١٩، ١٩٨٠. وقد أعيد نشر هذا النص في كتاب " مظاهر من الأدب العربي الحديث" ، باريس ، ١٩٨٨.

إنكار العداوات المحلية والعائلية وهي موجودة في كل مكان في العالم. وبالمثل لا يمكن إنكار ما يؤدي إليه العنف المفرط من جانب المحتل من استكانة المحتلين وخنوعهم لبعض الوقت، وهي ظاهرة عرفتها جميع الشعوب. وكون "زهران" كان مجرما موسميا لا يغير من حقيقة ما حدث فضلا عن أن هذا النوع من الإجرام شديد الالتباس إذ أنه غالبا ما يكون مختلطا بأشكال من التمرد الطبقي.

النقطة الثانية أن "بيليد" يحاول الايحاء بأن الحادث لم تكن له علاقة بالسياسة وبأن الشعور الوطني كان منعدما لدى المصريين.

توقفت لحظة وأجلت البصر في وجوههم. ولم يدهشني شرود البعض. حتى "لاري" الذي يتابع دائما كل كلمة أتفوه بها ويسجلها على الفور بدا غير مبال.

قلت مخاطبا "مونا": حقيقة الأمر أن هناك محاولة لتصوير "مصر"الحديثة كمجموعة من الأخلاط والمجموعات الجنسية المتباينة من مسلمين وأوروبيين وأفريقيين أكثر منها أمة موحدة أو وحدة سياسية واحدة.

وتوضع القضية هكذا: لم تكن هناك قومية مصرية، ولا شعور وطني، لأنه لم يكن هناك نظام برجوازي ، وبالتالي فان ضم "مصر"أو أجزاء منها إلى دول أخرى أو تقسيمها إلى مناطق دينية أو عرقية يصبح أمرا مشروعا وطبيعيا.

فالشائع أن القومية لا تتحقق إلا في ظل النظام البرجوازي عندما يتم توحيد السوق الداخلية. لكن هذه الفكرة السديدة لا تنطبق على الحالة المصرية في رأي كل من "حمدان" وسعد" على اختلاف منظوريهما. فمنذ قبل المرحلة الفرعونية كانت الكتلة المصرية متجانسة في التكوين النفسي والصفات الجسمية، في ظل سوق واحدة، بحكم السيطرة المركزية للدولة عليها.

ولا يعني هذا أن "مصر" لم تعرف فترات من الصعود والهبوط، من الضعف والقوة، من الخضوع لقهر الاحتلال الأجنبي ومن محاولة التخلص منه بحسب ما يقتضيه الحال من أشكال، بالثورة ضده أو بالاستعانة بأجنبي آخر. وكون أن الصدمة التي أحدثتها "دنشواى" في الرأى العام المصري ساهمت في تصعيد المقاومة للاحتلال وصولا إلى ثورة ١٩١٩، لا ينفي وجود مقاومة له قبلها. الخلاصة أنه من الممكن التشكيك في المغزى السياسي للمواجهة التي وقعت في "دنشواى" وفي صحة بعض تفاصيلها، لكن من الخطأ محاولة الخروج بنتائج عامة ذات طابع عنصري.

تطلعت حولي في انتظار الأسئلة والتعقيبات وعندما لم ينطق أحد أنهيت الدرس.

تبعتني "شرلي" إلى الخارج قائلة : هل يمكن أن أمشي معك ؟

قلت وأنا أتجه إلى الدرج: مرحبا بك.

قالت :الحقيقة أني أود من زمن أن أتحدث إليك . فأنا معجبة بمحاضراتك وبالخصوص صراحتك بالنسبة لحياتك الشخصية. لم أتخيل واحدا من تلك المنطقة ...

لم تكمل العبارة إذ شعرت بعدم لياقتها. بدأت هبوط الدرج دون أن أعلق فاستطردت معتذرة :

– كثير من الأمريكيين لا يعهدون هذه الصراحة. أصدقائي مثلا يصدمون عندما أتكلم. وكثير منهم يستنكرون آرائي.

كانت في مثل قامتي وعندما التفت إليها وجدت فمي قريبا من شفتيها.

– الأسبوع الماضي عشت دراما صغيرة. صديقة لي أحبت شابا باكستانيا وتزوجته ثم اضطرت للعمل في ولاية أخرى.

وهناك قامت علاقة بينها وبين زميل لها في العمل. ثم عادت واعترفت لزوجها فثار واعتبرها خائنة وصمم على الطلاق. تحدثت إليه وحاولت إقناعه بأن الموضوع بسيط ويكفي أنها اعترفت ويجب أن ينسى الأمر. وقلت له إني مررت بتجربة مماثلة فأنا أيضا لي "بوي فريند" يعيش في ولاية أخرى. صدمته صراحتي واعتبرني بلا أخلاق وقاطعني وطلق زوجته.

بلغنا الطابق الثاني واتجهت إلى مكتبي وهي إلى جواري .قلت إن الأخلاق نسبية ومتغيرة. ثم هناك ثقافات مختلفة وتكوينات نفسية مختلفة أيضا داخل هذه الثقافات.

طرقت باب الغرفة ثم أدرت المقبض. كان الباب مغلقا بالمفتاح ففتحته بمفتاحي.

دعوتها إلى الدخول وتبعتها. وأسندت مصراع الباب بقائم خشبي صغير مثلث الشكل، كي يظل مفتوحا.

جلست إلى الطاولة وأشرت إليها أن تجلس بدورها فاحتلت المقعد المواجه لي. كانت ترتدي كنزة صوفية زرقاء برقبة عالية وتكتفي من الزينة بالروج القرمزي في شفتيها. وسقط ضوء النافذة على جانب وجهها فأضاء بشرتها الصافية.

قالت: لاحظت في الفترة الأخيرة أنك تتحفظ في الحديث عن تجاربك العاطفية وتتجنب التفاصيل. وفي رأي أن التفاصيل مهمة. لم تقل لنا ما حدث بالضبط بينك وبين "جمالات". كيف جرت الأمور. ماذا قالت وفعلت. وكيف كانت مشاعرك. كل هذا مهم. فهو يلقي ضوءا بالتأكيد على شخصيتك.

قلت : الآن فقط وأنت تتكلمين أدركت أن هذه التجربة كان لها تأثير بالغ في حياتي.

قالت في شبه انتصار: أرأيت؟

قلت : أعدك بأن أذكر التفاصيل في المستقبل.
ابتسمت في خبث: هل هناك كثيرات بعد "جمالات"؟
وقبل أن أجيب نهضت واقفة وهي تقول: عطلتك بما فيه الكفاية.
قلت :بالعكس. لقداستمتعت بحديثنا. فأنا افتقد الأحاديث الحميمة التي عهدتها مع أصدقائي.
قالت وهي تتجه إلى الباب: أنا تحت أمرك عندماتريد أن تتحدث.

** ٢٥

مررنا من مدخل خصص لوضع المعاطف إمتدت به طاولة طويلة غطتها ألوان لا حصر لها من الأطعمة ، ميزت بينها "الطعمية" والفول المدمس وأنواع المحشيات وطواجن "التورلي" والفريك والأرزالمخلوط بالصنوبر والمكسرات وصواني "أم علي" والبسبوسة والكنافة. وأشرفت على الطاولة بضع سيدات أغلبهن أمريكيات في منتصف العمرقدرت أنهن زوجات لمصريين من قدامى المهاجرين.
كان "ماهر لبيب" قد أقنعني بمرافقته إلى الاجتماع الشهري لجمعية"المصريين الأمريكيين" والتحدث إلى أعضائها من الأطباء والمحاسبين والمهندسين وكبار موظفي الشركات. وقال إن اجتماعهم أشبه بلقاء عائلي يجري خلاله تناول الأكلات المصرية التقليدية التي يتفننون في إعدادها والتعارف بين أولادهم وبناتهم ووضع الأساس لزيجات ناجحة في المستقبل. وأقلني في سيارته إلى مدرسة حكومية في أقصى جنوب المدينة ، استأجرت الجمعية إحدى قاعاتها.
دلفنا إلى قاعة واسعة تضم حوالي المائة مقعد. وجلسنا في أحد الصفوف الأمامية بجوار أسرة من صبي ذي ملامح

قبطية بارزة وأم أربعينية سمراء وأب نحيف مكتئب الملامح. وكان هناك عدد كبير من السيدات المصريات ، أغلبهن بدينات في منتصف العمر، برؤوس مغطاة.
أشار "ماهر"إلى كهل نحيف سريع الحركة، ذي ملامح صعيدية بارزة، وهمس لي أنه يعيش في مسكن من أحد عشرة غرفة في كل منها جهاز للتليفزيون ، متصل ببقية الأجهزة، بحيث لا تفوته متابعة الشاشة إذا ما انتقل من غرفة إلى غيرها. وقال إن لديه أيضا ماكينة المشروبات التي توجد في الأماكن العامة وتتيح لك الحصول على كوب من أحد أربعة أو خمسة أنواع من الكولا والمياه الغازية.
دعينا إلى تناول الطعام فأحاط الجميع في صخب بطاولة الطعام الممتدة. وتصاعدت صيحات الإعجاب بألوان معينة منه. واستغرق الأمر قرابة الساعة قبل أن يعود الآكلون إلى مقاعدهم وهم يحملون أطباق الحلوى. مضوا يتناولونها على مهل ودون حماس ، ممزقين فيما يبدو بين امتلاء بطونهم وبين عزوفهم عن التخلي عنها.
جلست هذه المرة إلى جوار شاب في ملابس رياضية انهمك في قراءة مجلة "الموعد" اللبنانية. وسمعته يقول لجارته التي تماثله في الملبس إن "فريد شوقي"- الممثل المعروف - مريض.
بدأ اللقاء بكلمة من مهندس متقدم في العمر ذي ابتسامة دائمة هو رئيس الجمعية. عرض بمزيج من العربية والإنجليزية دورها في رفع شأن "مصر" ب "أمريكا". وتلاه طبيب كهل بالغ الأناقة تحدث بالإنجليزية مشيدا بما حققه أبناء الجالية من نجاح في حياتهم العملية وكيف ضربوا المثل في الإخلاص للعمل والتمتع بالأخلاق القويمة والبعد عن آفات العصر من خمور ومخدرات وخلافه. ثم عرضوا علينا - بالفيديو - فيلما قصيرا قدم فيه الممثل العالمي "عمر

الشريف" مشروع مكتبة "الاسكندرية" داعيا إلى مساندتها بالتبرعات. وأخيرا حان دوري بصفتي ضيف الشرف، فتولى الرئيس تقديمي وتعثر في نطق اسمي وقراءة عناوين مؤلفاتي وأبحاثي.

تأملني الحضور في غير اهتمام وأنا أتخذ مكاني خلف المنصة. وانهمك الجالسون في أطراف القاعة في ثرثرات جانبية. عدلت موضع زجاجة المياه ونقلت البصر بينهم فلحظت إن جاري الرياضي قد استغرق في النوم معتمدابرأسه على كتف رفيقته. وفي أقصى اليمين جلست سيدتان جميلتان أنيقتان في العقد الثالث من العمر بمنأى عن الجميع. كانتا حاسرتي الرأس غارقتين في خواطرهما. وأمامي مباشرة جلست سيدة بدينة أنيقة حاسرة الرأس، في العقد السادس، بجوارفتاة عشرينية تشبهها.

كنت قد قررت أن أنأى عن الطابع الأكاديمي وأدلي بكلمة عامة خفيفة الطابع. فبدأت بأن التاريخ علم حي وليس مجرد قائمة بالأحداث. وأن المؤرخين يجهدون لتفسيرهذه الأحداث وتحليلها والربط بينها. وفي هذا الصدد يجدون أنفسهم أمام منهجين في البحث أحدهما سطحي ينسب لعلاقة ملك بعشيقة أو لشذوذه ولأخلاقه عموما السبب في سقوط دولة أو نشوب حرب بينما أن السقوط والصعود والحرب والسلم أمور تتعلق بعوامل أكثر عمقا وتعقيدا من ذلك، هي التي يجهد المنهج الثاني في الكشف عنها.

وأضفت أن هذا لا يعني تجاهل أثرالخصائص النفسية والنزعات الشخصية علي مايقع من أحداث، فلاشك أن "كليوبترا" كانت جذابة ونجحت في غواية "قيصر" و "مارك أنطونيو" ثم فشلت في غواية "أوكتافيوس"فلم يعد أمامها سوي الانتحار، وأن الأكواب المصنوعة من مادة الرصاص قد

أثرت في صحة الرومان، وأن "الحاكم بأمر الله" كان شخصية عصابية غير متزنة، وأن "لويس التاسع" كان يشكو من سيطرة أمه ويسعى للانفراد بزوجته بعيدا عن عينيها، مما حمسه لقيادة الحملة الصليبية على "مصر". كل هذه أمور أثرت في مجرى الأحداث لكنها لم تشكل أبدا العوامل الرئيسية التي أدت إلى سقوط دولة "البطالسة" في "مصر"، وسقوط الإمبراطورية الرومانية من بعدها، واستفحال تناقضات الدولة الفاطمية مما أدى إلى سقوطها في النهاية، وانطلاق الحروب الصليبية.

أنصت البعض إليّ بشئ من الاهتمام وتطلع إليّ رجل باسم، أوروبي الملامح، في أقصى القاعة جاور سيدة أربعينية ذات ملامح مصرية.

صببت لنفسي كوبا من المياه وجرعت قليلا منها ثم استطردت: ومن المرجح أن تاريخ "مصر" الحديث قد تأثر بقوة شكيمة "محمد علي" ومثليةالخديوي "عباس" ورخاوة الخديوي "سعيد" وسفه الخديوي "اسماعيل"وضعف شخصيةالخديوي "توفيق" وفجور الملك "فاروق" وصلابة "جمال عبد الناصر" وبحث "السادات" عن ذاته.

لكن المميزات الشخصية لم تكن العامل الحاسم الذي مكن "محمد علي" من انتزاع حكم "مصر" من الإمبراطورية العثمانية لأسرته الألبانيةالتي احتفظت به مائة وخمسة وعشرين عاما. العامل الأساسي كان تطلع المصريين إلى الخلاص من الحكم الأجنبي من ناحية، وضعف طبقتهم الوسطى من ناحية أخرى مما حال بينهم وبين اختيار واحد من بينهم للحكم. ولا كانت العامل الحاسم في سقوط آخر ملوكها، "فاروق".

توقفت الثرثرة في الصفوف الخلفية وأفاقت السيدتان من شرودهما وبدا لي أن الجميع يصغون إليَ.

– عاني "فاروق" من مشاكل جسدية وعاطفية بالغة. ففي صباه كثيرا ما بكى في لحظة لموت أرنب وفي اللحظة التالية يلتقط قطة من ذيلها ويطوح بها إلى أقرب حائط. وعندما أصبح ملكا في سن الثامنة عشرسنة ١٩٣٧ كان أول قرار له هو دهان سياراته التي بلغ عددها المائة بلون سيارات الإطفاء الأحمر. وحظر على المواطنين استخدام هذا اللون حتي يمكنه أن ينطلق بأقصى سرعة في أنحاء البلاد دون أن يتعرض له رجال المرور.

وفي تلك السن نفسها وقع في غرام فتاة تصغره بعام فتزوجها ولم تمض بضع سنوات حتى كانت فضائحه النسائية على كل لسان. وذاعت القصص عن شراهته في الطعام ونزواته بالإضافة إلى تصرفاته الخرقاء الأخرى مثل سرقة ضيوفه وشركائه في لعب القمار وقذفهم بكرات من الورق مبللة ببصاقه.

وبمرور السنوات ازداد وضعه سوءا حتى فقد مكانته لدى الشعب. والواقع أن المصريين علقوا آمالا كبيرة على شبابه -ووسامته- في التخلص من الاحتلال وتحسين مستوى معيشتهم.

ران علي القاعة هدوء تام وسعدت بذلك اذ تصورت أني تمكنت أخيرا من السيطرة على الحاضرين والاستحواذ على انتباههم. وانتابتني حالة من الجسارة.

واصلت الحديث: خلق فاروق لنفسه صورة الفحل ذي القوة الجنسية الخارقة. وكانت المرأة التي تقاومه تخطف وتحمل إلى أحد قصوره الخمسة. وفي واقع الأمر أنه كان يخفي عن الشعب حقيقة محرجة وهي أن أعضاءه الجنسية لم تكن كاملة النمو أو صغيرة الحجم. وكان يبدأ كل يوم بمائدة حافلة من البيض واللحوم والأسماك الأمر الذي تسبب في سمنته وبدانته.وفي سن الثالثة والعشرين حسب ما يقول

واضع سيرته "هيوج ماكليف "تعرض لنوبات من العنة وربما كان ذلك هو السبب في محاولاته ممارسة الجنس مع نساء قدرعددهن بخمسة آلاف امرأة. ودأب على استشارة إخصائيي الهرمونات و السعي وراء المشهيات والمنبهات الجنسية من أول الحشيش الممزوج بالعسل و أقراص الكافيين إلى مسحوق قرن الخرتيت واحليل التمساح.

أحسست بحركة في القاعة وغمغمات. وتغضن جبين السيدة البدينة التي تجلس أمامي مباشرة وتطلعت إلى بشئ من الاستنكار. وخلفها استيقظ الشاب الرياضي وأخذت رفيقته أوزوجته تدلك له عنقه.

واصلت: أصحاب المنهج السطحي في التاريخ يقولون إن فضائح "فاروق" وعربدته هي التي تسببت في سقوط عرشه متجاهلين بذلك أن النظام كله كان آيلا للسقوط بسبب عوامل عديدة. فقد كانت الأسرة المالكة تستحوذ على ملكية أكثر من نصف أراضي البلاد. وكان الإقطاعيون الذين حصلوا على الأرض من الملوك الأوائل للأسرة ثمنا لخيانتهم وخدماتهم للقصر وللإستعمار الإنجليزي يمعنون في استغلال الفلاحين بالسخرة. وكانت الغالبية تعاني من ثالوث الحفاء والأمية والمرض. وعندما يفشل أي نظام في تلبية احتياجات شعبه، ويتآكل بفعل تناقضاته، فإنه يصبح مؤهلا للسقوط، أيا كان حجم قضيب الجالس على قمته.

توقفت لحظة ورأيت السيدة البدينة تقول شيئا لابنتها وهي تهم بالوقوف. لكن الابنة الشابة هزت رأسها وواصلت التطلع إلى في اهتمام بينما غادرت أمها القاعة. وتبعها الرياضي ورفيقته وعدد من الحاضرين.

تطلعت إلى الصديق الذي كان يبتسم لي مشجعا واستطردت:

– التاريخ أيضا ملئ بالأكاذيب والأساطير والألغاز

ولحسن الحظ فانها لا تصمد للزمن إذ يتولى المؤرخون أمرها بالبحث والتقصي. لقد ظلت "حتشبسوت"مجهولة عدة آلاف من السنين إلى أن كشف عنها أخيرا. ورغم التحقيقات وتقرير "وارن"الشهيرما زال مصرع "كنيدي" لغزا غامضا تتعدد بشأنه الروايات ، وتلوح خلفه أشباح المافيا وأجهزة المخابرات. وكان هذا أيضا شأن مصرع ممثلة الاغراء الشهيرة"مارلين مونرو" التي قيل إنها انتحرت ثم زعم البعض بأنها كانت على علاقة ب"كنيدي" وهددته بافشاء أمر العلاقة فأصدر الأمربقتلها، وأشرف شقيقه"روبرت"، وزير العدل، على حقنها بالسم الذي أودى بحياتها، بعد أن شاطرها الفراش(×). ويمكن أن نضيف أيضا انفجارقصة "مونيكا" التي قضت أغلب وقتها في البيت الأبيض راكعة بين فخذي الرئيس الأمريكي، كما نضيف مقتل أكثر من عشرين شخصا من المتصلين به في ظروف غامضة.

تناهي إلى سمعي لغط عند مدخل القاعة لكني واصلت :

– لدى "مصر"نصيبها من الألغاز من أول حريق القاهرة في١٩٥٢، إلى مصرع "السادات" في١٩٨١. فرغم التحقيقات المتكررة بشأن الحريق لم يثبت شئ في حق من أشارت إليهم أصابع الاتهام من الملك إلى الانجليز و "أحمد حسين "الذي ألصقت به التهمة في البداية. ومن الشيوعيين إلى الأخوان المسلمين والضباط الأحرار. وفي الآونة الأخيرة أضاف أحد الباحثين (××) متهما جديدا عندما اكتشف أن وثائق الخارجية الأمريكية التي تم الكشف عنها تخلو من كل ما يمت بصلة

(×) طبقا لما رواه الصحفي الأمريكي "سيمون هيرش" في كتابه "الوجه المظلم من كاميلوت"، ١٩٩٨.

(××) "جمال الشرقاوي" ،"حريق القاهرة، قرار اتهام جديد"، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٦، "أسرار حريق القاهرة في الوثائق السرية البريطانية"، دار شهدي ، ١٩٨٤.

ليوم الحريق وللأيام الأربعة الحاسمة التي قلب فيها الجيش النظام، بعد ستة شهور.

أما "أنورالسادات" ، الرئيس السابق للجمهورية، فنحن نعلم أنه قتل بيد أحد أعضاء الجماعات الإسلامية.لكن ظروف الحادث ونتائجه تثير كثيرا من علامات الاستفهام.

تناولت رشفة من المياه ثم استطردت:

– الواقع أن " أنور السادات" من الشخصيات المثيرة القادرة على شغل عديد من المؤرخين. ففي أول حياته العسكرية ضبط في خلية جاسوسية تعمل في خدمة الجيش النازي الألماني، لكنه تمكن من الهرب وعمل سائقا لسيارة نقل. وقيل أنه كان هروبا متفقا عليه بسبب علاقته بالحاشية الملكية. وتوجت هذه العلاقة بانضمامه إلى "الحرس الحديدي" الذي شكله الملك للتخلص من معارضيه. وإشترك في محاولة اغتيال الزعيم الوفدي الشعبي "مصطفى النحاس". ولم يلبث أن عاد إلى الخدمة العسكرية وفي سابقة لم يعرفها الجيش المصري من قبل حصل على رتبة "بكباشي" أو مقدم ثم انضم إلى تنظيم الضباط الأحرارالذي قاده "جمال عبد الناصر"وصار عضوا في مجلس قيادة الثورة.

وحرص بعد ذلك علي تأكيد ولائه للرئيس "عبد الناصر"بينما أقام شبكة من العلاقات المريبة. فقد تولى إدارة مصالح أحد أمراء "الكويت"، وارتبط بعلاقة وثيقة ب"كمال أدهم" رئيس المخابرات السعودية وضابط الاتصال بينها وبين المخابرات الأمريكية. وبمجرد توليه رئاسة الجمهورية في ١٩٧٠عمل على تصفية العلاقة العسكرية بالاتحاد السوفييتي وتحجيم حرب "أكتوبر" وإجهاض الانتصار الذي حققه الجيش المصري فيها، ثم وقع معاهدة "كامب ديفيد" في ١٩٧٨التي نصت على بقاء شبه جزيرة "سيناء" المصرية أرضا منزوعة السلاح وفصلت "مصر"عن

الجبهة العربية. ثم انقلب على قانون الإصلاح الزراعي وشجع طرد الفلاحين الفقراء من أراضيهم لكي تعود إلى ملكية كبار الملاك الأغنياء، وفتح الباب للوجود الأمريكي وأطلق سياسة الانفتاح الاقتصادي والخصخصة، واعدا كل مصري بألكترونة. ولم تلبث المنتجات الغربية أن دخلت السوق الداخلي وزالت موجة العداء الغربي ل"مصر" وهي العملية التي حدثت من قبل مع "محمد علي"، كما غرقت مصر في مستنقع القروض الأجنبية- التي ذهب الجانب الأكبر منها إلى جيوب أسرته وأعوانه- وهي العملية التي حدثت من قبل مع الخديوي "اسماعيل".

ميزة نموذج "السادات" أنه قادر على إعادتنا لبداية الحديث. فهناك من الكتاب والباحثين من يعتقدون أنه شخصيا مسئول عن التطورات الأخيرة. ويستدلون على ذلك بطباعه: غرامه بالملابس الأنيقة ومجالس الملوك والأباطرة، وبالوقوف أمام الكاميرا مدخنا الغليون وهويربت على ظهر كلب ضخم، تماما مثل لوردات "بريطانيا". وافتتانه - هو وزوجته-بالحلم الأمريكي ونجومه مثل المغني "ايجلاسيوس" والممثلة "اليزابيث تيلور".

إلا أني لا أميل إلى التهويل من أثر هذه الصفات الشخصية على الأحداث. فما وقع كان يمكن أن يقوم به غيره، الأمر الذي تحقق بعد اختفائه. فالطبقة الجديدة التي أنتجتها الثورة ضجت بالقيود المفروضة على طموحاتها في الثراء والسلطة وبالتضحيات التي يتطلبها تحديث البلاد في مواجهة الضغوط الأجنبية. كل ما فعلته صفات "السادت" الشخصية هو إضفاء مسحة من الهزل على هذه التطورات، تجلت آخر صورها يوم مصرعه، في ٦أكتوبر ١٩٨١، عندما ظهربالملابس الهتلرية ومشى مشية الأوزة، فاستحق وصف

أديب "مصر" العظيم "نجيب محفوظ" له في إحدى قصصه بأن الملابس ل"هتلر" والمسلك ل"شارلي شابلن". وللحق فإن فرص الضحك لم تتلاش باختفائه، ففي عهد خليفته...

انتبهت فجأة إلى أن القاعة أوشكت أن تخلو تماما من الجالسين فيما عدا السيدتين الأنيقتين في اليمين، و"ماهر"، والرجل الباسم في أقصى القاعة الذي كان يطرق بذقنه مؤمنا على حديثي إذا ما تطلعت إليه. وترامت إلى سمعي أصوات احتجاج عند المدخل.

عجزت عن مواصلة الحديث وعن التصرف، فلم يسبق لي أن واجهت موقفا مماثلا. وغادر "ماهر" مقعده وتقدم مني وعلى شفتيه ابتسامة غامضة أقرب إلى أن تكون ساخرة. تمتم ببضع كلمات لم أتبينها وبقيت واقفا أنظر أمامي في بلاهة.

ظهر الكهل صاحب التليفزيونات الإحدى عشر عند المدخل وولج القاعة متجها نحوي. قال عندماصار أمامي وهو يهز حفنة من المفاتيح في يده:

- هل هذا الهذرهو ما تقوم بتدريسه في "مصر"؟

وقبل أن أحاول الرد اقترب مني الرجل الباسم الذي كان يجلس في أقصى القاعة مع رفيقته. خاطبتني بالعربية شاكرة ومعجبة بالمحاضرة وقدمت زوجها. شد الرجل على يدي فشكرته على مشاعره وعبرت له عن تقديري لحسن استماعه.

إتسعت ابتسامته وقال لي بالإنجليزية: أنا متأكد أن حديثك قيم لكنني للأسف لم أفهم منه كلمة واحدة فأنا لا أعرف العربية.

٢٦ **

وجدت خمس رسائل جديدة في بريدي الإلكتروني.

كانت الرسالة الأولى محولة إليّ من "إستر". وتتضمن مقالا معدا للنشر في إحدى الصحف الإنجليزية(×) جاء فيه أن علماء المعهد البيولوجي في "نيس تزيونا"، مركز بحوث الترسانة الإسرائيلية السرية من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، عاكفون على انتاج سلاح بيولوجي يصيب العرب ولا يؤذي اليهود. وذلك عن طريق تحديد الجينات المميزة التي يحملها العرب ثم إنتاج بكتريا دقيقة مميتة يقتصر أذاها على من يحملون هذه الجينات.

ونسب المقال لأحد علماء المعهد قوله: "إن المهمة صعبة لأن العرب واليهود يشتركون في الأصل السامي".

وأكدت لي الرسالة الثانية أن هناك شخصا معينا يري فيّ إنسانا غير عادي ويتطلع إلى التعرف بي. كل ما علي هو أن أنقر علي السهم وأسجل رقم بطاقتي الائتمانية.

وكانت الرسالة الثالثة من "دوريس" تنصحني فيها بألا أرد على من يناديني باسمي إلا عندما يكرر النداء ثلاث مرات وخاصة بالليل لأن مصاصي الدماء يخرجون من قبورهم في "الهالووين" وينادون الناس بأسمائهم، ولحسن الحظ أنهم لا يتمكنون من تكرار النداء سوى مرتين.

وحثتني رسالة من أحد زملائي في "القاهرة" على عدم العودة، والتماس أية وسيلة تبقيني بعيدا عن جو البلاد الملبد بالصراعات والأخطار.

(×) نشر بالفعل يوم ١٥ نوفمبر ١٩٩٨ في "السانداي تايمز"، تحت عنوان "إسرائيل تعد قنبلة اثنية" بقلم "أوزي ماهنايمي" و "ماري كولفين".

أما الرسالة الأخيرة فكانت من xxx ونصها: "أمس ابتعت بعض الملابس الداخلية، وتخيلتك أمامي وأنا أجربها. لو رأيتني في مايوه من قطعتين لفقدت عقلك فما بالك إذا رأيتني عارية؟"

أزلت الرسالة التي تطلب رقم بطاقتي الائتمانية وقرأت رسالة "اكس" مرة أخرى ثم أغلقت الجهاز. قمت إلى المطبخ فوضعت إناء المياه على النار. وذهبت إلي غرفة النوم ووقفت خلف المصراع الزجاجي أتأمل الظلام الدامس والمطر الذي يتساقط في هدوء. عدت إلي المطبخ وأعددت كوبا من الشاى حملته إلي مائدة التليفزيون. ووضعت الشريط الذي أعطتنيه "شادويك" في جهاز الفيديو.

شاهدت فيلما مثيرا يستعرض - من خلال كم وافر من اللقطات الوثائقية-تطور الحركة الطلابية والإحتجاجية الأمريكية منذ بداية الستينيات، وخاصة في جامعة "بيركلي"(×)، مستعينا بمقابلات مع خمسة عشر من قادتها. وتقاطع حديث أولهم مع لقطات من مظاهرة قام بها طلاب الجامعة في مايو ١٩٦٠ أمام المبني الذي اجتمعت فيه لجنة النشاط المعادي لأمريكا برئاسة السناتور "مكارثي" الشهير، والتي استدعت خيرة الكتاب والفنانين للمثول أمامها بتهمة ميولهم الشيوعية.

كان ذلك حدثا فارقا لأن "بيركلي" هي الجامعة التي يتخرج منها رجال المؤسسة. وتغير كل شئ من لحظتها. فتوافد طلاب الجامعات الأخرى على "بيركلي" و ملأوا فنادق "سان فرنسيسكو" وتظاهروا ضد التمييز العنصري.

تعددت الاعتصامات والتظاهرات حتى منعت إدارة

(×) حمل الفيلم اسم "بيركلي في الستينيات" وهو من إخراج "مارك كيتشيل" في ١٩٩٠.

الجامعة الموائد السياسية في الشوارع المحيطة بالكامبوس في سنة ١٩٦٤ فاعتصم الطلبة في ممرات الجامعة.

ووصف "جون جاجر"،الذي صار الآن من مديري الشركات في وادي "السيليكون" الشهير، موطن الصناعات الإلكترونية في "كاليفورنيا"، وارتدى بزة كاملةبربطة عنق وصدرية، وصف تلك الأيام بأنها كانت "صحوة سياسية". فلأول مرة يتفق الطلبة من تيارات مختلفة. وتواصلت اجتماعاتهم بالأيام حتى شكلوا لجنة توصلت إلى إتفاق مع إدارة الجامعة. لكن الأخيرة لم تلبث أن أحالت ثمانية طلاب للجنة تأديب فبدأت الاعتصامات من جديد.

تتابعت اللقطات التسجيلية للاعتصام في طرقات مبنى الجامعة الرئيسي. ظهر الطلاب وهم يدرسون ويغنون ويرقصون وينامون على الأرض. بدا الأمر مثل حفل هائل. وأحاطت الشرطة بالمبنى فتسلق الطلبة الحبال لينضموا إلى المعتصمين. ثم بدأ البوليس يخرجهم بالقوة وهم يقاومون فيجرهم فوق السلالم ويقبض عليهم.

وجرى تنظيم اجتماع خاشد في المسرح الروماني بالجامعة تحدث فيه مدير الجامعة، وعندما أراد أحد قادة الطلاب المسمي "ماريوسافيو" أن يتحدث منعوه.

كتب الطلاب مشروع قرار وحملوه إلى مجلس الأساتذة الذي أقره بالأغلبية. وخرج المجلس وسط الطلبة فأكد انتصارهم وأقام الطلبة احتفالا بهذه المناسبة. وعندما انتهى الحفل صاح فيهم "ماريو": لا تذهبوا.أمامنا حرب يجب أن نوقفها.

أدلى "ماريو" أكبر سنا وأكثر امتلاءبشهادته عن تلك الأيام: "في مايو ١٩٦٥ احتفلنا بيوم "فيتنام". الحرب فضحت لا أخلاقية بلدنا... لقد شاهدنا صور المذابح التي يرتكبها

جنودنا. وقررنا إيقاف قطار من المجندين المتجهين للقتال لكننا لم نتمكن".

وفي ١٥ أكتوبرنظموا مسيرة ليلية في شارع "تلغراف" الرئيسي وضع البوليس العوائق في طريقها. بعد شهر تمكنت مسيرة جديدة من عبور العوائق. وانتقل الإحتجاج إلى "سان فرنسيسكو" ذاتها حيث خرج الناس إلى الشوارع يعزفون الموسيقى ويرسمون على الأرض.

تحدث "ماريو" في هدوء ودون انفعال على عكس اللقطات التاريخية المشحونة بمشاعر الغضب والسخط: "بدأنا نرى المشكلة أكبر من حرب "فيتنام" أو حركة الحقوق المدنية. ... الثقافة مريضة ونظرة "أمريكا" للأمور مريضة.. وبدلا من المعارضة بدأنا ننفصل ونعيش بطريقة مختلفة... أصبحنا مغتربين عن المجتمع الأمريكي فحاولنا أن نصل إلى الأغلبية.. في أكتوبر ٦٧ قررنا أن نغلق مركز التجنيد المجاور"...

اعترض المتظاهرون باصات المجندين المتجهة إلى المركز وهم يصيحون في ركابها:"قل لا. لست مضطرا للذهاب". وقامت الشرطة بحماية السيارات ومحاولة إبعاد المتظاهرين بالقوة.

ختم "ماريو" ذكرى ذلك اليوم بنبرة فخار: "سيطرنا على وسط "أوكلاند" معظم اليوم وكان البوليس مضطربا ومذعورا".

بدت كلمات مدير "السيليكون" التالية كرد على "ماريو": "فكرت أن هذا لا يمكن أن يؤدي إلى التغيير ... المتظاهرون انتزعوا أسيجة حدائق أهالي لا تزيد دخولهم عن خمسة آلاف دولار في السنة ليصنعوا منها متاريس ...هل هذا سيوقف الحرب ؟"

رد عليه آخرقائلا : "بالعكس أريناهم أن استمرار الحرب سيحدث فوضى في الشارع ".

لكن "جاجر" اعتبر تلك اللحظة بداية لانفصال "جماعة بيركلي" عن الواقع :"بقية الولايات المتحدة كانت في مكانها. طريق التغيير ليس بالجلوس في الشارع وإنما بالاشتراك في الانتخابات". وعارضه آخر قائلا: "بالعكس. أخيرا أجبرناهم على الانسحاب".

متحدث ثالث ظهر هو الآخر في بزة أنيقة كاملة فتحدث عن سذاجة البدايات وقال إن الميديا استغلت الحركة الإحتجاجية بطريقة ملأت المحتجين إحساسا بأنهم يصنعون ثورة لم تكن هناك. وفي خلفية حديثه ترددت أشعار وأغاني تلك الفترة :لن يمكنك البقاء في المنزل يا أخ/ لأن الثورة هناك في فرنسا/ اليابان / ألمانيا/ المكسيك/ براغ. وظهرت لقطة لمظاهرة نسائية ترفع لافتة بكلمة واحدة:"الآن".

علقت متحدثة معاصرة على تلك المظاهرة قائلة: "كنت غير قانعة بوضعي كامرأة. وفجأة استيقظت لأجد الجميع يتكلمون كما أشعر".

وعقبت أخرى : "شعرنا بمقاومةلنا من جانب رفاقنا. كانوا أخوتنا لكنهم لم يريدوا الاستماع إلينا. كنا موجودات في نظرهم من أجل صنع القهوة والرد على التليفون. وعندما أردنا أن نشارك تطلعوا إلينا في دهشة. قررنا أن نعيش بشكل مختلف وجلبنا التفكير الجديد إلى المطبخ وحجرة النوم".

تتابعت المظاهرات واعتداءات الشرطة عليها . ثم أرسل "ريجان"، حاكم "كاليفورنيا" الذي صار رئيسا لكل الولايات فيما بعد، بجنود الميليشيا المسلحين بالبنادق والكمامات لحصار الجامعة في ١٩٦٩، فظهرت فكرة حديقة الشعب. أحضر الطلاب سجادات من الخضرة وفرشوها فوق أرض

فضاء تملكها الجامعة ووقف أحدهم قائلا: "أعلن هنا مكانا غير ملوث!"

أحضر البوليس البلدوزرات واحتل الحديقة واعتقل الطلبة المتظاهرين، وقتل واحدا منهم، وحلقت طائرات الهليكوبتر فوق الجامعة تطلق الغاز واستقبل "ريجان" ممثلي الأساتذة وقال لهم في غطرسة إنهم مسئولون عن كل ما يحدث لأنهم منحوا الشباب حق القرار.

عندما اقترب الفيلم من نهايته بدأ المتحدثون يقومون بمحاولة تقويم للفترة. وتتابعت آراؤهم : "لم تكن هناك رؤية أو مفهوم"، "الحركة كانت جزءا من النضال من أجل حقوق السود وليبرالية الثقافة ومساواة الرجل بالمرأة وضد السياسة الإمبريالية"، "حصلنا على حرية الخيال وعلى حقنا في أن نرى العالم بصورة مختلفة"، "لا يمكن لجيل واحد أن يصنع الثورة".

استعرضت اللقطات الأخيرة مصائر قادة الحركة: واحد التحق مثل "جاجر" بمجتمع رجال الأعمال، وآخرهو "سيرل"صار أستاذا في "بيركلي"، "ماريو" مازال ناشطا وسط العمال، واحد ناشط في حركة الخضر وواحدة أقامت مطعما ناجحا في "بيركلي" وتناصر القضية الفلسطينية.

أغلقت الجهاز وتابعت أخبار التليفزيون بعض الوقت.

دق جرس الباب فألقيت نظرة على ساعتي. كانت العقارب تقترب من التاسعة. اتجهت إلى باب مسكني وفتحته ثم اقتربت من الباب الخارجي في توجس. أضأت النور ووقفت أنصت. بلغتني أصوات عديدة فأدرت المفتاح وجذبت الباب.

واجهتني مجموعة من الأطفال الذين أخفوا وجوههم خلف أقنعة متنوعة لشياطين ومصاصي دماء. طلبوا مني حلوى العيد. أحضرت لهم الكيس الذي أعددته بهذه المناسبة ووزعت عليهم قطع الحلوى والشكولاته.

أغلقت الباب بعد انصرافهم وعدت إلى مكاني أمام التليفزيون. ضقت به بعد قليل فوضعت فيلم "مسز براون" في جهاز الفيديو.

تابعت في استغراق أحداث الفيلم الذي يروي الجانب الخفي من حياة الملكة "فكتوريا"، التي حكمت الإمبراطورية البريطانية في أزهى عصورها، عندما لم تكن الشمس تغيب عنها، وصارت رمزا لها وللأخلاق المتشددة، بينما كانت على علاقة سرية مع خادم أمي في الاسطبل تمخضت عن طفلة.

انتهى الفيلم فقمت أتمطي وأتثاءب، وتناولت إعلان الحفل الراقص من فوق مكتبي. تأملت الصورة بإمعان باحثا عما جذبني إليها. كان هناك شئ حميم ومثير في تقارب الوجهين والأنفين اللذين أوشكا على التماس وفي النظرات الموجهة إلى الشفاه، والاستسلام البادي في ملامح البيضاء. أغمضت عيني وتصورتهما وقد تلاقت عيونهما بدلا من تركيزها على الشفاه. بحثت عن الكلمة التي يمكن أن تعبر عن هذا المشهد: التلاحم. التوحد ... *الذوبان؟*

يبدو أني غفوت بعض الوقت فقد انتبهت على صوت الجرس. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل فأسرعت إلى الباب وفتحته ل "ماهر" و "مروان".

قدتهما إلى الصالة ووضعت المياه على النار. أعطاني "ماهر" آخر ملف من أوراق مؤتمر المثقفين المزمع. ولاحظت أن ملابس "مروان" فقدت الأناقة التي ميزتها في أول لقاء بيننا.

تصفحت محتويات الملف التي لم تتجاوز ورقتين. كان نصا مصورا عن مقال في إحدى المجلات ل "فريد عظمي"، الأكاديمي المعروف، الأمريكي من أصل لبناني، المتخصص في

تطور الفكر العربي(×). مررت بعيني على بعض العناوين الداخلية للمقال ولا بد أن شيئا من الامتعاض ظهر على وجهي إذ قال "ماهر" بحماس: اقرأه جيدا. ستجد أنه يبرز وجها مشرقا لانخراط الفكر النقدي. ماذا قررت بشأن ورقتك؟

قلت: مازلت حائرا.

قال وهو يرتشف الشاى: ما رأيك في أن تكتب عن محنتك؟

أجبت بسرعة: لا تذكرني.

قال: فكر.

ترددت ثم قلت: سأحاول.

تحولت إلى "مروان" وقلت: رأيتك في مظاهرة المشردين.

ضحك وقال: أصبحت منهم.

شرح لي أنه انفصل عن زوجته وكاد يصبح في الشارع لولا أن استضافه أحد أصدقائه.

تذكرت "فيتز" فقلت: استولت زوجتك على المنزل وعلى رصيدك في البنك؟

سألته عن إبنه فقال إنه مع أمه.

نظر "ماهر" في ساعته وقال: يجب أن نذهب.

استمهلتهم حتى ارتديت كلسونا طويلا من الصوف

(×) كنت قد قرأت له مقالا ردد فيه أفكار زميله ومواطنه "فؤاد عجمي" الذي صك مصطلحي "الإسلامية المتوحشة" و "إغراء العروبة المدمر". وأعلن فيه نهاية القومية العربية قائلا إن "السادات" وضع قدمه على الطريق الصحيح لأن توقيع اتفاق منفصل مع "إسرائيل" في "كامب ديفيد" جسد الوطنية المصرية وأعاد "مصر" إلى روحها الحقيقية. ورأى أن العالم العربي وصل إلى حالة من التردي تستوجب إنقاذه من نفسه الضائعة وثقافته المتخلفة بعملية تحديث كبرى لن تتم إلا بضغط هائل من الخارج يخلصه من إغراء العروبة المدمر.

فوق الكيلوت القطني وغادرنا المنزل إلى سيارته. قال بمجرد أن جلست إلى جواره:

- ما هي أخبار "شرلي"؟

قلت مندهشا: مالها؟

قال وهو يدير الموتور: لا شئ. أريد فقط أن أحذرك. فهي تأكل الرجال أكلا.

كانت واجهات المنازل مزدانة بالمصابيح الكهربائية. وانعكست أضواؤها على ثمرات كبيرة الحجم من نبات القرع البرتقالي اللون، وضعت أسفل نماذج ورقية من الهيكل العظمي البشري. وزين أحد المنازل نوافذه بنسيج العنكبوت.

أخذنا "ماهر" إلى دار قريبة للسينما تعودت منذ عشرين عاما أن تقدم في منتصف ليلة "الهالووين" كل عام عرضا خاصا بالمناسبة.

كان هناك طابور طويل يمتد من أول الشارع الذي تقع فيه الدار. وتجمع أمامها حشد من الشباب في أشكال غريبة من الملابس، وأصباغ ثقيلة وشعور ملونة. ورغم برودة الجو ظهرت بعض الفتيات بقمصان داخلية سوداء تكشف عن سوتيانات حمراء. أما الرجال فكانوا في بزات سوداء كاملة أو ملابس نسائية شبه عارية. وتنكر البعض الآخر في هيئة الوحوش ومصاصي الدماء.

دخلنا بسهولة لأن "ماهر" سبق أن حجز لنا أماكننا. وفوجئت بالشباب الذين تركناهم في الخارج يعتلون خشبة المسرح ويتحركون فوقها جيئة وذهاب مستعرضين أرديتهم. ثم بدأ الفيلم وتتابعت العناوين وإذا بالفتيات يشرعن في نزع ملابسهن وهن يتعانقن ويتلوين حتى أصبحن في السوتيانات والكيلوتات. ثم انطلقن في الغناء مع اللقطات

الأولى من الفيلم التي صورت حفل زواج. وتساقط شئ فوق رؤوسنا تبينت فيه حبات أرز.

قام الواقفون على خشبة المسرح بتمثيل ما يجري على الشاشة وشاركهم الجمهور. فعندما دار رقص على الشاشة قلده الواقفون فوق الخشبة ووقف المتفرجون ورقصوا بدورهم. وعندما هطل المطر على الشاشة وغطت البطلة شعرها بصحيفة قلدها الجميع، وهكذا.

كانت الضجة فظيعة قادها أحد المغنيين، وبلغت أقصاها عندما دخل الزوجان - البطل والبطلة - قلعة غريبة. وسرعان ما وُضع المغني تحت مقصلة ملوثة بالدماء، فصلت رأسه عن جسده. وحُملت الجثة إلى مائدة مغطاة بقماش أبيض فعكف الزوجان على تقطيعها ووضع أجزائها في أطباق مستطيلة وبرطمانات زجاجية. ثم أخذا يلتهمان السواعد والأيدي وقد تناثرت الدماء فوق ملابسهما ومن حولهما.

لم يمانع رفيقاي عندما اقترحت الانصراف قبل نهاية العرض. وحكيت لهما ونحن نتجه إلى السيارة عن رسالة "دوريس" ومصاصي الدماء الذين يخرجون من قبورهم في "الهالووين".

ضحك "مروان" وقال: اطمئن. لن يكون هناك مصاصو دماء هذا العام لأن أحدا لايستطيع الخروج من قبره في ليلة السبت.

** ٢٧

وزعت علينا"دوريس" فطائر صغيرة الحجم على شكل الجماجم والعظام البشرية تدعى "كالافيرا"، تنتجها مخابز حي "ميشان" في مهرجان"يوم الموتي"، وهو النسخة اللاتينية من "الهالووين". ووصفت لنا كيف تزين النصف الجنوبي من الحي، الذي تقيم به، ويضم أكثر مناطق المدينة بؤسا وكآبة. وكيف توج الاحتفال بموكب ليلي من الشموع والأزياء التنكرية المرعبة.وكانت هي نفسها ترتدي أسفل كنزة صوفية سميكة وواسعة، أوفرولا من لون وردي فوسفوري يقترب من لون الدماء.

تطرق الحديث إلى "كريستوفر كولومبوس" الذي تصادفت ذكراه مع "الهالووين". وأبدت "دوريس" ملاحظة حول تغير النظرة إلى المكتشف العظيم. فعندما احتفل العالم في سنة ١٩٩٢ بالعيد الخمسمائة لاكتشاف "أمريكا" على يده سنة ١٤٩٢، كان من رأي الكثيرين - وخاصة في صفوف الأكاديميين الأمريكيين- أن الأمر لا يستحق الاحتفال. فقد اعتبروا الرجل وغدا والأوروبيين الذين رافقوه غزاة والسكان المحليين-٢٥ مليونا- ضحايا أبرياء لجشع الرجل الأبيض المفترس حامل الأمراض. وفي بيركلي" غير مجلس المدينة اسم "يوم كولومبوس" إلى يوم "الشعوب الأصلية"وقدم عرضا لأوبرا اسمها"اذهب إلى الجحيم مرة أخرى يا كولومبوس". لكن هذه النظرة تتغير من جديد الآن إذ ترتفع أصوات كثيرة تزعم أن هذه الاتهامات ليست إلا جزءا من حملة سياسية الهدف منها خلق الشعوربالذنب لدى الأوروبيين وتبريرطلب التعويضات منهم.

قالت "شرلي" وهي تقضم جمجمة بشرية: أعتقد أن هناك

قانونا للعلاقات الانسانية يمكن تطبيقه على العلاقات بين الأمم. فعندما تشعر أمة بأنها قوية لدرجة تكفي لفرض نفوذها على أمة غيرها وتحقيق المكاسب من ذلك لا تتورع عن ممارسة قوتها.

علقت "فادية" فيما بدا لي محاولة لمد الجسور مع "شرلي": ربما يفسر هذا كيف تحولت أوروبا إلى الهجوم ابتداء من القرن الحادي عشر وتحت راية الدين في البداية. الحروب الصليبية والحرب ضد المسلمين في "أسبانيا". وفي النهاية انتصرت القوة على الحضارة. ففي ١٢٣٦ سقطت "قرطبة" التي كانت أعظم مركز تعليمي في "أوروبا" وتبعتها "أشبيلية" عاصمة "الأندلس" الاقتصادية الكبرى وأخيرا "غرناطة" في ١٤٩٢- نفس تاريخ اكتشاف "كولومبوس"للعالم الجديد. وتواصلت نزعة الغزوبعدها.

اعترض "لاري"قائلا: لكن هذا لا يفسر البربرية. عثر"كولومبوس"على شعوب عارية ما زالت تعيش في العصر الحجري حتى أن أيديهم تمزقت عندما أمسكوا بالسيوف الأسبانية من نصالها. كانوا أبرياء تماما باعترافه هو نفسه. فلماذا أبيدوا؟ كان الأسبان يبقرون أجساد الحوامل ويتراهنون على من يستطيع فصل الجسد من وسطه بضربة سيف واحدة، ويحطمون رؤوس الأطفال فوق الصخور ويحرقون الناس أحياء باسم المسيح ورسله.

علقت "شرلي": وماذا عن تقليد سلخ فروة الرأس لدى الهنود الحمر؟

انفعل "سابك"وقال: كذب. الحقيقة أن الرجل الأبيض هو الذي خلق عادة السلخ. لقد مارسها الإنجليز لقمع انتفاضة الأيرلنديين بين عامي ١٥٦٧و ١٥٧٠ ثم استخدمت كوسيلة للإحصاء عند استعمار "أمريكا". فقد كانت السلطات الاستعمارية ترصد مكافأة لمن يقتل هنديا ويأتي برأسه ثم

اكتفت بفروة الرأس. وتصاعدت قيمة هذه المكافأة حتى بلغت مائة جنيه في عام ١٧٠٤. وهومبلغ كان يعادل أربعة أضعاف متوسط الدخل السنوي للمزارع في مستعمرات "نيوانجلند". فكان بإمكان أى مستوطن عجوز أن يصطاد طفلين وثلاث نساء من الهنود سنويا فيصبح ثريا. وسرعان ما تأسست شركات - إنجليزية وفرنسية- تستأجر فرق من المغامرين لقتل الهنود والعودة بفروات رؤوسهم. وصار المستوطنون يتباهون بعدد ضحاياهم وتباهى أحدهم بأن العدد ٤٠ في الطلعة الواحدة. وتباهى آخرون -قبل زمن "هتلر"- بأن ملابس صيدهم وأحذيتهم مصنوعة من جلد الهنود. وكان الرئيس "أندرو جاكسون" الذي تزين صورته ورقة العشرين دولارا من عشاق التمثيل بالجثث وكان يأمر بحساب عدد قتلاه وإحصاء أنوفهم المجدوعة وآذانهم المقطوعة ورعى بنفسه في ٢٧ مارس ١٨١٤حفلة تمثيل بجثث ٨٠٠ هندي يتقدمهم زعيمهم. ووصف الرئيس "تيودور روزفلت"هذه المذبحة بأنها كانت " عملا أخلاقيا مفيدا لأن إبادة الأعراق المنحطة حتمية ضرورية لا مفر منها".

هكذا عوض"سابك" في مساهمة واحدة صمته الدائم.

علق "لاري" مستشهدا بكلمة ل"تودوروف" يقول فيها: "ليس في بربرية الأسبان شئ بدائي أو حيواني، إنها الطبيعة الإنسانية تماما التي أعلنت مقدم العصر الحديث".

مسد قرطه ثم أضاف: يرحمنا الله إذا كان هذاالكلام صحيحا.

قدرت أن "كولومبوس" أخذ ما يستحق من اهتمام في ذكراه ، وأخذت الكلمة.

قلت إن حصولي على الدكتوراه كان حافزا مشجعا على الانطلاق في الطريق الذي اختطته لنفسي. أعددت دراسة عن منهاج "طه حسين" في البحث التاريخي، وأخرى عن وضع

المثقفين في تاريخ كل من "مصر" و"المغرب" ، وثالثة عن"رحلة "خالد بن الوليد" بين التاريخ والعلم"، اعتبرها كثيرون عملا تأسيسيا في مجال الاستعانة بالعلوم الأخرى في تحقيق الأحداث التاريخية.

فقد ذكرت كتب التاريخ أن الخليفة "أبو بكرالصديق" أمر القائد "خالد بن الوليد" في العام الثاني عشر للهجرة بالتوجه من "العراق" إلى "الشام" "بأسرع وقت لنجدة "أبي عبيدة بن الجراح" في معركة "اليرموك". ووجد "خالد بن الوليد" - كمازعم الرواة -أنه سيسير مدة أسبوعين في صحراء قاحلة بلا ماء. فعمد إلى تظميىء الجمال وسقيها عدة مرات وقام بربط أفواهها وآذانها ليحول دون تبخر المياه. وكلما قطع الجيش مسافة وعطش رجاله ذبحوا بعض الإبل وشربوا ما في بطونها من ماء.

وكان القدامى في محاولتهم لتعليل قدرة الجمل على تحمل العطش قد افترضوا أنه يقوم بتخزين المياه. ولأمد طويل اعتقدوا أن المكان الطبيعي الصالح لذلك هو بطنه. وفي سنة ١٨٠٦ قام أحد العلماء الإنجليز بتشريح دقيق لمعدة الجمل تبين منها أنها عاجزة عن تخزين المياه وكل ما يوجد بها عند امتلائها هو خمسة لترات من العصارات الهضمية. ومع ذلك ظل الفرض السابق هو السائد في الكتابات العربية وأضيفت اليه احتمالات أخرى منها أن التخزين يتم في السنام أوأن دهون السنام هي التي تزود الجمل بحاجته من المياه عند احتراقها.

لكن الدراسات العلمية الحديثة (×) رجحت وجود الماء

(×) من قبيل ما ورد في كتابين بعنوان "الجمل"، الأول تأليف "بيللرز و داج"، نشر جامعة "شيكاغو" ، ١٩٨١ والثاني تأليف "ر.ت.ويلسون"، نشر "لونجمان"،١٩٨٤.

منتشرا في جميع أجزاء جسم الجمل خلال الأنسجة والعضلات بالاضافة إلى مميزات فسيولوجية تتيح الاستخدام الاقتصادي للماء.

وبذلك سقطت الرواية التاريخية وتعين البحث عن صياغة جديدة لها تفسر الواقعة أو تتحقق من وقوعها أصلا.

توقفت وغادرت مقعدي وتقدمت من النافذة. تأملت السماءالتي صفت فجأة وكشفت عن شمس متوهجة. ثم استدرت مواجها طلابي واستأنفت الحديث.

قلت إن شهيتي تفتحت بعد ذلك للبحث فانتقلت إلى موضوع آخرطالما خايلني. فكلما عثرت بصورة لإحدى الأيقونات القبطية المعروفة ب"وجوه الفيوم"، وتأملت عيونها الواسعة الجازعة، تساءلت عن السر. هل هو ما شهدته من فظائع وأهوال أم أن الأمرلا يتجاوز حالة مرضية مرتبطة بنشاط الغدة الدرقية الذي يتأثر بنسبة تواجد مادة اليود في الطبيعة؟ أو أنه مجرد اتجاه في الفن؟

وضعت خطة للبحث في عدة مجالات : الطب والجيولوجيا وتاريخ الفن فضلا عن التاريخ السياسي. لكني لم أتمكن من استكمال هذا البحث نتيجةالمشاكل التي اعترضتني. وقد بدأت المشاكل في قاعة التدريس وبسبب إحدى الطالبات.

تطلعت إلى العيون في انتباه في انتظار واحدة من فضائحي.

وصفت لهم نظام الجلوس في قاعة المحاضرات وما طرأ عليه من تغير. فعندما كنت طالبا كانت الطالبات يجلسن عادة في الصفوف الأمامية. لم تكن هناك قاعدة تحتم جلوسهن في مكان معين لكنهن كن أكثر حرصا من الذكور على التبكيربالحضور. ويتجهن على الفورإلى الصفوف الأمامية

لما توفره من حسن الاستماع، فلم يكن الميكروفون قد استخدم بعد. وتحول الأمر بالتدريج إلى قاعدة.

وفي بداية قيامي بالتدريس لاحظت أن هذه العادة تغيرت. فقد انفردت الطالبات بالجانب الأيمن من المدرج بينما احتل الطلاب الجانب الأيسر. وهو نفس ما حدث في أول برلمان للثورة الفرنسية عندما تم الفرز بين النبلاء والعامة.

بدرت ضحكة من "ميجان" وابتسمت "فادية" في تردد.

– وذات يوم وصلت إحدى الطالبات متأخرة، ودخلت من الباب الأيسر وشرعت تقطع المدرج متجهة إلى الجانب الأيمن الذي تكتلت فيه زميلاتها.

شتت وقع خطواتها انتباهي فأشرت إليها أن تجلس في أقرب مكان إلى جوار الطلاب. أطاعتني البنية واتجهت إلى مكان خالي بجوار أحد الطلاب وإذا به يرفض جلوسها بجواره ويشير لها أن تتجه إلى قسم الحريم.

عجبت لهذا الموقف ففي أيامي كان الجلوس إلى جوار طالبة حلم كل الطلاب. لم أشأ أن أدخل في مشادة مع الطالب وانتظرت حتي انتقلت الفتاة إلى قسم الحريم فواصلت حديثي.

وفي أحد الأيام تردد آذان الظهر في منتصف الدرس. وفوجئت بجماعة من الطلاب تقف وتتحرك نحو باب المدرج. وخاطبني أحدهم قائلا: عن اذنك. سنصلي ونعود. ولم ينتظروا حتى أمنحهم الإذن وغادروا المدرج. وفيما بعد ثارت بيني وبينهم مشادة عندما قلت أن العلم عبادة وأن المحاضرة لها موعد محدد أما الصلاة فمن الجائز شرعا أن تؤدى في وقت لاحق.

تعددت الظواهر المماثلة وبدأت تأخذ حجما غريبا. إذا أشرت إلى "طه حسين" تصاعدت دبدبات الأقدام الإحتجاجية،

وإذا أبديت رأيا بدالهم أنه يتعارض مع إحدى المسلمات ، تصدوا لي واشتبكوا معي في مناقشة دينية. كنت أرد في حدود معلوماتي البسيطة في هذا المجال ثم أقول إني لست فقيها. وأتمنى عليهم أن يتعمقوا قراءة كتب التاريخ قدر تبحرهم في الكتب الدينية. واستمر الأمر على هذا المنوال إلي أن وقعت حادثة النقاب.

تقطب جبين "فادية" في استياء. لكنني لم أعبأ.

كان عدد الطالبات اللاتي يغطين رؤوسهن ويلتزمن بالحجاب في درجاته المختلفة في تزايد. ولم أهتم بالأمر فرأي ومازال أنه من صميم الحرية الشخصية طالما أنه لا يعطل الأنشطة الحيوية لصاحبته أوللآخرين. وهذا الموقف هو ما دفعني للاعتراض عندما تقدم لي في الامتحان جسم مغطى من قمة الرأس إلى أخمص القدم عدا ثقبين رفيعين مكان العينين. أصررت على ضرورة التأكد من شخصيتها وجنسها وتمسكت هي بنقابها. وانتهى الجدل بأن صحبتها إحدى زميلاتي إلى غرفة جانبية لتتأكد من شخصيتها. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد إذ شكاني الطلاب لدى العميد ورئيس الجامعة وتلقيت رسائل تهديد وسباب.

إتسعت الابتسامات وزادت تقطيبة "فادية". استدرت من جديد مواجها النافذة. كانت الشمس قد غابت وانتشر الضباب.

تحولت إليهم واستطردت: وبمرور الأيام تداعت الصورة المثالية التي كانت لدي بشأن الحياة الأكاديمية. في بداية العام الدراسي التالي جاءني أحد ناشري الكتب الجامعية وعرض عليّ ٢٠ ألف جنيه من أجل نشر محاضراتي في كتاب. كنت مؤمنا بأهمية العملية التعليمية التي تجري داخل قاعة التدريس وبضرورة تدريب الطلاب على استخدام

المراجع وتشغيل عقولهم. ولهذا عارضت تحويل محاضراتي إلى كبسولة مطبوعة جاهزة للحفظ. كما أن القانون يمنع تقرير كتاب معين على الطلاب. رفضت عرض الناشرفرد على بأن العرف جرى على أن يطرح المدرس كتابه بين المراجع بمجرد انقضاء ثلاث سنوات على حصوله على الدكتوراه. بل أن بعض الأساتذة يفرضون كتبهم على الطلاب.

وبعد أيام وجه لي أحد الأساتذة ملاحظة عابرة أشبه بتحذير مؤداها عدم الوقوف في وجه التيار العام. وكانت أمي تحتاج إلى رعاية مستمرة أثناء عدم وجودي معها ممّا أجبرني على استئجار ممرضة. وكانت تلح على ضرورة زواجي والاستعداد لذلك بأثاث مناسب وتغييرمكان السكنى وشراء سيارة والاعتناء بملابسي. كل مايتناسب مع وضعي كأستاذ جامعي.

بدت علامات عدم الفهم علي وجوه البعض فأوضحت لهم ضئالة راتب الأستاذ الجامعي الذي لا يتجاوز بضع عشرات من الجنيهات والظروف التي مرت بها البلاد في أعقاب الانفتاح الاقتصادي لأواخر السبعينيات. وكيف ظهرت احتياجات جديدة لم تكن معروفة من قبل.

-قبلت عرض الناشر. لكن العشرين ألفا لم تغط كل هذه الاحتياجات. وحال مرض أمي بيني وبين السفر للعمل في إحدى جامعات الخليج مثل "حلمي عبد الله" وغيره. فماذا فعلت؟

شرحت لهم كيف بدأت الحقبة الخليجية في المنطقة استنادا إلى عائدات البترول الهائلة. وكيف صدرت دول الخليج آلياتها وأيديولوجيتها إلى "مصر": امتلأت نوادي شارع "الهرم" الليلية بسائحين يلقون برزم من آلاف الجنيهات تحت أقدام الراقصات، وانتشر السماسرة في القرى الفقيرة يختارون زوجات صغيرات السن

لعـواجـيـز "مكة" و "المدينة"، وتزاحم الآلاف أمـام السـفـارة "السعودية" جريا وراء حلم الحصول علي عقد للعمل في بلد يجمع بين نعمتين : الكعبة والنفط ، وعادوا بعد سنوات قليلة ليزهوا بسياراتهم الفارهة المزدانة بالمصاحف ، وبلحاهم وجلابيبهم البيضاء وصنادلهم، وأطال "مدحت وردة" بطل كرة السلة الشورت الذي يرتديه في اللعب حتى الركبتين "لأن عورة الرجل من السرة حتي الركبة"، وامتنعت الأفلام التليفزيونية عن المشاهد التي ينفرد فيها رجل بامرأة أومشاهد الحب بين ممثلين غير متزوجين في الحقيقة، وأقيمت مراكز تجارية تجمع بين ملابس المحجبات وأماكن خاصة للساونا وحمامات البخار، وتعرض للبيع أفران تتسع لخراف كاملة، وتحولت مشاريع الإسكان إلى بناء القصور، ودُفعت ممثلات إلي الاعتزال بعد أن قام بهدايتهن الشيخ "متولي الشعراوي" الذي صار نجما تليفزيونيا إثر عودته من فترة عمل في "السعودية" معلنا أن المرأة يجب أن تكون محجبة حتى لا يشك الرجل في بنوة أبنائه منها، وأن خروجها للعمل اهدار لكرامة الرجل، وأن من ينام على صوت موسيقي "بيتهوفن" لا يعرف الله.

تحاشيت النظر إلى " فادية" واستطردت : تبني الشيخ "الشعراوي" أيضا بدعة البنوك الإسلامية وشركات توظيف الأموال التي لا تتعامل بالربا وانما تدفع لأصحاب الودائع "عائدا" سنويا بلغ ٢٤٪ تحت حساب الأرباح. وهي الظاهرة التي انتشرت بسرعة ونجحت في استقطاب مدخرات العاملين في دول الخليج. وبلغت هذه المدخرات، لدى شركة واحدة فحسب، ثمانية مليارات من الجنيهات المصرية. ثم انهارت هذه الشركات مرة واحدة وتبين أن مشروعاتها وهمية وأنها كانت تستغل إيداعات عملائها- بالتواطؤ مع

كبار المسئولين - في مضاربات على الذهب والفضة في الأسواق العالمية خسرت فيها ١٥٠٠ مليون دولار.

توقفت لحظة ثم قلت : وفي يوم مشهود افترش مليون شخص مودع من قضاة وضباط شرطة ومهندسين وأطباء وأساتذة جامعات شارع "الهرم" أمام مقر أكبر هذه الشركات صائحين: "هاتوا فلوسنا". وكنت أنا بينهم.

حانت مني التفاتة إلى "شرلي" فوجدت على وجهها تعبيرا غريبا. كانت تتطلع ناحيتي بنظرات ساهمة وقد رقت ملامحها وفقد وجهها جموده المألوف. وبدت هائمة في عالم سحري.

فقدت خيط الحديث فجأة وأنا أتأملها صامتا. وخفت "فادية" إلى إنقاذي باستفسار عن أبحاثي في تلك الفترة.

استعدت توازني وأجبت وأنا أحتل مقعدي. قلت إن التطورات التي شرحتها دفعتني بشكل غيرواع إلى الاهتمام مجددا بالموضوع الذي أردت أن أجعله مادة لرسالة الماجستير وهو الفتح العربي.

انطلقت في البحث الجديد من أن أهل "الجزيرة" عرفوا "مصر" من قديم الزمان عن طريق التجارة وألهبت خيالهم بخيراتها. وأن غزوها تم بغرض النهب تحت ستار الدين. فقد أصبحت مزرعة الجزيرة العربية بعد أن كانت مزرعة "روما"، و"لقحة" أى بقرة على حد قول "عثمان بن عفان" ل"عمرو بن العاص". وفرض الغزاة دينارين على كل رأس من المصريين، عدا الشيوخ والنساء والأطفال. وألزموا القرى باستضافتهم لمدة ثلاثة أيام وتقديم دينار وجبة وبرنس وعمامة وسراويل وخفين لكل فرد منهم. وظل حق الضيافة هذا -القائم منذ أيام الرومان -إلى عهد المماليك والأتراك(×).

(×) اهتم عدة باحثين بهذا الموضوع أحدثهم "سناء المصري" في "هوامش الفتح العربي لمصر ، حكايات الدخول" ، دار سينا،القاهرة ١٩٩٦، ومحمد حسين مؤنس في مجلة "وجهات نظر"،أبريل ٢٠٠٠.

عنيت بدراسة التركيب الاجتماعي للجزيرة العربية عند ظهور الإسلام. فقد كان العرب قسمين، الأول من الفقراء المدقعين وخاصة أبناء القبائل ذات الأصول الجنوبية واليمنية وهم الذين احتضنوا الدين الجديد بصفته دين المستضعفين. وتألف القسم الثاني من تجار أغنياء هم وجهاء "قريش" وأعيانها ملاك العبيد والإبل والعطور وأصحاب قوافل التجارة إلى الشمال والجنوب. وقد أسلم هؤلاء قبل فتح "مكة" بقليل أو بعده، وصاروا بالتدريج سادة الدولة الجديدة وراكموا في ظلها أضعاف ما راكموا قديما من ثروات.

فقد كان الخليفة يجمع ثروات المستعمرات في بيت المال الرئيسي ويقوم بتوزيعها على الصفوة القرشية حسب منزلة كل واحد من أفرادها. وأصبح "الزبير بن العوام" يمتلك أرضا في "الفسطاط" وأخرى في "الاسكندرية"، ودارا بكل من "الكوفة" و"البصرة"، وإحدى عشر دارا بالمدينة وأرضين في أحدهما غابة.

وجرى تسخير المصريين في شتى الأعمال من أجل زيادة حصيلة الضرائب. فسخر "عمرو بن العاص" مائة وعشرين ألفا من الفلاحين في إعادة حفر خليج "تراجان" أو "قناة أمير المؤمنين"، وفي بناء الأسطول العربي وإقطاعيات وبيوت السادة العرب.

غادرت مقعدي مرة أخرى وخطوت خلف ظهورهم وأنا أتكلم: انتقلت دراستي بعد ذلك إلى النتائج الاجتماعية والثقافية للغزو العربي. فقد ذكر "الطبري" أن الجيش الفاتح أسر أعدادا كبيرة من المصريين وأن صفوف العبيد والجواري امتدت من "مصر" إلى "المدينة". والحق أن "عمر بن الخطاب" رد هؤلاء المصريين حينما صيرهم أهل ذمة لكن سرعان ما ترسخت عبودية من نوع آخر قوامها السخرة والجزية والضرائب.

وبالنتيجة هجر الفلاحون - وخاصة من لم يسلم منهم - القرى والتحقوا بالأديرة التي كانت معفاة من الضرائب في سنين الفتح الأولى. لكن الجزية لم تلبث أن فرضت على الرهبان ورجال الكنيسة فتغير موقف المصريين من العرب. وتأزمت العلاقة عند فرض تعريب الدواوين في ٨٥ هجرية/٧٠٤م. واشتدت وطأة الضرائب في عهد الخليفة الأموي "سليمان بن عبد الملك"، الذي اشتهر بنهمه الدائم إلى الطعام. فقد أوصى واليه على خراج مصربقوله " احلبها حتي ينقيك الدم فاذا أنقاك الدم حتي ينقيك القيح ! لا تبقها لأحد بعدي ". وأدى ذلك إلى انفجار الثورة عام ١٠٧ هجرية وتجددها عدة مرات طوال قرن كامل بمشاركة من فقراء المستوطنين العرب من القبائل القيسية واليمنية. واستمرت الثورة الأخيرة قرابة ثمانية أشهر حتى قمعها الخليفة العباسي "المأمون" بوحشية في ٢١٧هجرية /٨٣٢م. وعاد إلى "بغداد" بأربعة مليارات من الدنانيرالذهبية بعد أن ملأ بها كف كل جندي من جنوده. كل هذا كانت له آثار ثقافية واجتماعية بعيدة المدى.

تجهم وجه"فادية" واتسعت ابتسامة "مونا" وقالت في جذل :

- هذه شجاعة منك يا أستاذ. أن تعترف بهشاشة الأساس الذي يقوم عليه مايسمى بالقومية العربية.

سارعت بالرد: أنت مخطئة.يجب أن نفرق بين شيئين. البحث التاريخي كما سبق أن كررت مرارا يعنى بالحقائق ويتقصاها. أزعم أن الفتح العربي ل"مصر"الذي تم تحت ستار الدين كان غزوا له دوافعه الاقتصادية والسياسية. لكن التطورات التالية التي شكلتها عوامل عديدة خلقت واقعا جديدا. وعلى مدى أكثر من ألف سنة تكونت بين شعوب المنطقة وحدة ثقافية عمادها اللغة والدين والتاريخ

والجغرافيا وأساسا المصالح المشتركة الراهنة الاقتصادية والسياسية. هذا هو الأساس القوى للقومية العربية.

ثم أضفت: بالنسبة لأي مصري أو كويتي أو مغربي فإن القومية العربية هي الضمان الوحيد للمستقبل. حتى ولو لم يدرك البعض منهم ذلك. العدوان العراقي على "الكويت" والتدخل الأمريكي كان يمكن تجنبهما لو اندمج أمراء النفط في القاعدة العربية.

تدخلت "شرلي": وماذا عن الزواج؟ هل تحققت رغبة والديك؟

شعرت بارهاق مفاجئ فقلت وأنا أتأمل شفتيها الممتلئتين: نؤجل الحديث عن ذلك إلى الدرس القادم.

ترددت فجأة قعقعة مرعبة. ورأيت زجاجة المياه تجري أمامي ثم تختفي. ومالت الطاولة وتساقطت الكتب والحقائب التي تحملها. اهتزت الغرفة بشدة وسمعت صوت زجاج يتكسر. وصاح أحدهم: زلزال.

استغرق الأمر كله عشرين ثانية. جريت إلى النافذة. كانت أجراس الإنذار تدوى في كل مكان.وتكررت القعقعة ثم هدأ كل شئ مرة واحدة. وساد سكون غريب كأن الكون حبس أنفاسه. ثم انطلق عويل سيارات الإسعاف والشرطة.

طالعني وجه "شرلي"شديد الشحوب. أنصتت في تركيز ثم هتفت: الحمد لله. هذه المرة لا يزيد عن خمسة "ريختر".

** ٢٨

ظهرت "شرلي" عند باب مكتبي في كنزة صوفية حمراء تضغط صدرها الصغيروتنتهي عند الخصر، فوق حافة بنطلون الجينز الأزرق. ولاحظت أنها أضافت طبقة ثقيلة من الروج فوق شفتيها أبرزت امتلاؤهما.

بادرتني: هل ما زلت تبحث عن كتاب "تومبسون"؟

أومأت بالإيجاب.

قالت وهي تبتسم: عصفورة صغيرة أبلغتني بمكانه.

قلت: عظيم. اشتريه لي من فضلك .كم ثمنه؟

مددت يدي إلى جيبي فاستوقفتني بحركة من يدها وهي تلتفت نحو الباب المفتوح: ليس الآن. لو أحد شاهدك تعطيني نقودا ... ولم تكمل العبارة.

عرضت على أن تأخذني إلى المكتبة التي يوجد بها الكتاب فوافقت. ارتديت معطفي وحملت مظلتي وانطلقت خلفها.

أخذتني في سيارة "فورد" قديمة إلى حي الشاطئ الشمالي. كانت بقايا قرع "الهالووين" ما تزال في مداخل البيوت، والعناكب والخفافيش والجماجم فوق واجهاتها.

أودعت السيارة في جاراج بشارع "كولومبوس " وبعد قليل كنا نلج مكتبة "سيتي لايتس" الشهيرة.

أقر البائع بعد استشارة الكومبيوتر بوجود الكتاب ثم أضاف أن آخر نسخة منه بيعت بالأمس.

ربت علي ذراعها عندما بدت كسيفة البال وطفنا بأرجاء المكتبة. اشتريت مجلدا عن الأحداث التاريخية للقرن العشرين وقلبت صفحات مجلد آخر بعنوان "القرن الأميركي" ثم اتجهنا إلى الخارج.

تلكأت قليلا لأتصفح مجلدا للمصور الفوتوغرافي "روي ستيوارت" تضمن غلافه صورة لفتاة عشرينية وقعت على ظهرها فانكشف فخذاها وكيلوت وردي اللون ذو منفرج ممتلئ. قلبت صفحات المجلد وتوقفت عند صورة أخرى طوح فيها الهواء بجوبتها القصيرة.

شعرت فجأة بحركة خلفي وبأنفاس ساخنة على رقبتي. انتفضت مذعورا وسقط الكتاب من يدي. والتفت لأجد رجلا أربعينيا يمد رأسه ليتأمل الصورة من فوق كتفي.

غمغم معتذرا وابتعد فانحنيت أتناول الكتاب وقلبي ما زال يدق في قوة.

غادرنا الحانوت ولمحت مقابله مقهي " فيسيوفيو كافيه" فدعوتها إليه.

كان المقهى يشغل ناصية زقاق صغير يحمل اسم كاتب الخمسينيات المتمرد "جاك كيرواك". وظهرت ملامح الفترة على نوافذه المزخرفة برسوم البراكين المتفجرة وشعارات السلام والقصائد المدونة بخط اليد. وفى الداخل طالعتنا ملصقات الستينيات بصور التجمعات الموسيقية الضخمة في الساحات والحدائق.

مررنا بين موائد للعب الشطرنج والورق. وكان البار مزدحما برجال أعمال وموظفي شركات في ملابس ثمينة كاملة بالصديري والحذاء اللامع، وبينهم سائحين في ملابس مهملة.

صعدنا الدرج إلى طابق مسروق أقل ازدحاما. وجلسناإلى مائدة بمقاعد خشبية بالقرب من شاب وفتاة يتطارحان الغرام.

طلبت كوبا من البيرة واختارت هي عصيرا.

قالت: لم يعجبني حديثك عن الحجاب. فمهما كانت التبريرات أعتقد أن قلة الملابس دليل حرية.

قلت: هل تعتبرين خلع الملابس في "هوليود" حرية؟

قالت: هذا أمر آخر.

قلت: أبدا. إنها قضية واحدة. تغطية الجسم أو تعريته لدواعي مذهبية أو تجارية تحوله إلى شئ.

مرت بإصبعها في حركة دائرية فوق حافة الكوب وهي تتأمله ثم قالت: لاأعرف. ورفعت عينيها إليّ وأضافت :

-"فادية" تقول إنك تقف بجوار النافذة لتتأمل البنات الجالسات في الكافيتريا.

ضحكت وقلت: وماذا في هذا؟

بادلتني الضحك في ارتباك وقالت وهي تفرغ كوب العصير: لا شئ. هي تعتقد أن الرجال لا يسعون إلا خلف الجنس وأن الحب هو المشاعر. على العموم هى تبحث عن زوج.

لم أعلق. وضعت الكوب على المائدة وقالت: هل تزوجت كما أرادت أمك؟

هززت رأسي: المحاضرة القادمة.

شعرها الرمادي متناثر فوق الوسادة وعيناها تتابعني في قلق.نظرة لوم إذا تأخرت في الخارج. والحديث المكرر عن مصير الأولاد العاقين. وامتعاضها عندما جاءت"نجلاء". ثم شعوري بالخلاص عندما ماتت.

قالت: كنت أريد سبقا صحفيا. قل لي. هل صحيح أن "عبد الناصر" و"تيتو" كانا على علاقة جنسية؟ هذا ما تقوله "مونا".

ضحكت ولم أعن بالرد.

اقترحت عليها أن نتناول طعام الغداء. غادرنا المقهى وطلبت منها أن تختار مكانا نذهب إليه.

مشينا بضع خطوات وهي تتطلع حولها مفكرة ثم ندت عنها صرخة فرح وأشارت إلى حانوت في نهاية الشارع.

قالت : نأكل بسطرمة. ساندوتشات بسطرمة ساخنة مع فطيرة بطاطس ومخللات وقهوة.

مرت بنا سيارة طويلة بستة أبواب. فأبديت استغرابي.

قالت : إنها سيارة أجرة مخصوصة. يستأجرها البعض لتقلهم إلى المسرح أوالكنيسة. من باب الاستعراض. ويدفعون ٣٠٠ دولارا في المشوار.

بلغنا الحانوت بعد خطوات. كانت واجهته بنية داكنة تشي بالقدم. وفي الداخل تجمع الزبائن أمام كاونترتدلت فوقه صفوف من قوالب البسطرمة الجافة.

توقفت مترددا فقالت بحماس: صاحبه يهودي. لن تجد مثله في كل "سان فرنسيسكو". يقدم لك عينات البسطرمة الساخنة لتتذوقها قبل أن تطلب. رقيقة حمراء وطرية.

مصمصت بشفتيها وظهرت في عينيها نظرة حالمة.

قلت: أنا لاأحب الأكل واقفا. ثم أني أكلت كثيرا من البسطرمة في حياتي.

أشرت إلى مطعم شهير للوجبات السريعة في نهاية الشارع وقلت : ما رأيك؟

قلبت شفتها ازدراء وقالت: هذا؟ إنه أردأ أنواع المطاعم.

قلت: سبحان الله. هو مطعم الصفوة عندنا.

وضعت أصبعا على شفتها السفلى وفكرت لحظة ثم قالت: هل تحب الطعام الياباني؟

أطرقت موافقا فقادتني إلى مطعم ياباني في شارع جانبي يتألف من مقصورات صغيرة متجاورة. جلسنا متواجهين في إحداها وطلبنا قاربىّ "سوشي" مع "ساكي". ولاحظت أنهاتتعامل مع الآخرين بثقة وجرأة، على العكس مني.

جاء النبيذ الياباني الساخن في فناجين خزفية. رفعت فنجانها إلي شفتيها ونظرت إلى في عيني قائلة: "شيرز".

تعلقت عيناي بشفتيها وأنا أردد: "شيرز".

عجزت عن التعامل مع العصى الخشبية فوضعت يديها فوق يدي وحاولت تدريبي على استخدامهما دون فائدة.

التجأت إلى الشوكة بينما عالجت هي العصى ببراعة. وبعد قليل وضعتها جانبا وتوقفت عن الأكل بينما ظلت نظراتها مثبتة على الطعام. لاحظت استغرابي فابتسمت في شئ من الحزن وأومأت بذقنها إلى جسمها.

قلت مجاملا: لا أرى شيئا غير عادي.

مدت يدها اليمني خلف ظهرها ووضعتها فوق أليتها قائلة: ثلث الأمريكيين يعاني من السمنة.

قلت : أود أن أفهم بالضبط مشكلة الثلث. الثلث أمي . والثلث تحت خط الفقر. والثلث يعاني من السمنة. ما هي الحكاية؟

لم تجب ومدت يدها إلى ملاحة خزفية مدببة الرأس كمسلة فتحسستها من القاعدة إلى قمة الرأس.

قالت: نحن مهووسون بالرجيم والتمرينات الرياضية والأطعمة المنخفضة الدهون. بلا فائدة. لأننا لا نكف عن الأكل. حتى إننا اخترعنا وجبة اضافية هي "البرنش" بين الإفطار والغداء. مافائدة أن تكون الكعكة منخفضة الدهون إذا أكلت منها صندوقا؟

تركت الملاحة واستخرجت من حقيبة يدها قصاصة مجلة. قالت: هذا هو حلمي.

تناولت منها القصاصة وقرأت : "حلم الرشاقة مع كثرة الطعام يتحقق".

ابتسمت وتابعت القراءة: "اكتشف علماء كلية للطب في "هيوستون" طريقة تمكن الجسم من حرق الدهون المسببة

للسمنة. فقد أخضعوا عدة فئران لتعديل جيني جردها من الأنزيم المسئول عن التمثيل الغذائي للدهون. و عاشت الفئران وكبرت وتكاثرت بشكل جيد واحتفظت برشاقتها رغم تناولها لكميات أكبر من الطعام. وتكونت على أجسامها كميات من الشحوم أقل من الفئران العادية بنسبة النصف لأنها كانت تحرق الأحماض الدهنية باستمرار. والآن يمكن تطوير عقاريستهدف الأنزيم نفسه في جسم الإنسان ويقوم بانقاص الوزن دون حاجة إلى الإقلال من الطعام أو ممارسة المزيد من التمرينات الرياضية".

طويت الورقة وناولتها إياها.

قالت: هذه هي مشكلتي الأولى.

-والثانية؟

- لا أستطيع الحياة دون حب.

قلت: لكنك قلت لى أن لديك صديق ثابت. حبيب يعني.

- هذا صحيح. لكني أحن دائما إلى تكرارلحظات الحب الأولى. لمس الأيدي والتوتر والقلق...

أحاطت الملاحة بأصابعها وأخذت تتحسسها من القاعدة إلى القمة المدببة. وساد بيننا الصمت.

قالت بعد برهة: هناك مطعم لبناني في نفس الشارع يقدم موسيقى شرقية ورقص بطن.

- راقصة عربية؟

- لأ. أمريكية بيضاء. ترقص بين المقاعد ببزة الرقص الشهيرة عندكم التي تكشف مساحات كبيرة.

- هل يحب الأمريكان هذا الرقص؟

- أغلب الرواد شرقيون أو من أصل شرقي. وهم ينفعلون ويصيحون ويصفقون على إيقاع الموسيقى وينثرون فوق رأسها الدولارات. سجل العنوان لتذهب وقتما تشاء.

قلت: لست مغرما بهز البطن.

قالت: لماذا؟ أنا أحبه. وعندي بزة أرقص بها أحيانا.

- لصديقك؟

- أجل. ولك إذا أحببت.

تشاغلت بدفع الحساب بينما كانت تضع بقايا الطعام في صندوق من الورق. ثم غادرنا المطعم فأعطت الصندوق لعجوز أسود يجلس فوق الرصيف. ومشينا في صمت بخطوات بطيئة وعندما بلغنا الجاراج تحولت إليها فجأة ووضعت يدى فوق رأسها وجذبتها نحوي فلم تقاوم. قبلتها في خدها ودفنت رأسي في شعرها وأنا أتنفس في عمق بالرغم مني وهو أمر لم أفعله من زمن طويل. انتصبت بشدة - وهو ما لم يحدث أيضا من زمن طويل- ثم تحسست خدها بخدي وأنا أتشمم رائحتها وكانت طيبة وبها أثر من عطر خفيف. ظلت ساكنة مستسلمة ثم انفصلنا واتجهنا إلى السيارة وهناك احتضنتها من جديد من الجانب فاستدارت قليلا حتى التصق فخذانا.

لمحت بركن عيني شابا يعلق الملصق المعهود الذي يدعو لشرب اللبن على الجدار المقابل. ثم تبينت أن وجه الرجل في الملصق قد استبدل بوجه "مونيكا"، كما أضيفت عبارة "ليس حليبا" أسفل اللبن الذي يسيل من شفتيها. تطلع إلينا الشاب بإمعان. وفكرت أن منظرنا ملفت بسبب فارق السن الواضح. لكني لم أراع. ومدت هي ساعديها فأحاطتني بقوة وجذبتني إليها ثم انفصلنا.

وضعت يدها في يدي وولجنا الجاراج. تنهدتُ وأنا أجلس إلى جوارها مرددا: لا أصدّق.

أوصلتني في صمت إلى منزلي. انحنيت لأقبلها فأعطتني خدها.

قلت: أشكرك.

قالت: سأتلفن لك.

انتظرت فوق الرصيف حتى اختفت سيارتها ثم ولجت المنزل. تنقلت بين الغرف على غير هدى ثم حملت زجاجة بيرة إلى الحديقة. أشعلت سيجارة وجلست أستعيد ما حدث.

دخنت عدة مرات. ثم أعادني البرد إلى الداخل. تبولت وتنقلت بين الغرفة المطلة على الشارع وغرفة النوم ثم رويت النباتات. وأخيرا جلست إلى مكتبي وفتحت الكومبيوتر. أوصلت الجهاز بالتليفون فوجدت بريدي الإلكتروني فارغا. فصلت التليفون و فتحت الملف الذي دونت فيه ملاحظاتي على أوراق مؤتمرالمثقفين. مررت بعيني على السطور دون أن أفقه منها شيئا. فتحت الملف الذي يحوي مسودة كتابي الجديد وبعد لحظات أغلقت الكمبيوتر وأدرت التليفزيون. تابعت مناقشة حول توبيخ الرئيس عن أكاذيبه بشأن "مونيكا" ثم أغلقته ووضعت فيلما في الفيديو. ولم أفقه شيئا من اسم الفيلم أو موضوعه.

دق جرس التليفون حوالي السابعة فأسرعت إليه ورفعت السماعة. لم يرد على أحد.

مصرايم؟

أم هي؟

لمت نفسي على أني لم أحصل على رقم تليفونها. حملت علبة سجائري وسماعة التليفون المتنقلة إلى الحديقة. دخنت سيجارة ثم عدت إلى الداخل. ولجت الحمام وانحنيت أتأمل وجهي في المرآة.

الأب؟ أم هالة الأستاذ؟ أم درجاته؟ أم نقوده؟

تذكرت حديث ماهر عن ألاعيب الطالبات وتهمة التحرش الجنسي. وتذكرت أيضا رسائل "إكس".

والاحتمالات الأخري؟

تلفنت بعد التاسعة.

- هل تحب الخروج؟

أجبت على الفور: سأنتظرك أمام المدخل.

وصلت في سيارتهابعد عشر دقائق مرتدية معطفا أسود فوق الكنزة الحمراء وبنطلون الجينز. ركبت إلى جوارها وذهبنا إلى مقهي قريب. ركنا السيارة وجلسنا في الخارج ، أسفل مدفأة دائرية، نحتسي قهوة باللبن. وضبطتني أنظر إلى شفتيها فحوّلت نظراتي ولمحتها بركن عيني تمص شفتيها.

حركة عصبية أم ترطبهما توقعا لأن أقبلها؟

قالت: :فكرت في لقاء الصباح.

لم أتوقع أن تنسي وضعك كأستاذ ثم أني قلت لك إني مرتبطة.

أو ..

تمعنت في ملامحها لكنها كالعادة كانت بلا تعبير.

قالت: كنت أتحدث طول الوقت ولم أترك لك فرصة.

قلت: أنا أيضا فكرت فيما حدث. وفيما يمكن أن يسببه من ضرر. هناك أيضا ...كم عمرك بالضبط؟

- كم تظن؟
- لن تزيدي عن خمس وعشرين . لو كنت أنجبت في مقتبل الشباب لكان لدي الآن ابنة في سنك.

قالت: لاأرى في ذلك مشكلة.

قلت: وهناك صديقك.

أجابت بحدة: توم؟ إنه لا يملكني.

غيرت الموضوع : ماذا يفعل؟

- يدرس مثلي. نحن نعرف بعض من أيام المدرسة. وسنتزوج قريبا.
- هل يغير عليك؟
- أوشك أن ينتحر عندما حكيت له عن مغامرة عابرة لي.

- هل تحكين له دائما مغامراتك؟

ضحكت: لا . تعلمت ألا أفعل.

- وأنت .هل تغيرين عليه؟

- مرة لاحظت اهتمامه بزميلة له. كان يتحدث عنها بإعجاب وماذا قالت وماذا فعلت فكدت أجن.

وضعَت فخذا سمينافوق الآخر. وتدلت خصلة من الشعر فوق الجانب الأيمن من جبهتها.

قلت : ربما كانت هناك أزمة ما بينكما. ليس من حقي استغلالها.

قالت: أبدا. كل شئ بيننا على مايرام. نحن نلتقي دائما في عطلة نهاية الأسبوع. إما أن يأتي عندي أو أذهب عنده.

انحنيت إلى الأمام واخترت كلماتي بعناية : منذ فترة بدأت أتلقى رسائل غامضة.

قالت بحماس طفولي: هل يبتزونك؟

- من هم؟

- أي واحد. إنها صيغة في الكلام.

تأملت عينيها بإمعان وقلت: لأ. ليس بها شئ خطير. في البداية كانت مرفقة بالورود. إنها أقرب إلى عبث أطفال أو مراهقين. هل لديك فكرة عمن يمكن أن يكون المرسل؟

هزت رأسها نافية ولم يبد عليها ما يشير إلى أنها تكذب أو تخفي شيئا.

استرخيت في مقعدي وقلت: كيف تنطقين لقبك؟ "نايستروم"؟

- "نايستروم". بنقطتين فوق حرف ال"أو". هذا اسم نرويجي. جدي جاء من هناك.

- وماذا يفعل أبوك؟

- لا شئ.

- كم عمره؟

- فوق الستين.

استخرجت حافظة صغيرة من كيسها وأرتني صورة له.

تأملت الوجه ولاحظت أوجه الشبه بيننا.

- متقاعد؟

- تقريبا.

- كيف؟

أخذت تعبث بكوب القهوة ثم قالت :

- قصته عادية. كان يملك مكتبا صغيرا للتصميمات المعمارية. ونجح. وأخذ يتوسع. حتى أنه خطط لافتتاح فرع في "لوس أنجلوس". وفي تلك اللحظة كانت شركة المقاولات العملاقة "سولام" قد بدأت تشتري الشركات المنافسة ثم انتقلت إلى المكاتب الهندسية ووضعت عينها على شركة أبي. قدمت له عرضا مغريا لكنه رفض مفضلا أن يبقى في السوق.

وفجأة فقد عقدا ضخما لتصميم مطار. وتلاه عقد آخر. وكان يعتمد على هذين العقدين في التوسع. ولثقته في الحصول عليهما كان قداقترض بضمان الشركة. استطاع أن يقنع البنك بتأجيل السداد شهرين برهن المنزل. ثم انتشرت الأنباء بأنه يواجه مشكلة سيولة وأبلغه البنك بأنه سيحجزعلى مدخراته وحسابه والشركة والمنزل وسيارتين إن لم يسدد القرض.

صمتت فسألتها: ماذا فعل؟

- لم يفعل شيئا. استولى البنك على كل شئ وانتقلنا إلى مسكن صغير.وبعد قليل آلت الشركة إلى "سولام".

- وأبوك؟

- فقد النطق. ولولا أمي لصرنا في الشارع. فهي التي تنفق على المنزل من راتبها في التدريس.

- وأنت ؟
- أنا أدبر نفسي جيدا. فالدراسة بمنحة. ثم أني أقوم ببعض أعمال النسخ للطلاب. التعليم الجامعي أصبح فوق متناول الأسر ذات الدخل المنخفض. المنح الآن نصف ما كانت عليه من عشرين سنة.

رفعت فنجاني إلى شفتي ثم خطر لي خاطر فأعدته إلى المائدة وسألتها: عندك كمبيوتر ؟

- اشتركنا أنا و"دوريس" في واحد. فنحن نسكن معا.

ألقت نظرة على ساعتها وقالت: الوقت تأخر. يجب أن أذهب.

حملتُ قائمة الحساب إلى الداخل ودفعت ثم غادرنا المقهى.

احتضنتها عند باب السيارة ودعكت خدي بخدها وامتصصت وجنتها ثم أذنها. وهمست لها إن بشرتها ناعمة وشفافة.

قالت : عندي دائما إحساس أن جلد وجهي سيتهاوى مرة واحدة.

قبلتها في شفتيها لكنهما كانتا جافتين ولم تستجيبا لي. حاولت مرة أخرى فسمحت لي - دون حماس -أن ألتقط السفلى وأمتصها.

تخلصت مني برفق وفتحت باب السيارة وركبت.

مدت يدها فأزالت صمام البا ب الآخر وهي تقول: اركب.

قلت: أفضل أن أمشي. أعرف الطريق من هنا.

أغلقت إلباب وأنزلت نافذته وهي تقول: أوكي. باي.

ثم مدت رأسها خارج النافذة وأضافت: أرجوك ألا تغضب مني أبدا مهما حدث.

٢٩ * *

حلمت بأن "ماهر" يصفعني وأني قررت ألا أقبل المهانة بعد الآن وأن أغادر المنزل. ثم فكرت في إمكانياتي المالية وما إذا كانت تسمح بالحياة المستقلة. وبدا الأمر كأنما أعيش في منزل الأسرة وكأن "ماهر" هو أبي. وعندئذ استيقظت ورقدت أتطلع في الظلام. ولم يلبث أن تناهي إلى سمعي دق الطبول الخفيف عند جيراني.

غادرت الفراش ومضيت إلى المطبخ وشربت مباشرة من زجاجة مياه. عدت إلى الفراش ووضعت وسادة فوق رأسي. لكن صوت الطبول استمر. وتراءت لي شفة "شرلي" الممتلئة. تخيلت أني أعضها فتئن أنينا خفيفا مستسلما. تذكرت مذيعة مطار "القاهرة" التي تردد بين الحين والآخر: "النداء الأخير على رحلة "مصر" للطيران رقم .."وقررت أن أشارك بورقة في مؤتمر "ماهر" وأن أطلب منه تجديد عقدي لفصل دراسي ثان.

انقلبت على وجهي ثم جانبي لكن النوم استعصى عليّ. تذكرت الفتاة التي استسلمت لي يائسة بعد أن فقد صاحبها رغبته فيها، والخجولة التي كانت تبحث عن درجة فريدة من الافتتان ، والطالبة التي أرادت استغلالي ، والمرات التي ورطني فيها يأسي. ثم هاجرت إلى عالم الخيالات المطواعة. استعدت قصة أمريكية عن زوجةتتفنن في إبراز صدرها بلبس البلوزات الضيقة ويتعرض لها صبيان مراهقان في مدخل المنزل فتصيح بهما أن يبتعدا عنها ويسمع زوجها صياحها فينادي عليها وتصعد متوردة الوجه ولاتذكرله شيئا لكنها عندما تستعد للنوم تخلع بلوزتها وسوتيانها في

مواجهة النافذة. ويرتب الزوج وجود أحد الصبيين معهما في كوخ عطلة ويقضيان المساء في لعب الورق والصبي لا يرفع عينيه عن صدرها ووجهها يتضرج حمرة وفي الصباح يخرج الزوج ثم يعود ليسمع ضجة في غرف النوم ويشاهد زوجته في الفراش تقاوم الصبي العاري وكان يعرف أن مقاومتها قصيرة الأمد وبالفعل ما أن وضع الصبي يديه على ثدييها حتى تلاشت واستسلمت.

تنقلت بين قصص مماثلة واجتاحني الشوق إلى اندفاع الدم ونشوة التحسس. وأخيرا استأنفت نوما متقطعا حتى الصباح ونهضت منحرف المزاج.

لم تفلح الطقوس اليومية من إفطار وحمام في تحسين مزاجي، فارتديت ملابسي وخرجت إلى السوبر ماركت. اشتريت "التايمز" و"الكرونيكل" والتقطت "ديلي كاليفورنيان" وعدت بأذن مسدودة من جراء البرد. استخدمت رشاش الأنف ثم أعددت قهوة وبدأت ب"التايمز".

قرأت أن "كلينتون" ألغى هجوما مقررا على "بغداد" بالصواريخ قبل ربع ساعة من انطلاق ٣٠٠ صاروخ "كروز" نحوها، وأن "نتنياهو" رئيس وزراء "اسرائيل" علق اتفاق السلام الجديد مع "عرفات" لأن الأخير تحدث عن دولة مستقلة قادرة على الدفاع عن الحقوق الفلسطينية.

تجاهلت أنباء "مونيكا" التي ستتلقى مليون دولار عن كتاب حول قصتها مع "كلينتون" سيعده أحد الكتاب المحترفين، ونقلت عيني بسرعة فوق مقال يدعو إلى رد اعتبار "المكارثية" التي سيطرت على الولايات المتحدة في الخمسينيات.

انتقلت إلى ال"كرونيكل" التي أبرزت نبأ اختطاف موظفة في وزارة الخزانة، في الثامنة والخمسين من عمرها، من جاراج انتظار وسط الحي المالي، حيث وقع حادث مماثل

منذ شهر. كما أبرزت نبأ العثور على جثة فتاة في الخامسة عشرة في ضاحية "بيتسبرج" بعد أسبوع من اختفائها، وتعرض شخصين للسطو في عرض الطريق أمام حانوت "ماسي". وعلق مدير الشرطة على ذلك بأن جرائم القتل والسرقة تتزايد عادة في شهور "أكتوبر" و"نوفمبر" و"ديسمبر" نتيجة تبكير الظلام، وازدياد عدد المارة المتبضعين عشية الأعياد. ونصح من يتعرضون لحوادث السطو بعدم المقاومة مستشهدا بحادثة قريبة لشاب في السابعة عشرة استوقف رجلا في الطريق وطالبه بأن يعطيه ما معه. وعندما حاول الرجل مساومته كي يتقاسما المبلغ وهو مائة دولار، أطلق عليه الرصاص وصرعه.

أوشكت أن أترك الصحيفة عندما لمحت مقابلة مع أحد أساتذة السيكولوجي الذي ساهم في تطوير برامج تدريب المجندين الجدد بالجيش الأمريكي. كان يتحدث عن خبرته في حل مشاكل المجندين النفسية. قال إن مفتاح التدريب العسكري هو تحطيم النفور الإنساني الطبيعي من القتل بعملية أسماها "فك الارتباط". فما أن يزول هذا النفور، فإنه لا يعود أبدا. وأضاف: "إن المقدرة على مشاهدة رأس بشرية تنفجر وأن يتكرر ذلك مرارا، تتطلب نوعا من تحجر المشاعر إزاء الألم الإنساني، وهو أمر يجب تعلمه".

وضعت الكرونيكل "جانبا وعدت إلى "نيويورك تايمز" وتفاصيل الاتفاق الذي توصلت إليه شركة "روفر" البريطانية مع نقابة العمال ويتيح لها إنقاذ أكبر مصانعها من الإغلاق بواسطة الشركة الأم "بي إم دابليو". ويقضي هذا الاتفاق بالتخلص من ٢٥٠٠ عامل، وبأن يعمل العمال ساعات أكثر عندما يتطلب العمل ذلك يتم اقتطاعها من أوقات عملهم في الأسابيع الهادئة.

قرأت أيضا تفاصيل تراجع زعماء نقابة شركة

"فيديكس" العملاقة للنقل السريع ، عن الاضراب الذي انتوى ٣٥٠٠ من طياريها القيام به. وكانوا قد رفضوا عرضا من الشركة بزيادة في الأجرقدرها ١٧٪ خلال خمس سنوات، وطالبوا بحمايتهم من جداول الطيران التي تفرض عليهم السفر ليلا دون أن تتيح لهم قسطا كافيا من الراحة. واعتبر استسلام النقابة التي تمثل مائة وأربعين ألفا من العاملين، انتصارا ساحقا للشركة فارتفعت أسعار أسهمها على الفور بنسبة ٣ في المائة.

تركت الصحف جانبا وفتحت الكمبيوتربعد أن أوصلته بالتليفون. وجدت رسالة موجزة من "إكس "تتألف من عبارة قصيرة " أنت تلعب بالنار" أسفل لوحة من الفن الياباني الكلاسيكي الذي يتميز بألوان بديعة وخطوط أنيقة وزخارف متقنة. واقتصرت اللوحة على النصف الأسفل من امرأة أزاحت رداءها وفرجت فخذيها ودست يدها في منفرجها العاري.

وجدت أيضا رسالة من جيراني تشكو من دخان سجائري، وأخرى من "شادويك "تتضمن نص محاضرة ألقاها الأديب الإسرائيلي "ايزاك لاعور". ووصفته بأنه من "اليسار الراديكالي المعادي للسياسات العنصرية الإسرائيلية".

قرأت المحاضرة بعناية ووجدتها تتناول العوامل التي أدت إلى اختفاء حركة "السلام الآن" الإسرائيلية(×).

(×) استعرضت المحاضرة تاريخ حركة "السلام الآن" منذ إنشائها في عام ١٩٧٨ وكيف توصلت مؤخرا إلى اعتراف مهتز بحق الفلسطينيين في تكوين دولة مستقلة فوق ٩٠٪ من الضفةالغربية متغافلة عن أن هذه النسبة ليست من مجموع أراضي الضفة وإنما هي مما يتبقى منها بعد أن تستقطع منها المستوطنات الإسرائيلية والطرق والقواعدالعسكرية والتوسعات في "القدس". =

بعثت بنص المحاضرة إلي "إستر" علي عنونها الإلكتروني ثم فصلت التليفون وأغلقت الجهاز.

ارتديت معطفي وأحطت عنقي بلفاعة صوفية وحملت حقيبتي وغادرت المنزل. رافقني انحراف المزاج حتى المعهد فصعدت إلى الطابق الثاني مباشرة دون أن أمر على "ماهر".

شعرت بثقل التنفس وتذكرت أسئلة طبيبة عيادة الستينيين وفكرت فيما إذا كان الوقت قد حان لأن أكف عن التدخين وعن كل شئ.

التقيت ب"شرلي" في الردهة فتبادلنا تحية رسمية دون أن يشي وجهها بأثر لما جرى بيننا. ومضت إلى غرفة "شادويك" بينما التجأت إلى مكتبي.

هل ستشكوني؟

مر بي "ادوين" في الطرقة فتبادلناتحية باردة. كانت

= وقالت المحاضرة إن الحركة انتقلت من معارضة المستوطنات إلى الدفاع عنها والتمسك بوجودها. وتدعو بعض البيانات التي تصدرها إلى تفكيك المستوطنات ثم تنتهي بعبارة خبيثة : "دعوة القيادات الفلسطينية لإعلان استعدادها للتوصل إلى تسوية دون أن تلجأ للعنف " ، أي إعطاء الشرعية لكل ما يقوم به الاحتلال من قتل وحصار. كما أن الحركة تؤيد موقف الدولة الإسرائيلية من رفض المسئولية الأخلاقية والقانونية عن ترحيل اللاجئين الفلسطينيين.

وهاجم "لاعور" عددا من أقطاب مثقفي اليسار الصهيوني مثل "عاموس عوز"، الكاتب المعروف الذي حارب في فيلق المدرعات الاسرائيلي في ٦٧ و٧٣ وبرز كداعية سلام إلى أن هاجم ما أسماه "إصرار الفلسطنيين على العودة إلى أراضيهم .. والاستيلاء على اسرائيل"، و "دان ميرون "، أستاذ الأدب العبري في جامعتي "القدس" و"كولومبيا" الذي دافع عن حق الجيش الإسرائيلي في استخدام العنف ضد أطفال الحجارة، و "يولي تامير" نصير التعددية الحضارية الذي وصل إلى درجة الدفاع عن حق الأقليات في ختان الإناث ثم نفي أكثر من مرة أن تكون قضية المستوطنات عقبة في طريق السلام إذ يتعين على الفلسطينيين أن يقبلوا وجودها !

سترة "استر" معلقة في مشجب بخزانتي فألقيت بمعطفي فوق الطاولة. ورأيت أنها أضافت ملصقا جديدا إلى الحائط من إصدار أنصار السلام الإسرائيليين بعنوان " أشهر عشرة أكاذيب اسرائيلية". لم أعن بقراءة الأكاذيب العشرومضيت إلى الدرس بمعنويات منخفضة.

كانوا جميعا في انتظاري بمافيهم "شرلي" وعدا "فيرنون" الذي تخلف عن الدرسين الأخيرين. بدأت من حيث انتهيت في المحاضرة السابقة. ووصفت الجو الذي ساد الجامعة المصرية في الثمانينيات وكيف سيطرت ثقافة النفط والإرهاب السياسي والفكري المتستر تحت العباءة الدينية، وانتشرت دعوة "أسلمة" المعرفة وساد فكر لا عقلاني شبه خرافي حتى بين أوساط الأساتذة. وانحصر البحث العلمي في مشروعات تعتمد على مصادر تمويل خارجية، وبحوث شكلية هدفها الوحيد هوالحصول على الترقية.

ومن الطبيعي أن تتراجع التقاليد الأكاديمية في هذا الجو. فقد صار الأستاذ المشرف على الرسائل هو الحاكم بأمره ومهمة الطالب هي إرضاء تكاليف سيادته العلمية والشخصية والعائلية. وإذا تمرد المعيد أوالمدرس المساعد تبين أن أبحاثه لاتؤهله لاجتيازالباب الملكي إلى سلك أعضاء هيئة التدريس. بل يجد الأستاذ المساعد نفسه في الموقف ذاته إذا قرر أحد أعضاءاللجنة العلمية الدائمة أن أبحاثه لاتؤهله لدرجة الأستاذية. الأمر الذي دفعني إلى موقف ما زلت أخجل منه إلى الآن.

فذات يوم زارني في مكتبي شاب شاحب الوجه ذوملامح أجنبية. عرفت فيه على الفور "باسل"، تلميذ الثانوي الذي

تردد على الكلية قبل سبع سنوات يجمع في جرأة توقيعات الأساتذة على عريضة أعدتها جمعية "أنصار حقوق الإنسان" ضد مشروع "هضبة الأهرام". وكانت شركة فرنسية قد أرادت استغلال منطقة الأهرامات لإقامة ملاعب وحمامات سباحة بتواطىء من بعض المسئولين، وتبنت الجمعية التي شكلها "عبد المحسن حمودة"، والد "باسل"، مهاجمة المشروع والعمل على وقفه. ولفت الشاب نظري وقتها بحماسته وثقافته وإجادته لعدة لغات منها الأسبانية، لغة أمه كما عرفت فيما بعد.

بعد سبع سنوات كان قد صار طالبا بكلية العلوم في قسم الكيمياء الحيوية وجاءني في آخر يوم من شهر "سبتمبر" سنة ٨٥ يطلب توقيعي على عريضة أخرى، من أجل أبيه هذه المرة. فقد اختطفه أشخاص مجهولون يرتدون الملابس المدنية يعتقد أنهم من رجال المباحث(×).

كنت أستعد للمرحلة الأخيرة من رحلتي الأكاديمية وهي التقدم للترقية إلى درجة أستاذ. وكان جو البلاد ملبدا. فقد أدت المجازر الوحشية التي قامت بها الجماعات الإسلامية المتطرفة إلى تورم أمني انعكس على مجالات مختلفة وخاصة الجامعة التي صارت شبه محتلة برجال الأمن. وكان معروفا أن أحد أعضاء اللجنة العلمية الدائمة على صلة وثيقة بهم.

(×) ولد "عبد المحسن حمودة"، سنة ١٩٣٠ واشترك في تكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال سنة ١٩٤٦ وعينته الحكومة الوفدية ملحقا صحفيا بالسفارة المصرية في "واشنطون" سنة ١٩٥٠ ثم حصل على الدكتوراه في الهندسة وعمل مستشارا فنيا للهيئة العليا للنفط في "العراق" في الستينيات ولم يتوقف اهتمامه بالقضايا الوطنية لحظة واحدة. وكان بين من اعتقلهم السادات قبل اغتياله. وفي يوم ٢٦-٩-٨٥ هاجم رجال المباحث بيته واعتقلوه بتهمة تكوين جماعة "الحركة المصرية لمناهضة الصهيونية" والإعداد لمؤتمر وطني في ذكرى إتفاقية "كامب ديفيد" وأودع سجن الاستئناف. وتكرر اعتقاله بعد ذلك.

وخشيت أن يؤدي توقيعي على مطالبة بالإفراج عن "عبد المحسن حمودة" إلى تعطيل ترقيتي.

ولن أنسى ما حييت النظرة التي تجلت في عيني الشاب ورماني بها عندما اعتذرت عن عدم التوقيع في خجل. ولاحقتني هذه النظرة طويلا وحرمتني من النوم عدة ليال بعد ثلاث سنوات - في السنة التي تقدمت فيها للترقية - عندما علمت بوفاته متأثرا بالتعذيب الذي تعرض له على يد رجال الأمن(×).

ومما يدعو للسخرية أن طلب الترقية رفض لسبب لا علاقة له بالسياسة، وإنما بالمرأة.

تصبب العرق على جبيني فجأة وأخرجت منديلا ورقيا من جيبي جففت به وجهي. قلت: ظهرت "نجلاء" في حياتي بعد حصولي على الدكتوراه. كانت تصغرني بعشر سنوات ودائمة التردد على "لندن" لدراسة وثائق الحكومة البريطانية. لفتت نظري بجسدها الفارع وحيويتها الدافقة وتركيزها على التفوق. وفي أحد الأيام دعتني إلى

(×) كان "باسل" قد حضر مشهد اعتقال أبيه وبدأ حملة برقيات واتصالات بالمعارف والمسئولين مطالبا بالتحقيق فيما حدث، فطاردته الشرطة وقبضت عليه في ٢٣-١٠-٨٥.

وقررت محكمة استئناف "القاهرة "في ٧-٦-٢٠٠٠ أن ما تعرض له "باسل" في قسم شرطة "قصر النيل" ومبنى مباحث أمن الدولة "قد أصابه بصدمة مروعة ذهبت بإتزانه النفسي والعصبي وأصيب بانهيار مما أدي إلي أن تقوم مباحث أمن الدولة بنقله إلي مستشفي "مصر المعادي" للعلاج النفسي علي نفقتها سرا".

وأثبتت المحكمة أنه تعرض ل" تعذيب بشع علي يد ربانية أجهزة الأمن الذين وأدوا ضمائرهم وخرجوا علي حقيقة رسالة الأمن".

وقالت المحكمة إن "التقارير تشير إلي أن اصابة الرأس التي أدت إلى اصابته بالمخ كانت هي السبب المباشر الذي يفسر الوفاة دون وجود سبب آخر. وأنها أدت في النهاية إلى هبوط في التنفس و الدورة الدموية والوفاة".

"درينك" في منزلها. وكنت مكتئبا بسبب تدهور مفاجئ في حالة أمي الصحية. ولم يعجبها ذلك إذ تصورت أن زيارتي لها لا بد وأن تثير البهجة، كما قالت.

توقفت مترددا والتقت عيناي بعيني "شرلي".

هل أذكر التفاصيل ؟

كيف نهضت واقفة وتخلصت من ردائها بحركة واحدة كاشفة عن سوتيان وكيلوت وحسب. ومرة أخرى لم تكن المبادرة لي. أعطتني ظهرها فندت عني تنهيدة إعجاب بردفيها المتماسكين البارزين. لكني تخلصت من ملابسي في غير حماس. ورقدت إلى جوارها أتأمل السقف وأتساءل عن جدوى التاريخ. فابتعدت غاضبة وأعطتني ظهرها البهي من جديد. تحسست بشرته الناعمة واستداراته الكاملة وأخاديده المظلمة. ولم يفد ذلك بشئ. احتضنتها واستخدمت كل ما في جعبتي من مهارات دون فائدة. قلبتها على ظهرها وتمددت فوقها. طالبتها بأن تردد بعض الكلمات فامتنعت قائلة بالإنجليزية إنها بذيئة وصرفني ردها عن المشكلة فتحسنت حالي. ولم تلبث أن كررت الكلمات من تلقاء نفسها في عربية دارجة ونشوة بالغة.

قلت: فشل لقاؤنا التالي في منزلي وانصرفت غاضبة. وانقطعت علاقتنا التي لم تكن قد بدأت. لكنها لم تغفر لي أبدا. وبعد ذلك بسنوات كانت هي التي حررت تقرير اللجنة العلمية الدائمة الذي رفض ترقيتي، وجاء به أن إنتاجي ذو وزن خفيف علميا.

تصاعدت آهة من أحد الطلاب واعتبرت ذلك دليلا على أنهم يتابعونني باهتمام، فمضيت في قصتي.

لم ألجأ إلى هيئة التدريس المؤلفة من حوالي عشرين من أساتذة وأساتذة مساعدين، ليست لى علاقة وثيقة بأغلبهم، بينما تحظى هي بإعجابهم جميعا. وفضلت أن أحاول

مرة ثانية. وبالفعل تقدمت في العام التالي بأبحاث جديدة وكانت هي قد تركت اللجنة، ونلت الترقية.

بعد عامين تفجرت قضية "نصر أبو زيد"، الذي كان أستاذا مساعدا بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة "القاهرة"(×). ففي مايو ١٩٩٢ تقدم بانتاجه إلى اللجنة العلمية للحصول على درجة الأستاذية. ورفضت اللجنة ترقيته استنادا إلى تقرير رئيسها، "عبد الصبور شاهين"(××).

اعترض كل من مجلس الأساتذة بقسم اللغة العربية بكلية الآداب ومجلس الكلية على تقرير اللجنة الدائمة ورفعا إلى مجلس الجامعة تقريرين تفصيليين بملاحظاتهما

(×) ولد سنة ١٩٤٤، وهو الآن أستاذ بجامعة "ليدن" الهولندية.

(××) استعرض التقرير مؤلفات "نصر" فقال إنها تنتهي إلى "نتيجة تتكرر في أبحاثه دائما وهي الدعوة إلى المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر من سلطة النصوص وأول هذه النصوص التي يؤكد على ضرورة التحرر منها هي القرآن والسنة"، كما إنه "يهاجم الغيب ويجعل النقل الغيبي غارقا في الخرافة والأسطورة مع أن الغيب أساس الإيمان".

وقال التقرير إن الباحث "يمضي في تجاوزاته إلى درجة أن يتهم القرآن بأنه لم ينج من آثار عمليات المحو والإثبات تلك ويبني ذلك على إدعاء الشيعة أن القرآن محيت منه عمدا النصوص الدالة على إمامة "علي". وهو "يلمح إلى أن المسلمين يتجنون على المسيحيين" ... أما مقاله عن "أحمد صادق سعد" فهو "موضوع لا أهمية له لأن هذا المؤلف السوري مجهول وله هوية خاصة".

وانتهى التقرير إلى أن الباحث "يدور في فلك مفهومين هما التراث والتأويل" و أن "الأعمال التي تقدم بها السيد الدكتور "نصر" تحتاج إلي إعادة نظر وتنقية كما تحتاج إلى إضافة جديدة تتصل اتصالا كاملا بمواد الدراسة في قسم اللغة العربية لكلية الآداب. والإنتاج المقدم لا يرقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة العربية. عبد الصبور شاهين".

عليه(×) أكدا فيه أن الانتاج الذي تقدم به "نصر" يتسم بالغزارة والجدة والتنوع والأصالة العلمية. لكن مجلس جامعة "القاهرة" تبنى موقف اللجنة الدائمة في مارس ١٩٩٣ ورفض ترقية "نصر".

انتقلت القضية إلى صفحات الجرائد وأثارت جدلا واسعا. وفي مايو ١٩٩٥ تقدم "نصر" للترقية للمرة الثانية بإنتاج علمي وافر فوافق مجلس جامعة "القاهرة" على ترقيته إلى وظيفة أستاذ.

لكنه لم يهنأ بهذه الترقية أكثر من شهر واحد.

فقبل سنتين وبعد رفض ترقيته بشهرين أقام أحد الشيوخ المتعصبين قضية ضده يتهمه بالردة عن الإسلام ويطالب بالتفريق بينه وبين زوجته على هذا الأساس "منعا لمنكر واقع ومشهود"، كما جاء في عريضة الدعوى. لكن المحكمة الابتدائية رفضت قبول الدعوى في يناير ١٩٩٤، لأسباب إجرائية، دون أن تتعرض لموضوعها. فاستأنف المدعي الحكم وبعد سنة ونصف سنة أصدرت محكمة استئناف "القاهرة"

(×) أهم هذه الملاحظات هي :

١- خروج التقرير عن المهمة الأصلية للجنة الترقيات وهي فحص الإنتاج العلمي وحده دون التعرض لأي اعتبارات أخرى إذ يركز على جوانب اعتقادية لا علاقة لها بعمل اللجنة. ويتجلى ذلك فيما يحتويه التقرير من عبارات تشكك في سلامة عقيدة صاحب الإنتاج وتحكم عليه في دينه بدل أن تحكم على إنتاجه الذي هو في موضوع التقييم العلمي لا الاعتقادي فقد وصف اجتهادات الباحث بعبارة نصها " وهذا كفر صريح" ، و" رأي كافر مردود".

٢- ينتزع مصطلحات الباحث من سياقها ولا يتفهمها ويتجاهل قوله صراحة " لا خلاف على أن الدين وليس الإسلام وحده يجب أن يكون عنصرا أساسيا في أي مشروع للنهضة. لكن الخلاف هو حول المقصود من الدين. هل المقصود الدين كما يطرح ويمارس بشكل أيديولوجي نفعي من جانب أصحاب المصالح أم الدين بعد تحليله وفهمه وتأويله تأويلاعلميا".

أول حكم من نوعه في تاريخ "مصر" بالتفريق بين "نصر وزوجته (×) بزعم انه إرتد عن الإسلام بما وضعه من مؤلفات.

لاقى الحكم الذي أصدره قاض عائد من فترة عمل في "المملكة السعودية"، ترأس جلسة المحكمة مرتديا اللباس الباكستاني، استنكارا واسعا. وعلى الفور أصدر ١٣٠ من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية بيانا أكدوا فيه أن الحكم يفرض قيودا على حرية البحث العلمي. وقضى "أبو زيد" ليلة مرعبة، لأن معنى الحكم أهدردمه وأصبح في مقدور

(×) جاء في حيثيات الحكم الصادر في يونيو ١٩٩٥: "ينكر المؤلف وصف الله تعالى بأنه ملك الواردة بالقرآن الكريم كما ينكر العرش والكرسي وجنود الله الملائكة ويرى أن الآيات التي وردت بكتاب الله تعالى إذا فهمت حرفيا تشكل صورة أسطورية والأسطورة بالمعني اللغوي هي الأباطيل. كما ينكروجود الشياطين ويجعل وجودها وجودا ذهنيا في مرحلة الأمة الإسلامية في بدايتها وأيضا السحر والحسد والجان ويضيف إلي ذلك أيضا صور العقاب والثواب ومشاهد القيامة وعذاب القبر، وخلاصة ما أورده أن الآيات القرآنية لا تمثل واقعا ولا حقيقة ولكنها تمثل وجودا ذهنيا في مرحلة العصر النبوي أي في أذهان الناس في تلك الفترة وقد حدثت تطورات في العقل والتاريخ وتغيرت الصورة الذهنية لرب الناس فيجب أن تفهم هذه العقيدة على نحو أذهان الناس اليوم. كما ينفي عن القرآن الكريم كونه نصا إلهيا ويؤكد على أنه نص بشري".

وقالت الحيثيات إن المؤلف في قضية المطالبة بمساواة المرأة بالرجل في الأحكام على خلاف ما ورد بالقرآن الكريم يقول: "لا يتم الكشف عن المضمر في قضية المرأة ومساواتها بالرجل خارج سياق الكشف عن حركة النص الكلية ...المضمر الكلي تحرير الإنسان، الرجل والمرأة، من أسر الارتهان الاجتماعي والعقلي لذا طرح العقل نقيضا للجاهلية والعدل نقيضا للظلم والحرية نقيضا للعبودية. ولم يكن يمكن لتلك القيم إلا أن تكون مضمرة مدلولا عليها، فالنص لا يفرض على الواقع ما يتصادم معه كليا بقدرما يحركه جزئيا". واستخلصت المحكمة أن ما يقصده المؤلف يتضح من قوله: "وفي قضية ميراث البنات بل في قضية المرأة بصفة عامة نجد الإسلام أعطاها نصف نصيب الذكر بعد أن كانت مستبعدة تماما وفي واقع اجتماعي /اقتصادي تكاد تكون المرأة فيه كائنا لا أهلية له وراء

أي إنسان أن يقتله دون أن يخشى شيئا. وفي ساعة متأخرة من الليل نجحت الاتصالات التي قام بها عدد من الشخصيات السياسية في توفير حماية بوليسية له إلى أن يتم طلب وقف تنفيذ الحكم لحين الانتقال إلى محكمة أعلى. وبالفعل طعن "نصر" في الحكم وقضت محكمة النقض في يونيو٩٦بوقف تنفيذه لحين الفصل في الموضوع، وهي الطريقة المصرية في التأجيل والتسويف. فلم يتم الفصل في الأمر حتى الآن.

توقفت عن الحديث وغادرت مقعدي متجها إلى النافذة. وعندما بلغتها تذكرت تعليق "فادية" فاستدرت ونظرت إليها ثم نظرت إلى "شرلي". واحتفظت الأخيرة بوجهها مصمتا.

= التبعية الكاملة بل الملكية التامة للرجل أبا ثم زوجا. وليس من المعقول أن يقف الاجتهاد عند حدود المدى الذي وقف عنده الوحى وإلا انهارت دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان. وينطبق هذا أيضا على شهادة المرأتين بشهادة رجل واحد".

واستشهدت الحيثيات بمقتطفات من كتاب للمستأنف ضده بعنوان "نقد الخطاب الديني" جاء بها قوله "وليس غريبا بعد ذلك أن يتعلم أبناؤنا في المدارس أن الإسلام يبيح امتلاك الجواري ومعاشرتهن معاشرة جنسية ... ..وليس غريبا أيضا في ظل عبودية النصوص أن يتعلموا أن المواطن المسيحي مواطن من الدرجة الثانية يجب أن يحسن المسلم معاملته". و"الآن وقد استقر مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بصرف النظر عن الدين واللون والجنس، لا يصح التمسك بالدلالات التاريخية لمسألة الجزية....إن التمسك بالدلالات الحرفية للنصوص وفي هذا المجال لايتعارض مع مصلحة الجماعة فحسب ولكن يضر الكيان الوطني ضررا بالغا. وأي ضرر أشد من جذب المجتمع إلى الوراء إلى مرحلةتجاوزتهاالبشرية في نضالها الطويل من أجل عالم أفضل مبنى على المساواةوالعدل والحرية". وأكدت المحكمة أن "ما قرره المستأنف ضده في خصوص ملك اليمين يتعارض مع النصوص القطعية الواردة بكتاب الله تعالى..وكذلك ما أورده عن معاملة أهل الذمة وما ورد بشأنهم من وجوب الجزية عليهم".

عدت إلى مقعدي وقلت : مرة أخرى لم أشترك في التوقيع على بيان هيئة التدريس ولا في الحملة التي جرت استنكارا للحكم الرجعي.

بدا الاستغراب على وجوه "لاري" و"دوريس" و"سابك". حتى "فادية" ظهرت عليها المفاجأة.

استطردت: كنت قد انتهيت من دراستي عن الغزو العربي، وهي دراسة مليئة بالمزالق والأشواك. وخفت أن أتعرض لموقف مماثل عند نشرها فقررت أن أتجنب لفت النظر إلى نفسي. وبالفعل نشرت كتابي في "بيروت" بدلا من "القاهرة". وكاد الأمر يمر بسلام لولا أن "حلمي" ظهر في الصورة.

رويت لهم كيف عاد من الخليج بعد طلاقه من "جمالات" التي تركته لتكون زوجة ثانية لأستاذ خليجي. وكيف انتقل للعمل في جامعات "العراق". وتكرر ظهور اسمه في الدوريات العربية مدافعا عن الحرب ضد "ايران" أو"قادسية صدام" التي استمرت ثماني سنوات من ١٩٨٠إلى ١٩٨٨،ثم عن غزو"الكويت"في أغسطس ١٩٩٠. ولم يلبث أن عاد إلى"مصر". ولمحته مرة في فندق "شيراتون"وسط مجموعة من الكويتيين الذين أقاموا به إلى أن حررت لهم القوات الأمريكية بلادهم. وهالني ما طرأ عليه من تغيرات أقلها انتفاخه في بدانة مفرطة.

خلال ذلك كان قد شق طريقه الذي مهد له جيدا من قبل. فأثناء وجوده في الخليج كان دائب الكتابة للصحف والدوريات المصرية. وعندما حصل "نجيب محفوظ" على جائزة "نوبل"، نشر مقالا شهيرا اعتبر فيه الجائزة من انجازات رئيس الجمهورية! وكان من الطبيعي أن يتولى بعد عودته الإشراف على رسالة زوجة رئيس الوزراء التي أرادت الحصول على الدكتوراه. كانت سيدة ذكية وطموح وكريمة

أيضا. فقد انهالت على أعضاء هيئة التدريس وقتها الهدايا ودعوات التصييف في شاليهات فاخرة على شواطئ البحر الأحمر. وما أن نالت السيدة الدكتوراه بمرتبة الشرف حتى ولد على يدها مشروع "المراجع" الذي تولاه "حلمي". فمن خلال صندوق داخل كل جامعة صار يتعاقد مع الناشرين على طبعة خاصة من المراجع الرئيسية التي يحتاجها طلبة الكليات المختلفة ويعهد بها إلى مطبعة الجامعة ثم يبيعها للطلاب بأسعار ضئيلة.

كان مشروعا رائعا لكنه وضع في يده سلطة كبيرة دون رقابة فعلية. وفاحت رائحته بعد قليل لكنه استمر في موقعه بفضل تزلفه المستمر لزوجة رئيس الوزراء ولزوجة رئيس الوزراء الذي تلاه. كما أنه أغدق على كبار الصحفيين والمسئولين وأقحم مؤلفاتهم الهزيلة في المشروع، وصار يتعاقد معهم مباشرة وبمبالغ طائلة.

وحدث أن اتهمته إحدى صحف المعارضة صراحة بنهب أموال المشروع فنشر سلسلة مقالات دفاعا عن نفسه وعن انجازاته وزعم أنه تجنب نشر الكتب المسيئة للقيم والدين ومنها كتابي. ثم تفرغ للهجوم على كل إنتاجي، متبعا منهاجا شديد الخبث والذكاء.

استخرجت من حقيبتي ملفا تناولت إحدى أوراقه وقرأت عليهم ترجمة لمقتطف من مقال له، يعلق فيه على الدعوة إلى تأويل النصوص واخضاعها للعقل.

كتب : "العقل وحده ليس كافيا للوصول إلى الإيمان وتفسير معجزات الأنبياء..... وليس في ذلك دعوةإلى الغاء العقل بل الواجب من كل صاحب عقيدة صحيحة أن يستخدمه إلى أبعد مدى لكن في المجالات المناسبة أما الإيمان فيجب ألا يكون موضوعا للمجادلات الذهنية والتعقيدات الفكرية والرسائل العلمية!"

وأحسب أنه أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد. العصفور الأول هو تصفية حسابه معي. فلا أستبعد أن تكون "جمالات" قد باحت له بما وقع بيننا. العصفور الثاني أن يحول الضوء عنه ويخلق زوبعة تستقطب اهتمام الرأي العام. وهو تقليد تمارسه أجهزة الأمن المصرية بنجاح. وقد نجح فعلا في ذلك إذ تلقفت صحف التيار الإسلامي الموضوع، بالإضافة إلى صحف الإثارة. وسرعان ما بدأت أتلقى رسائل ومكالمات هاتفية مليئة بالسباب والتهديدات. وصارت دقات قلبي تتسارع كلما دق جرس التليفون.

وفي أحد الأيام رفعت السماعة فجاءني صوت بارد يخلو من أي إنفعال، يوحي بأن صاحبه عامل أوحرفي. سأل عني مخطئا في ترتيب مفردات اسمي فأنكرت وجودي. استفسرعن موعد عودتي وقال إنه صحفي بالأقاليم ثم طلب مني العنوان.

ذكرت الأمر لأحد أصدقائي الصحفيين فانزعج قائلا إنها نفس المكالمات التي تلقاها "فرج فودة" و"نجيب محفوظ" قبل اغتيال أولهما في ١٩٩٢ ومحاولة اغتيال الثاني على يد الجماعات المتطرفةفي ١٩٩٤.

قلت له مجادلا : وما هي الحاجة لأن يطلب مني العنوان وهو موجود في دفترالتليفون؟

قال : أنت تفترض أنهم يعرفون القراءة و الكتابة. الذي اعتدى على "نجيب محفوظ" لم يقرأ له كلمة واحدة. ثم أن هذه هي طريقة "الرصد" التي يتبعونها قبل أن ينفذوا عملياتهم. فعن طريق الاتصال التليفوني عدة مرات يكونون فكرة عن المقيمين بالمنزل ، وعن مواعيد خروج ضحيتهم المرتقبة ، وجدوله اليومي ، حتي يحكموا خطتهم .

قلت: يمكنني تغيير رقم التليفون ، لكن العنوان مستحيل. أنت تعرف أسعار المساكن وإيجاراتها.

قال : مهما فعلت مكتب المباحث الأمريكية في"القاهرة" موجود لمساعدتهم. فالأمريكان حريصون على توطيد العلاقة بهم تحسبا للمستقبل.

استعدت مقعدي واستأذنت "دوريس" في كوب ماء من زجاجتها. وسألتني بدورها:

- ماذا فعلت؟
- لم يكن بوسعي أن ألجأ إلى الشرطة. فليس لدي دليل علي شيء. علقت بجوار باب مسكني سلسلة حديدية لألتقطها عندما أفتحه لطارق. وتدربت على لفها حول يدي بحيث أتمكن من تطويحها في الهواء وتوجيهها إلى الهدف.

ابتسمت :لم أكن واثقا من قدرتي على استخدامها عندما يحين الجد.

بلعت ريقي واستطردت: استمرت التهديدات. أصبت بالأرق . ولزمت منزلي أياما بكاملها.

سألتني "ميجان": ألم يقف إلي جانبك أحد من زملائك في الجامعة؟

قلت :ولا واحد. لاحظوا أني سبق لي أن خذلتهم عندما تقاعست عن المشاركة في الدفاع عن "نصر أبي زيد".

قالت : وماذا عن الأحزاب و الهيئات والنقابات؟

قلت: الأحزاب السياسية خشت التورط في الأمركى لاتتأثر شعبيتها. لاحظوا أن الموضوع فوق مستوى إدراك الكثيرين. ومع ذلك دافعت عني بعض الشخصيات العامة والليبرالية.آه نسيت. صديق الجامعة "رشدي" هل تذكرونه؟ كتب مدافعا عني أيضا قبل أن يعتقل مرة أخرى لسبب ما. واهتمت بي السفارات الغربية والصحفيون الأجانب بالطبع. أعتقد أنهم أرادوا أن يجعلوا مني ضحية للجمود الفكري بل وللإسلام نفسه. ومرة سألني أحدهم ببهجة وحشية عما إذا

كنت أفكر في مغادرة "مصر". تلقيت أيضا دعوات عشاء في أماكن فاخرة، تطل كلها على النيل، في الزمالك أو المعادي أو وسط "القاهرة"، وضمت أصنافا غريبة من البشر.

المحامي الشاب الذي رشح نفسه للبرلمان" وأراني نسخة مصورة من كتابي مهدة إليه من طبيب مشهور قرأها مثل الطلبة واضعا خطوطا بالقلم تحت سطورها. مستشار البنك الدولي الذي تعلم في "هارفارد" وأكد لي جدارتي بأعلى درجاتها. الفرنسية المتهمة في قضية تهريب آثار. أستاذ الاقتصاد العجوز نصير السوق. مالك فندق. عاطل بالوراثة، على حد تعبير "عبد الناصر"، في سترة بيضاء حريرية وبشرة أرق منها. سيدة بيضاء بساقين سينمائيتين تمثل مصر في الأمم المتحدة. سفرجيان أسودان يطوفان بالسيمون فيميه والنبيذ الفرنسي. الحديث عن الرحلات المتكررة إلى "لندن" و"باريس" للتبضع والعلاج، وكيف يمكن أن يعالج الواحد في أي مكان في العالم بفضل بطاقة تأمين صحي مقابل ثلاثة آلاف دولار في السنة، وهو مالم يكن متوفرا أيام "عبد الناصر" الذي أخذ الأراضي والفلوس. ثم النكات التي كشفت عن أن الجميع بلا استثناء (بما فيهم أنا) محبطون جنسيا. وكان ظهري يؤلمني فوضعت يدي بين ساقي السيدة الدبلوماسية التي أسعفتها المهنة فلم تنبس.

نهضت واقفا معلنا انتهاء الدرس. وهبطت إلى مكتبي. طالعني مشجبي خاليا من سترة "استر" فاستنتجت أنها انصرفت. ارتديت معطفي وغادرت المبنى.

لمحت "شرلي" بمجرد أن خرجت إلى الطريق. كانت تمضي مسرعة بجوار شاب أحاط كتفها بذراعه. ورأيته يميل عليها ويقبلهاثم اختفيا عند الناصية.

كان الجو باردا وشعرت بلسعته ومضيت في الشوارع على غير هدى. توقفت أمام حانوت للساندوتش واشتريت واحدا من النقانق أضفت إليه كمية من البصل والمستردة

و"كيتش أب" ثم عرجت على مواطنتي الاسكندرانية فاشتريت منها صحيفة "الأهرام" وانطلقت إلى المنزل.

أعددت طبقا من السلاطة وفتحت زجاجة نبيذ وبسطت الصحيفة واكتشف بعد قليل أن الأخبار التي أقرأها مألوفة ثم تبينت أني اشتريت نفس العدد الذي اشتريته بالأمس.

انتهيت من طعامي فوضعت كل شى في الحوض وارتديت معطفي وغادرت المسكن. انطلقت إلى السوبرماركت واشتريت دجاجة صغيرة وشريحة سالمون مدخن وجبن أسباني يشبه الجبن "الرومي" وعدت إلى المنزل بخطى متثاقلة. دق جرس التليفون بمجرد دخولي فأسرعت إليه. رفعت السماعة وقلت: "هالو". فلم يجب أحد. أعدت السماعة مكانها. وبعد قليل دق الجرس مرة أخرى.وتكرر ما حدث في المرة السابقة عندمارفعت السماعة.

ارتديت معطفي من جديد وذهبت إلى حانوت الشرائط. تأملت طويلا ملصقا للمثلة "كات باسنجر" أبرز امتلاء شفتيها. طفت بأقسام العرض حتي بلغت الركن المخصص للأفلام الكلاسيكية. رأيت كهلا في سني يقلب في الشرائط التي تضم أفلام "ايرول فلاين". لمحت صفا لأفلام "جيمس بوند" التي مثلها "شين كونوري" في الستينيات. وكان بعضها في الأغلفة الأصلية التي صورته في شبابه بسوالفه الطويلة وملامحه الشرسة الشيطانية وذكورته الطاغية مع نخبة من الجميلات نصف العاريات. التقطت فيلم "جولد فينجر" وحملته إلى المدخل.

٣٠ * *

بـدا شارع "ميشان" مختلفا تماما عن ذي قبل. فقد خلا من المارة وساده الهدوء رغم أننا كنا في مقتبل المساء. وأغلقت أغلب الحوانيت أبوابها فيما عدا المطاعم. واختفى المدمنون داخل الأزقة بينما رقد المشردون في مداخل المنازل مثل الدمى المكسورة. فاليوم "عيد الشكر".

لم يكن الجو باردا فالتصق الضباب بأضواء الشارع. وأخذت أتلمس طريقي في صعوبة. تجاوزت مقرا لشركة استثمارصينية ثم مكتبا للقروض والرهونات تلاه مطعم يقدم الأكلات الصومالية ، وحانوت يبيع كل أنواع المستلزمات العسكرية. دلفت إلى شارع جانبي متواضع. وبعد مبنى سكني وجدت منزلا صغيرا من طابقين يحمل أثرالعوامل الجوية. وعكس بناؤه نمط العمارة الانتقائية الغالب على المدينة ، الذي يجمع بين الطوب والأعمدة الخرسانية الخارجية المكشوفة ويحتفظ بملامح من الطراز الإنجليزي الفيكتوري والطراز الكولونيالي بالاضافة إلى زخارف مكسيكية.

ضغطت جرسا باليا يوشك على الانفصال عن الحائط. لم يجبني أحد فضغطته مرة أخرى. وأخيرا فتح لي الباب شاب أشقر عشريني. ووقف منتظرا في صمت . سألت عن "دوريس" فنادى عليها بأعلى صوته.

تردد وقع أقدام فوق درج خشبي بجوار المدخل ولم تلبث "دوريس" أن ظهرت في واحد من أوفرولاتها المعهودة. استقبلتني في ارتباك وتناولت مني زجاجتي النبيذ. وتبعتها إلى الداخل.

وجدت نفسي في صالة واسعة تتألف من غرفتين بلا

فاصل بينهما. وضمت الغرفة الأولى أريكة ضخمة متهالكة أوشك منتصفها أن يلامس الأرض وإلى جوارها كيس نوم ملفوف. وكانت هناك بضع مقاعد بالية من طرز مختلفة، حال لون قماشها. وفي الغرفة الأخرى امتدت طاولة خشبية مستطيلة ومتينة، لعلها القطعة الوحيدة ذات القيمة في المكان.

قالت "دوريس"وهي تتحاشى النظر إلى مباشرة إنهم خمسة من الطالبات والطلاب استأجروا المنزل مفروشا. وتذكرت على الفور الشقق المصرية التي يؤثثها أصحابها بكل قديم متهالك ثم يعرضونها للإيجار.

سألت عن "لاري" فروت لي التفاصيل في انفعال. فقد عقدت كلية المصادر الطبيعية في جامعة "بيركلي" اتفاقا لم يسبق له مثيل مع شركة "نوفارتيس"، عملاق الأدوية السويسري. وبمقتضى الاتفاق تقدم الشركة للكلية ٢٥ مليون دولار على مدى خمس سنوات مقابل حق الأفضلية في شراء الاختراعات أو الاكتشافات التي تتوصل إليها.

وعارض عديد من الطلاب والأساتذة الاتفاق وأعلنوا أنه يصنع سابقة في تمويل البحوث يؤثر على حريتها ويخضعها لإشراف الشركات ومصالحها. لكن الاتفاق تم توقيعه بالأمس في مؤتمر صحفي بالجامعة حضره مديرها وأساتذة الكلية ورئيس مجلس إدارة الشركة وتخللته هتافات معادية من الطلاب. وأثناء التوقيع هاجم طالب وطالبة من أعضاء ما يسمي " كتيبة الخبيز البيوتكنولوجية" المنصة وألقوا عليها فطائر مغطاة بالكريمة وهم يغنون" لا للبيوتيكنولوجي". وألقت الشرطة القبض على الطالبين وعلى عدد من زملائهما - بينهم"لاري".

استأذنت مني وصعدت الدرج الخشبي المجاور للباب. جلست على مقعد بعد أن تأكدت من سلامته وتأملت الجدران

الباهتة التي لوثتها بقع الرطوبة وزينتها عدة صور مؤطرة: واحدة للمسيح والثانية ل"شي جيفارا "والثالثة للزعيم الأسود "مارتن لوثر كنيج". وكانت هناك نباتات ذابلة في أصيص كبير ومجلات ممزقة متناثرة وإناء من النحاس امتلأ بأعقاب السجائر، وعدة مجموعات من أوراق اللعب. ولاحظت من نافذة بلا ستارة أن الضباب انقشع، فظهرت الاستعدادات الجارية لعشاء العيد في نوافذ المنزل المقابل.

دق جرس الباب وظهرت "ميجان" مع صديقها البورتريكي "هوجو"، وكانت ترتدي أسفل معطفها الجلدي الأسود جوبة سوداء بالغة القصر فوق جوارب بيضاء شفافة. وتبعهما شابان آخران أسودان. ثم وصلت "فادية" حاملة الديك الرومي الذي استغرق إعداده عدة ساعات وبرفقتها "سارة" وفتاة بيضاء فارعة تحمل صينية حلوى، يصحبها شاب أشقر في بزة كاملة أنيقة، يضم بضع زجاجات من النبيذ بين ذراعيه.

مضت "فادية "مباشرة إلى الداخل و"سارة" في أذيالها. ووضعت الفتاة البيضاء الصينية فوق المائدة ثم تحولت إلينا وخطت لتقف بجوار رفيقها وهي تتأمل الأثاث. كانت ممتلئة بوجه مستطيل وعينين واسعتين وشفاه غليظة وشعر متهدل علي الكتفين، وترتدي "انسامبل" من قماش فاخر مزركش بورود حمراء قانية لا يتجاوز ركبتيها.

تقدمت مني مادة يدها قائلة بعربية سليمة وبطريقة مسرحية:"ميرفت أنور". وأشارت إلى الشاب الأشقر قائلة: زميلي "ستيف".

بدا لي لقبها مألوفا وقبل أن أفه بشئ أضافت : أنا أعز صديقات "فادية".

أوحت لي لهجتها بأنه لولا هذه الصداقة ما سمحت لنفسها بالبقاء لحظة واحدة في مثل هذا المكان .

قالت وهي تزيح شعرها جانبا إنها سمعت عني من "فادية" ثم سألتني عن انطباعاتي بشأن الحياة الأمريكية. قلت لها إني أستمتع هنا بالتعبير عن نفسي في حرية وأني أخشى أن هذا أمر لن يستمر طويلا. وقبل أن أحدثها عن مقال"المكارثية" أدركت أنها لا تسمعني وأن إجابتي لا تعنيها. كانت تريد أن تتكلم وحسب. وحدثتني بالتفصيل عن رسالة الدكتوراه التي تعدها في جامعة "ستانفورد"عن التيارات المختلفة للأصولية الإسلامية.

انتهزتُ فرصة توقفت فيها لتمسح قطرة عرق أسفل أنفها فتحولتُ إلى صديقها وسألته عما يفعل. قال إنه يعد رسالة دكتوراه عن "عمر أفندي".

قطبت حاجبي ورددت: "عمر أفندي"؟

ضحك: أجل هو.

هززت رأسي متعجبا. فلم أتخيل أن المجمع التجاري الضخم ذا الطابع الشعبي الذي تنتشر فروعه في أنحاء "مصر"، يمكن أن يثير اهتمام جامعة على مبعدة آلاف الأميال.

انصرف ذهني بطبيعة الحال إلى التاريخ. قلت : أكيد من أيام أن كان إسمه "أوروزدي باك" حتى تأميمه في الستينيات. موضوع مثير.

قال : أبدا. أنا دراستي اجتماعية. مايهمني هو ظروف العمل به الآن وحقوق العمال وتاريخ نقابتهم ، وما شابه.

فكرت في الأمر ثم سألته: هل هناك شركة أمريكية ستشتريه؟

قال : لا أعرف.

تذكرت قصة "أنور" في هذه اللحظة وكيف هرب من "مصر"بعد فضيحة مالية كبري (×).

(×) ذكرت الصحف المصرية أن ٣٦ مليار دولار خرجت من "مصر"

= أو هربت منها خلال عام ١٩٩٨ **فقط** وعلى رأس هذه المليارات تلك التي اقترضها رجال الأعمال – وبعضهم من أعضاء مجلس الشعب–من البنوك ثم تجاهلوا ردها أو عجزوا عن ذلك وصكت لهم الدولة تعبير "المتعثرين" وتنازلت لهم البنوك عن جانب كبير من ديونهم وصل أحيانا إلى النصف. وأعلن وزير الاقتصاد في تصريح شهير أن الديون المتعثرة تبلغ ٢٠٠ مليار جنيه ووصفه بأنه "رقم في حدود السلامة "!

وقد تبين أن ثمانية فقط من عملاء البنوك حصلوامنها على ١٢ مليارا تمثل ٦٠ ٪ من جملة حقوق المساهمين في جميع البنوك المصرية. كما تبين أن بنوك القطاع العام الأربعة التي تستأثر بنحو ٦٠٪من ودائع المصريين (١٤١ مليار جنيه) أقرضت ثلثي هذا المبلغ أى مائة مليار، دون ضمانات .وذكرت الصحف "أنور محيسن"(ولد عام ١٩٤٧) في طليعة المقترضين الهاربين. وقدرت ديونه لبنك القاهرة ب١٥٠ مليون جنيه وقبل أن يهرب بشهرين صفى أملاكه من شركات وقصور وعزب، مشردا أكثر من أربعة آلاف عامل وموظف. ثم انتهي به المطاف في "بيفرلي هيلز" في قصراشتراه عام ١٩٩٥ بجوارقصر"اليزابيث تايلور" بمبلغ ٨٣ مليون دورلاردفعها نقدا وهو أمر لم يعهده رأسماليو "أمريكا".

وتصلح قصته نموذجا لتلك الطبقة التي نمت كالبكتريا على سطح المجتمع المصري منذ الثمانينيات. فقد كان أبوه موظفا بسيطا في مصنع نسيج يملكه أحد اليهود وفي أعقاب العدوان الثلاثي عام ٥٦تنازل له المالك عن المصنع مقابل دفعات تحول لحسابه في سويسرا. وبعد ٤ سنوات تملك الأب المصنع وقام بتوسيعه. وفي عام ٦٧ تخرج ابنه "أنور" وشارك في الحرب وفي حرب التحرير سنة ١٩٧٣ ثم استقال ليتفرغ للنشاط الإقتصادي. وكان أبوه قد حصل مع بداية الانفتاح على أول توكيل أجنبي لمستحضرات التجميل وهي ماء كلونيا وكريم بشرة وشامبو للشعر ثم توسعت إمبراطوريته نتيجة التصدير إلى الاتحاد السوفييتي وحقق هو وثلاثة آخرون مكاسب هائلة من هذا التبادل. وحصل "أنور"بعد ذلك على توكيلات ألمانية وفرنسية واشترى شركة لمستحضرات التجميل يملكها وزير سابق للثقافة ثم حصل على توكيل سيجارة أمريكية بالاشتراك مع "عبد الله عبد الباري" الذي وضعته علاقته ب"عثمان أحمد عثمان" و"السادات" علي رأس جريدة "الأهرام".

لكن "أنورمحيسن " لم يكن إلا بداية السيل. قد أعقبه مئات منهم عضوفي مجلس الشعب دخلت عشرة بنوك في شراكة من أجل التفاهم معه على استعادة ملياري جنيه من قروضه. وشاع أن مشاكله بدأت عندما

انتزعتني "ميرفت" من صديقها وأصرت أن تروي لي قصة الديك الرومي، وكيف ذبحه المستوطنون الأوروبيون شكرا للإله الذي مكنهم من الانتصار على الهنود الحمر. وصار ذبحه من ساعتها طقسا يلتئم فيه شمل العائلات.

مسحت بضع حبات من العرق تجمعت على جبينها ورقبتها ثم خلعت سترة ردائها وألقت بها فوق الأريكة. كان الجزء الأسفل بحمالتين وصدر مكشوف ظهر منه منبت الثديين. ورفعت ذراعان بضان إلى أعلى لتزيح شعرها جانبا كاشفة عن إبطين حليقين.

قالت : الظاهر أنهم رأوا في ريشه شبها بريش الهنود الحمر.

سألني "ستيف": هل تعرف كم يذبح الأمريكان سنويا؟

– من الهنود الحمر ؟

ضحك: لا. من الديكة الرومية. ثلاثين مليونا.

ناولنا شاب زجاجة نبيذ فصب لي كأسا وهو يقول: لم يعرف المستوطنون الأوروبيون الديك الرومي قبل مجيئهم إلى "أمريكا". فقد ذبحه لهم الهنود الحمرترحيبا بهم. وعلموهم أيضا كيف يزرعون الذرة والبقول والقرعيات. وكيف يصطادون السمك ويسمدون الأرض...

تدخلت "ميرفت": وكيف يغتسلون ويتخلصون من

= تولى مشروع مستشفيات "اليوم الواحد" مقابل ٣٠٠ مليون جنيه وعندما طالبه المسئول بنسبة ال١٠٪ المعهودة بعث إليه بخمسة ملايين فقط. وهرب آخر ب ٤٠٠ مليون جنيه ثم طالب من "لندن"بأن تتنازل البنوك عن نصف مديونياته لها وتشارك بالنصف الآخر في شركاته. وترددت في هذا السياق أسماء صاحب مصانع لتجميع التليفزيون، وصاحب توكيل إحدى السيارات الألمانية، و تاجر قطن هرب إلى "الولايات المتحدة" ب٣٥٠ مليون جنيه، وعائلة كاملة استولت على مليارين من الجنيهات.

قذارتهم ورائحتهم الكريهة. فالتراث الأوروبي معاد للاستحمام واستبدال الثياب.

ظهرت ابتسامة ساخرة على فم "ستيف" وقال: كانوا مضحكين. فقد صدقوا الأسبان عندما ذكروا لهم أنهم جاءوا في مهمة سلمية. رحبوا بهم وفتحوا لهم قصورهم ومناجم ذهبهم. فمن قواعد الحرب بين الهنود أن من يعلن نواياه السلمية فهو صادق.

أفرغ كأسه واستطرد: هناك كلمة شهيرة ألقاها أحد زعمائهم أمام المستعمرين الإنجليز الذين لقبوا أنفسهم بالحجاج. قال على ما أذكر: " لوأننا فكرنافي أن نحاربكم يوما فإننا سنعلمكم بذلك سلفا، سوف نبين لكم الأسباب التي نريد أن نحاربكم من أجلها. فاذا أبديتم ما يقنعنا أو يعوضنا عن الأضرار التي سنحاربكم من أجلها فإننا لن نحاربكم. وإذا أردتم أن تحاربونا يوما فنرجو أن تعلمونا بذلك وتبينوا لنا الأسباب فاذا لم نقنعكم أو نعوضكم عن الأضرار التي ستحاربون من أجلها فلكم الحق في محاربتنا. وإلا فليس لكم أن تحاربونا".

كان "هوجو" قد انضم إلينا وسمع العبارة الأخيرة فعلق في رصانة:حروب الهنود كانت للتسلية والرياضة. يتحاربون سبع سنوات دون أن يسقط بينهم سبعة قتلى. ويقاتلون بالقفز والرقص. وعندما يجرح واحد منهم يتوقف الطرفان عن القتال لإسعافه. هذه الثقافة الحربية البعيدة عن العنف كانت مقتلهم .

قال "ستيف"إن جده اكتشف إمكانية استخدام الأعضاء الذكرية للهنود بعد قتلهم. صنع منها أكياسا للتبغ وجعل منها تجارة رائجة. وصارت هذه الأكياس من أبرز علامات الرجولة والفروسية والأرستقراطية، يتهاداها الناس في أعيادهم وأفراحهم.

سألته: هل ما زالت تباع؟

قال بما خلته رنة أسف: انقرضت هذه الصناعة سنة ١٩٠٠ بعد أن انخفض عدد الهنود إلى ربع مليون.

أتمت "فادية" و"دوريس" استعداداتهما وقالت "دوريس" إن "شرلي" لن تشاركنا لارتباطها بصديقها. كما بعث "سابك" منذ دقائق برسالة غريبة بالبريد الإلكتروني.

التقطت ورقة مطوية من جيب الأوفرول قائلة: الرسالة عبارة عن مقطع من رسالة أخرى قديمة وجهها أحد هنود "الوامبانوج "سنة ١٩٧٠ إلى حكومة ولاية "ماساشوتس" عندما دعته للمشاركة في احتفال بالذكرى ال ٣٥٠ لعيد الشكر.

وبسطت الورقة وقرأت: " هذا يوم عيد لكم وحدكم. إنه ليس عيدي. إنني أنظر إلى ما حدث لشعبي بقلب منفطر. ...نعم لقد أبادوا طريقتنا في الحياة وقضوا على لغتنا. فلم يبق منا إلا القليل من الأحياء. إنني حزين وهذا ليس عيدي".

طوت "دوريس" الورقة وأعادتها إلى جيب ردائها قائلة: واضح أنه لن يأت.

ساد وجوم حطمته "فادية" بحنكة المصريات. روت نكتة عن الجنة والنار وكيف أن النار بها بوفيه مفتوح وكل ما لذ وطاب في حين لايتوفربالجنة غير الفول والعدس. وعندما أبدى واحد تعجبه قال حارس الجنة: أتريدني أن أقيم "أوبين" بوفيه من أجل أربعة أشخاص؟".

دعتنا إلى المائدة وانضم إلينا شابان وفتاة من سكان الطابق الأعلى حاملين زجاجات البيرة الخاصة بهم. وتولت "فادية"تقطيع الديك الرومي وتوزيع شرائحه بينما ملأت "ميرفت"طبقا ضخما من المعكرونة.

حمل كل منا طبقه وعدنا إلى مقاعدنا وبقى سكان

الطابق الأعلى حول المائدة. دارت علينا "دوريس" بزجاجة نبيذ بينما اكتفت "فادية" بكوب من العصير.

قالت بعد فترة صمت قصيرة انشغلنا فيها بالأكل: هل تعرفون ماذا فعلت أمس؟ أنا أقوم بالترجمة بين الحين والآخر لموازنة الدخل. هذه المرة كنت أترجم للاجئ عراقي في المحكمة. يوجد هنا ٥٠٠ منهم وفدوا سنة ١٩٩١. جملتهم الطائرات من مدينة "أربيل" الكردية في الشمال. ووضعوا في ملجأ خاص لحين الفصل في طلبات لجوئهم السياسي. هل تعرفون أين يقع هذا الملجأ؟ في "تندرلوين".

تطلعت إليّ وأضافت: طبعا لا يعرف العراقيون أنه أخطر أحياء المدينة. وأن أي فتاة يمكن أن تتعرض فيه للاغتصاب في وضح النهار.

بدأت "سارة" تدق بالشوكة فوق حافة الطبق مطالبة بقليل من الانتباه فلم تعبأ بها أمها وواصلت: ذات مساء شاهد شرطي شابا منهم يقف عند ناصية مرتبكا. سأله عن الأمر فأجاب: لاشئ. كنت فقط أحصل على ماريجوانا. وأراه ما معه منها. اضطر الشرطي للقبض عليه لأن القانون يحرم تداول "الماريجوانا" المتداولة طول الوقت.

قاطعتها: كما هو الوضع في "مصر".

راقبتُ "ميرفت" ترفع شوكة منتفخة بالمعكرونة وتدسها بين شفتيها الغليظتين.

استطردت "فادية": يبدو أن الشاب من كثرة ما سمع عن "سان فرنسيسكو" تصور أن الأمور هنا سايبة تماما. لايزيد عمره عن تسعة عشر عاما. لكنه يبدو في السادسة عشرة بعيون سوداء كبيرة وسن أمامية مكسورة. كان والداه في المحكمة ولا بد أنهما لم يفهما كثيرا مما يجري. ولعل الأسرة كلها لا تعرف أكثر من خمس عبارات بالإنجليزية. تحدثت مع أمه وكانت تدعوه بالصبي. قالت لي إنه مستقيم ولاعب كرة

ممتاز وإنه ينوي الزواج عندما يعودون إلى "العراق". سألتني إذا كان لدي أطفال. قلت: واحدة. قالت يجب أن يكون لديك على الأقل طفلان. أنا عندي خمسة. انضم زوجها إلى الحديث وكان صامتا طول الوقت. قال: ابنتنا الكبرى "سلمى" تزوجت منذ قليل. أقمنا لها عرسا كبيرا. النساء غنت ورقصت طول الليل. كان هذا قبل الحرب وكان هناك طعام وفير للجميع.

سكتت فسألتها: وماذا حدث للصبي؟

قالت وهي تملأ ل"سارة" كوبا من العصير: أفرجوا عنه بشرط أن يخضع للرقابة القضائية ويبتعد عن المشاكل. هل هذا ممكن في "تندرلوين"؟

انتهينا من الديك وانتقلنا إلى فطيرة التفاح التقليدية. وأدار الطلاب موسيقى صاخبة. ورقصت "ميرفت" مع "هوجو"، و"ميجان" مع "ستيف". وأصرت "سارة" على مراقصة أمها.

انفصلت "ميرفت" عن "هوجو" ومضت إلى المائدة فأخذت قطعة أخرى من الحلوى. وتقدمت مني "ميجان" وجلست إلى جواري واضعة ساقا فوق ساق. قاومت الرغبة في لمس فخذيها المكشوفين وسألتها عن أخبار المنحة. قالت إنها ما زالت تنتظر النتيجة.

سألتني: لماذا لا ترقص؟

قلت إني لا أتقن الرقص وأفضل الفرجة.

لاحظت أن عددنا قد تضاعف واستبدلت الموسيقى الصاخبة بأخرى ناعمة. وتعلقت عيناى بفتاة ممشوقة القوام في بلوزة بيضاء ضيقة دون أكمام تضم صدرا صغيرا، وبنطلون جينز بلا استدارات ذات بال. كان شعر رأسها أسود قصيرا ووجهها قمحي اللون بعينين خضراوين. وكانت

تراقص شابا أسود ببطء واستغراق وقد أحاطت عنقه بذراعيها.

تركتني "ميجان" لتراقص "هوجو" وأخذت "فادية" مكانها وهي تلهث من الجهد الذي بذلته في الرقص مع ابنتها. وأخذت تعدل من وضع غطاء رأسها. ورأتني أتأمله فقالت: أمي ظلت تلح علي وأنا أرفض إلى أن أقنعني شاب فلسطيني من "حماس". كان ماركسيا ثم اهتدى. وهو الآن اليد اليمنى للبروفسور "ادوين".

-لعنه الله؟

ضحكت: سمعت باللقب؟ هو صارم جدا. يقول مثلا إن الفتاة المسلمة لا يجب أن تخلع الحجاب أمام فتاة أجنبية.

حولت اهتمامي إلى الفتاة ذات العينين الخضراوين. وتتبعت "فادية" اتجاه نظراتي وقالت: هذه زميلة لي فلسطينية.

اندست "سارة" بيننا ودفعتني بيدها قائلة: "جو أواي"، ابتعد.

عنفتها أمها وطلبت منها أن تعتذر لي ففعلت ثم جذبتها من ملابسها لتستأنفا الرقص. بحثت بعيني عن الفتاة الفلسطينية والفتى الأسود، فرأيتها ترقص بمفردها باستمتاع شديد وعلى وجهها تعبير المستلذ المتألم.

شعرت بالاكتئاب فغادرت مقعدي وتقدمت من النافذة. لم تكن هناك حركة في النوافذ المقابلة مما يعني أن العائلات مازالت تأكل.

اقترب مني "هوجو" وقال: هل تعرف أن ٢٤ ألف شخص في العالم يموتون يوميا من الجوع؟

سألته: من أين جئت بهذا الرقم؟

- من موقع على الشبكة تابع للأمم المتحدة. صفحته

الأولى خارطة للعالم تتحرك فوقها بقعة سوداء من مكان لآخر. وحينما يتحول لون بلد ما إلى اللون الأسود فهذا يعني حالة وفاة بهذا البلد في هذه اللحظة من جراء الجوع. سأرسل لك عنوان الموقع على بريدك الإلكتروني(×).

قلت: سأعطيك عنواني قبل الانصراف.

قال: أعرفه. سأرسل لك أيضا عنوانا لموقع مثير آخر. عن البول.

- البول؟

- لا تضحك. جرب أن تشربه في الصباح. بشرط أن تستخدم الجزء الأوسط من أول بول. إنه يداوي كثيرا من الأمراض. وله فوائد عديدة.

ضحك ثم أضاف: كنت أستمتع دائما بالتبول على صديقتي.

حانت مني نظرة إلى "ميجان"، فقال: لا. واحدة أخرى قبلها. أنجلوساكسونية.

أدار رأسه وتأمل الحاضرين حتى استقرت عيناه على "ميرفت".

قال: هل زرت جامعة "ستانفورد"؟

هززت رأسي نفيا.

قال: لابد أن ترى مساحتها الهائلة وحدائقها المترامية وفخامة أبنيتها(××). بيوت الطلاب عبارة عن فيلات، تضم كل

(×) أرسله لي بالفعل وهو www. thehungersite.com.

(××) تولى تشييد هذه الجامعة أحد الأربعة الكبار الذين سيطروا على المدينة في مطلع القرن لكنه الوحيد منهم الذي ترك شيئا يذكره به الأحفاد. ولد "ليلند ستانفورد" عام ١٨٢٤ وبدأحياته بقالا ثم جاءته ضربة الحظ عندما أعطاه أحد مدينيه أسهما في منجم ذهب. وسرعان ما بدأ المنجم في الإنتاج وتضاعفت ثروته عندما اشترك في بناء خط حديدي إلى المنجم مع ثلاثة آخرين واضعين بذلك أساس إمبراطورية الخطوط

واحدة مسكنين. ويدفع الطالب في المسكن أكثر من ٧٠٠ دولار في الشهر.

بدرت مني الصيحة الأمريكية المعهودة: واو.

هز كتفيه :إنهاجامعة الأغنياء، وهؤلاء أولادهم. لن يحتاجوا شيئا من الآن وإلى الأبد.

رددت : من الآن وإلى الأبد.

= الحديدية جعلتهم من كبار الأثرياء، ومكنته من أن يصبح حاكما للولاية أثناء الحرب الأهلية ومن أن يشتري عضوية الكونجرس بعد ذلك بعشرين عاما.

وعندما مات ابنه بالتيفويد في سن الخامسة عشرة قرر أن يشيد جامعة لذكراه، اختار مكانا لها مزرعة جياد من ثمانية ألف فدان يملكها على مبعدة خمسين كيلومترا جنوب "سان فرنسيسكو". وتكلف البناء خمسة ملايين دولار اقترضها من البنوك. وكانت هذه المزرعة أيضا مركزا لتجربة رائدة مهدت لميلاد فن السينما. فقد كان الاعتقاد وقتها أن الحيوان عندما يجري يحتفظ بقدم واحدة على الأقل فوق الأرض طول الوقت. لكن "ستانفورد" رأي عكس ذلك ولكي يثبت رأيه استأجر مصورا شهيرا ليصور جياده أثناء جريها. وباءت محاولات المصور بالفشل لأن كاميرته كانت بطيئة. وبعد عدة تجارب استخدم أربعة وعشرين كاميرا مثبتة على التتابع فحصل على الصورة المطلوبة لتثبيت المنظر والتي أثبتت أن الجواد أثناء جريه يرفع كل أقدامه أحيانا عن الأرض. هكذا ولدت سرعة ٢٤ كادرفي الثانية التي قامت السينما على أساسها.

** ٣١

احتفل الأغنياء أيضا بعيد الشكر. فقد شهد أسبوع العيد اندماجات عديدة بين الشركات الضخمة على نطاق لم يسبق له مثيل. وفي يوم واحد، قبل العيد بيومين، شملت الاندماجات مبالغ قدرت بأربعين مليارا من الدولارات. وقالت الصحف إنه رقم قياسي لم يحدث من قبل، وقد يرتفع في العام القادم إلى تريليونين من الدولارات(×).

أشارت الصحف أيضا إلى التسريحات الضخمة للعمال وقالت إن كل شركة الآن أصبحت مهددة بأن تجد نفسها قد بيعت وسرح جزء من عمالتها. ولم تقتصر الحفلة

(×) شملت التوقعات شراء شركة"ورلد كوم" منافستها ب١٢٩ مليارا، وتمام الاندماج قبل نهاية العام الحالي بين عملاقي البترول "إكسون" و"موبيل" في صفقة تقدر بثمانين مليارا من الدولارات تتضمن أيضا التخلص من تسعة آلاف عامل. وذكرت الصحيفة أن هذا الاندماج سيخلق أكبرشركة بترول في العالم ويهدف إلى مواجهة حاجة الشركتين إلى مصادر جديدة للنفط، إذ أنه سيمكنهما من الوصول إلى بترول "آسيا" الوسطى.

وتواصل شركةالتليفونات الكبري "إيه تي آند تي"حملتها من أجل الاستحواذ على سوق المكالمات المحلية وفي هذا السبيل استولت على شركة "تليبورت"وشركة "تليكومينيكيشنز" التي تعتبر ثاني أكبر شركات الكابل التليفزيوني، كما كونت شركة للسوق الدولي حجم أعمالها عشرة مليارات دولار بالتعاون مع عملاق التليفون البريطاني "بريتيش تليكومينيكيشنز". وهي الآن تستعد لشراء شبكة البيانات العالمية الخاصة بعملاق الكومبيوتر "آي بي إم" مقابل ثلاثة مليارات دولار نقدا.

علي "الولايات المتحدة" إذ امتدت إلى أوروبا(×)، وترددت أصداؤها في ردهات التاريخ المقارن ب"سان فرنسيسكو".

لم ألحظ شيئا غير عادي عندما ولجت المعهد وصعدت إلى القسم. عرجت على غرفة "جيني" وسألتها عن أخبار الفيلم.

(×) اشترى بنك "دويتشه بانك" الألماني بنك "بانكرز ترست"الأمريكي، مقابل عشرة مليارات دولارمما سيؤدي إلى التخلص من ٥٥٠٠ موظف في الشركتين. وقد خصص "دويتشة بانك" ٤٠٠ مليون دولار مكافآت لكبار المديرين في "ترست" بلغت ١٠ مليون دولار لكل منهم.

واتحدت "ديملر بنز"الألمانية مع "كريزلر" الأمريكية مكونين رابع أكبر صانع سيارات في العالم.

واستولى عملاق "نوفارتيس" السويسري (الذي تكون العام الماضي من "سيبا جايجي" و"ساندوز" في صفقة أسهم قيمتها ٣٦ مليار دولار) على الفرع العامل في مجال إبادة الحشرات الزراعية بشركة "ميرك" ،أكبر شركة أدوية أمريكية ،مقابل ٩١٠ مليون دولار. ونص الاتفاق على إلغاء ٥٠٠ وظيفة. ويعمل في "نوفارتيس" ٩٠ ألفا في العالم منهم ٢٠ ألفا في "سويسرا". وهي متهمة أمام المحاكم الأمريكية، من جانب ٤٠٠٠٠ صيدلية في أنحاء البلاد ،بالتآمر مع ثلاث شركات أدوية كبري منها "جونسون وجونسون" ومجموعة من تجار الجملة على إتباع سياسة سعرية مزدوجة.

وأعلنت "ثايسين" الألمانية أكبر خامس صانع للمصاعد والسلالم المتحركة في العالم عن شراء قطاع المصاعد في شركة دوفر- التي لم يحدد الإعلان جنسيتها واكتفى بالاشارة إلى أن مقرها في "نيويورك"- مقابل مليار دولار، وسيرفعها هذا الشراء إلي المرتبة الثالثة في مجالها على نطاق العالم.

وكونت "كلم" الهولندية و"أليتاليا" الإيطالية تحالفا عالميا يتضمن دمج عملياتهما مع "نورث وست ايرلينز"الأمريكية.

ويبحث ثالث صانع أدوية بريطاني اندماجا مع شركات سويدية تبلغ قيمته ثلاثين مليارا، يخلق رابع أكبر شركة أدوية في العالم. كما قررت شركتان فرنسيتان للأدوية هما "سانوفيل" و"سينثلابو" الاندماج في صفقة مقدارها ١٠.٤ مليار دولار. =

كنت قد طلبت منها أن تشتري للقسم فيلما كنديا وثائقيا بعنوان "أربع نساء من "مصر"" لأعرضه على طلبتي. واتصلتُ بالمخرجة المصرية/ الكندية في "كندا" وحصلتُ منها على رقم تليفون الشركة التي تتولى توزيع الفيلم في "نيويورك".

بادرتني عندما دخلت غرفتها وهي تقدم لي شريط فيديو : الفيلم وصل. دفعنا فيه ٣٠٠ دولار. هو عن الحريم، أليس كذلك ؟

أجبت: تماما.

= وتتضمن الاتفاقات التخلص من آلاف العمال ففي "بريطانيا" اعلنت "سيبي" لأجهزة التحكم الصناعي أنها ستحصل على شركة "بي تي آر" مقابل ستة مليارات. ويتضمن الاتفاق إلغاء خمسة آلاف وظيفة من عمالة الشركتين التي تبلغ ١٢٥ ألفا. ويخلق الاتفاق وفرا سنويا مقداره ٢٥٠ مليون جنيه استرليني خلال ثلاث سنوات.

كما اشترت "فياج" الألمانية شركة "ألجروب"السويسرية الكيماوية في عملية تبادل أسهم قيمتها ٨.٧ مليار دولار. وتتوقع الشركتان وفرا مقداره ٣٣٤ مليون دولارنتيجة التخلص من ٢٥٠٠ عامل. وأعلنت الشركتان أنهما ستكونان مجموعة تبيع سنويا ماقيمته ٣١ مليار دولارفي مجالات الطاقة والاتصالات والألومنيوم وستصبح أكبر صانع في العالم لأجزاء السيارات من الألومنيوم، كما يشمل نشاطها الكيماويات والتغليف لمنتجات مثل السجاير والأدوية.

وأعلنت شركة "إنتيجري" رابع أكبر شركة لتوليد الكهرباء في "الولايات المتحدة" أنها ستبيع شركة انجليزية تابعة لها إلى أكبر شركة كهرباء فرنسية مقابل ٣.١٨ مليار دولار. وبينما يدور الحديث عن شراء "فورد" ل "فولفو"السويدية أعلنت الأخيرة أنها تنوي التخلص من ٥٣٠٠ عامل (بينهم ألف في "الولايات المتحدة") من أجل زيادة الأرباح والإنتاجية.

وجرت تخفيضات مماثلة للعمالة في "بوينج"، وفي "اريكسون" التي طردت عشرة آلاف عامل.

قالت : لو "بورنو" أتفرج معكم.
قلت : أهلا بك.
ابتسمت في خبث وهي تغلق أحد الملفات:خذ بالك. أمس تعرض أستاذ بقسم العلوم الاجتماعية للسرقة في الكامبوس في عز النهار. اقتربت منه فتاة وجاذبته الحديث وطلبت منه أن تشاركه مظلته بسبب المطر فقبل وبعد قليل هاجمه رجل من الخلف وأخذ محفظته التي تحتوي على ١٤٥٠دولار ثم اختفى الاثنان.
تحولت منصرفا ثم تذكرت. سألتها: هل أعطيت عنواني الإلكتروني لأحد من خارج المعهد؟ لجيراني مثلا؟
قالت: لقد وضعته في موقع المعهد على الشبكة. أي واحد يستطيع الحصول عليه من هناك.
شكرتها وانطلقت إلى قاعة الدرس. وجدتهم جميعا في انتظاري عدا"فيرنون". وكان "لاري" ما زال يحكي تفاصيل تجربته المثيرة مع الشرطة. وبدا علينا جميعا عدم الحماس للدرس. وكنت أعرف هذا الشعور الذي يستولى على الطلاب والأساتذة أيضا في نهاية الفصل الدراسي.
قال "لاري": العقوبة التي أوجعتني هى اضطراري لأن أستمع إلى خطاب "كلينتون" في "الأمم المتحدة" الذي دعا فيه العالم إلى مكافحة الإرهاب.
أوضح وهو يعدد على أصابعه: نسى "كلينتون" أننا نحن الأمريكيين مارسنا خلال مائتي عام أفظع أشكال الإرهاب الدولي. أبدنا عدة ملايين من السكان الأصليين في "المكسيك "واحتللنا نصفها وقتلنا مائة ألف من المدنيين في "الفليبين" . وبعد الحرب العالمية الثانية تدخلنا عسكريافي بلاد أجنبية ٧٥ مرة. قتلنا في "كوريا "٣.٥ مليون مدني، وفي"فيتنام " أكثر من مليون، وعشرات الآلاف في "نيكاراجوا"، و"هندوراس" و"هايتي" و"جواتيمالا" و"تشيلي"،

وأكثر من نصف مليون مدني في غارا ت جوية على "كمبوديا"، وساندنا حكومة "جنوب أفريقيا"العنصرية في هجماتها على جيرانها التي قتل فيها مليون ونصف المليون أغلبهم من المدنيين...
قاطعته "فادية" : نسيت "إسرائيل"...
تدخلت "ميجان" مشيرة إلى الاستقبال الحار الذي لقيه الرئيس الأمريكي من ١٨٥ رئيس دولة وقفوا جميعا وصفقوا له طويلا.
تساءلت "فادية": ألا يعتبر ذلك تأييدا لقصف"السودان" و"أفغانستان" دون مبرر ودون إعلان حرب؟
قلت وأنا أخلع معطفي :"نيلسون مانديلا" كان بين المصفقين. ولا أظنه يؤيد موقفا كهذا.
قالت "شرلي"وهي تنظر إليّ وتمد يدها إلى رقبة بلوزتها لتتحسس نقطة أسفل فكها: أعتقد أنهم يعلنون تعاطفهم معه في محنة"مونيكا"، على أساس نظرة أخلاقية عمادها الحرية الشخصية.
تطرق الحديث إلى مصير الرئيس الأمريكي فقال "لاري" إن الطبقة الوسطى الأمريكية تنعم بأطول ثاني ازدهار في تاريخها منذ الحرب العالمية الثانية ، فالبطالة منخفضة وهناك فائض في الميزانية لأول مرة منذ ٣٠ سنة.
عقبت "شرلي": "كلينتون" بالنسبة للملايين هو رئيس الأيام الحلوة. لا أظن أحدا منا يرغب في ذهابه.
أخرجت من جيبي بضع أوراق سجلت فيها نقاط آخر مرحلة من مسيرتي وبدأت :
- يكفي هذا عن "كلينتون". أشرت في المحاضرة السابقة إلى وفاة أمي والضغوط التي تعرضت لها نتيجة كتابي ومقالات" حلمي عبد الله". أصبحت أخاف من التليفون ومن مغادرة منزلي وانقطعت عن الذهاب إلى الجامعة. وأهملت

مظهري ونظافتي ولم أعبأ بازالة لحيتي. وقطعت علاقتي ب"عايدة".

ظهر التساؤل في عيون الطلاب وتذكرت أني لم أتحدث عنها مطلقا.

قلت: "عايدة" كانت أرملة في الأربعين تعمل في سكرتارية الكلية. تعرفت عليها أثناء تقدمي للترقية. لفت نظري أنها لم تكن محجبة بينما كانت الموظفات كلهن - فيما عدا المسيحيات- يغطين رؤووسهن. كانت سمراء رقيقة وحاصلة على ماجستير في الأدب اليوناني. خرجنا سويا عدة مرات ثم زارتني في منزلي وتعرفت بأمي. تذكرون طبعا أن أمي كانت تلح على زواجي. لكنها لم تسترح للمرشحة. أظن أنها كانت تطمع في زوجة تقوم على خدمتها ومرافقتها وتسليتها. فكيف بها حاملة للماجستير وموظفة وتتكلم اليونانية؟

شعرت بجفاف في حلقي فاستخرجت زجاجة المياه من حقيبتي وجرعت نصفها.

قلت : تمكن أحد أصدقائي وهو أستاذ فيزياء من اقتحام وحدتي. هالته حالتي وقذارة مسكني فأخذ ينصحني بالزواج. رفضت باصرار فقال : لا يمكن أن تستمر هكذا. لابد من واحدة تعني بك. على الأقل تنظف وتغسل وتطهي.

حكى لي قصة طويلة عن أحد تلامذته الموهوبين الذي ظل عاطلا بعد تخرجه أربع سنوات واضطر أن يعمل في مهنة والده النقاش. يسكن في غرفة واحدة مع جدته وأمه وثلاث شقيقات في المدرسة في حي بلا ماء ولا كهرباء. يشتري أهل الحي الماء من باعة جائلين. "الجيركين" بجنيهين. يحصلون على الكهرباء من عصابة تسرقها من أقرب خط وتبيعها للأهالي. وتشترك كل ثلاث غرف في دورة مياه واحدة. ويتخلصون من

مياه الغسيل في تواليت منزل قريب مقابل جنيه في اليوم. ساكن الغرفة المجاورة خفير يعيش مع حماته وزوجته وشقيقه وزوجته وثلاثة أولاد. الجار الثالث عامل متزوج من اثنتين إحداهما أم لثلاثة أولاد من زوج سابق والثانية أم لاثنين منه.

عاد إلى طالب الفيزياء: نالت شقيقته دبلوم تجارة ووجدت عملا في مصنع ملابس صغير أفلس فاضطرت للعمل مربية في منزل ثري. وطبعا ساهمت في خدمات المنزل. ثم طردوها عندما ثارت غيرة الزوجة الأمية لامن جمال البنت، وانما من معرفتها للقراءة والكتابة.

أحضرها بعد يومين: فتاة عشرينية دمثة.متواضعة الجمال.

لكنها امتلكت مؤخرة حية. ومن ليونة جسدها وثقل ردفيها أدركت أنها ليست غريبة على متع الفراش. وحانت اللحظة عندماشرعت في تنظيف مكتبتي وساعدتها في انزال مجلدات "سليم حسن" و"الرافعي". استقرت مؤخرتها على فخذي ففقدت صوابي وزنقتها. لم تعترض واتجهت إلى فراشي واستلقت عليه. أعطتني مؤخرتها فارتميت فوقها. ولم أجد مقاومة ما لأنها كانت مبتلة للغاية. وبدأت تئن وسمعتها تقول : عيب يابا. أنابنتك.

انفغرت أمامي فوهةالتاريخ وفي قاعها الغرفة المكدسة بأفراد العائلة. وفقدت انتصابي في الحال.

عند انصرافها في نهاية اليوم ناولتها أجرها. فطلبت عشرين جنيها اضافية. أعطيتها لها وطلبت منها ألا تعود.

ظهر أستاذ الفيزياءبعد أسبوع وأصر أن يصحبني إلى طبيب نفسي.

استقبلني في غرفة يضيؤها مصباح "فلورسنت" طويل مدهون بطلاء أصفر فاقع. وتساءلت عما إذا كان هذا هو لون الجنون.

كان في سني تقريبا أو أصغر قليلا، أكثر امتلاء وأصلع. يضع عوينات طبية سميكة وداكنة تحول دون رؤية تعبيرات عينيه. تحدثنا في موضوعات عامة. أظن أنه كان يحاول أن يحدد مدى استيعابي لما يدور حولي أو مدى انفصالي عن الواقع.

قلت له إن بداية العام الدراسي تثير حزني وتجعلني مشرفا على البكاء. وذلك عندما أفكر في ١٧ مليون تلميذ وطالب متجهين إلى المدارس حيث البلطجة والمخدرات وإلى الجامعات حيث القاعات المكدسة والعقول المغيبة فضلا عن الحصار الأمني. ويبدأ قلبي في الخفقان عندما أفكر في ما ينتظرهم عند التخرج من ضياع لأن أبناء الحكام يحتكرون الوظائف، في النيابة والقضاء والبنوك والشرطة والصحافة والجامعات وبقية المجالات. فلم يعد التفوق أوبذل الجهد هو الطريق.

أومأ برأسه إما تأييدا لوجهة نظري أو لأنه توصل إلى تشخيص لحالتي. انطلقت أتحدث عن الأكاذيب التي تروجها أجهزة الإعلام، عن السلع الفاسدة التي تملأ الأسواق، عن الأطفال النائمين في الشوارع وآلاف الآلاف من المساكن المغلقة، عن حفلات الزفاف التي تتكلف ملايين الدولارات، عن التسيب والإهمال في المستشفيات، عن أحكام السجن التي لا تنفذ أوتستبدل بالبراءة، عن الإشادة المتواصلة بالإنجازات والتحديات والطموحات، عن الخطط القومية الشاملة ومشروعات التحديث، بينما تسلم المصانع للأجانب ويتبادل الحكام الجوائز والدروع ويقيمون المهرجانات ، ثم يهرعون في الصيف إلى الساحل الشمالي أو "شرم الشيخ" مع تجار السوق السوداء الذين صاروا ملوكا للسيراميك والحديد والأبراج والإلكترونيات والمدن السياحية ونوابا للشعب وفي صحبتهم رؤساء الصحف وأهل الفن.

أطرق برأسه عدة مرات . قدرت أنه وضعني في الخانة الملائمة.

سألني عن طفولتي وعلاقتي بأبي وأمي وعن حياتي العاطفية والجنسية. حكيت له كل شئ. اهتم بقصتي مع "عايدة" وأراد أن يعرف لماذا لم أتزوجها.

تطلعت إليّ عيون الطلاب.

نهضت واقفا واقتربت من النافذة. وتأملت السحب الداكنة التي حجبت الضوء.

قال : احكي لي التفاصيل.

قلت :كنت أنتصب بمجرد أن أراها. وكنت المبادرهذه المرة. حنوت عليها ودللتها وتلمست أغوارهاوانصت لرجع جسدها ولهاث أنفاسها وتلاحق أناتها حتى تحولت إلى صرخة ممتدة: يا خرابي.

- وأنت ؟

- قذفت بهدوءتام دون لذة.

- وبعد ذلك؟

بعد ذلك ؟كرهت قميص نومها الداكن الذي تستقبلني به دائما. وكرهت ضعفها واستسلامها. وعندما بدأت تلمح إلى الزواج تخلصت منها.

استدرت مواجها طلابي وبدأت أدور حولهم.

-قال الطبيب إني مصاب باكتئاب حاد. وإنه لا يستطيع الآن الجزم بجذور هذه الحالة. فهناك احتمالات متعددة تحتاج إلى دراسة. وعدد على أصابعه: صدمة فقدان الأم وأزمة منتصف العمر. جراح الطفولة وعذاباتها. نشدان الكمال في كل شئ، في الشارع والبلد والجامعة والمرأة. واستخدم كل المصطلحات والصياغات المعروفة.

ربما كان ولعك بالغزو الجنسي نابعا من رغبة في مقاومة الموت أوبحثا عن امرأة مثالية لا وجود لها في الواقع أو محاولة لنفي ميول مثلية كامنة أو للامساك بالاتحاد المبكر مع الأم. فعندما تدخل امرأة تجد

السعادة التي عرفتها في الرحم، الاتصال وعمق المشاعر. وفي نفس الوقت تظل متوجسا وعلى حذر، خوفا من أن يتكرر التخلص منك وإبعادك. ومن ناحية أخرى فإن شدة مشاعرك تخيفك، تصبح تهديدا يجب أن تهرب منه، لأنها تمثل هجوما على السدود التي أقمتها بينك وبين الآخرين لحماية نفسك من الألم. فتكبح جماح نفسك ولا تتركها على سجيتها ثم تنصرف لتبدأ البحث من جديد. الاحتمالات عديدة كما ترى. الموضوع معقد.

سكت لحظة ثم أضاف: هناك أيضا اشارتك المتكررة إلى الانتصاب.. ربما تكون قلقا بشأنه خاصة مع تقدمك في السن. وهو قلق مشروع لأن الانتصاب هو زهوة الرجولة وفخرها.

لمست رنة أسف في كلماته وفكرت أنه يواجه في الغالب مشكلة كبيرة.

قلت: أظن إنه الجزء الأكثر صدقا فينا. لا يكذب أبدا.

- المهم الآن أن تقف على قدميك ثم نرى. يجب أن تمشي كل يوم ساعتين. وسيساعدك هذا الدواء.

أعطاني "بروزاك" قائلا إن أثره لن يظهر على الفور وانما بعد شهرين على الأقل. وأضاف ضاحكا في لهجة اشتممت منها شيئا من الشماتة:

- عيبه الوحيد أنه يؤدي إلى خفض الدافع الجنسي. ربماكان هذا أفضل.

كنت قد أصبحت في مواجهة"شرلي"ورأيتهاتبتسم.

-خرجنا من عنده أنا وصديقي وولجنا مطعما من مطاعم "مكدونالد". وقفنا في طابورخلف فتاة تحمل في يدها تليفون" موبايل"وتطلب "أبل باى"، فطيرة التفاح. طلبها صديقي مع "ميلك شيك" وقهوة. جلسنا إلى مائدة من الرخام الأخضر. اتفقنا على أن الفطيرة مطهية بزيت أقرب إلى زيت السيارات وأن القهوة مثل غسيل البرك. ومع ذلك أكلنا وشربنا بينما كنت أتفرج على الجالسين حولي: أربعة شبان

يلتهمون سندوتشات "البرجر"في حماس وقد أزال أحدهم شعر رأسه تماما. فتاة عشرينية عرت ساعدين من الكتف ببشرة مثل القشطة، مع أم سمينة ومحجبة. قلت للفتاة في سري: أنت الآن في سوق الزواج. سيصبرون عليك إلى أن تتزوجي ثم يغطونك. أسرة كاملة من أم ثلاثينية نحيفة يبدو المرح في عينيها ورجل سمين في ملابس رياضية وحذاء "نايك"، وطفلين وسيمين يحمل كل منهما كوبا ضخمامن "الأيس كريم". قال أحدهما للآخر شيئا عن كوبه فعلق الأب في حدة: همّا "اكزاكتلي"زي بعض.

نهضت واقفا مصرا على الانصراف. وقررت أن أزور قريبة لي في سني فأخذت مترو الأنفاق. كانت خطوة غيرموفقة بدأت من لحظة اقتحام الصاعدين والهابطين باب العربة في نفس اللحظة. وتواصلت عندما تركتني قريبتي عند الباب إلى أن غطت رأسها وكفيها وقدميها. ثم اكتملت عندما حدثتني عن خاصية الانتظار التي أضافتها إلى التليفون، وعن زوجها الذي ضاق بحياته في "السعودية" وبمعاملة صاحب العمل له، وكيف نصحته بأن يتحمل لأن ابنهما يطلب "موبايل" وسيدخل الجامعة ويحتاج إلى كتب ودروس خصوصية.

استأنفت دوراني حول الغرفة حتى أصبحت خلف "شرلي". ألقيت نظرة على عنقها. لمحت بقعةصغيرة تميل إلى الزرقة، كمالو كانت من أثر كدمة.

أو عضة؟

رفعت عيناي فالتقتا بعيني "ميجان" التي كانت تقضم جانبا من ساندويتش برجر. ورأيتها تبتسم في غموض.

اتجهت إلى مقعدي وأنا أقول: بعد أيام استجمعت قواى في الصباح وغامرت بالخروج. لم أعبأ بحمل السلسلة الحديدية. هاجمتني رائحة السلم العطنة والقاذورات الملقاة

على درجاته. وتعثرت في الكتب الدراسية التي تخلصت منها العائلات فور انتهاء الامتحانات. خرجت إلى الشارع فروعتني السيارات المركونة صفا ثانيا وثالثا ووسط الشارع دون مبالاة. كأني أراها لأول مرة. ذهبت إلى مكتب البريد الذي غلفت واجهته بالرخام والمشغولات المعدنية. وقفت أمام موظف شارد قذر الملابس، والأصابع، يسجل الخطابات بخط ركيك لا يقرأ، وهو يتابع زميلة له توزع بلحا على الآخرين فهتف طالبا نصيبه ووضعه على المكتب فوق الخطابات وبدأ يأكله بوسخه. انصرفت في الحال.

لم أغادر منزلي عدة أيام ثم أرغمت نفسي على الخروج. اخترت ساعة غروب ومشيت فوق بلاط مربع الشكل مضى على تركيبه ثلاثة أشهر. كان العمل جاريا في خلعه واستبداله ببلاط آخر مسدس الشكل. كان الشكلان من نفس اللون والخامة فضلا عن الصانع وهوإحدى الشركات التي يملكها ابن رئيس الوزراء. أوشكت أن أتعثر بسبب التغير المتكرر في منسوب الرصيف. ثم تركته إلى عرض الطريق عندما اعترضني معرض لبيع السيارات استخدم الرصيف مخزنا لبضاعته ثم تعثرت في زجاجات أدوية السعال الفارغة ومحاقن السعادة الملقاة بجوار صيدلية، وفي طفلة قذرة نائمة إلى جوار سيارة "مرسيدس".

تسارعت دقات قلبي فتوقفت ألتقط أنفاسي عند تقاطع طريقين. تابعت السيارات المارة وراكبيها ببدانتهم الناشئة عن سوء التغذية لا الإفراط. مرت بي عربة قمامة ورأيت سائقها يلقي بأكياس القمامة التي جمعها بين السيارات المركونة مستغلا الظلام، فاستدرت عائدا إلى منزلي.

لكني قاومت. واستطعت أن أطيل فترة التجوال. وابتدعت وسائل التحايل على نفسي. فاذا رأيت شيئا قد يعكر على صفوي فكرت على الفور في إحدى مراحل التاريخ. ويبدو أن الدواء قد أفادني إذ صرت متبلدا لا أكاد ألحظ

ما يجري حولي ولا يهزني شئ. أصبحت أخرج كل يوم وأمشي ساعات طويلة. وذات يوم عدت من جولتي لأجد في انتظاري أمام الباب عجوزا في ملابس رثة ونظارة طبية عتيقة يحمل كيسا من الأوراق دفع بها إلى لأقرأها. كانت مخطوطة ضخمة بعنوان: "حكم العسكرفي "مصر" المحروسة من الدولة الفرعونية إلى حكم "مبارك" بقلم العامل "عطية الصيرفي"(×). وكان قد حصل علي عنواني من "رشدي".

استغرقت مني قراءة المخطوطة عدة أيام فقد استعرضت التاريخ المصري بأكمله منذ الحضارة الفرعونية حتى الآن في محاولة للإجابة على الأسئلة التي ما زالت تشغل المؤرخين وهي: لماذا انهارت الدولة الفرعونية ؟ ولماذا ظل المصريون متمسكين بديانتهم طوال قرابة عشرة قرون تحت سيطرة الفرس والأغريق والرومان ثم اجتذبتهم المسيحية حتى تغيروا إلى الإسلام وتغيرت لغتهم، وهو ما لم يحدث في بلاد "فارس" التي تمسكت بلغتها في ظل الفتوحات العربية؟ ولماذا قاوموا "روما" بالاستشهاد وتفشت الرغبة في الموت للالتحاق بالمسيح في شعب بأسره مثلما دأب اليهود على الانتحار الجماعي وذبح أطفالهم عندما اضطهدهم المسيحيون الأوروبيون في القرون الوسطى؟ هل هذا الهروب والتواكل وتجنب الاصطدام بالطغاة هو ما أدى إلى تفشي السلبية في الحياة المصرية حتي يومنا هذا؟ إلى الاكتفاء بالدعاء لله أن يهلك "العثمانلي"؟ إلى حالة اللامبالاة

(×) صدرسنة ٢٠٠٢ في مدينة "ميت غمر" على نفقة المؤلف الذي ولد سنة ١٩٢٦، وعمل بالمعسكرات البريطانية ثم بوزارة الزراعة ثم بشركة "مصر" للغزل والنسيج ثم كمساريا في أتوبيس وسط "الدلتا" واشتغل بالنشاط النقابي والسياسي منذ ١٩٤٥ وسجن وعذب وشرد في كل العهود. رشح نفسه لانتخابات مجلس الشعب عام ١٩٩٠ لكن السلطة زورت النتائج، على حد زعمه. له عشرة كتب عن تاريخ الحركة العمالية والتاريخ المصري عموما، تستند إلى قراءات واسعة في المراجع الأساسية.

والرضوخ الذليل؟ لماذا كان الذل مصري الجنسية كما قال "المقريزي" (×)؟

ذكرت لهم الأوصاف التي أسبغها المؤرخ العظيم على مواطنيه ثم عدت إلى كتاب "الصيرفي". قلت إني لم أستغرب تصديه لعمل ضخم من هذا الطراز. فجانب هام من الدراسات التاريخية المصرية الحديثة ذات الطابع الموسوعي تم على أيدي مؤلفين من خارج الجامعة(××). كما أن أحد المؤرخين المعاصرين المبرزين استهل حياته العملية - مثل "الصيرفي" - محصلا في سيارات النقل العام، ومكنته مجانية التعليم الجامعي التي حققتها الثورة من مواصلة الدراسة والحصول على الدكتوراه(×××).

كانت المخطوطة تشكو بالطبع من الأخطاء اللغوية والتكرار المستمر فضلا عن خلوها من ثبت واضح بالمراجع

(×) تولى "المقريزي" (١٣٦٤م-١٤٤٢م) المصري المولد والإقامة ، الذي تتلمذ على يد "ابن خلدون"، عددا من الوظائف في جهاز الدولة حتى اختاره السلطان "برقوق" محتسبا للقاهرة والوجه البحري. وفي عام ١٤١٨ اعتزل العمل الحكومي وتفرغ للتأليف بادئا بمؤلفه الشهير "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" عن تاريخ "القاهرة". وفيه وصف المصريين ب "الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم، وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان ... فيغلب عليهم الشر والدنية التي تكون من دناءة النفس ... وأن نسائهم تغلب على رجالهم". واعتبر هذه الصفات نابعة من طبيعة الأرض ونوع المياه ولون السماء بل وصف الحيوانات بنفس الصفات فأكد أن "مصر" لا تصلح لسكنى الأسود فاذا دخلتها فانها تذل ولا تتناسل وحتي كلاب "مصر" أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ونباحها أضعف ، وأكثر الكائنات انسجاما مع طبيعة تلك البيئة هي الحمار والأرنب !! أما العرب فعنده أنهم يتصفون بالشجاعة والاحساس بالكرامة !!

(××)مثل "عبد الرحمن الرافعي" ، "شهدي عطية الشافعي" ، "ابراهيم عامر"، الأب "جورج قنواتي" ، "أحمد حسين" ، "طارق البشري" ، "أحمد صادق سعد".

(×××) هو "عبد العظيم رمضان".

التي استند إليها. كما أن النتائج التي توصل إليها لم ترق لي. فقد قرر أن حكم العسكر، سواء كانوا غزاة أو وطنيين أو عملاء، هو المسئول عما وصلنا إليه من تدهور. وفي تقديري أن العسكر كانوادائما ذراع سلطة مركبة من صفوة تضم الكهنة وكبار الملاك وبقية الطبقة الحاكمة.

لكن شمولية عمله ورؤيته شحذت ذهني. كما أعجبتني جسارته عندما وصف كيف تم في العهد الحالي بدهاء تنفيذ البرنامج الساداتي /الأمريكي لتحطيم القومية العربية وتخريب الإنسان المصري ماديا وروحيا بإحداث تغييرات جذرية في كل شئ من أول الخصخصة وبيع القطاع العام إلى طرد الفلاحين الفقراء من أراضيهم وإعادتها إلى ملكية كبار الملاك. ومن تفكيك طبقات المجتمع المصري وهدم الطبقات المتوسطة والعاملة إلى التراجع عن المكتسبات الاجتماعية التي حققها "عبد الناصر".

عدت إلى أوراقي ملتمسا الإجابة عن السؤال الأزلي: لماذا حدث ماحدث ولماذا وصلنا إلى ما نحن فيه؟ قدرت بعد تفكير طويل أنه بالإضافة إلى المركزية الشديدة منذ القدم والقهر المتواصل على يد الأجنبي فإن هناك لحظة فاصلة حدث فيها ما يمكن أن نسميه انقطاع في الشخصية هي تلك التي تغيرت فيها اللغة. فاللغة ليست مجرد حروف وكلمات وإنما هي "الصندوق الأسود" الذي يحمله كل شخص في وجدانه ويضم تراث الجماعة.

لقد غيرت مصر ديانتها أكثر من مرة لكنها لم تغير لغتها غير مرة واحدة. فقبل الغزو العربي كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية، لسان الطبقة الحاكمة وأهل المدن والثقافة وأجهزة الدولة. أما الكثرة الغالبة من القبط أوالمصريين فكانوا من المزارعين وأهل الحرف في القرى

ويتحدثون صيغة متطورة عن اللغة الهيروغليفية المقدسة هي اللغة الديموطيقية الدارجة التي اصطلح على تسميتها باللغة القبطية أي اللغة المصرية. وقد صمدت هذه اللغة لأكثر من ثلاثة قرون بعد الغزو العربي لكن التطورات المختلفة ، وخاصة فرض التعريب وتشجيع التحول إلى الدين الإسلامي، أدت إلى اندثارها في النهاية.

وسواء كان الانقطاع أو الانكسارفي التاريخ المصري قد حدث عند سقوط الدولة الفرعونية أو عند تغيير اللغة فإنه قد تمخض عن انكسارفادح في الشخصية المصرية. استمرت الصفات التقليدية للمصري التي ولدها النظام النهري الفيضي: الكرم ، الشهامة، التسامح، الاتزان في القول والعمل، التأني وعدم التهور. لكن الاحتلال المتواصل أبرز سمات جديدة نفذت إلى صميم الشخصية: الأسى والحزن اللذين طبعا أغانيه وموسيقاه ،الإيمان بالمصادفة والحظ المكتوب، احتقار العقل والمنطق، وإلغاء الإرادة والمبادرة، الحماس المفاجئ الذي يعقبه فتور نابع من إحساس باللاجدوى.

اختتمت حديثي قائلا: هكذا بدأت العمل في كتابي الجديد الذي أسميته "نظرية في الاكتئاب الجمعي" . عملت فيه في حماية السلسلة الحديدية المعلقة بجوار الباب إلى أن استدعاني البروفسور "ماهر"كي أدرس لكم.

فتحت باب التعليق والنقاش وكما توقعت كانت المبادرة ل "مونا" :

– إذن أنت تري ضرورة التخلي عن اللغة العربية والعودة إلى اللغة القبطية؟

أجبتها في صرامة: لم أقل هذا. كيف يمكن العودة إلى لغة ميتة؟ ثم أن العربية يتكلمهااليوم أكثر من مائتي مليون إنسان. إنها أداة وجود وحضارة ومستقبل. بالعكس أنا

أعتقد أن الأمل – إذا كان هناك أمل – يتوقف على حماية هذه اللغة والدفاع عنها.

سألتني "فادية" في شئ من التحدي : لكنك لم تقل لنا كيف يمكن للمصريين أن يتخلصوا من هذا الاكتئاب الجمعي أم هو قدر لا فكاك منه؟

-أعتقد أنه يمكن التخلص منه. كما فعلت أنا أو كما أحاول أن أفعل. فلا أزعم أني قد شفيت تماما. الأمر يحتاج إلى بعض الوقت.

– تقصد بالمشى؟

انتشرت الابتسامات على الوجوه.

قلت : أجل.

– سبعون مليونا يمشون؟

قلت: ليس بالضرورة. الفكرة هي تنشيط الدورة الدموية.

قالت "دوريس": أظن أن رنة الحزن التي تحدثت عنها في الأغاني تشبه أغاني السود عندنا. "البلوز".

قال "لاري" وهو يقضم قطعة شكولاتة: أريد أن أتوقف عند الأوصاف التي أعطاها "المقريزي"لمواطنيه. في عام ١٨٥٠ نشر جراح إنجليزي يدعي "روبرت فوكس" كتابا بعنوان "أجناس الإنسان"، أصر فيه على أن التاريخ ليس أكثر من عملية صراع بين أجناس يوجد الأنجلو ساكسون على قمتها. والطريف أنه يصف السلتيين -السكان الأصليين لأجزاء من "أوروبا" وللجزر البريطانية ذاتها قبل أن يحتلها الإنجليز والساكسون- بأن لديهم ميلا غريزيا إلى العبودية! وأنهم يفتقدون إلى المثابرة ، والمبادرة، والخصلة الغالبة عليهم هى الكسل والتواكل والاعتماد على الحظ. وأنهم يشبهون في ذلك السود والهنود.

أطرقت "دوريس" برأسها مؤمنة وقالت: هناك فقرة بعنوان "نظرية للعنة القومية" في كتاب "ادواردو جوليانو" الشهير "ذاكرة النار"، تتحدث عن كاتب بوليفي نشر عام ١٩٠٥ كتابا عن الأمراض المزمنة لسكان "بوليفيا" الأصليين. فهم لا يبغون الاغتسال أو التعلم. ويتميزون بالأنانية والكسل. وقال إن مأساتهم تنبع من طبيعتهم لا من شراهة سادتهم البيض. لقد تحدث مثل "المقريزي" بالضبط.

أشار "سابك" إلى "ميجان" وقال: لقد قرأت كتاب "لاندز" الذي تحدثت عنه من قبل. إنه يردد نفس الكلام بعد قرن ونصف قرن ويرفض الاعتراف بمسئولية الاستعمار عن انهيار حضارات وعن التخلف الذي تعاني منه المستعمرات السابقة.

زمت "شرلي" شفتيها الجميلتين وقالت: أنت تريد إذن أن تعفي هذه الشعوب تماما من المسئولية عن تخلفها؟

انتشرت حمرة الغضب في قسمات وجه "سابك" الماهوجني ورد: عاش أهالي "أفريقيا" و"أمريكا" الجنوبية في العصور القديمة حسب تقاليد وتابوهات حددتها أسلاف القبيلة للكافة. ثم جاء الاستعمار ليختطف أبناءهم وينهب ثرواتهم ثم يحطم سيطرة الأسلاف والشكل القديم للحياة العائلية بشكل قسري ويفرض اللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الأسبانية مع الديانة المسيحية. تضربين شخصا على رأسه وتواصلين ضربه حتى تتحطم مقاومته ومعنوياته في النهاية مهما كانت صلابته خصوصا لو كنت مسلحة بالقوة والمعرفة. ثم تأتين وتقولين أنه مسئول عن مصيره؟

تطلعت إلى ساعتي وقلت: حان موعد السينما.

حملت معطفي وانتقلنا إلى قاعة واسعة بالطابق

الأرضي أعدت لعروض الفيديو على شاشة كبيرة. أعطيت الشريط ل"شرلي" فوضعته في الجهاز.

وقفت إلى جوارها وانتظرت حتي جلسوا جميعا فقلت إن الفيلم يلقي ضوءا على كثير من الموضوعات التي تعرضنا لها في السمينار، وخاصة فيمايتعلق بالتاريخ المصري الحديث، من خلال العلاقة التي تربط بين أربع شخصيات نسائية مصرية معروفة، تنوعت اتجاهاتها الفكرية(×).

وأضفت أن الحوار الدائر بين الشخصيات يجري باللغة العربية لكن النسخة المعروضة تضم ترجمة صوتية واضحة له بالإنجليزية. أشرت ل"شرلي" أن تقوم بتشغيل الجهاز واحتللت المقعد المجاور لها بعد أن طلبت من "ميجان"، "القريبة من الباب، إطفاء النور.

(×) هن: "أمينة رشيد"، أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة "القاهرة"، ماركسية، "وداد متري"، مدرسة متقاعدة ومناضلة نقابية، "صافيناز كاظم" أديبة وصحفية خريجة جامعات "الولايات المتحدة"، إسلامية، "شاهندة مقلد"، ناشطة سياسية في الدفاع عن حقوق الفلاحين، رشحت نفسها لانتخابات مجلس الشعب عدة مرات.

مقتطفات من فيلم "أربع نساء من مصر" (×)

قارب وحيد في النيل ومراكبي يجدف بهدوء، وصوت مغني شعبي.

المغني: ....بلدك تعزك كما إن الوطن غالي.

صافيناز كاظم" في غطاء الرأس الإسلامي وملابس مبالغة سابغة من رسغيها حتي أخمص قدميها. "وداد" بشعر معقود في جدائل فوق رأسها، والسيجارة في فمها، "أمينة" و"شاهندة" في ملابس بسيطة من قطعتين.

صافي : أهم شئ في الصداقة التي تربطنا هي حس الفكاهة لدينا.

وداد: نحاول بقدر الإمكان تجنب مناقشة القضايا الحساسة. لكننا نتفق حول أمور كثيرة.

شاهندة : نحن أخوات في السلاح...

قصر "اسماعيل صدقي" باشا، رئيس الوزراء في العهد الملكي الذي اشتهر بقبضته البوليسية، في ضاحية "شبرا".

أمينة : هذا هو المنزل الذي نشأت به .. لم أكن سعيدة فيه. والأصعب أني اكتشفت أني في حيّ عمالي. عاش فقراء حول هذه المنازل الجميلة. ذات يوم في ١٩٤٧ قذفتني فتاة صغيرة بالحجارة لأن جدي "اسماعيل صدقي" رئيس الوزراءوقع معاهدة تربط "مصر"بإنجلترا... وعارضت البلاد

(×) إنتاج هيئة الفيلم الوطنية الكندية عام ١٩٩٧، مدته ساعة ونصف، ونال جائزة أفضل فيلم تسجيلي في مهرجان الفيلم البرتغالي، إخراج "تهاني راشد"، وهي مصرية هاجرت أسرتها من "مصر" إلي "كندا" في ١٩٦٥.

المعاهدة بشدة وسارت المظاهرات في كل مكان .. ..في منزلنا الكبيركنا جميعا نتحدث الفرنسية ولا نستخدم العربية إلا في الحديث مع الخدم. إنها الحقيقة المرة للانتماء إلى الطبقة الحاكمة... كانت لحظة مؤلمة ارتبطت بنشوء شعور بالعار والوحدة.. .

.....

لقطات تسجيلية للملك "فاروق" وبطانته...

جامعة القاهرة ("فؤاد" سابقا). في سنة ١٩٥١ ترشحت ثلاث فتيات في جامعة "فؤاد" لاتحاد الطلبة ونجحت واحدة فقط هي "وداد متري" الطالبة بكلية الآداب قسم فلسفة.

وداد : لعلني كنت أول امرأة تدخل الاتحاد ... هذا هو أرشيفي ...أوراق لجنة المقاومة الشعبية النسائية... في ١٩٥١ "سيزا نبراوي" أسست هذه اللجنة للاشتراك في الكفاح المسلح ضد الإنجليز في منطقة قناة "السويس"... . وكنت رئيسة فرع اللجنة بمحافظة "المنوفية".

......

شاهندة : كانت "وداد"معلمتي ومناضلة في نقابة المعلمين. عرفتها في الأوقات الصعبة والسيئة... كان بيتها بيتي وملجئي. ....أما"صافي" فقد عرفتها عند عودتها من "الولايات المتحدة". قابلتها على سلم دار للنشر. قبل أن تنقضي أربعون يوما على اغتيال زوجي. قالت لي : إنت "شاهندة"!

صافي : "شاهندة" صديقة عزيزة. أستمع لآرائها. لكن أحيانا أنتظر بفارغ الصبر أن تتوقف عن الكلام. لكنها صديقتي وأنا أحبها. في السجن يمكنك حقا أن تقدريها. كنا في السجن معا في ١٩٧٥ و١٩٨١. في السجن تصبح سيدة الموقف .يمكنها أن تحصل لك على أي شئ تريدينه. تليفزيون

حتىّ. صحف، راديو، كوكاكولا . . . ..من الخطأ تصنيفها كيسارية أو يمينية أو ماركسية أو إسلامية أو الشيطان الأزرق ..

شاهندة : يمكنني أن أقول نفس الشئ عن "صافي" . فلا يمكن تصنيفها سياسيا. لا يمكنك أن تحصريها في إطار حزب واحد. إنها حزب لوحدها. إنها تعبر عن معتقداتها سواء أكانت هذه المعتقدات يسارية أو يمينية ، إسلامية أو علمانية. إنها تقول ما تعتقده.

صافي :.... تفكيري إسلامي ...

....

...التقيت "أمينة" أول مرة في السجن سنة ١٩٨١. عندما وصلت قالت : كنت أود أن أجرب السجن بشرط ألا يطول الأمر.

....

أمينة : قضيت أول ليلة لي في زنزانة للسجينات السياسيات. .... "صافي" تكلم نفسها ، "شاهندة"صامتة فوق فرشتها. كنت أعرفها بالسمعة. فقد قتل كبار الملاك من عائلة "الفقي" الإقطاعية زوجها "صلاح حسين".

الثلاثة يشربن قهوة ، بجوار جرامفون قديم.

شاهندة: طقس القهوة له معني خاص بالنسبة لنا. إنه طريقة للتلاقي والحديث ومشاركة متاعبنا. بالنسبة لي علاج. تذكرين عندما كنا نصنع القهوة في السجن؟

....

في ميدان "الجيش" بحي العباسية وكان إسمه ميدان "فاروق" قبل الثورة.

صافي : كانت "العباسية" الشرقية من أجمل أحياء "القاهرة" وأكثرها أصالة . ..كل صباح كنت مع أختي "فاطمة" نعبر ميدان "فاروق" ونمشي في شارع "العباسية"قرب

الحديقة . .. في الوسط كانت هناك ساعة وكنانسمع هذه الأغنية :"يا شباب النيل يا عماد الجيل، "مصر" تناديكم فلبوا النداء". ..الله !

....

رأيت من بلكونتي أبطال الثورة. . .في يوليو ١٩٥٢ كنا في سن ١٢ أو ١٣. كنا سعداء جدا. أمي وأخوتي الكبار كانوا منفعلين جدا. قفزنا ولوحنا كي يرانا "محمدنجيب". "ناصر" رآنا. فحيانا. صحنا فيه : مش انت ، هوّ ! ..ضحك وجعلنا هذا نحبه. أشار ل"نجيب" علينا. ودمعت عيوننا من الفرح. ..

لقطات متعددة ل"جمال عبد الناصر "بين الجماهير.

وداد : الحركة النسائية في مصر طالبت دائما بحق المرأة في التصويت و الانتخاب. وفي ١٩٥٦ أعطانا الرئيس "عبد الناصر" هذا الحق . لم يحدث هذا اعتباطا. لقد نتج عن نضال أجيال وأجيال النساء. كانت "شاهندة" صغيرة أيامها وكنت آخذها معي في كل مكان. كان هدفنا هو إقناع النساء بتسجيل أسمائهن في كشوف الناخبين. كانت تجربة رائعة.

شاهندة : أبي لعب دورا حاسما في حياتي. عندما كنت فتاة كتب لي هذه الكلمات:" دافعي عن أفكارك حتى الموت" .. عملت بين الفلاحين ..لم أشعر أبدا أن أنوثتي عقبة...

..."صلاح "كان ابن عمي. قاد الكفاح في "كمشيش" ضد الإقطاعيين. كان قدوتي. وأخيرا اعترف بحبه لي . ...قررنا أن نتزوج. كان عرسا جميلا لأنه كان أيضا انتصارا. وفي الصباح وجدت تحت وسادتي خطابا كتبه لي. به قصيدة .... كانت أحلامنا تتجدد باستمرار مع ثورة ١٩٥٢ التي نالت تأييدا هائلا وخاصة من أبناء جيلي. . .

وداد لابنتها "ريم": تعالي شوفي مقالة كنت كتبتها. "اليوم ١٥ مايو ١٩٦٤يتوج نضال شعبنا من أجل العزة.لقد تحققت أحلامنا وأعلن "جمال عبد الناصر" عند تحويل مجري

النيل: "هذا هو التعبير الحي للعالم عن ارادتنا، عن تمسككم بالعمل والتضحية."

... ".. لدينا في هذا اليوم ١٥ مايو ١٩٦٤ ذكرى أخرى لا تمحى. يوم ١٥ مايو ١٩٤٨الذي ضاعت فيه "فلسطين". واذا كان بناء السد العالي هو انتصار عظيم للإرادة فان انتصارنا الحقيقي سيكون هو استعادة "فلسطين"." شوفي كتابتي كانت حلوة ازاي...

"صافينازكاظم "في ثوب التخرج من الجامعة الأمريكية.

صافي : في ذلك الوقت كنت أطوف بأوروبا مع أختي. قررنا أن نعمل "هيتشهايكنج". كانوا يسألوننا: هل لديكم ذلك في "مصر"؟ كنا نجيب : سيكون عندنا بعد السد. واحد سألنا : عندكم ثلج ؟ فأجابته أختي دون أن يطرف لهاجفن: بعد السد سيكون عندنا. ...هذه صورتي .. .. أحب هذه الحقيبة. شحنت كل أشيائي من "أمريكا" فيها. عشت هناك من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٦. لا أريد العودة هناك لأني لا أريد أن أفقد ذكرياتي الجميلة. كانت فترة رائعة. ليس فقط لأن "أمريكا" أعطتني بضع أشياء رائعة. كانت تجربة جميلة. تعلمت أشياء كثيرة هناك لكن أساسا كيف أكون أنا نفسي. وقتها ضربتني موجة التغريب. كانت قدوتنا هي المرأة الغربية ، الأمريكية أو الفرنسية ، أي واحدة غيرنا. اعتبرت نفسي كوزموبوليتانية. كان الناس يسألونني : لماذا لا ألبس مثلهم ؟ فأقول :مثل من؟ يقولون:"المصريات".أقول "لكني ألبس مثلهم". فيقولون لأ : المصريات محجبات. في البداية كنت أتحداهم : لا. نحن نرتدي المايوه البيكيني. ويمكن أن نقل أدبنا مثلكم تماما. نحن متمدنات. بعضنا يشربن الكحول .. . البعض يخرجن عاريات. نحن ناس كويسين. مثلكم تماما. ...كنت معجبة ب"بيكيت" و"يونسكو" و"ت.اس. اليوت". وما زلت. لكن من منظوري الذي يختلف عن الآخرين. لقد

جعلتهم بتوعي أنا. اكتشفت أنه في عمق كل ثقافة بشرية ، كقاعدة ، طالما لم يكن هناك تمييز أو تعصب، فإن القيم واحدة .... العدالة ، الحرية ، التسامح ، الكرامة الإنسانية.

قصيدة "صلاح جاهين".

....

الطريق إلى قرية "كمشيش".

شاهندة : في ١٩٦١ صودرت أراضي كبار الملاك وتغير كل شئ بالنسبة للفلاحين وعمال التراحيل. كان أمرا لا يصدق . لكن الثمن كان موت "صلاح"، زوجي ، هنا استشهد في ٣٠ أبريل ١٩٦٦. شوفوا ازاي الطريق ضيق. كان الإقطاعيون راقدين له. بين ١٩٥٢ و١٩٦١ حاولوا اغتياله عدة مرات ونجحوا في ١٩٦٦. خرج رجل من منزل وأطلق الرصاص على رأسه... كنت في "الأسكندرية". وكنت قد ولدت ابنتي. وكان المفروض أن يلحق بي "صلاح". وبالليل طرق بابي. كان ابن عمي وقال برقة : الإقطاعيون أطلقوا الرصاص على "صلاح" وهو في المستشفى. صحت على الفور: "صلاح" مات. "صلاح"مات. وجدت نفسي أجري في الشوارع في الثانية صباحا ....في الفجرانطلقنا إلى بلدة "شبين". على باب المنزل كان الجميع يرتدون الأسود. أدركت أن "صلاح" مات. عمتي ، أمه ، كانت مع قائد الشرطة. قالت : إنهم لا يريدون دفنه في "كمشيش". وكان لا بد أن أتخذ قرارا. قلت : "لقد مات في "كمشيش" وسوف يدفن هنا.حاولوا تمنعوني". أخذنا سيارة وذهبنا إلى "كمشيش". وأحضروا "صلاح". حملت نعشه على كتفي .. وبدأت أنشد : ""صلاح" انت ما متش هدر .. سنواصل الكفاح". كانت القرية كلها هنا ك. ..ثم أغمى على وعندما أفقت رأيت الأطفال الصغار الذين سيصيرون رجالا، وقالوا لي: "لا تبكي يا "شاهندة" .. سوف ننتقم لك"." لا تبكي يا "شاهندة"!" لن أنسى ذلك أبدا.

وداد : في ذلك اليوم أثبتت "شاهندة" أن نساء "مصر" قادرات على مواجهة كل تحدي. لاشئ قادر على إيقافهن.تلك اللحظات الصعبة أقامت روابط متينة بيننا. هذه صورة أعتز بها. تبين أن علاقتي ب"شاهندة" قديمة. كتبت عليها "إلى حبيبتي "وداد" ، أستاذتي ومعلمتي، أمي وأختي وقلبي العزيز، "شاهندة مقلد" ". ... صورة أخري نسيتها من مظاهرة النساء. هل كنت هناك ؟

....

وداد: .. لقد عشت هذه الأحداث. على الأقل أنا شاهدة على ما حدث. في التاريخ هناك الإيجابي والسلبي والأخطاء. الناس لا تظهر فجأة من العدم. هناك استمرار بين الأجيال....

أمينة: ... سافرت إلى "فرنسا" في الستينيات وعشت هناك. كنت في اتحاد الطلاب العرب... وسمعنا عن مقتل زوج "شاهندة" . كان مصرع"صلاح حسين"اشارة للكفاح من أجل تجذير الثورة والمطالبة بإصلاح زراعي له أسنان حقيقية. في النهاية زهقت من الحياة في"فرنسا" .كانت لدي وظيفة في معهد البحوث الوطنية الفرنسي ومرتب جيد ومسكن جيد. .لكن حياتي بدت بلا معنى. وفي يوم أدركت أن معناها هنا في "مصر"في بلدي. لم أخض هذا النضال لأعيش في الخارج...

......

صافي : .. تعرفت على "أمينة" في السجن. قابلت "شاهندة" و"وداد" في ١٩٦٦ مع "كمشيش". ومن ساعتها ونحن على خلاف. إذا كنت مستمرة في العلاقة معهن فلأن دمهن خفيف. ولأن لديهن قيم إنسانية تجبرك على أن تغفري لهن كل شئ. هناك ناس أشاركهم أفكارهم لكننا لانصل إلى نفس-

النتائج. أجدهم مملين. أو يتصرفون أحيانا بطريقة لا تعكس فكريتنا المشتركة. بينما أن سلوكياتي التي تنبع من التزامي بالإسلام أراها لدي "وداد" و"شاهندة" و"أمينة". أعمالهم تنبع من طريقتهم في التفكير. إذن لدينا كثير من الأمور المشتركة. أشعر أننا رفيقات سلاح. لاعنف. الكمان بدلا من العنف. أشعر أننا نقوم بنفس النضال. ونضالنا يؤدي إلى نفس الطريق.

شاهندة: عندما قابلت أمينة في ١٩٨١ كنا جميعا في زنزانة واحدة. شيوعيات على ناصريات وقبطيات على مسلمات فضلا عن نساء لم يكن لديهن انتماء حزبي أوسياسي. كانت هذه طريقة "السادات" في أن يقول : حأوريكم ازاي أنا جدع. أقدر أسجن أي حد ميعجبنيش من أي اتجاه سياسي أو عمر وأفضل في الحكم. كانت "أمينة" ظريفة للغاية. كانت أول مرة لها في السجن. وكنت أنا و"نوال السعداوي"نرتعب من الصراصير. إذا رأيناها نصرخ: "صرصار!" وعندما يدخل العنبر رجل تصرخ النساء: راجل. هؤلاء كن المحجبات. وعندما كانت أمينة تسمع صراخا تبتسم وتتساءل في هدوء: راجل ولا صرصار ؟!

....

مشاهد من حرب الأيام الستة ١٩٦٧.

صافي: ...أنا أحبه، بالرغم من كل شئ أحبه...تصوروا أني أقود باصا وأقول: لا أحد يتحرك. سأقود وحدي. وتقولين : "دعني أمسح لك الشبورة". فأقول لك : "خليكي بعيد". لقد قادنا مباشرة إلى النهر ثم قال : "عفوا. إنها غلطتي".

.....

جنازة "جمال عبد الناصر".

صــافي : قضينا الليلة معا. كان النعش سيمر من أمام منزلي. جاءت "وداد" و"شاهندة". عندما مر النعش كنا في الشرفة. كان يمكن أن تسقط. "شاهندة "سمينة. ارتمت على السور. شدت شعرها وهي تصرخ وتصيح : ها هو! جذبتها قائلة : "البلكونة حتقع ! عاوزة أشوفه أنا كمان". الجموع كانت ملأت الشارع. صاحت "شاهندة": أنا رايحة. قلت: وأنا كمان. مشينا كتفالكتف. غنينا نفسْ الأغنية وشعرنا بنفس الألم. الألم لفقدانه ... خفنا على "مصر". كما لو أن ابننا الكبير باع مجوهراتنا وأرضنا ورهن منزلنا ثم مات فجأة تاركا إيانا معدمين.

......

صــافي :...وجود ذاكرة قوية هو مرض و كونك ثاقبة النظرة مرض والرؤية التامة مرض وإدراكك لما يحيط بك مرض.النظام العالمي الجديد يطالبنا أن نشفي أنفسنا من هذه الأمراض ونصبح عميانا صما بكما لكن يسمح لنا بالهلوسة. لهذا قلت لطبيبي أني أعاني من وفرة الصحة. أعطاني قرصالمكافحة الصحة الوافرة يسمي مضاد الأكتئاب. أخذته. كل شئ أصبح على ما يرام. العالم ملخبط. نحن سكان العشوائيات بين الأمم. نُضرب وتُقتلع عيوننا ونقول مرسي. عندما تغشاني نوبة من الصحة الوفيرة أذهب إلى فراشي وآخذ قرصا وأحدق في السقف وأنسى ما يجري في العالم. فما يسميه الناس بالنظام العالمي الجديد لم يبلغ بعد غرفتي. لكن اذا أراد أن يأتي فمرحبا. يجب فقط أن يطرق الباب لمدة خمس دقائق وعندها سأفتح. ..... التبعية ليست فقط للدول العظمى وإنما أيضا ل"السعودية" والدول البترولية، والهجرة الواسعة. لكن الناس لا يريدون المقاومة. يقولون : عشان إيه؟ وأدى هذا كله إلى موقف جديد من الحياة. فردية شرسة. بعدي والطوفان. طالما أنا "أوكي". شعور قوي بعدم الحيلة. الناس لا

ترى النتيجة. إيماني يستند إلى اختيار أخلاقي، أكثر من التفاؤل الحقيقي. المستقبل يبدولي شديد الظلمة.

...

مجموعة عمال زراعيين مهاجرين في غرفة أحدهم ب"كمشيش".

أحــدهم : .....كان الوضع هنا ميئوسا منه ...ذهبت إلى "السعودية" كعامل زراعي. بعقد. كانت صدمة هائلة. . . . . كان الأمر مرعبا أن وجدت نفسي في العصور المظلمة ، غير قادر على أن أقول لا أو على التعبير عن نفسي. النظام هناك استبدادي مطلق. كل ما خرجت به هو البيت. اليوم نشهد التراجع عن الإصلاح الزراعي. بعد ١٨ شهرا سيكون هناك قانون يرغم الفلاحين على التخلي عن أراضيهم. .....سنرفض. مهما حدث ... ..البعض يقول إن الإسلام هو الحل. آخرون يقولون إن القطن لا ينمو لأننا لا نصلي. لكن الله يقول :"لا يغير الله ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم"... ...في رأي أن المشكلة هي في وهم العقود الماضية. الرأسمالية لم تحل شيئا ولا الاشتراكية. أو الإسلام كما يريدون أن يطبقونه. الإسلام صالح لكل زمان ومكان. لكن ما نواجهه هوخراب وفقدان اتجاه . .

أمــينة : نحن نمر بفترة اضطراب ، وتضخم في المشاعرالدينية. المسيحيون أكثرحماسا، اليهود أكثر تعصبا،المسلمون أكثر تطرفا. الناس في كل مكان يتشبثون بالدين كعقيدة ثابتة. فهو يأتي من الله. بينما القيم الدنيوية معرضة للفشل وللتساؤل. التدين يصبح حماية وإلا تكون الحياة بلا معنى. هناك أيضا من المشاكل التي نواجهها إنتشار الظلامية. يعود الناس من "السعودية" أو "الكويت" بأموال وفيرة ومعها حجاب أولحية. و"يجب ألا تفعل هذا أو ذاك". ليس لهذا علاقة بإسلام ذكي متنوركإسلام "صافيناز".

وفي رأي أن هذه الظلامية قد تكون أكثر خطرا من العنف الجسدي ، من الإرهابين. ....الإسلاميون يعيشون بين الناس. يساعدونهم. وأقاموا نظاما موازيا للرعاية الصحية والتعليم. وهذا النظام يمثل خطرا لأنه قد يلهب الظلامية .. لكنهم قريبون من الشعب على العكس منا غالبا.

شاهندة : تعلمون أني و"وداد" أصدقاء. وهي مسيحية. عندما وقعت الفتنة الطائفية شعرنا أنها مدبرة. جهة ما تريد إحداث هذا الانقسام. استيقظنا يوما غير مصدقين. كما لو أن سيفا مزقني شطرين. الكنائس والمسيحيون يتعرضون للهجوم. شئ بشع. أول مرة يحدث في تاريخنا وأتمنى ألا يتكرر. أنا و"وداد" شخص واحد. ولا أتصور انقساما مثل هذا بين المسيحيين والمسلمين في "مصر" . ...

....

وداد : في رأي أن الدولة والدين يجب أن ينفصلا. الدين أمر خاص بيني وبين الله. ليس لذلك علاقة بالدولة وقوانينها.

صوت المخرجة: هل هذه نقطة خلاف بينك وبين "صافي"؟

وداد : فعلا . هو خلاف أساسي. "صافي" كمفكرة إسلامية .. تريد دولة إسلامية.

....

شاهندة : لا أجد خطاب "صافي". بحثت في كل مكان. كتبت لي أنها قررت أن تقطع علاقتها بصديقاتها اللاتي لايرتدين الحجاب. أجبتها قائلة أني لن أغضب منها لكني لن أرتدي الحجاب . ...الله إله الرحمة. أنا مؤمنة لكن ملابسي أمر يخصني وحدي.

صافي : ...نحن نقول " لا إله إلا الله "محمد" رسول الله. الله هو الأكبر. أكبر منكم جميعا..أكبر من "أمريكا" والنظام

العالمي الجديد الذي يسعى إلى تجريدنا من كل أثر لإنسانيتنا ... العالم كله سيتعلم شريعة الله التي وجدت دائما. أين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرومان ؟ أين "أفلاطون" و"سقراط". راحوا. الله هو الواحد والدايم. الأول والأخير.

أمينة : أربعتنا جميعا نؤيد العدالة الاجتماعية ومساواة أكبر والقضاء على المشاكل الصارخة. نحن نريد عدالة أكبر وعودة إلى أخلاقيات معينة. لكن هناك فرق بين علمانية بعضنا والمنظور الديني للبعض الآخر.

صافي : الذئب والحمل !............الغرب هو القوة المسيطرة أيديولوجيا وثقافيا. إذا ظنوا أني عدو لأني لا أريد أن أخضع لهم ، لا بأس. إنهم أعدائي أيضا. ليذهبوا إلى الجحيم.

أمينة : أنا أري الأمور بطريقة مختلفة. النزاع مع الغرب ليس أيديولوجيا أو روحيا. إنه سياسة. نحن نعرف جيدا إنه إذا استولت قوة إسلامية على السلطة وعملت لصالح الغرب فإن الغرب سيحتضنها ..

شاهندة : المؤسسات الاقتصادية الدولية والشركات المتعددة القوميات تحتاج لخلق عدو ذريعة لإثارة الحروب وبيع الأسلحة...

....

صافي : أتذكر مرة في ١٩٨١، قبل أن نذهب إلى السجن. جننتني "شاهندة". بتقدم خلطبيطة من كل الأفكار غير المترابطة. ثم تستشهد بالقرآن ...عندها جانب فني متطور جدا. تحب أن تسمع رنين كلماتها.

شاهندة : من منا يحب إلقاء الخطب؟ كلكن شاهدات.....

أمينة : أنا نشأت في بيت ذي ثقافة أوروبية. في السنة الماضية مررت بأوقات صعبة. على المستوى الشخصي. وجدت

نفسي أبتهل بالدعاء. لكن ذلك تم في إطار علاقة شخصية بالله. ليس في إطار ديانة ما ....تحدثت إلى الله. لم نكن نصلي في بيتنا. لم أتعلم أبدا.

صافي : .."أمينة" لم تذق الإسلام ..المسكينة حرمت من ذلك. قالت لي في السجن إنها قرأت "القرآن" بالفرنسية. أسعدني هذا جدا. في أعماقها هي إنسانة جيدة. وكلما صليت أطلب من الله أن يقوي الإسلام ب"أمينة". أتمني أن تلتزم بالإسلام. لكنها حرة. أنا لا أرغمها. هل حاولت مرة ؟

أمينة : لا. على العكس. ما حدث لي هو أني اخترت الاشتراكية والماركسية. كان ذلك في ٣ مارس ١٩٥٤.. لم أنم تلك الليلة. شعرت أني أختار نظاما للعدالة الاجتماعية. ولم أتخل عنه أبدا. تسمعين: "الاتحاد السوفييتي فشل". هذا لا يغير شيئا. قضية العدالة موجودة. ولن أقبل أبدا الظلم الاجتماعي.

... .

صافي : ...يوما ما يا "أمينة" بنت "خديجة" التي سميت على اسم زوجة النبي .. أدعو الله أن يستجيب لصلواتي. ليس من الضروري أن تصبحي مسلمة. لكن إذا كنت مع العدل والمساواة والتوحيد ...هذه أرض مشتركة، قيم أخلاقيات كبرى.

وداد : أنا أوافق جوهريا على كل القيم التي ذكرتها "صافي". أنا مسيحية وجذوري مسيحية. عندما كبرت اكتشفت الاشتراكية. اختياري هذا الطريق نبع من عقيدتي المسيحية. أما عن خلافي مع "صافي" فهو أنها تسعى إلى التطبيق الكامل للشريعة الإسلامية. نسمع دائما "الإسلام هو الحل". وأنا كمسيحية يمكنني أن أقول لك إن المسيحية تحقق كل آمالي. لكني لا أعتقد أن الدولة يجب أن تكون إسلامية أو

مسيحية. سأحارب أي نظام يسعي إلى فرض شئ بالقوة مهما كان هذا الشئ. وأيا كانت رايته. إذا رفعوا شعارا يقول شيئا ثم ناصروا الإقطاع بينما يقولون إنهم ماركسيون سأحاربهم. أولو قالوا إنهم دينيون سواء مسلمين أو مسيحين. بالنسبة لي هذا جوهري. هذا رأي.

....

صافي : أنا لا أعبر عن رأي. أنا أقول ما هو الإسلام. وفي الإسلام لا يوجد مايسمى بالرأي. خلف راية الإسلام هناك ملايين الناس.

أمينة : هذا غير صحيح. خلف رايته رأسمالية وإقطاع.

صافي : إسلام بلا نظام إسلامي خطأ. إقامة رأسمالية أو اشتراكية ووصفها بالإسلام خطأ. الإسلام يجب أن يكون إسلامي.

....

شاهندة : أنا أعرف ديني. أعرفه. لكن ماذا يعني هذا الشعاربالضبط؟ هذا الرجل سيحكمني. لن يكتفي بالوعظ. يجب أن يذكر برنامجه.

صافي : يعني الشعار هو "يا عمال العالم اتحدوا !"؟

شاهندة : .. يجب أن يحدد :"سوف نؤمم وهلمجرا" ...

... .

شاهندة : إنها أزمة اجتماعية ممتدة. ١٩٥٢ لم تحل شيئا أو كثيرا. بالعكس ساءت الأمور. الحياة صعبة في بلد عالم ثالث. ربما هي صعبة في كل مكان. الفقر المدقع إلى جانب الثراء الفاضح. ثراء الأغنياء الجدد في مصر الآن. الناس الذين اغتنوا من العقارات وغيرها. ليس عندنا رأسمالية منتجة. .... لابد أن يتغير هذا في يوم ما. ربما آخرون سيقومون بذلك. لأن هذا صعب على جيلي. ربما لم نكن

قادرين وسوف يستطيع ذلك غيرنا. لم لا؟

في منزل "شاهندة" الريفي الجديد. الجميع بالإضافة إلى "نوارة" ابنة "صافي" و "ريم" ابنة "وداد" و "بسمة" ابنة "شاهندة".

ريم: الحديث كثيرا عن الماضي يثير أعصابي. أحبه. لكنه ممل...

شاهندة: ....أنا واثقة أنه رغم ظلمة وصعوبة هذه الأيام التي تثير في أبناء جيلنا الأسى والاكتئاب والمذلة فالمستقبل سيكون أجمل. فلايمكن أن يستمر الأمر هكذا.

صافي: أري الموت قادما. وقريبا جدا. هذا شئ عظيم. أنا سعيدة بذلك. خلال عشر سنوات أو عشرين سنة على الأقصى سأموت وأستريح. أقسم أني فكرت في ذلك. إذا تبقت لي خمس دقائق ماذا سأقول لابنتي "نوارة"؟ سأقول لها: كوني سعيدة. الموت ميلاد جديد في الحياة التالية والخلود. سيكون الأمر أفضل بكثير من هنا. أرجوك أن تعتبري موتي رابطة جديدة بينك وبين العالم الآخر. وبعدخمسين أو سبعين سنة ستنضمين إليّ. سنكون معا وسعداء. لن تفيض دورات المياه ولن تنسد الأحواض....

البنات يتحدثن عن مشاكلهن مع أمهاتهن. ابنة "صافي" محجبة كأمها، وصحفية مثلها، وابنة "شاهندة" تشكو من أن أمها تمنعها من أن تمتهن الرقص. ترقص بينما يغني الجميع:

"ياشاهندة وخبريني
على اللي قتل ياسين."

ومع تزايد ايقاع الرقصة ينظر الجميع إلي "وداد" ويغنين:

"علي حس وداد ..قلبي
وأنا أقول للزين ...سلامات".

٣٣ * *

عندما عاد الضوء وجدتني قابضابشدة على يد "شرلي أطلقت سراحها ونهضت واقفا ثم استدرت مواجها طلبتي.

تعلقت عيناي بعني "فادية" اللتين اغرورقتا بالدموع فأشحت بوجهي بعيدا.

قلت: سنناقش الفيلم في الدرس القادم.

أسرع الطلاب بالانصراف وبقيت إلى جوار "شرلي" حتى استخرجت الشريط من الجهاز وأغلقته. وضعت معطفي على كتفي ثم غادرنا القاعة بخطوات سريعة وصعدنا الدرج الخلفي إلى مكتبي.

طرقت الباب ثم دفعته. كانت الغرفة خالية ومضاءة وهناك كتاب فوق مكتب "استر"مما يدل على أنها في المبنى. دخلت و"شرلي" في أعقابي ثم استدرت وأغلقت الباب.

لا أعرف من الذي بادر لكننا ألفينا تفسينا في أحضان بعضنا البعض. زنقتها في الزاوية الفاصلة بين الباب والحائط. أعطتني شفتين رطبتين ثم تهاوت بين أحضاني ومضينا نتحاك بعنف كالمراهقين.

تسارع لهاثنا وفجأة تحرك مصراع الباب. انفصلنا وهي تتأملني بعينين زائغتين. ابتعدت عن الباب فانفرج كاشفا عن "إستر". لوحت لها بيدي واندفعت خارجا و"شرلي"في أعقابي.

اتجهنا إلى الدرج وهبطنا إلى المدخل. ارتديت معطفي وطاقيتي وأنا أتطلع إلى الخارج. تبينت عددا من الشبان والشابات يقفون في الظلام حاملين لافتات تهدد باضراب المساعدين الذين نلقبهم في "مصر"بالمعيدين.

قالت ونحن نتجه إلى الجاراج الذي ركنت فيه سيارتها:

الواحد منهم يأخذ ألف دولار في الشهر أو أكثر قليلا بينما يقوم بكل عمل الأستاذ. تحضير المحاضرات وإلقائها في أغلب الأحيان بل وعقد الامتحانات وتصحيح أوراقها.

استقلينا المصعد مع عدد من الطلبة إلى الطابق الثالث وغادروه معنا. ركبنا السيارة ووجدت صعوبة في الجلوس بسبب أسلاك المقعد البارزة.

قالت عندما صرنا في الشارع: أريد أن أتلفن.

توقفتْ أمام جهاز تليفون مثبت في حائط مبنى وبحثت في كيسها عن بطاقة تليفون. ناولتها بطاقة جديدة كنت اشتريتها بالأمس ولم أستعملها. أخذتها بيد باردة كالثلج وغادرت السيارة.

تكلمت ثم عادت. قالت : هل يمكن أن أحتفظ بالبطاقة.

قلت : طبعا.

ها قد بدأنا.

أخرجت من كيسها عشرين دولارا ناولتني إياها. رفضت أن آخذها قائلا إني لن أحتاجها على أية حال.

أصرت أن تدفع ورفضت أن تحرك السيارة قبل أن آخذ النقود فأذعنت شاعرا بالارتياح.

قالت : أين تريد أن تذهب؟

قلت: سنذهب سويا إلى منزلي.

هزت رأسها: لايمكن. لا أستطيع.

قادت السيارة في اتجاه منزلي ثم أردفت: لن أراك إلا يوم الثلاثاء عندما ترتدي ثوب الأستاذ.

قلت :ولماذا لا أراك غدا؟

قالت : أوكي.

أنزلتني أمام المنزل وانصرفت بعد أن أعطتني شفتين باردتين. ولجت مسكني وأشعلت النور. ألقيت معطفي

وطاقيتي على أول مقعد وتنقلت بين الصالة والمخدع والمطبخ. فتحت باب البراد وأغلقته.

عدت إلى الصالة فارتديت معطفي من جديد وأخرجت علبة سجائري ومضيت إلى المخدع. أزحت مصراع باب الحديقة وخرجت إليها دون أن أشعل الضوء الخارجي. خطوت في الظلام حتى الأريكة الحديدية. تحسستها بيدي حتى تأكدت من أنها غير مبللة ثم جلست.

أشعلت سيجارة وألقيت نظرة على مسكن جيراني. كانت النافذة القصية مظلمة على عكس الأخرى المجاورة لغرفة "السولاريوم". عرفت ذلك من فرجة في الستارة المسدلة. وكنت قد لمحت بها مرة أريكة إلى اليسار تواجه جهازا للتليفزيون فوق حامل خشبي.

أطفأت عقب سيجارتي في المنفضة وخطوت نحو مخدعي. حانت مني نظرة إلى النافذة المجاورة فشاهدت من فرجة الستارة امرأة مستلقية فوق الأريكة على جانبها الأيمن في مواجهة التليفزيون وقد اختفى رأسها تحت حافة النافذة. ورأيتها تبسط بطانية فوقها كأنما تنوي القيام بإغفاءة قصيرة.

ولجت المخدع وأغلقت مصراعه خلفي. مضيت إلى الصالة وفتحت الكومبيوتر. وجدت رسالة من "شادويك "تسألني عما إذا كنت قرأت "اعلان سيينا"الذي نشرته "نيويورك تايمز" قبل عيد الشكر. هممت باغلاق البريد عندما دق جرس الكومبيوتر معلنا وصول رسالة جديدة. كانت من"إكس"، ونصها كما يلي:

"أعددت طبقا من المعكرونة وصلصة منزلية من الأعشاب دون أن أستخدم الميكروويف في تسخين وجبة جاهزة. جلست إلى المائدة أشاهد التليفزيون. مسحت الصلصة بالخبز ووضعت الأواني في غسالة الأطباق وتكورت

فوق الأريكة لكن قلبي كان يدق. نهضت ودخلت الحمام. ملأت الحوض ووضعت به كثيرا من الرغاوي. خلعت ملابسي وغصت في المياه الساخنة. دعكت جسدي بالصابون في بطء ثم تناولت مقصا من على الرف. وبيد مرتعشة أخذت أقص خصلات الشعربين فخذي حتى صنعت مثلثا وأنا أفكر فيك طول الوقت. تأملت نفسي في المرآة وتمنيت لو كنت أنا أنت وأنك تراني هكذا. شعرت أني كنت طول الوقت في انتظار هذه اللحظة. لحظة العرض. لن يصفق لي أحد لكن مكافأتي ستكون وفرة من المتع واللذات. ولن أحصل على هذه المتع إلا إذا نجحت في اشعال كل رغبة لديك في".

قرأت الرسالة عدة مرات. ولاحظت تعرجا في سطورها. أغلقت عيني وفتحتهما لكن التعرج لم يختف. لاحظت أيضا أن الشوائب التي اكتشفتها أخيرا خلف حدقتي تزايدت.

فصلت التليفون وأغلقت الجهازوأزحت جانبا صورة الفتاتين الوالهتين ثم حملت علبة سجائري وخرجت إلى الحديقة. خطوت نحو ركن التدخين وحانت مني نظرة إلى نافذة جيراني. كانت المرأة ما تزال فوق الأريكة لكنها كانت عارية تماما ومنتصبة في مواجهتي وقد انسدل شعرها على وجهها وأخفى ملامحه. وأدركت أنها تعتلي شخصا ما وتتحرك فوقه.

تسمرت في مكاني وقد تسارعت دقات قلبي. تذكرت سنوات مراهقتي التي سيطرت عليها أمنية مشاهدة لحظة كهذه. وها هي تتحقق في نهاية العمربعد أن لم يعد الأمر سرا أو ذا بال.

كانت المرأة في مقتبل الشباب، بجسد أبيض شاحب، في لون الجلد المسلوخ، وثديين ممتلئين ومتماسكين. رفعت رأسها فجأة إلى أعلى. فابتعدت في الحال. تأكدت أنها جارتي التي رأيتها بالليل من النافذة الأمامية مع رفيقها. هل هي

معه الآن؟ وإذا كان هذا صحيحا فأين الموسيقى التصويرية؟

عدت أتلصص، متمعنا المشهد ومحاولا تحليله: من الشخص الآخر؟ رجل أم إمرأة؟ وجارتي، ما الذي جاء بها قبل موعد العودة من العمل اليومي المعتاد. ربما لديها اليوم عطلة أولزمت البيت لسبب ما وكانت مستلقية ثم جاءالشخص الآخر وبدأت مداعبة أدت إلى الموقف الراهن دون فرصة لتشغيل الموسيقى. هذا لو كان بالفعل رفيقها الذي يسكن معها.

كنت مستغرقا في التحليل حتى فاتني الانفعال بما يجري.

مشكلتي الأزلية.

ظهرت بضع تفاصيل من الشخص الآخر. ركبتان انثنتا إلى أعلى وجانب من ساق ناعمة. قد تكون لرجل أوامرأة. اليد أيضا التي ارتفعت تتحسس ثديهاالأيمن. اليد الأخرى تهتم بالثدي الثاني. اليدان تتحركان في رقة وخفة فوق ظهرها وقد انحنت فوق جسد رفيقها أورفيقتها. ليس هناك عنف في هذه العلاقة. أولعلهما في بدايتها ولم يكتشفا بعد الدروب الحويطة. اليدان مثلا لا تتوقفان عند مؤخرتها كثيرا.

غمرني يقين بأن الشخص الآخر رجل. واحد في مقتبل الشباب ذوجسد عصري بلا شعر. وجدتني منجذبا إلى حركة يديه. ثم أدركت السبب. لم يكن فيها أثر لحيوية التورط الانفعالي المشبوب. فهل سبقها ويقوم الآن برد الدين؟

مردود لابأس به للطرفين، حيث يلتذ كل منهما في نهاية الأمر. أم علامةعلى شرخ ما في العلاقة؟ هل هذا سبب استغراقها وقتا طويلا لبلوغ لذتها؟ لم تكن "جمالات"تحتاج أكثر من دقائق. "عايدة" أيضا. أم أنني أتخيل أنها تجد صعوبة

في ذلك؟ وربما كنت أمام مجرد تمهيد لسهرة كاملة، الجولة الأولى في عدة جولات.

غيرت المرأة إيقاعها عدة مرات ثم هوت برأسها فوقه. فقدت توازنها؟ أوعلى وشك الإلتذاذ؟ أوتلتمس شفتيه في لحظتها؟ أم تقبله لتجلب هذه اللحظة؟

خطر ببالي أنها طوال ذلك الوقت لم تلق بنظرة إلى النافذة المكشوفة لأي ناظر. هل تعودت ألا تر أحدا بسبب الزجاج العصري العاكس للضوء بالنهار، والستائرالمسدلة عليهابالليل؟ أو أن ما يحدث تم بشكل مفاجئ وعلى غير توقع فلم تنتبه إلى الأمر؟ أولعل أحدهما أوالاثنان يرغبان، عن وعي أولا وعي، في مشاركة من مشاهد؟ في أن يراهما أحد؟

الدروب الحويطة مرة أخرى.

اختفى رأسها أسفل حافةالنافذة. لكن يديه ظلتا تتحسسان ذراعيها وظهرها وعنقها:ارشادات كتب الحب؟ أم استجابة لطلب منها؟ أم أن هناك مشاركة حقيقية وعاطفة جياشة من جانبه رغم الأداء غيرالانفعالي الذي قدمه؟ أم لعله يحفزنفسه لجولة جديدة؟ أم الأمركله مجرد تخيلات من مراهق في الستين؟

ظلت مسترخية فوقه وهولا يكف عن تحسسها. ثم قام من تحتها برفق. وظهرالجزءالأعلى من جسده فتعرفت على رفيقها. ركع فوقها فثنت ركبتيها إلى أعلى، واحتوته بينهما.

حان دوره؟

رفعت يديها وداعبت وجهه في رقة. تعبير عقلاني دون انفعال العاطفة المشبوبة؟ امتنان لما حصلت عليه من لذة بواسطته؟ أم أنها ما زالت تحت تأثيرالجولة الأولى، شبعانة مروية، مفككة الأوصال؟

عدت في خفة إلى مخدعي فأطفأت نوره ثم خرجت إلى

الحديقة من جديد. وجدت المشهد قد تغير. فقد عادت المرأة تواجه النافذة وقد امتطت صدر رفيقها، قريبا من وجهه.

حميمية بالغة، أم خدمة جديدة؟

مللت المراقبة فاتجهت إلى ركن التدخين ووضعت سيجارتي في فمي. اكتشفت أني نسيت ولاعتي فعدت إدراجي. أشعلت النور وبحثت عن الولاعة حتى وجدتها ثم خرجت إلى الحديقة. التفتّ إلى النافذة فرأيت جارتي واقفة إلى جوار الأريكة وهي تسدل قميصا فوق رأسها. ثم اقتربت من النافذة وحدقت ناحيتي بوجه شاحب. وفي حركة عنيفة جذبت الستارة وأخفت الغرفة تماما عن ناظري.

رأتني؟

مضيت إلى الأريكة وأشعلت سيجارتي. هل ارتكبت عملا مشينا؟ هل سلوكي يمثل اقتحاما لخصوصيتهما؟ في هذا العصر الذي لا يخفى فيه شئ؟ وماذا أفعل لو اشتكت لأحد أواستوقفتني في الطريق وأهانتني أوعلى الأقل احتقرتني؟ هل أقول لها أن دافعي كان علميا بحتا؟ وحتى لو كان شبقيا فما هو الضرر الذي وقع؟

تطلعت إلى نافذتها عدة مرات. لكن الستارة ظلت مسدلة. وبعد قليل عادت إلى وضعها السابق. ولمحتها جالسة فوق الأريكة وما زالت في قميصها وقد ثنت ساقا عارية إلى أعلى وألقت بيدها فوق ركبتها وهي تتحدث في هدوء.

حديث ما بعد؟ مقارنة بتجربة سابقة لأحدهما أوكليهما معا، أوعن المستقبل؟ سنضع مائدة مربعة في هذا الركن، أوسنحتاج إلى مسكن أكبر من أجل الأطفال؟

لم يكن في كل هذا ما يعنيني فولجت مخدعي وجررت المصراع خلفي في رفق.

** ٣٤

دفعت باب البنك وولجت فسحة صغيرة محصنة انتشرت ماكينات النقود في جدرانها. اتجهت إلى باب مغلق في طرفها وضغطت زره الأخضر. أزال الباب ثم انفتح وولجت صالة التعاملات. حصلت على رقم ووقفت في طابور حلزوني حتى حل دوري. شرحت مشكلتي لفتاة هندية أسيوية فطلبت مني الانتقال إلى مكتب مجاور فوق مستوى أعلى.

استقبلني رجل أبيض بشوش في نهاية الخمسينيات، صفف شعره الفضي الناعم في عناية. قدمت له كشف حسابي الذي وصلني في الصباح وقلت إنه أغفل إضافة راتب الشهر الجديد.

ألقى نظرة على الكشف ثم كتب لي رقما على ورقة صغيرة وقال: اطلب هذا الرقم وقل لهم المشكلة.

قلت: أنا موجود الآن في البنك فلماذا أتصل به تليفونيا؟

ابتسم وقال: كل أعمالنا الآن تتم بالتليفون. التحويلات ونقل المدخرات من وعاء إلى آخر. كل شئ. وكله يتم أوتوماتيكيا في دقائق.

كان يتحدث بيسر ودعة. ولم يبد عليه أنه في عجلة للتخلص مني.

قلت: ماذا يفعل الموظفون إذن؟

هز كتفيه:

– لم تعد لهم ضرورة. ولهذا يجري الاستغناءعنهم بالجملة. إلا إذا قبلوا العمل بنصف الأجر السابق.

تذكرت أني قرأت كيف حققت البنوك التجارية الأمريكية أرباحا مقدارها ١٤ مليارا من الدولارات في الربع

الأول من العام. ذكرت الأمر له فبدت عليه الدهشة. تذكرت أيضا أمرا آخر.

قلت: هل صحيح أنكم ستندمجون مع بنك "أوف أميركا"؟

أجاب: صحيح.

قلت: قرأت أن الاندماج سيؤدي إلى التخلص من ربع العمالة في البنكين.

اتسعت ابتسامته فكشفت عن أسنان كاملة معتنى بها وقال: في الفروع النائية وليس في "سان فرنسيسكو". على العموم أنا أمامي عدة شهور على التقاعد ولن يمسني الاندماج في شئ.

تطلع إلى إطار مثبت في قائم علي ركن مكتبه يضم صورة لثلاثة أطفال في أعمار مختلفة. ولمحني أنظر إلى الصورة فقال: سأستمتع بحياتي وبصيد السمك مع أحفادي.

أشرت إلى التليفون فوق مكتبه وقلت: هل يمكنني أن أستخدمه.

بدا عليه الحرج وقال إنه مخصص لمكالمات العاملين فقط.

شكرته وعدت إلى منزلي القريب، مارا بحانوت الأثاث الذي ما زال عماله مضربين وواقفين أمامه بلافتاتهم. اتصلت برقم البنك وبعد عرض لأرقام الخطوط الداخلية ردت على فتاة. ذكرت لها المشكلة فطلبت رقم حسابي وطلبت مني أن أبعث إليهم بخطاب يتضمن شكواى وأضافت: سنضع المبلغ في حسابك اليوم إلى أن يتم التحقيق في الأمر.

كتبت الشكوى ووضعتها في مظروف ووضعته جانبا. ثم مضيت إلي مدخل المسكن حيث كومت الصحف القديمة. قلبت بين الأعداد الصادرة قبل عيد الشكرحتى عثرت على عدد "نيويورك تايمز".

وجدت الإعلان الذي ذكرته "شادويك"على صفحة كاملة

وتتصدره سطور ببنط عريض. مررت بعيني فوق السطور بسرعة: ... الأزمة التي وضعت الاقتصاد العالمي على حافة الانهيار لم تنته بعد. ... إنه النظام نفسه بنفس القيم. ..لن تكفي الإصلاحات السريعة لأن النظام خطأ من أساسه... نحن في حاجة إلى أصوات جديدة حول المائدة. الآن!(×)

(×) ذكر الإعلان الذي نشرته "نيويورك تايمز" في ٢٤ نوفمبر ١٩٩٨، أن موقعيه تنبأوا من زمن بأن العولمة الاقتصادية التي تسيطر عليها الشركات الكبرى... قد ألحقت انهيارات اقتصادية هائلة في بعض الأمم، وافتقاد الأمان في كافة الأمم، وأدت إلى زيادة البطالة والتوترات العرقية والعنصرية في كل الأقاليم.

وجاء به: "إن الحل الذي يقدمه قادة الدول الصناعية الغربية والمصرفيون ورؤساء الشركات الكبرى والاقتصاديون ، ليس إلا تكرارا للوصفات التي ثبت أثرها الكارثي ...إنهم الذين كانوا منذ شهور يشيدون ب "اندونيسيا"، "تايلاند" ، "كوريا الجنوبية" وبقية النمور الأسيوية على أنها ثمرة نجاح مخططاتهم.

أما عشرات الملايين الذين يعانون الآن من هذه التجربة فان حلول الخبراء لا تقدم لهم مخرجا. الكثير من هؤلاء الناس كانوا في السابق مكتفين ذاتيا في طعامهم وهم الآن معتمدين على الاقتصاد الكوني. ويجد كثيرون صعوبة في العودة إلى أنماط من المعيشة مثل الزراعة على النطاق المحلي ..لأن مزارعهم السابقة تحولت إلى شركات ضخمة للانتاج من أجل التصدير: سلع كمالية مثل البن والزهور والجمبري تصدَّر إلى الأمم الغنية. والنتيجة فقر وبطالة و جوع وتشريد.

... لا يمكن لنظام يعتمد نجاحه على توسع لا ينتهي للأسواق والمصادر والمستهلكين ويفشل في تحقيق المساواة الاجتماعية والحياة الكريمة لشعوب الكوكب ، أن يبقى طويلا. فمصيره الحتمي هو الاضطراب الاجتماعي و الانهيار الاقتصادي والأيكولوجي.

... إن الأمم التي احتفظت بسيطرتها علي حركة رأس المال أو فرضت عليها القيود قد حظت بدرجة عالية من الاستقرار وهي أكثر قدرة على التصرف بنجاح لمصلحة مصادرها وقواعدها الاقتصادية ولمصلحة شعوبها.

...يجب أن تكون الأولية لحقوق الانسان والعمال والديموقراطية والسيادة القومية والمساواة الاجتماعية".

وأسفل هذه السطور أربع صور بتعليقات صغيرة. الصورة الأولى ل"كلينتون" الذي وصف ب"البائع العالمي الأول لسياسات التجارة الحرة والاستثمار الفاشلة التي تسببت في الأزمة المالية الكونية". وجاورته صور "روبرت روبين"، وزير الخزانة الأمريكي، "ميشيل كامديسيوس"، مدير البنك الدولي، "ريناتو روجييرو"، مدير المنظمة التجارة العالمية، الذين وصفتهم الوثيقة بأنهم"يطالبون بحريات وقوة أكبر للمضاربين والشركات والبنوك الكونية".

بحثت عن الجهة المعلنة فوجدتها "المنصة الدولية عن العولمة" التي اجتمعت في مدينة "سيينا" الإيطالية في "سبتمبر"الماضي لوضع مشروع هذه الوثيقة. ثم جمعت عليه توقيعات عدة مئات من ممثلي منظمات غير حكومية في كافة أنحاء العالم الغربي بالإضافة إلى قلة من البلدان الأسيوية والأمريكية اللاتينية والأفريقية ليس بينها بلد عربي واحد.

فصلت الصفحة وطويتها ووضعتها بين أوراقي. ثم فتحت الكمبيوتر وراجعت النقاط التي سطرتها حول المؤتمر. تجنبت الدخول على الشبكة وتفقد بريدي ...إن الأمم التي احتفظت بسيطرتها على حركة رأس الإلكتروني. وعند الظهر تماما أخذت دواء أذني. وعندما وجدت الجومشمسا ارتديت سترتي المبطنة بالصوف، وتخليت عن الطاقية والمظلة، ووقفت في النافذة الأمامية.

وصلت سيارتها بعد قليل فخرجت إليها. تركت خطاب البنك فوق صندوق البريد الخارجي ودرت حول السيارة لأجلس بجوارها. وما أن اقتربت منها حتى بدر مني صفير إعجاب.

كانت قد تخلت عن بنطلون الجينز المألوف وارتدت سترة سوداء فوق بنطلون قطيفة من نفس اللون وحذاء بكعب مرتفع. قالت وأنا أجلس إلى جوارها وأبحث لعظمة أليتي عن ركن طري: اشتريت الطاقم كله اليوم. هل تعرف بكم السترة؟ بثمانين دولار. وعندما لم تظهر على علامات الدهشة أضافت: ثمنها الأصلي ٥٠٠ دولار.

انطلقت بالسيارة في اتجاه وسط المدينة وهي تقول: نحن ننتظر هذه الفرصة طول العام. فالشركات تجرى تخفيضات هائلة على منتجاتها لتتخلص منها قبل العام الجديد. ويصاب الجميع بحمى الشراء .هل تعرف الشعار؟ اشترحتى تقع. من الإعياء طبعا.

لمحت ماكينة نقود فطلبت منها أن تتوقف. خرجت إليها وضغطت الزر الذي يعطيني كشف حسابي فوجدت أن البنك أضاف إليه المبلغ الناقص.

حكيت لها القصة عند عودتي مبديا إعجابي بكفاءة الأداء. وقلت: لا أنسى مرة أردت شيئا من بنك في "مصر" فاستغرق مني الأمر أربع زيارات على مدى أسبوع. في المرة الأولى كان الكومبيوتر معطلا وفي الثانية غاب الموظف المختص وفي الثالثة جاء وتعطلت الطابعة وفي الرابعة جاء الموظف المختص واشتغل الكومبيوتر والطابعة لكن غاب المراجع.

انتقلنا من وسط المدينة ذي البنايات الفخمة إلى جنوب "ماركت". وعثرنا على مكان خال بجوار عداد فركنا السيارة. ثم قادتني إلى مقهي إيطالي. جلسنا إلى مائدة في ممر مسقوف يؤدى إلى دار للسينما. وكانت المائدة المجاورة محتلة بشابة شقراء بالغة البدانة ورجل أشقر يبدو ثملا أو مخدرا بينما تلعب قربهما طفلة صغيرة ذات ملامح أفروأمريكية خفيفة.

عرضت عليها أن نشرب بيرة فقالت إنها تبذل مجهودا خارقا لكى تخفض وزنها ولهذا امتنعت عن شرب البيرة التي تحبها. طلبت أنا"اسباجيتي" بالخرشوف والخضراوات وصلصة الطماطم والزيتون. واكتفت هي بطبق من السلاطة الخضراء.

قلت: عندما تحدثت في المحاضرة عن زيارتي للطبيب النفسي رأيتك تبتسمين بطريقة معينة.

ضحكت وقالت: لأني أنا أيضا آخذ"بروزاك". السنة الماضية وجدت نفسي أتصرف تصرفات غريبة. أتشاجر مع أهلي وأبكي. وأتأرجح بين أقصى حالات الفرح واليأس. أخذتني أمي إلى طبيبة نفسية. ترددت عليها أربع مرات ولم تكن تتحدث كثيرا فقط جملة أو اثنتين. وجهت إلى أسئلة شاملة عن حياتي الجنسية وقالت لي إني معقدة بسبب صورتي عن نفسي. ألفيتني أقول أشياء وأرى أمورا لم تكن تخطرببالي. وكنت أعود من اللقاء مدمرة. وفي النهاية أعطتني "بروزاك".

– تحسنت؟

ثبتت قطعة خيار في طرف الشوكة وتأملتها برهة ثم قالت: لا بأس.

قلت: والآثار الجانبية؟

– لم أشعر بشئ.

ابتسمت وأدركت هى مافي إجابتها من ازدواجية المعنى فاستغرقت في الضحك.

قالت: أنا غير مستعدة لأي جنس مع أحد غير"توم".

كانت قد انتهت من طبقها فأزاحته جانبا وأشارت إلى أن أقترب بوجهي وقبلتني في فمي قبلة عميقة. تطلعت حولي في حذر خوفامن أن يرانا أحد من الطلبة أو الأساتذة.

قلت :هذه القبلة بالطبع أخوية.

قالت : هذه مسألة مختلفة لأني أحبك.

تذكرنا سويا توصيف "كلينتون" لما جرى بينه وبين "مونيكا" وكيف أنه لا يعتبر ممارسة جنسية وضحكنا طويلا.

قالت : لا حديث للناس الآن غير الجنس الفمي والسيجار. قالت لي "فادية" إن كثيرمن المصريين يطلبون من مواقع الفتاوى على الشبكة الرأي في الجنس الفمي. هل هو حلال أم حرام. أحدهم قال إنه فعلها مرة ومازال ضميره يؤنبه.

تركتني لتتكلم في التليفون. وظهرفي مدخل الممر رجل في طاقم أسود من بلوفر وبنطلون جينز وكاب "جيفارا" الذي أكد ملامحه اللاتينية. وتبعته امرأة بيضاء في سنه أو تفوقه قليلا، بشعر أحمر اللون وعينين زرقاوين بهما نظرة قاسية ترتدي "جينز" أزرق ممزق عند الركبتين عليه آثار دهان الحوائط الأبيض، وبلوفر ثقيل أخضر فوق بلوزة نبيتية اللون.

وضع الرجل لفافة ملابس خلف عمود بعيدا عن عيون العاملين في المقهى. ثم اقترب مني وسألني عن المقعد الفارغ فقلت إنه مشغول. ابتعد وحمل مقعدا من مائدة أخرى إلى حيث جلست رفيقته فوق مقعد منعزل ضامة ذراعيها إلى صدرها من البرد.

خلع الرجل بلوفره الأسود كاشفا عن "تي شيرت" أخضر. نفض البلوفر في الهواء ثم وضعه في عناية على حافة المقعد وتحسس وشما كبيرا يزين ذراعه الأيسر، تكلف ما لا يقل عن ثمانين دولارا. قال شيئا لرفيقته ثم لمس فخذه ورأيت وشما كبيرا مماثلا فوق ذراعه اليمنى. كان متين البنية مفتول العضلات ولم أر أثرا لإبر الحقن في ذراعيه. وكانت أصابع إحدى يديه بارزة من قفازمن الصوف.

نهض واقفا واقترب مني موجها سؤال الشحاذين

التقليدي :هل يمكنك التخلي عن فكة؟

كانت له لحية قصيرة خفيفة وبشرة لوحتها الشمس. وقدرت عمره بالخامسة والثلاثين أو الأربعين. أعطيته نصف دولار فشكرني وأخرج فكة من جيبه. عدها ثم اتجه إلى داخل المقهي بمشية مختالة كأنه يرقص فهتفت به المرأة: لا.

غير طريقه وخرج إلى الشارع ثم عبره واختفى. عادبعد لحظات يحمل في يده صندوقا صغيرا للبيتزا فتهلل وجهها. أزال الغطاء وقسم البيتزا وأعطاها نصيبها في ورقة ووضع العلبة بنصيبه على المائدة. وأقبل الاثنان على الأكل في شراهة. وتطايرت بقعة مستردة وعلقت بحافة الكاب فخلعه ومسحها بأصبعه عدة مرات ثم أعادها إلى رأسه في عناية واستأنف الأكل.

عادت "شرلي" بعد أن عززت طلاء شفتيها ولحظت اتجاه نظراتي فشاركتني الفرجة.

فرغ الرجل والمرأة من الأكل وأشعلا سيجارتين دخناهما باستمتاع. ورأيته يخرج فرشاة من جيبه ويمشط شعره واستخرجت هي أيضا فرشاة حمراء من جيب بنطلونها. مشطت شعرها بعناية وتخللته بأصابعها وتبينت به كثيرا من اللون الأبيض ثم قالت شيئا لرفيقها فقام ومشى في اتجاه السينما. اقترب من عائلة وخاطب الأم فابتعدت في حذر وهي تجذب بناتها بعيدا. قدرت أنه طلب منها فكة.

علقت "شرلي": دورالقهوة.

عاد إلى مقعده وجلس دون أن يوجه كلمة إلى رفيقته وأقبل ينظف أظافره بطرف سلاكة أسنان خشبية.

حدثتها عن المشهد الذي رأيته في نافذة جيراني واستنتاجاتي. استمعت إليّ باهتمام دون أن تحول عينيها عن طبقي ثم قالت :

- أنت تعلق الكثير على المشاركة. ليس ذلك ضروريا.

أنا و"توم" مثلا يخدم كل منا الآخر حتى يلتذ. ومرات كثيرة لا يحدث لي "أورجازم" لكني أكون مستمتعة وراضية. وأحيانا لا تكون هناك مشاركة مطلقة من جانبي عندما يبدأ ألاعيبه.

تطلعت إليها مستفهما.

قالت : هو مغرم بالتمثيل من الصغر.

سألت وأنا أزيح طبقي الفارغ جانبا : مسرح أم سينما؟

ضحكت: لا. في الفراش. يتقمص أدوارا متباينة ويندمج فيها لدرجة التماهي التام حتى ينسى تماما شخصيته الأصلية وينسى أيضا من أنا.

دهشت : كيف يفعل ذلك؟

قالت : هناك برامج لذلك تغطي فترات تاريخية مختلفة بتفاصيل دقيقة عن الملابس والطعام والشراب وطريقة الكلام وشكل البيوت والشوارع. من أول فرسان القرون الوسطى ومعاركهم أورعاة البقر والهنود الحمر. هناك أيضا برامج للشخصيات التاريخية البارزة.

قلت : مذهل. كان يمكن أن نحاول شيئا كذلك في السمينار.

"أحمس" فوق عجلته يطارد الهكسوس بسهامه أو"بنيامين" في كنيسة الأسكندرية يحض على مقاومة"روما" أو "عرابي" في ميدان "عابدين" شاهرا سيفه في وجه الخديوي أو "عبد الناصر" فوق منبر الجامع الأزهر.

قالت: لقد سمع عنك وهو يود مقابلتك. سيكون هنا في عطلة رأس السنة. هذاإذا لم أذهب أنا إليه.

تطلعت إليها طويلا دون أن أعلق.

مرت من أمامنا فتاة بالغة البدانة ذات وجه ضاحك ومشية معتدة. تابعتها "شرلي" بنظرهافي أسى وقالت : سعيد هو الشخص الذي يرضى عن صورة جسمه.

مدت يدها إلى كيسها وأخذت تعبث به. وساد بيننا الصمت حتى تململت في جلستهافاقترحت الانصراف. دفعت الحساب وخرجنا إلى الطريق. أحطتها بذراعي وجذبتها في حضني فقالت :"شكري". لماذا تتعجل؟

كانت المرة الأولى التي تخاطبني فيهاباسمي مجردا. وبدا وقعه غريبا في أذني من غير لقب "البروفسور" أو "السيد".

وجدنا فتاتين في كيسي نوم على الرصيف بجوار السيارة. وجهتا التحية إلينافي بشاشة وهما تقضمان "البرجر". كانتا موفورتي الصحة وفي صحبتهما كلب وقطة.

تساءلت : مشردتان ؟

قالت : أو مغامرتان. ستبقيان في الشارع إلى أن تفرغ نقودهما أوتملان فتعودان إلى ماما وبابا. أو تقعان في شراك المخدرات فيتغيرطريقهما كلية.

ركبت السيارة فقالت:إلى أين؟

قلت : إلى منزلي. لم تريه بعد.

قادت السيارة في صمت إلى منزلي وتوقفت أمام الباب قائلة : انزل.

لم أدرك أنها وافقت فقلت في بلاهة: لماذا؟

انطلقت بالسيارة من جديد ودارت حول المربع حتي عدنا إلى المنزل.

قلت: أوكي. سأنزل.

تبعتني إلى الداخل وطفت بها أرجاء المسكن. ثم قدتها إلى المطبخ وانهمكت في اعداد اللبن للقهوة المركزة. وجلست هي فوق المقعد المرتفع تتصفح مجلدا عن تاريخ العالم.

أحضرت القهوة ففضلت أن تشربها بغير حليب.

انحنيت فوق الطاولة وقربت فمي من وجههاوقبلت شفتيها. كانتا طريتين مطواعتين.صعدت بشفتي فوق وجنتها وأنفها حتى أذنها فأغمضت عينيها.

قلت : حذار أن تضحكي.

قالت : يحدث ذلك إذا لمس "توم" أذني.

أضافت وهي تجذبني نحوها: رأيت مرة فيلما يصور إنسان الفضاء في صورة أذن ضخمة وعندما يلمسها أحد يرتمي منتشيا.

درت حول الطاولة فاستدارت وأحاطتني بساعديها ثم جذبتني إليها حتى اعتقلتني تماما بين فخذيها القويتين.

غمغمت: وحشتني يا كلبى.

كلبها؟

مرت ثوان قبل أن أتبين أن عبارتها كانت بالعربية.

ابتعدت عنها فبهتت.

قالت منزعجة: هل ارتكبت خطأ؟ قلت إني افتقدتك يا قلبي. أليست هذه هي الكلمات بالعربية؟

– وكيف عرفتها؟

قالت: من "دوريس". هل هناك شئ؟ عندما زارت "القاهرة" كان الشبان يقولون لها ذلك.

انشغلت في صب مزيد من القهوة فأحاطتني بذراعها. قبلت أذني فاستدرت وقبلتها في فمها. طلبت منها أن تعطيني لسانها ففعلت وحركته حركة هوجاء داخل فمي.ضغطت على كتفيها وهمست لها ألا تحركه. التقطته بفمي وامتصصته في روية.

إبتعدت عنها بعد برهة قائلا: طعمك جميل. بالأمس رأيت مطعما متخصصا في الزنجبيل. كل الأطباق منه. فلماذا لا يكون هناك واحد لرضابك؟

قالت : تقوم بدور الشيف وأقف أنا إلى جوارك.

– وتمر الأطباق أمامي فأمد أصبعي إلى فمك وأغمسه في رضابك ثم أضع لمسة في كل طبق.

نظرت إليها في عينيها وقلت: ويمكن التوسع في الفكرة. لها امكانيات كثيرة.

ظلت عيناها ملتحمتين بعيني بينما تضرج وجهها.

احتضنتها فاستقرنهداها على صدري. أغمضت عينيها والصقت فخذيها بفخذي ثم ابتعدت عندما لم تجد مني استجابة.

تلفتت تبحث عن كيسها وهي تقول: لابد أن أذهب. الوقت تأخر وأنت طلبت منا كمية قراءة كبيرة.

رافقتها حتي السيارة. استقرت في مقعدها ووضعت حزام الأمان ثم أنزلت النافذة وأعطتني خدها فطبعت عليه قبلة خفيفة. قالت وهي تدير الموتور: تمنيت أن تكون في حالة البهجة التي كنت عليها يوم المكتب.

انطلقت السيارة بحركة مندفعة وهي تطلق عادما كثيفا. تابعتها بنظري حتى اختفت في نهاية الشارع وأناأفكر في أن "فلتر" الزيت يحتاج إلى استبدال.

** ٣٥

عبرت ميدان "يونيون سكوير" الذي انتشرت حوله منصات بيع الزهور وتوسطته شجرة ضخمة لعيد الميلاد. قفزت إلى ترام الكابل المتجه شمالا وغادرته عند تقاطع شارع "كاليفورنيا". أحكمت اغلاق رقبة سترتي في مواجهة الرياح القوية واتجهت يسارا. مررت بفندق "ستانفورد" الذي عقدت به الجلسة الافتتاحية للمؤتمر ولمحت مجموعة من ضيوفه يتأملون واجهة حانوت للملابس. واصلت السيرحتى التقاطع التالي ومررت بملصق "مونيكا"والحليب. اتجهت إلى الفندق الذي يحمل اسم "مارك هوبكينز"، أحد الحيتان

الأربعة الذين تدين لهم المدينة بوجودها وازدهارها ولهذا حولت قصره إلى فندق يتوجه باريشرف على أطرافها.

ولجت الردهة الهائلة التي تخيم عليها ثريات ضخمة من الكريستال ومشيت بحذر فوق الأرضية الرخامية. وانضممت إلى اثنتين من المشاركات عند المصعد.

كانت إحداهما أستاذة إعلام مصرية تدعى "فوزية"، أعرفها من زمن. قدمتني إلى رفيقتها وكانت لبنانية طويلة ذات وجه غلماني صبوح ثم سألتني عندما ولجنا المصعد:

- ألم تلحظ شيئا على شعري؟

قلت: لا.

قالت :صبغته. كان أبيض خالص.

قلت إني كنت أظن اللون الأبيض صبغة.

قالت : عندما رآني ابني فزع .

سألتها : أين "بوليبيوس"؟

كنت أشير إلى المصري الثالث بين الحضور وهو من أساتذة التاريخ القديم، ضئيل الحجم كثير المعارضة ودائب التدخل في أي حديث يدور حوله، لكنه بالغ الذكاء واسع الثقافة. وكان يطعم حديثه دائما بكلمات لاتينية، كأنما يفترض معرفة الآخرين بها، الأمر الذي يربك من يشتبك معه في نقاش. لهذا أطلقنا عليه اسم المؤرخ الروماني القديم.

قالت وهي تتقدمنا إلى خارج المصعد: اختفى من أول يوم.

كان اليوم الأول مشحونا بالتوتر إذ فوجئنا بالأمير "جاسم" يفتتح المؤتمر. كان عريض الجسم قصير القامة في ملابس أوروبية وملامح بدوية قوية يتصدرها شارب أسود كثيف. وألقى كلمة تقليدية دعا فيها إلى " تنمية الحوار الراقي والهادف إلى الاعتزاز بثوابت الأمة وقيمها وأخلاقها

والحث علي نبذ دواعي الفرقة بين أفرادها".

انصرف بعد كلمته مباشرة معتذرا بارتباطاته. فطلب أحد الكتاب اللبنانيين الكلمة قائلا إن أحدا لم يخبرنا بأن الأمير سيفتتح المؤتمر.

رد "ماهر" على الفور بأن الأمر لم يكن مقررا. وتردد لحظة ثم قال :

- لقد تصادف وجوده في المدينة أمس. وعندما طلب أن يفتتح المؤتمر لم أجد ما يدعو إلى الاعتراض فهو في النهاية الراعي الأول له.

طاف ببصره بين الحاضرين علي مهل ثم اقترح الانتقال إلى جدول الأعمال فلم يعترض أحد.

أدلي "البرديسي" بكلمة مقتضبة حول عقم الثقافة العربية لأن العرب يعيشون في الوهم. وأعقبه أستاذ الأدب الأردني الذي حاول تلخيص ورقته قائلا إنه يلعب بالكلمات كما يجيد اللعب بأشياء أخرى. كانت رأسه تشبه البيضة في شكلها ونعومة سطحها ولم تنقذه خفة الدم المصطنعة من هجوم مفكر سوري وصف ورقته بأنها عبث تلميذ في الثانوي. فرد عليه بأنه حاقد لأنه كان يتمني أن يكتبها هو، كاشفا بذلك عن المزايا المادية والمعنوية التي حصل عليها المكلفون بأوراق المؤتمر. وتدخل "ماهر" على الفور لإجهاض الأزمة، قائلا إن الورقة المعنية مجرد اقتراح برؤوس موضوعات. وسار الوضع على هذا المنوال بقية اليوم واليوم الذي تلاه : إذا تأزمت الأمور أخذ "ماهر"أو "البرديسي" - الذي ملأ المنصة إلى جواره بجسده الضخم-الكلمة على الفور وتمكن بمهارة شديدة من تجاوز الموقف دون حسم والانتقال إلى النقطة التالية في جدول الأعمال.

والواقع أن المناقشات لم تكن بذات أهمية. فقد ضاع جزء كبير من الوقت في قراءة الأوراق التي سبق توزيعها قبل

شهور. وسيطر شعور باللاجدوى على الجميع فانصرف أغلبهم إلى الفرجة على المدينة.

اتجهنا إلى القاعة التي بدت شبه خالية ومع ذلك سادها التوتر. فقد وقف أستاذ عراقي قادم من منفاه في "لندن" يطالب في انفعال باصدار بيان يستنكر الضرب الصاروخي الأمريكي المستمر من أمس على العراق.

انبرى له كاتب كويتي قائلا إن مؤتمرنا ليس سياسيا. كان يتحدث بطريقة متكلفة ولهجة فخيمة عالية النبرة. واندلعت مناقشة حول علاقة الفكر بالسياسة إلى أن تدخل شاعر تونسي بعد أن ارتدى نظارة قراءة في بطء قائلا: المسألة منهجية وأنطولوجية.

تشاغلت باختلاس النظر إلي وجه اللبنانية الصبوح. ولم يسفر تدخل التونسي عن شئ. وأخيرا تقدم "البرديسي" باقتراح تأجيل الأمر إلى الجلسة الختامية في المساء.

قلبت صفحات الملف اليومي لأوراق المؤتمر الذي يوزع على المشاركين ووجدت به ورقة جديدة بعنوان "صعود وانهيار إمبراطورية الأخلاق". وتسارعت دقات قلبي عندما قرأت إسم كاتبها: "حلمي عبد الله".

تلفت حولي بحثا عنه فلم أرله أثرا. تصفحت الورقة بسرعة فوجدتها تربط صعود الحضارات والإمبراطوريات بمنظومة القيم الأخلاقية التي تمثلها وتحكم سلوك أفرادها وقادتها فإذا ما تراجعت هذه القيم اتجهت الحضارة أو الإمبراطورية إلى الانهيار مهما كان تقدمها العلمي والثقافي. وفي موضع آخر ذكرت أن الروح الفردية وعبادة المال تفشيتا في بنية المجتمع المصري بدلامن عبادة العمل. ثم هاجمت من أسمتهم ب"المثقفين الموظفين" الجاهزين دائما لخدمة أسيادهم من المستبدين والطغاة. ونعت على المثقفين اجمالا تراجع دورهم وسلبيتهم.

أعدت الورقة إلى الملف وأنصت إلى أستاذ الاجتماع

اليمني الذي تحدث عن نزيف العقل العربي. وعقب عليه أستاذ رياضيات سوداني متحدثا عن ظاهرة موازية هي النزيف الداخلي للعقول. وعنى به ميل العلماء في البلدان الفقيرة إلى التصرف كأنهم أعضاء في المجتمع العلمي الذي يتركز في البلدان الغنية بدلا من العمل كمواطنين لبلدانهم الأصلية. فعندما يقومون بأبحاث يتجهون عادة إلى أحدث الاكتشافات وهو أمرقد لايكون في أغلب الأحيان متكاملا مع المستوى العلمي العام في بلدانهم أو مع المشاكل الملحة التي يجب بحثها. ومن ناحية أخرى فان أغلب مؤسسات البحث العلمي في البلدان العربية سواء في العلوم الفيزيائية أوالاجتماعية تعمل أكثر فأكثر استجابة للاحتياجات الأجنبية(×).

تلاه أستاذ سعودي في علم النفس يقدم برنامجا في إحدى الفضائيات العربية حول تفسير الأحلام، فعلق على إحدى أوراق المؤتمر، وخاطب صاحبها قائلا: لقد تحدثت عني أربع مرات، مرة مع وثلاثة ضد.

تخيلته يقرأ الورقة ممسكا بورقة وقلم ليسجل التعداد. اختلست النظر إلى اللبنانية ثم وجهت انتباهي إلى فيلسوف لبناني شاحب الوجه أبيض شعر الرأس أكد أن المفكرين العرب ليسوا أكثرمن شراح وناقلين أووكلاء حضاريين. وقال إننا باستثناء الماركسية لا نجد بين الاتجاهات الفلسفية الغربية التي انهمرت علينا في العقود الأخيرة ما يزودنا بالأدوات اللازمة لتحديث حياتنا أوحتى

(×) ذكر أرقاما كثيرة أغلبها من "لبنان" و"الأردن" و"فلسطين". وقال إنه خلال السنوات الأربع بين ١٩٧٦ و١٩٨٠تعاقدت الجامعات الأمريكية مع المعاهد العلمية المصرية على القيام ب٢٥٣ مشروع بحثي مقابل ٩٢ مليون جنيه مصري.

يشجع على التغيير. فهذه الاتجاهات تدعو لوضع حد لفلسفة الفعل وهي بذلك تعمل على تهميش الفلسفة والعقل معها.

عقب مفكر مغربي بكلمة مليئة باستشهادات من المفكرين الفرنسيين ورد عليه اللبناني قائلا إن مسألة الخروج من وضع التخلف هي في المقام الأول مسألة تثوير للنظام الاجتماعي من داخله ووفق الشروط الخاصة به وليست قط مسألة اندماج أو عدم اندماج في الغرب.

رفعت الجلسة لتناول طعام الغذاء فاتجهت إلى "ماهر" مستفسرا عن حكاية "حلمي". بدا عليه الحرج ثم قال إن الأمير "جاسم" هو الذي طلب ضمه للمؤتمر. وأضاف :

– لكنه لم يتمكن من الحضور.

قلت : "فريد عظمي" أيضا لم يحضر. هزكتفه ولم يعلق.

غادرنا الفندق في فسحة الغداء ووقفنا نتأمل حانوتا صغيرا للهدايافي مدخله ، عرض في واجهته "تي شيرت" يحمل رسما لطائرات تهاجم عربيا فوق جمل وتحته تعليق يقول : "سنطير عشرة آلاف ميل لنحرق لك الجمل".

انقسمنا إلى عدة مجموعات: واحدة اتجهت شمالا إلى الحي الصيني بينما أعرب فنان تشكيلي فلسطيني عن رغبته في زيارة حي "كاسترو" فاستقل سيارة أجرة برفقة سينمائي سوري. ومضيت مع المجموعة الباقية سيرا على الأقدام إلى مقهي "تاير"في الشارع السادس عشر. وسرعان ما تجلت لنا القبة الزرقاء ل "البازيليكا" من فوق قمم البنايات.

وجدنا المكان الذي نقصده بين حانوت أسباني لشرائط الفيديو، وآخر للملابس المستعملة لا يزيد ثمن البزة الكاملة منها عن عشرين دولارا. ولجنا قاعة مظلمة تعبق برائحة التوابل وتتردد في جنباتها موسيقي وترية خافتة. كانت الموائد صغيرة تضيؤها الشموع والأرضية مغطاة بسجاد

شرقي قديم بينما زينت الجدران بلوحات من القماش لمشاهد من شرق آسيا.

جاءت جلستي إلى جوار الكاتب الكويتي. وتولت خدمتنا فتاة شقراء سمينة في الثامنة عشرة ترتدي بنطلون "ستريتش" ضيقا. تابعها الكويتي ببصره عندما انصرفت بطلباتنا ثم همس لي: ولا "تويوتا فور ويلز".

كان شعره مصبوغا بطريقة غير جيدة إذ بدا مائلا إلى اللون البني وملتصقا بصلعته كأنما بفعل مادة لاصقة. مرت لحظات قبل أن أفهم أنه يتحدث عن السيارة.

سألته: ولماذا هذا الطراز بالتحديد؟

– لأنه يتميز بمؤخرة عريضة متينة. هل تعرف ماذا نسميه في الخليج؟ "ليلي علوي".

ثم همس من جديد : تعرف فيم أفكر الآن؟

– فيم؟

– في الكريديت كارد، بطاقة الائتمان.

– مالها؟

– أتخيل نفسي في السوبر ماركت أمررها في الشق الفاصل بين جانبي آلة الحساب.

ضحك فشاركته الضحك تأدبا. أحضرت لنا النادلة بيرة ومزات من الضلمة والحمص والباذنجان والخبز الساخن ثم قطع مشوية من الضأن والدجاج.

قال مشيرا إلى طبق الباذنجان المهروس: فائدته مذكورة في كتب العرب الشعبية.

لم أعلق فواصل : هناك الآن دعاية كبيرة في "أمريكا" للطماطم.

قلت إنها عملية ترويج لا أكثر، اتبعوها قبل سنوات مع البروكلي.

تأملني بتمعن ثم قال: إذن لا يحي العظام وهي رميم؟

أطرقت برأسي مؤمنا.

أجال بصره بين الآكلين حتى استقرت على الأستاذ العراقي القادم من "لندن" فتبدت في عينيه نظرة قاسية.

قال: لا تدرقدر ما عانينا. أنا معتاد على قضاء الصيف خارج "الكويت" لأن حرارتها لا تحتمل. في تلك السنة -١٩٩٠- عطلتني بعض المشاغل ثم أجبرني الغزو العراقي على البقاء. وياليتني مافعلت. رأيتهم ينهبون كل شئ. كانت عندي مجموعة ثمينة من الكلاب المدربة والمدللة. أخذوها.

أجبرنا اقتراب موعد الجلسة التالية على الانصراف.

والتقينا في مدخل الفندق بمفكر ليبي خفيف الدم وصل متأخرا بسبب مواعيد الطيران. كان يرتدي بزة سوداء كاملة أنيقة، يتدلى منديل أبيض حريري من جيب سترتها العلوي ويحيط عنقه بوشاح صوفي من نفس اللون. وكان يتصفح الصفحات الأخيرة من دليل المدينة التي تضم أرقام هواتف المرافقات.

قال: عندي أنباء عظيمة. وصلَت.

قلت: من هي التي وصلَت؟

تجاهل سؤالي وتطلع إلى الآخرين: من الآن لن يشكو أحد من التلكؤ.

لم يفهم أحد قصده فقال: لا تعرفون التلكؤ؟

قلت: دعنا منه. قل لنا من هي التي وصلت؟ السيدة الفاضلة أم "شارون ستون"؟

كانت قد سرت إشاعة بأن زوجة رئيس الوزراء المصري ستنضم إلينا بورقة عن تنظيم الأسرة.

أجاب بجدية شديدة: لا. "فياجرا". هي الآن في "جبل طارق" وبعد أيام قليلة ستكون في كل بلد عربي.

تعالت ضحكاتنا ونحن نتجه إلى المصعد. التفتّ إلى الكويتي وأشرت له بيدي أن المشكلة قد حلت.

وجدنا القاعة ممتلئة بالحاضرين ولم تلبث الجلسة أن افتتحت وكنت أول المتحدثين.

تخليت عن الورقة الموجزة التي أعددتها عن تجربتي الذاتية مع حرية التعبير، وقررت أن أرتجل كلمة قصيرة.

انطلقت في حديثي من واقعة حصول الشاعر المصري المعروف وأحد رواد الشعر الحديث "أحمد عبد المعطي حجازي" منذ شهور على جائزة الدولة التي تذهب عادة إلى كتاب المؤسسة ورموزها والمدافعين عن الوضع القائم في الثقافة. وقلت إن اهتمامي مركز على التعليق الذي كتبه عن ذلك بعد شهر في عموده الأسبوعي بجريدة "الأهرام" شبه الرسمية تحت عنوان "جائزة العقاد وطه حسين"(×).

استهل "حجازي" مقاله بأن وصول الثوريين إلى السلطة يعني عادة أنهم تقدموا في السن وأصبحوا أكثر مرونة وتنازلا. وفي كلمات أخرى أصبحوا واقعيين يقبلون الممكن ويقابلون أعداءهم في منتصف الطريق. ثم تساءل عما إذا كان هذا ينطبق على الثقافة.

لم يقدم "حجازي" إجابة شافية عن هذا السؤال لكن إشارته ل"طه حسين" و"العقاد" ذات أهمية، من حيث مكانتهما في قمة المؤسسة الثقافية، وسبق حصولهما على نفس الجائزة. فهي تعني من ناحية أنه قد بلغ هذه القمة ذاتها، لكنها تحيل من ناحية أخرى إلى التحولات التي جرت للمثقفين الكبيرين. فالأول هو رائد المنهج العقلاني وقد صار وزيرا و"باشا" زمن أعمدة النظام السابق على الثورة، والثاني تصدى للملك في البرلمان وتعرض للسجن ثم أصبح

(×) عدد ٢٤ يونيو ١٩٩٨.

قريبا من السفارة البريطانية فالأمريكية وحصنا لكل الأفكار الرجعية في الثقافة قبل السياسة، وقد اصطدم به "حجازي" نفسه في مطلع حياته.

اختتم "حجازي" مقاله متسائلا: "هل تغيرت البلاد أم أنا الذي تغيرت؟ هل خنت نفسي أو تركت مكاني لآخذ مكان "العقاد"، هل شخت وصرت لينا مرنا، هل تواءمت مع الممكن وذهبت أقابلهم في منتصف الطريق؟"

قلت إن مقال الشاعر المصري نموذج فريد للبوح الأمين لم يألفه مثقفونا. وهو يلمس ظاهرة كثيرا ما تواجه الباحثين في حقل التاريخ، وهي تحولات المثقفين وعلاقتهم بالسلطة.

قمت باستعراض سريع لعدة نماذج في هذا الشأن على مدى التاريخ العربي، مبتدئا ب"ابن خلدون" المؤسس العظيم لعلم التاريخ الذي تقلب في خدمة السلاطين حتي انتهى به الأمر عند قدمي "تيمورلنك". وتتبعت تقلبات الفقهاء والشعراء والمؤرخين حتى وصلت إلى العصر الحديث.

تناولت موقف عدد من المثقفين أثناء الثورة العرابية، وعلى رأسهم الشيخ "محمد عبده" صاحب المكانة الرفيعة في تاريخ تجديد الفكر الديني، الذي كان من زعماء الثورة ثم انقلب عليها بعد هزيمتها وتعاون مع سلطات الاحتلال البريطاني.

وتتبعت تكرار الظاهرة بعد ذلك في ثورة ١٩١٩التي أعطت مصر عددا من أبرز المثقفين الطليعيين مثل "طلعت حرب" الذي أطلق مشروع بنك "مصر" وشركاته بعد عام من الثورة، و"علي عبد الرازق" الذي دعا إلى فصل الدين عن الدولة بعد خمس سنوات و"طه حسين" الذي بشر بالتفكير العلمي بعده بسنة.

وكما حدث من قبل كانت الطبقة الوسطى أضعف من أن تواجه السيطرة الأوروبية على الأسواق العالمية، نتيجة الانقطاع المتكرر للتراكم الضروري لمواردها. وسرعان ما أجبرت على التراجع فسقط بنك "مصر" وشركاته في قبضة المصالح الأجنبية، وتاب "علي عبد الرازق" عن دعوته وأصبح وزيرا بعد عقدين من الزمان. واضطر "طه حسين" إلى المناورة، وروج "توفيق الحكيم" لفكرة "البرج العاجي" فتوج مفكرا.

وقام الذراع العسكرى للطبقة المتوسطة بمحاولة ثالثة في ١٩٥٢. وبعد عقد من التجارب والشكوك المتبادلة بين سلطة الثورة والمثقفين الليبراليين (×) استطاع "عبد الناصر" أن يمد جسرا بين نظامه العسكري والمثقفين الذين وجدوا مكانا لهم في مشروعات التصنيع والتحديث. لكن التعقيدات الداخلية والعدوان الخارجي أجهضا المحاولة وسرعان ما ألقت الطبقة بالراية وبدأ مد الجسر في الاتجاه المضاد. فمع صعود الحقبة النفطية وعلى جناح عوائدها الضخمة، جرت محاولة تجسير العلاقة بين المثقف والأمير بدلا من تجسيرها بين المثقف والثائر. ووجد كثير من المثقفين الطليعيين أمكنة لهم مربيين لولي عهد أو مستشارين لملك أوسلطان أو ألسنة لأمير أورئيس.

توقفت لأتناول رشفة ماء. لاحظت أن "ماهر" غادر المنصة وانتقل إلى أحد مقاعد الصف الأول في مواجهتي. تحاشيت النظر إليه واستطردت:

(×) قام "عبد الناصر" بثورة اجتماعية شاملة في بداية الستينيات بينما كان أكثر من ألف من المثقفين الليبراليين، من علماء وأكاديميين ونقابيين وكتاب وفنانين، يقبعون في السجون ويتعرضون للتعذيب. ووقتها كتب "محمد حسنين هيكل" مقالا في جريدة "الأهرام" تحت عنوان "أزمة المثقفين" يشكوفيه من سلبيتهم قائلا إن نجاح الثورة جعلهم ينسحبون إلى قواقعهم مثل البزاقة أو الحلزون.

– لا يمكن نكران الفائدة التي تتحقق للمجتمع عندمايستخدم المثقفون الليبراليون مثل "حجازي" منصة الدولة، فبوسعنا أن نتصور قدر الخواء الذي سيبدو عليه المشهد الثقافي من دونهم. لكننا يجب أن نتساءل عن القيود أو الحدود التي تفرضها عليهم المنصة وكيف تؤثرفي تكاملهم ومصداقيتهم، بل وفي رسالتهم إذا اعتبرنا أن لهم رسالة. فالفكرة الشائعة هي أن المثقف مطالب باستخلاص النتائج العملية للمعارف التي اكتسبها ، وهي تأتي بالضرورة في سياق المعارضة للوضع القائم والسعي إلى تغييره.

هل يعني هذا أن المثقفين يجب أن يبقوا علي مبعدة من الدولة؟ وهل هذا حتى ممكن في عالمنا الحديث من الاحتياجات العديدة والشبكة المعقدة من العلاقات المتداخلة؟

حانت مني نظرة إلى "ماهر"فرأيته يدعك أنفه.

استطردت : لا أعتقد أن القرب أوالبعد هو جوهر المشكلة. وبالمثل فان التحول ليس وصمة أبدية. ولا تفرضه المراحل العمرية أوالظروف المعيشية في كل الأحوال. فقد عرف التاريخ نماذجا من المثقفين الذين تمسكوا بمواقفهم فى أقسى الظروف. وعلى العكس من "محمد عبده" فان "عبد الله النديم"، عامل التلغراف الذي صار خطيب الثورة العرابية وشاعرها، لم يهزم بهزيمتها واحتفظ بموقفه ضد السلطة الإقطاعية والاحتلال الإنجليزي حتى اللحظة الأخيرة. وتمسك "خالد محمد خالد" بأفكاره حتى النهاية وضحى"شهدي عطية" بحياته في سبيلها، وما زال بيننا الكثير من هؤلاء اليوم. بل أن منهم من قام بانقلاب مضاد مثل"محمد حسنين هيكل"الذي بدأ حياته المهنية قريبا من السلطة الملكية، مبشرابالنموذج الأمريكي، ثم اقترب من "عبد الناصر"، بل شاركه كما يقول، ومن "السادات" الذي أدخله السجن. وفي السنوات الأخيرة صار من أبرز منتقدي كل من النظام

العربي والهيمنة الأمريكية. لكن هؤلاء جميعا لا يمثلون سوى الاستثناء الذي يؤكد القاعدة.

كما أن هذه الظاهرة ليست لعنة قاصرة على "مصر" والبلدان العربية، فهي موجودة في تاريخ الغرب وحاضره. وكلنا نعرف قصة "جاليليو جاليلي" وكيف اضطرته الكنيسة لأن ينكر دوران الأرض. وما زال الجيل الذي نشأ علي أدب الكاتب الأمريكي الكبير "شتاينبك" يتذكر صدمة رؤيته في طائرة عسكرية أمريكية ذاهبا للترفيه عن الجنود الأمريكيين في "فيتنام"، حيث فقد ابنا له، وفيما بعد تابعنا انتقال "ريجيس دوبريه" رفيق "شي جيفارا" من سجن الإعدام إلى قصر الرئاسة الفرنسي مستشارا للرئيس "ميتران"، و"سولانا" من قيادة الحزب العمالي اليساري الأسباني إلى أمانة حلف الأطلنطي. فعندهم أيضا تجري التحولات والتحولات المضادة، كما في حالة الفيلسوفين البريطاني "راسل" والفرنسي "سارتر".

إن المثقفين بشر يشعرون مثل غيرهم بالجوع والخوف والقلق ، وتلقي عليهم متطلبات الحياة الحديثة أعباء ضخمة. لم يكن أستاذ الجامعة في صباي يحتاج إلى أكثر من قلة فخارية وراديو، يضاف إليهما في أحسن الحالات تليفون وبراد من الخشب تتخلله مواسيرالمياه التي يوضع الثلج فوقها. أما اليوم فيمكن إحصاء أكثر من خمسة عشر جهازاً كهربائياً لا يستطيع الحياة بدونها.

لهذا السبب يجب ألا نتوقع منهم أفعالا فذة، فأداؤهم مرهون بقوانين الطبيعة ولنقل بقانون البحر الذي لا يثبت على حال وتحكمه العواصف والأنواء وموجات المد والجزر.

توقفت برهة وتطلعت حولي ثم ختمت كلمتي قائلا: مشكلتنا أننا لا نملك إلا أن نعقد عليهم الآمال الكبار.

ظلت القاعة صامتة ولم يصفق لي أحد كعادتهم مع كل

متحدث. ثم نهض الأستاذ السوداني وتحدث عن بعض الوقائع الخاصة ببلده. واستفسرمني آخر عن بعض التفاصيل التي وردت في كلمتي ثم تحدث الفيلسوف اللبناني عما أسماه "سحر السلطة". استمعت إلى كل هذا ساهما وأنا أستعيد العبارات التي أرهقني العثور على الصياغة المناسبة لها.

رفعت الجلسة لفترة راحة واقترب مني "البرديسي" فألقى ذراعه الضخمة على كتفي متوددا. سألني عن آخرمؤلفاتي وأطرى كتابي عن الفتح العربي. ثم سألني عن مشروعاتي وأبدى استعداده لأن يزكيني لدى جامعات أمريكية أخرى، لأتنسم مزيدا من الحرية، كما قال.

عدنا إلى القاعة لحضور الجلسة الختامية. واستعرض الكاتب السوري أعمال المؤتمر مشيرا إلى أنه أغفل دراسةالتجارب الأساسية التي سيطرت على الحياة الفكرية العربية طوال نصف قرن مثل تجربة حزب "جبهة التحرير" الجزائرية، وحزب "البعث" والقوميين العرب والتجربتين الناصرية واليمنية، كما غابت عنه الإشارة إلى القضية الفلسطينية، ومشروعات الإدماج في السوق العالمي.

انتقد أيضا ما أسماه بالتحامل عند الإشارة إلي عيوب العقل العربي ومظاهر تخلفه. وندد بإشارة وردت في كلمة أستاذ الأدب الأردني حول نزوع العرب إلى الامتيازية واعتقادهم أنهم خيرأمة أخرجت للناس. وقال إن هذا النزوع موجود لدى اليهود ولدى الأنجلو ساكسون لأن كل مجموعة بشرية تسعى لأن تعطي لنفسها صورة امتيازية. والأمر يرتبط في النهاية بمراحل التطور.

استغرقت كلمته وقتا طويلا وتبعه "ماهر"الذي ألقى البيان الختامي. كانت عباراته عامة للغاية أثارت مناقشات طويلة وكرست انقساما واضحا بين مجموعتين رئيسيتين،

واحدة مع "ماهر" و"البرديسي" والأخرى مع الكاتب السوري. وفي النهاية أصيب الجميع بالإرهاق فأقروه مع تعديلات طفيفة.

لم يرد ذكر للبيان الخاص ب"العراق" ولم يظهر أثر للعراقي الذي طالب به. وبدلا من ذلك قرأ "البرديسي" بيانا يستنكر الممارسات الدموية للحركات الأصولية التي تشوه الوجه الحقيقي للإسلام ويطالب بتحكيم العقل والتسامح والانفتاح على الآخر.

وقف الفيلسوف اللبناني طالبا الكلمة فرفض "ماهر" منحها له. أصر الرجل على الكلام وصاح بانفعال أن البيان مضلل وموجه أساسا للغرب لأنه لا يذكر غير جانب واحد من القضية ويغفل العوامل الأساسية التي أفرزت التطرف والعنف من التراث الاستعماري والهيمنة الغربية إلى فساد الأنظمة القائمة ودكتاتوريتها.

تجاهله "ماهر" وعرض للتصويت اقتراحا مقدما من الكاتب السوري لإنشاء رابطة عالمية للمثقفين.

غادرت القاعة قبل أن ينتهي التصويت ومضيت مع "فوزية" و"بوبيليوس" إلى فندق "فيرمونت" المجاور لتناول العشاء. ارتقينا مصعده الزجاجي إلى قاعة واسعة يشرف عليها شلال ضخم فيعطيها جوا إستوائيا.

اتجهنا إلى مائدة جلست إليها اللبنانية برفقة أستاذة عراقية ضخمة الجسم، من جامعة "ييل"، ذات ملامح ذكورية واضحة. وترددت بين الجلوس إلى جوار اللبنانية أوأمامها. وأضاع عليّ ترددي الفرصتين فانتهى بي الأمر إلى جوار العراقية. وكان "بوبيليوس" قد اشتبك معها على الفور في حوار حول مقال له نشرفي مجلة أمريكية.

قالت شيئا عن مقال مشابه لأستاذ هندي زاملها في

جامعة إنجليزية فقاطعها قائلا: أعرفه. وهو يحترمني جدا. كان مدرسا في الجامعة عندما كنت أنا أستاذا بها وأنا الذي زكيته للدكتوراه. وكانت لدي وقتها صديقة صغيرة في السن تخلصت منها فيما بعد.

وجهت العراقية إلينا نظرة ذات مغزى ثم قالت له :

- على العموم أفكارك لا تضيف جديدا.

تدخلت اللبنانية في دبلوماسية: أفكارك تمضي في موازاة أفكار أخرى.

لمحت "ماهر" يدخل القاعة ويجيل بصره بين الموائد. التقت عيوننا لكنه تجاهلني وانضم إلى مائدة يجلس إليها "البرديسي" والأستاذان الأردني والسوري.

حكى "بوبيليوس" كيف أصيب مرة بالتهاب رئوي وجاور رئيس الوزراء المصري- وهو رئيس سابق للجامعة- في إحدى المستشفيات. وكان الأخيريتعافى من أزمة قلبية تعاوده كلما سرت اشاعة عن تغييره. وتعود الاثنان أن يتمشيا سويا في طرقة المستشفى. وكان رئيس الوزراء يجري مهرولا إلى أقرب تليفون إذا بلغه أن رئاسة الجمهورية تطلبه.

أضاف إن تجربة المرض تلك هي التي أقنعته بالامتناع عن التدخين. وعقبت العراقية بإنها كانت تدخن في اليوم علبة ونصف ثم توقفت. ثم قالت للبنانية بصوت خفيض تناهي إلى سمعي: زوجي يدخن ثلاث علب وهو يواجه مصاعب بشأن هشاشة العظام ولا يستطيع أخذ "ستروجين" لسبب مفهوم. وضحكت في تشف.

انحسر الاهتمام عن "بوبيليوس" فاستعاده قائلا: هل تعرفون قصة رابطة المثقفين؟

لم يبد على أحد منا أنه يعرف فقال: أصحاب الاقتراح

كانوا يطمعون في الاستحواذ على العشرين مليونا التي فاز بها "ماهر" لمعهده. والآن يحاولون الحصول على جانب منها.

لم يشأ أن يفقد الاهتمام فاستطرد: وهل تعرفون لماذا لم يعرض البيان الخاص بحرية التعبير والتضامن مع "نصر أبوزيد"؟

تذكرت اقتراحا بهذا الشأن قدم في الجلسة الأولى.

قال بصوت خفيض: الأمير طلب عدم إدراجه بضغط من الملك.

ساد الصمت بينما كان كل منا يدير هذه المعلومات في رأسه. مال عليّ وسألني:

- هل ستبقى هنا للفصل الدراسي التالي؟

حانت مني نظرة إلى مؤخرة رأس "ماهر" وأجبت ببطء: لا أظن.

** ٣٦

طالعني وجهه المتوج بشعرفضي ناعم على صدر الصفحة الأولى من "الكرونيكل". أطره مربع صغير في ركن صورة أكبر لجسمه المسجى فوق نقالة. تعرفت عليه في الحال: موظف البنك الدمث الذي يحب صيد السمك مع أحفاده.

سردت الصحيفة التفاصيل : فقبل انتهاء ساعات العمل كانت صالة البنك مليئة بالعملاء. وعندما وصل أحدهم – وهو رجل أبيض – إلى الشباك أخرج مسدسا من حقيبته وصوبه إلى العاملة طالبا منها أن تملأ حقيبته بأوراق مالية من فئة المائة دولار. حاول شاب من الواقفين خلفه تطويقه واجباره على إلقاء مسدسه فانطلقت منه رصاصة استقرت في رأس

الموظف الجالس في مكتبه القريب. وتناول الرجل حقيبة النقود واندفع خارجا فوجد نفسه محاصرا بالبوليس. أطلق عليهم النار وردوا فأصيب في مقتل وأصيب أيضا رجلان من الشرطة وأحد المارة وتهشم زجاج عدة سيارات.

حملت الصفحة أيضا صورة من "نيودلهي" لعاطل يعول ثلاثة أطفال أصيبت ساقه بالغرغرينا ولم يتمكن من دفع تكلفة العملية الجراحية اللازمة لبترها وهي ٣٥٠ دولارا فوضعها فوق الشريط الحديدي ليعبر عليها القطار. وفي ذيل الصفحة نفسها ورد أن شركة أمريكية،بدأت في استنساخ الحيوانات الأليفة للأثرياء مقابل ربع مليون دولار للقطة أوالكلب الواحد.

فكرت أن الجريدة أرادت من القارىء أن يربط بين النبأين ثم استبعدت ذلك بسبب تباعد مكانيهما على الصفحة. ورجحت أن القائمين عليها لم ينتبهوا للعلاقة بينهما.

قلبت الصفحات وقرأت نبأ حكم قضائي بإلغاء قانون تحديدالإيجارات في المدينة. وصدر الحكم بناء على دعوى أقامها أستاذ في جامعة"بيركلي"يملك عدة منازل ويؤجرها. وقالت الصحيفة أن محاميته هي زوجته وإن ايجارات بعض المنازل قد ارتفعت بنسبة عشرة أضعاف بعد الحكم. تأملت صورته بإمعان ثم بحثت عن الشريط الذي أعطتنيه "شادويك". وضعته في الفيديو وسرعت العرض. ولم تمض دقائق حتى تبينته بين الطلبة المتظاهرين ثم بين المعلقين الذين استعان بهم صناع الفيلم.

أغلقت الفيديو وعدت إلى الصحيفة. قرأت نبأ عن عزم شركات الطيران الأمريكية توسيع مقاعدها بسبب الزيادة المطردة في أجسام الركاب.

ألقيت بالصحيفة جانبا وفتحت بريدي الإلكتروني.

وجدت أربع رسائل: واحدة من "ميجان" تطلب زيارتي. وأخرى من "دوريس" تستكشف إمكانية انضمامي لحفل رأس السنة بمنزلها. أما الثالثة فمن "إكس" والرابعة من "لاري" ومرسلة إليه من شخص يدعى "يائيل كورين" يعدد "العروض السخية" التي قدمت للفلسطينيين. فتحتها وقرأت مايلي:

خطة الأمم المتحدة للتقسيم وعدت الفلسطينيين ب ٤٧٪ من ١٠٠٪ من أراضيهم.

اتفاق "أوسلو" وعدهم ب٢٢٪ من ال١٠٠٪ من أراضيهم.

عرض "باراك" السخي : سوف نمنحكم ٨٠٪ من ٢٢٪ من ال١٠٠٪ من أراضيكم.

العرض القادم: ٤٢٪ من ال٨٠٪ من ال٢٢٪ من ال١٠٠٪ من أراضيكم.

الصهيونية الأمريكية: وفقا لتفسيرات الكتاب المقدس لا تستحقون أكثر من ٥ر٪ من ٤٢٪ من ٨٠٪ من ٢٢٪ من ١٠٠٪ من أراضيكم.

عدت إلى رسالة"اكس" ففتحتها وقرأت:" عندما أقوم بمداعبة نفسي أتخيلك تتفرج عليّ. ومع ذلك أنت لا تستحقني لأنك وأمثالك زبالة".

أغلقت الكمبيوتر وأدرت قناة التليفزيون العربية التي تظهر قرب الظهيرة. لم تكن أخبارها المحلية تتعدى عناوين المطاعم التي يمكن الاحتفال فيها بليلة رأس السنة وتتخللها أغاني الشوق والغربة من "فيروز" و"فايزة أحمد" و"عبد الحليم حافظ".

انتقلت إلى القناة الثالثة فطالعني"مونتيل" الأصلع ببرنامجه الشهير. كان في حوار مع كاتبة عن البيوت التي تسكنها الأشباح وتجربتها الشخصية معهم. وعثرت على فيلم بوليسي في قناة أخرى. تابعته بعض الوقت إلى أن حاصرت

سيارات الشرطة موقع الجريمة ووصلت سيارة الاسعاف لنقل المصابين، فأغلقت الجهاز.

تناولت العدد الجديد من "ديلي كاليفورنيان" وألقيت نظرة بغير حماس على حلقة جديدة عن مشاكل المثليين. شعرت بآلام أذني فبحثت عن البخاخة واستعملتها ثم مضغت علكة كما نصحتني الطبيبة. وندمت على أني عرضت نفسي للرياح الباردة في الصباح الباكر، وكنت قد خرجت لشراء الصحف وواقي ذكري يحول دون الإصابة ب"الايدز" كما زعمت الإعلانات. وعندما تفحصت غلافه بدقة بعد عودتي وجدت إشارة بخط دقيق مفادها أنه لا يضمن عدم الإصابة بالمرض اللعين.

رويت النباتات وأنا أتطلع إلى الساعة بين الفينة والأخرى. شعرت بالراحة عندما خطر ببالي أن "شرلي" لن تأتي لسبب من الأسباب. وبدأت أضع برنامجا لليوم. وإذا بجرس الباب يدق.

فتحت لها واحتويتها بين ذراعي. قالت وهي تنزع الوشاح الصوفي الذي لفت به عنقها:

–السيارة تعطلت فجئت بالدراجة.

تناولت منها سترتها الجلدية فداعبت ذقني بأناملها قائلة:

– سهرت أمس بسببك. أردت أن تكون ورقتي ممتازة كي لا تظن أني أستغل علاقتنا. وفي الصباح جريت كالعادة لمدة ساعة ثم نقعت نفسي في الحمام بالفقاعات ساعة أخرى.

قدتها إلى المطبخ وانهمكت في اعداد القهوة ثم اتخذنا مكانينا إلى جانبي الطاولة المرتفعة، هي فوق المقعد الخشبي وأنا أمامها على قدمي.

حكيت لها عن موظف البنك فقالت:

– ماذا نفعل؟ الدستور يحمي حق المواطن في حمل السلاح أي حقه في أن تقتله رصاصة!

ثم أضافت ساخرة: نحن أمة من القتلة والقناصة.

ملت فوقها وقبلتها. كانت بشرتها طازجة ورائحة شعرها، المنساب في جدائل فوضوية، نظيفة بلا عطر. استطعمت شفتيها ورائحة أنفها وتلاشى احساسي بأني مقبل على واجب.

أبعدت وجهها قائلة:

– تعرف أني لم أهتم بالتقبيل قبل الآن؟

– كيف؟

– كنت مشغولة بأمور أخرى.

ضحكت ثم أضافت: لكنه متعة خرافية.

دعكت خدي في خدها ثم التقت شفاهنا من جديد. أسبلت عينيها وانتشرت الحمرة في خديها. التقطت شفتها العليا بين شفتي وأدخلت لساني في فمها وكفت هي عن تحريك لسانها فسحبته بين شفتي ببطء وانتشرت المتعة في كل جسدي.

مددت يدي إلى صدرها فأبعدتها ونهضت واقفة. طلبت مني أن أجلس مكانها ففعلت. ابتعدت قليلا وبحركة سريعة خلعت البلوفر الذي كانت ترتديه فوق اللحم مباشرة. تبدى صدرها الصغير في سوتيان أسود ذي كأسين من الساتان. جذبتها إلى وقبلت كتفيها ونحرها وأردت أن أنزع السوتيان فمنعتني. اكتفيت بتقبيل القماش وركزت على موقع الحلمة وأنا أرمقها بطرف عيني. كانت عيناها مفتوحتين تحدقان في الفراغ.

استقرت عيناها عليّ ورأتني أتأملها فأبعدت صدرها عن فمي وقالت: إحدى الممثلات الشهيرات اعترفت بأنها تعري ثدييها أمام الفريزر قبل أن تغادر منزلها لتنتصب حلمتاها.

وضعت يدي على حافة بنطلونها وأزحته قليلا إلى أسفل لأقبل سرتها فابتعدت عني.
قالت: أنا مرتبكة الآن تماما. أنا لا أحب الضوء. ولا أسمح لصديقي أن يقترب مني إلا في الظلام.
مضت إلى الحوض وفتحت صنبور المياه ثم أغلقته واستدارت نحوي قائلة: ماذا سأفعل عندما تسافر؟ وجودك يساعدني على تحمل سخافات كثيرة.
قلت: سيأتي عجوز آخر مكاني.
شعرت أنها غضبت فقلت: أوتتزوجين صديقك.
قالت: أريد أن أتزوجك أنت.
قلت: ليس هذا حلا. فأنا في نهاية الرحلة وأنت مازلت في بدايتها.
دمعت عيناها وانهارت فجأة باكية بين أحضاني. كنت أعرف أن البكاء عادة ما يسبق الاستسلام ومع ذلك غمرني يقين بعمق وحدتها.
أنزلت بنطلونها قليلا ووضعت فمي على سرتها ثم أزحت حافة كيلوتها بشفتي. ظهر شعرها مقصوصا في عناية. لم يكن على شكل مثلث وإنما مجرد خط رفيع يبدأتحت السرة مباشرة.
همست في أذني:قصصته اليوم من أجلك.
مددت يدي وتحسستها بأطراف أناملي متلمسا الثنيات والنتوءات. وبدأت تتنهد ثم أبعدت يدي في رفق.
قالت: هل تعرف أن "مونيكا" ستعمل عارضة أزياء؟ رأيت كاريكاتيرا يصورها في مهنتها الجديدة وهي راكعة على ركبتيها.
بدأت تفك أزرار قميصي وكنت مسترخيا ومقبلا على المتعة.
تخلصت من حضني وركعت أمامي فوق ركبتيها ومدت

يديها إلى وسطي تريد إنزال بنطلوني. أبعدت يديها وتوليت بنفسي فك حزام البنطلون وانزاله ثم خلعته كلية وأتبعته بالكلسون الطويل. خطرلي أن هيئتي لم تعد تثيرغير الضحك.
جلست من جديد أمامها فأحنت رأسها وعيناها معلقتين بعيني. حولت عيني إلى فمها الواسع وتابعت انفراج شفتيها وبروز أسنانها. وعندما أوشكت أن تلمسني انتابني هلع مفاجئ. جذبت جسمي بعيدا وانتفضت واقفا فوقعت على ظهرها.
رفعت كلسوني الطويل إلى أعلى ثم أتبعته بالبنطلون. وخطوت فوقها متجها إلى الصالة.

٣٧ * *

وضعت مواطنتي الإسكندرانية المجلة المصورة جانبا وقالت لي باسمة: كل سنة وانت طيب.
قلت: وانت طيبة.
سألتني: هل شعرت بزلزال أمس؟
قلت: كان هناك زلزال إذن. كم "ريختر"؟
قالت: ثلاثة فقط.
كنت قد حلمت بأني أرغب في التبول وأني بدأت في التبول فعلا مستلذا ثم استيقظت على هزة ظننتها جزءا من الحلم.
تجولت بين حوامل الصحف التي أبرزت انتهاء عملية "ثعلب الصحراء" بعد ثلاثة أيام من قصف "بغداد" ب ٤٢٥ صاروخا من صواريخ "كروز". وكان هناك تصريح لأحد أعضاء الكونجرس بعد لقاء غذاء عمل مع "كلينتون" وصف

فيه الرئيس بأنه "أقوى ماكينة أكل رآها في حياته" ، فلم يترك شيئا وضع أمامه إلا والتهمه.

ألقيت نظرة على تحليل للاقتصاد الأمريكي يقول إنه يمر بأخطر وضع منذ خمسين سنة، إذ خرج منهكا من الحرب الباردة ثم أدت زيادة الإنفاق العسكري إلى تراجع الإنتاج الصناعي لمصلحة الاقتصاد الخدمي ووصول الدين الخارجي إلى تريليون دولار أي ألف مليار دولار. ويعتمد هذا الاقتصاد الآن على قوة العملة التي ستسدد الديون، فإذا انهارت قيمتها تعرض للإفلاس.

التقطت مجلة البورنو الشهيرة" هاستلر" عندما رأيت صورة "كلينتون" على غلافها. وجدتها قد خصصت ملفا لحكايته، صورت فيه رجلا يشبهه وفتاة تشبه"مونيكا" في كافة الأوضاع التي تحدث عنها تقرير "ستار".

أعدت المجلة مكانها وأخذت"الأهرام" الدولي ومضيت إلى الكاونتر. التقطت علبة علكة من فوقه وفضضت غلافها ووضعت واحدة في فمي. نظرت إلىّ مواطنتي باستياء فقلت: رمضان كريم.

قالت وهي تدس خصلة شعر نافرة من رأسها أسفل الوشاح الذي غطاه: إنت فاطر؟

شرحت لها أني مريض وأتعاطى أدوية عديدة فضلا عن أني على سفر. وختمت بقولي: الله غفور رحيم.

لم يبد عليها الاقتناع فدفعت ثمن مشترواتي وغادرت الحانوت بعد أن أحكمت إغلاق سترتي. هطل المطر فجأة فبسطت مظلتي وحرصت على تغطية الحقيبة التي تضم الكمبيوتر. مضيت في طريقي إلى المعهد. ولم يلبث المطر أن توقف مرة واحدة وسطعت شمس الظهيرة بضع دقائق ثم اختفت.

وجدت الباب الخارجي مغلقا وزجاجه مغطى بملصق الصبي السمين الذي يلتهم ساندوتش البرجر في نهم. بحثت عن المفتاح بين مجموعة مفاتيحي حتى وجدته. دخلت ورددت الباب خلفي دون أن أغلقه بالمفتاح ثم جمدت في مكاني وقد روّعني السكون الشامل. وتذكرت أن الجميع في عطلة.

صعدت الدرج إلى الطابق الثاني في حذر متجنبا أن يصدر عني صوت كأنما خشيت تعكير صفو السكون. ولم أسمع بدوري صوتا أو حركة. فتحت باب القسم بمفتاحي ورأيت بابي "جيني" و"شادويك" مغلقين فولجت كهف البريد. وجدت صندوقي ممتلئا بالنشرات والدعوات والإعلانات مع مظروفين. تخلصت مما ليس له قيمة واحتفظت ببطاقة معايدة من "شادويك "تخبرني بأنها ستقضي العطلة عند أختها في الجنوب وتتمنى أن تراني عند عودتها.

حملت البطاقة صورة فوتوغرافية لطريق ضيق مفروش بأوراق الخريف، يمتد بعيدا وسط غابة، ويتسع بالتدريج حتى يملأ الفضاء.

احتوى أحد المظروفين على صورة من تقرير الطلاب عن أدائي. وكان المظروف الثاني من "شرلي" وفوق غلافه سطور بخط اليد تهنئني بالعام الجديد وتتمنى لي حظا سعيدا. وأسفلها إضافة بأن صديقها"توم" التحق بعمل في "بوسطون" وأنها ستنضم إليه وتواصل دراستها هناك.

وضعت المظروفين في حقيبة يدي وغادرت الكهف. اخترقت الطرقة المظلمة بأبواب غرفها المغلقة حتى مكتبي. رأيت ورقة مثبتة ببابه تحمل الدرجات التي أعطتها "إستر" لطلابها. لم أتوقع وجودها لكني طرقت الباب ثم أدرت المفتاح في قفله ودفعته. ووقفت أتأمل التغيرات التي طرأت على

المكان. فقد اختفت ملصقات "إستر" وقواميسها وعاد التليفون إلى مكتبي.

أغلقت الباب وأسندت المظلة إلى الحائط. احتفظت بسترتي عندما وجدت الغرفة باردة وقدرت أن التدفئة معطلة. وضعت حقيبتي فوق الطاولة واستخرجت الكمبيوتر. حملته إلى المكتب وأوصلته بجهاز التليفون ودخلت الشبكة. لم أجد غير رسالة واحدة من "لاري" تتضمن نص مسودة مقال ل"إدوار سعيد"(×)، حصل عليها من أحد أصدقاء الكاتب.

مررت بعيني سريعا فوق المقال .."... ٧٩٪ من أبناء الشعب الأمريكي يؤيدون قصف "العراق" ... خمسة آلاف طفل يموتون كل شهر نتيجة للعقوبات الاقتصادية المفروضة عليه .. مما لا شك فيه أن "صدام حسين" حاكم بغيض ما زال يرهب الشعب بجهازه الكابوسي ... لكن متى يصح استخلاص ثمن الجريمة من المواطنين؟ ...ألا يجب أن نذكر أنفسنا بأن "صدام "كان مدعوما من جانب "الولايات المتحدة" و"بريطانيا" في السبعينيات والثمانينيات؟... عندما كنت في "الكويت" في عام ٨٥ حاضرني وزير عن عظمة "صدام" بطل العرب "ضد الفرس" كما قال ، وتفاخر بأن "الكويت" تمول حربه ضد "ايران" ...."بيل كلينتون" .. لا حدود لما يمكن أن يذهب إليه من أجل إنقاذ نفسه. وقد جرب كل شئ: الاعتذار الذليل والعناد الصفيق، التحايل السوفسطائي، الوطنية المتكلفة ثم .. الضربات الجوية الإجرامية ..... أمة تم غسل أدمغتها طوال عقد من السنين بأن "العراق" يمثل التهديد الأعظم للعالم منذ "هتلر".... بلد طالما هزأت هي

(×) نشر المقال بعد ذلك بمجلة "ذي نيشن" في ١١ يناير١٩٩٩.

و"إسرائيل" بقرارات مجلس الأمن .. ورفضت أن توقع أكبر عدد من الاتفاقيات الدولية (ومنها الاتفاقيات ضد الأسلحة الكيماوية والبيولوجية). ... هذه هي الفضيحة الحقيقية . . .".

أوشكت أن أغلق البريد عندما لمحت سطرا في نهاية الرسالة ينبئني فيه "لارى" بأنه سيلتحق باحثا بمعهد للدراسات الاستراتيجية يحمل اسم مؤسسه، "ادجار هوفر"، مؤسس وكالة المباحث الأمريكية الشهير.

خرجت من الشبكة وفصلت التليفون، ثم فتحت الملف الذي سجلت فيه ملاحظاتي على طلابي. انتقلت إلى الطاولة واستخرجت من حقيبتي أبحاثهم الأخيرة ووضعتها أمامي مع قلم رصاص مبري جيدا وكشف الدرجات.

لمحت بطاقة المعايدة التي تركها لي "فيتز" في مدخل المنزل، ولم أكن قد رأيته منذ أمسية "كاسترو". أعدتها إلى الحقيبة وتناولت تقرير الطلاب وقرأت الملاحظات التي سجلوها عن أدائي دون ذكر لأسمائهم:

"محاضر جيد وإن كان متقلب المزاج ويشرد كثيرا".

"شرلي"؟

"استفدنا كثيرا وكان يمكن أن نستفيد أكثر لو كانت هناك مساحة أكبر للنقاش. ففي الدروس الأخيرة بدا مصرا على أن يتكلم وحده".

"شرلي"؟ "لاري"؟ "دوريس"؟ "مونا"؟

"برنامج جيد رغم اهتمام المحاضر بإشراكنا في تفاصيل شخصية غير ضرورية".

"فادية"؟

"طلب منا قراءات كثيرة أكبر من طاقتنا".

"فادية"؟ "شرلي"؟

"كان يمكن أن يكون سمينارا حيا لولا بعض المشاعر العنصرية والمعادية للسامية".

"مونا" بالتأكيد.

وضعت التقرير في حقيبتي ثم تناولت المظروف الذي تركته لي "شرلي" وفتحته. كان يتضمن البحث الذي أعدّته لنهاية السمينار. تصفحته بسرعة ثم بدأت أقرأه في عناية.

كان بحثا طموحا للغاية يتناول تغير المعايير الأخلاقية الخاصة بالنشاط الجنسي في "الولايات المتحدة" بين الستينيات والتسعينيات انطلاقا من موقف المجتمع من علاقات الرؤساء الحميمة. فبينما جرى التكتم بشدة على علاقة "كنيدي" بالممثلة الشهيرة"مارلين مونرو" خوفا من رد فعل الرأي العام، عرضت مغامرات "كلينتون" في حينها على الكافة دون أن تسبب صدمة للمواطن الأمريكي.

استهلت البحث باستعراض ملامح الجو المحافظ التقليدي في بداية القرن وكيف بدأ يتداعى في أعقاب الحرب العالمية الأولى والثورات التي رافقتها. ومن الأربعينيات إلى الستينيات وقع الانتقال من أمهات يؤمن بأن العذرية هي أثمن الممتلكات إلى بنات يعتبرنها عبئا. ولعبت السيارة ثم حبوب منع الحمل وصعود دور المرأة في المجتمع أدوارا هامة في الثورة الجنسية التي تمخضت عن عدة نتائج متناقضة في الثمانينيات هي "الإيدز" وهزيمة فكرة" المرأة الباردة"، وتحول الجنس إلى سلعة، وتفاقم معدلات كل من الطلاق والاغتصاب(×).

استعانت "شرلي" في بحثها بعدة مراجع واستبيانات استمدت منها أمثلة طريفة على مواضعاتها. فكمؤشر على الصعوبات التي تواجه المؤسسة الزوجية

(×) اعتمدت على دراسة قامت بها جامعة "ساوث كارولينا" في سنة ٩٣ بينت كيف جرى في ذلك العام وحده اغتصاب ١٢.١ مليون امرأة أمريكية بالغة.

أصبح من المألوف أن يكون لكل زوجين ثلاثة معالجين نفسيين: واحد للزوج وآخر للزوجة وثالث للاثنين معا! وكنتيجة لصعود دور المرأة وصف شاب في السادسة والعشرين النساء بأنهن " عدوانيات يفرضن رغباتهن فتشعر أنك في الفراش مع شرطي مرور!" وشكت امرأة في الأربعين من أن الرجل الأمريكي يحب "طبقا للكاتالوج دون تفكير أو إحساس".

توقفت عند فقرة خصصتها لأشكال السلوك الجنسي وبخاصة الجنس الفمي. وحللت عوامل انتشاره من قبيل الخوف من الحمل ومن العدوى فضلا عن تأثيرالسيارة، وركزت على أن المرأة تشعر بالتمكن والسيطرة عندما تستخدم فمها بينما يشعرالرجل بخضوعها.

أعجبني البحث وقررت أن أعطيه الدرجة الأعلى. أمسكت بالقلم الرصاص لأملأ الدائرة الأولى في كشف الدرجات ثم تراجعت. أزحت مقعدي ونهضت واقفاوتقدمت من النافذة. تأملت السطح الأسمنتي العاري للمبنى الملحق الذي اختفت تفاصيله في الضباب. تذكرت ما قرأته في صحيفة "الجارديان ويكلي" عن جرائم القتل والفساد التي رافقت رحلة "كلينتون" من ولاية "أركنساس" إلى البيت الأبيض. تذكرت أيضاما كتب عن المافيا التي وضعت "كنيدي" في مقعد الرئاسة، وعن الطريقة التي تخلص بها من "مارلين مونرو".

فكرت أن القضية تتعدى مجال الأخلاق إلى السياسة. فبصرف النظر عن التغير الإيجابي في النظرة إلى الجنس بالذات- فإن الأمر في الحالتين يتعلق بطبيعة النظام السائد الذي تتحكم به عصابات المصالح، وتحاك في كواليسه أبشع الجرائم.

عدت إلى مقعدي وواجهت نفسي بصراحة. أمسكت بالقلم وملأت دائرة الدرجة الثانية أمام اسمها ثم تناولت

ورقة "مونا". كنت قد قرأت الأبحاث جيدا وأردت أن ألقي عليها نظرة أخيرة قبل أن أحسم أمر الدرجات.

عنونت "مونا" ورقتها ب"مفاهيم خاطئة في التاريخ"، لكنها تحدثت في الحقيقة عن موضوع واحد هوالإمبريالية. قالت إنها ظاهرة ترجع إلى فجر التاريخ رغم أن البعض يصر على أنها نتاج للرأسمالية الحديثة وأعلى مراحل الاستعماركماقال "لينين"، وهي علاقة يكذبها التاريخ. فالإمبريالية الأوروبية نشأت في العصور الوسطى، قبل صعود الرأسمالية.

انتقلت إلى الاستعمار وقالت إن الاقتصاديات الأوروبية، على عكس مزاعم البعض، لم تكسب من المستعمرات مهما قيل عن دورها في خلق سوق للبلد الأم. كما أن أغلب هذه المستعمرات لم تكسب شيئا من تحررها.

اعترفت بأن الإمبريالية أنزلت بمستعمراتها معاناة مادية وسيكلوجية ثم استدركت قائلة إنها منحتها طرقا وخطوطا حديدية وشبكات للمياه والصرف الصحي. وهناك من يقول إن هذه البلدان كانت ستحقق تقدما أسرع لو لم يتم استعمارها. وهذا الزعم يفترض أنها قادرة على أن تتعلم وتتغير. ومن ناحية أخري فان الإمبريالية لم تمنع مستعمرات قليلة من التطور وتعلم واختراع تقنيات الاقتصاد الصناعي مثل المستعمرات البريطانية في "أمريكا"الشمالية ("كندا"و"الولايات المتحدة") و"هونج كونج"، ومثل "كوريا الجنوبية" و"تايوان" في ظل الاحتلال الياباني بل هناك أماكن مثل "بورتوريكو" و"برمودا" فضلت أن تظل تابعة للولايات المتحدة" و"بريطانيا" على التوالي لأن التبعية لها ثمارها. وها هي "بناما" قد اكتشفت الخطأ الذي ارتكبته عندما طردت الولايات المتحدة من قناتها.

لم أوافق بالطبع على آرائها والمغالطات التي لجأت إليها. لكن طريقتها في التعبيركانت جيدة، كما خشيت أن أتهم بالتحيزفأعطيتها الدرجة الثانية.

فكرت أن أشعل سيجارة مستغلا انفرادي بالغرفة وربما بالمبنى كله. ثم أقلعت عن الفكرة عندما سمعت صوت خطوات في الطرقة تشبه الزحف. أرهفت السمع وعندما تكرر الصوت قمت إلى الباب وفتحته. أطللت برأسي في الطرقة الممتدة بطول الطابق فلم أر أثرا لأحد.

تركت الباب مفتوحا وعدت إلى مقعدي. تناولت ورقة "فادية" التي تناقش فكرة "المنقذ الغائب" في الثقافتين العربية والأنجلو سكسونية :"المهدي" المنتظرفي الأولى و"الملك آرثر" في الثانية. فوفقا للأسطورة سيظهر كل منهما في اللحظة المناسبة لينقذ أمته. كان الموضوع جيدا لكن دفاعها عن الأسطورة - في حالة "المهدي" على الأقل-نقل البحث إلى دائرة الميتافيزيقا وإلى إشكالية تجاوزها الزمن، إذ نضجت البشرية ولم تعد تحتاج البطل الفذ. ولهذا أعطيتها الدرجة الثانية.

كانت الورقة التالية ل"سابك" بعنوان"الإبادة وفرن الصهر". قال إن فكرة "أمريكا "هي فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة عبر الاجتياح المسلح وإبادة الآخر وبمبررات غير طبيعية من نوع الحق السماوي أو الحضاري. وهو الأمر الذي مارسه الرجل الأبيض بعلميات الاستيطان الكبرى في أماكن كثيرة من العالم من "أستراليا" إلى "فلسطين". وجرت هذه العلميات تحت شعار"فرن الصهر" الذي يندمج في بوتقته أناس من أماكن مختلفة ليخرجوا بقيم جديدة متحضرة وعصرية.

وقطع "سابك" بأن "فرن الصهر" آلى إلى فشل ذريع وتكونت مجتمعات ليس لها جذور أو ذكريات ودون أفكار مشتركة ودون شخصية قومية. ومن ناحية أخرى فإن الاحتكاك بين عناصرها دفع كل طرف إلى تأكيد أصوله القديمة.

لم أكن متأكدا من النتائج التي توصل إليها لكنني أعجبت بسعة المنظورالذي وضعه لبحثه. أعطيته الدرجة الأولى وانتقلت إلى ورقة "دوريس" التي سبق أن قدرت لها نفس الدرجة. تصفحتها مرة أخرى لأتأكد من عدالة قراري. كان موضوعها هو كتاب "ادواردو جوليانو" الذي استشهدت به في أحد الدروس، والذي يمزج بين التوثيق العلمي والإبداع الأدبي(×). فقامت بتحقيق دقيق لفقرات مختارة منه لكي تحدد قدرة هذا المزج على تقديم قراءة صحيحة للتاريخ.

اختارت ثماني وعشرين فقرة من عقود وأمكنة مختلفة. فمن الولايات المتحدة أخذت مشهد إشعال النيران في واحد من ٧٥ أسودا تم شيهم أحياء أو شنقهم على يد الجماهير البيضاء في مدينة ممفيس سنة ١٩١٩. واستعانت

(×)، ولد "ادواردو جاليانو" في "مونتفيديو" عاصمة "أوروجواى" سنة ١٩٤٠ واشتغل بالصحافة. وفي ١٩٧٣انتقل إلى المنفى في "الأرجنتين" ثم عاش في "أسبانيا" من ١٩٧٦ حتى ١٩٨٤وعاد بعدها إلى "أوروجواى". وفي سنة ١٩٨٢ نشر الجزء الأول من ثلاثيته "ذاكرة النار" التي تستعرض تاريخ القارتين الأمريكيتين، اعتمادا على مصادر متعددة من دوريات وشهادات شخصية. ويتناول الجزء الثالث والأخير الذي نشر عام ١٩٨٨ أحداث القرن العشرين ابتداء من ١٩٠٠ حتى ١٩٨٦. ويتألف من قرابة ٥٠٠ فقرة تغطي مختلف مظاهر الحياة من اختراعات وإبداعات أدبية وفنية وثورات وحروب استعمارية وشخصيات بارزة وتطورات اقتصادية واجتماعية.

بفقرة أخرى من نفس المدينة في عام ١٩٦٨ يعظ فيها القس الأسود "مارتن لوثر كنج" ضد الحرب الفيتنامية ويحتج على أن قتلاها من السود الأمريكيين ضعف البيض. ثم يسقط فوق شرفة فندقه برصاصة في وجهه. كما انتقت ثلاث فقرات من عام ١٩٢٩ توضح الأجواء التي سادت البلاد عشية الأزمة الاقتصادية الكبرى، وفقرة أخرى من عام ١٩٦٨عن "محمد على كلاى"(×).

(×) الفقرات الاربع هى:

-"**شيكاغو ، "آل كابوني"**: عشرة آلاف طالب يهتفون باسم "آل كابوني" في ملعب جامعة "نورثوسترن". ويرفع "كابوني" يديه محييا الجماهير. اثنا عشر حارس في رفقته. وعند البوابة تنتظره "كاديلاك" مصفحة. إنه يضع وردة في عروة سترته و دبوسا من الماس في ربطة عنقه، لكن أسفل ذلك يرتدي صدرية من الصلب و يدق قلبه إلي جوار مسدس عيار٤٥ ملم. إنه معبود الجماهير. فلا أحد يعمل مثله من أجل رواج حوانيت دفن الموتى وباعة الزهور ويدفع مرتبات سخية للشرطة والقضاة والمشرعين والعمد. وهو رب أسرة نموذجي، يمقت الجوبات القصيرة وأدوات الزينة. ويؤمن بأن مكان المرأة في المطبخ. ولأنه وطني متحمس يضع صورتي "أبراهام لينكولن" و"جورج واشنطون" فوق مكتبه. وهو محترف واسع النفوذ، يقدم أفضل المساعدات عند قمع الإضرابات وضرب العمال، وإرسال المتمردين إلى العالم الآخر. وهو يقظ دائما للخطر الأحمر".

-"**من البيان الرأسمالي ل"هنري فورد"، صانع السيارات**: فشلت البلشفية لأنها غير طبيعية وغير أخلاقية. إن نظامنا صامد... ليس هناك ما هو أكثر عبثية وإساءة للبشرية عامة من الإصرار على أن كل الناس متساوون... المال يأتي بشكل طبيعي نتيجة الخدمة. ومن الضروري بشكل مطلق الحصول على المال. لكننا لا نريد أن ننسى أن غاية المال ليس الراحة وإنما إتاحة الفرصة للقيام بخدمات جديدة. لاشئ في ذهني أبغض من حياة الراحة. ليس لأحد منا الحق فيها. لا مكان في الحضارة للخامل ..."

-"**١٩٢٩، "نيويورك"، الأزمة**: تتزايد المضاربة بأسرع من الإنتاج، والإنتاج بأسرع من الاستهلاك ، وينمو كل شئ بإيقاع متلاحق، حتى يؤدي انهيار بورصة "نيويورك" فجأة ، في يوم واحد، إلى تحويل أرباح السنين إلى رماد. وتصبح أثمن السندات مجرد قصاصات ورق لا تصلح حتى للف الأسماك.=

ومن الطبيعي أن تحتل الفقرات الخاصة ب "أمريكا اللاتينية" المساحة الأكبر من بحثها كما هو الشأن في الكتاب الأصلي. وقد بدأت بفقرة عن "نيكاراجوا "سنة ١٩٠٩، وكيف أرسلت "الولايات المتحدة" مشاة بحريتها لإسقاط رئيسها"زيلايا" عندما تجرأ على مطالبة شركة "الفواكه المتحدة" الأمريكية بسداد الضرائب وأغضب الكنيسة بمصادرة أراضيها لصالح الفلاحين وبقانون يجيز الطلاق.

وأشارت فقرة أخرى إلى تكرار الموقف الأمريكي بعد قرابة نصف قرن في "جواتيمالا"، عندما أمم الرئيس "جاكوبو أربينز" أراضي شركة "الفواكه المتحدة"الأمريكية غير المزروعة، "فعوى الرئيس "ترومان"، على حد تعبير

=هوت الأسعار والمرتبات مع قيمة السندات ، وسقط أكثر من رجلِ أعمال واحد من برجه. المصانع والمصارف تغلق أبوابها، المزارعون دمروا. العمال العاطلون يفركون أيديهم التماسا للدفء فوق أكوام القمامة المحترقة ويمضغون العلكة لإشباع بطونهم. الشركات الكبرى تنهار، حتى "آل كابوني" يسقط".

-"١٩٦٧،"**هوستون**" ، "**الولايات المتحدة**"، "**علي** ": أسموه "كاسيوس كلاي". واختار لنفسه اسم "محمد علي".

جعلوه مسيحيا.واختار أن يصبح مسلما.

جعلوه مدافعا عن نفسه: لاأحد يوجه اللكمات مثله ، عنيف وسريع ، مدرعة خفيفة ،ريشة ساحقة، حائز منيع لتاج العالم.

قالوا له إن الملاكم الجيد يحصر قتاله داخل الحلقة: يقول إن الحلقة الحقيقية شئ آخر، حيث يقاتل الأسود المنتصر من أجل السود المهزومين، من أجل هؤلاء الذين يأكلون الفتات في المطبخ.

نصحوا بالحذر والكتمان فصاح بعلو صوته.

تنصتوا على تليفونه. فصاح فيه أيضا.

يلبسونه بزة ليرسلوه إلى "فيتنام": ينزعها ويصيح أنه لن يذهب لأنه لا يحمل ضغينة ضد الفيتناميين الذين لم يسببوا أذى له أولأى أمريكي أسود آخر.

أخذوا منه لقبه العالمي ، ومنعوه من الملاكمة، وحكموا عليه بالسجن والغرامة. صاح شاكرا هذا التقدير لكرامته الانسانية".

الكاتب، ثم أصدر الرئيس "ايزنهاور" الأمر باسقاطه. وتكررت القصة مرة أخرى في "كوبا" سنة ١٩٦٣(خليج الخنازير) و"شيلي" سنة ١٩٧٣عندما انقلب الجنرالات على الرئيس "سلفادور الليندي"وقتلوه، و "اكوادور"في ١٩٨١عندما تحطمت طائرة الرئيس "خاييم رولدوس"، بعد أن أعاد العلاقات مع "كوبا"، وساند الحركة الثورية في"نيكاراجوا" و"سلفادور" و "فلسطين"، وفي "بناما" بعد شهرين من نفس العام عندما تحطمت طائرة الرئيس"عمرتوريجوس"، مؤمم القناة ، وفي "نيكاراجوا"سنة ١٩٨٣ عندما جاء إليها بابا "روما" ليوبخ القسس الذين ساندوا حكومة "الساندينستينا" الثورية فعارضته الجماهير الكاثوليكية وبعد أيام وضعت امرأة دجاجة، الأمر الذي اعتبرته مصادر قريبة من قيادة الكنيسة مؤشرا على غضب الله من سلوك الجماهير(×).

وأبرزت "دوريس" تعليق الكاتب على مصرع "شي جيفارا" في ١٩٦٧(××) وعلى التغيرات التي وقعت في السنوات الأخيرة ببلدان "أمريكا اللاتينية" من خلال عدة

(×) أشارت الفقرة إلى معجزة سابقة وقعت في "نيكاراجوا". ففي عام ١٩٨١ ظهرت "عذراء كوابا" في حقول "خونتاليس" ، حافية القدمين، متوجة بالنجوم، وتحيط بهاهالة متوهجة أعمت المشاهدين. وأعلنت لقس يدعى "برناردو" تأييدها لسياسات الرئيس "ريجان" ضد" الساندينستينا" "الملحدين أتباع الشيوعية".

(××) "**هيجيراس**"، **بوليفيا، الأجراس تدق له**: هل مات في ١٩٦٧ في "بوليفيا" لأن تقديره كان خاطئاعن متى وأين وكيف؟ أو أنه لم يمت على الإطلاق ، لا في أي مكان، لأنه لم يخطئ فيما يتعلق بالشئ الأساسي رغم كل الأسئلة المثارة عن متي وأين وكيف؟

لقد آمن بأن الإنسان يجب أن يحمي نفسه من فخاخ الجشع دون أن يتخلى أبدا عن حذره. عندما كان رئيسا للبنك الوطني الكوبي وقع أوراق العملة "شي"، هازئا بالمال. وفي حبه للناس ،احتقر الأشياء. فكر أن العالم مريض لأن الامتلاك والوضاعة شيئ واحد. لم يحتفظ لنفسه بشئ أبدا ولم يطلب شيئا أبدا. فكر أن العيش هو العطاء وقد أعطى نفسه".

لقطات أهمها ثلاث من عامين متعاقبين هما ١٩٨٣، ١٩٨٤(×). واستخلصت من الدراسة أن الصياغة التي قام بها المؤلف للأحداث التي تناولها جرت طبقا لرؤية شاملة وأنها عمقت فهم القارئ لما جرى ولحركة التاريخ والقوى الفاعلة فيه.

تناهى إلى سمعي فجأة صوت أزيز، وخيل إلى أن الغرفة تهتز، فاشتد وجيب قلبي. مددت يدي لأحول دون انزلاق الكومبيوتر لكنه لم يتحرك من مكانه كما أن زجاج النافذة لم يتساقط حطاما. ولم يتكرر الأزيز فهدأت أعصابي. وتذكرت ما حدث لي- ولكثيرين غيري- في أعقاب زلزال "القاهرة" سنة ١٩٩٢ الذي بلغ ٧.٥ "ريختر". فطوال عدة

(×) الفقرات الثلاث هي :

- " ١٩٨٣"شيلي" ، **عشر سنوات بعد إعادة الغزو**: كل شئ مستورد: المقشات، الأراجيح، الذرة، الماء... لا يمكنهم أن يصنعوا دبوسا واحدا.، لأن دبابيس "كوريا الجنوبية" أرخص ...العاطلون يفتشون وسط المخلفات. في كل مكان لافتة: "لا يوجد وظائف. لا تصر". الدين الخارجي ومعدل الانتحار تزايدا بمقدار ستة أضعاف".
- " ١٩٨٤"ساو باولو"، **عشرون عاما بعد إعادة الغزو**: ..... تعيش "البرازيل" ازدهارا يبلغ حد المجاعة. فبين البلاد التي تبيع الغذاء في العالم تحتل المرتبة الرابعة، وبين البلاد التي تعاني الجوع في العالم تحتل المرتبة السادسة. إنها تصدر الآن السلاح والسيارات والبن وتنتج من الصلب أكثر مما تنتج "فرنسا"، لكن البرازيليين أقصر قامة وأقل وزنا مما كانوا قبل عشرين عاما.

ملايين الأطفال المشردين يجوبون شوارع المدن بحثا عن الطعام. الأبنية تتحول إلى قلاع، والبوابون إلى حراس مسلحين. كل مواطن إما معتد أو معتدى عليه".

- " ١٩٨٤"جواتيمالا" ، **ثلاثون سنة بعد إعادة الغزو**: ... لم تعد هذه أيام "شركة الفواكه المتحدة" وانما "جيتي للبترول و"تكساكو" وشركة "النيكل الدولية"..ويزيل الجنرالات القرى الهندية بالجملة ويطردون أبناءها من أراضيهم. وتهيم أعداد غفيرة من الهنود الجوعى ، المجردين من كل شئ، في الجبال ".

شهور تالية كنت أفزع فجأة دون مبرر وأتخيل أن الجدران تهتز. وحسبت أني وقعت الآن تحت تأثير نفس العارض السيكلوجي.

فتحت ورقة "ميجان" ولاحظت لأول مرة أن اسم أبيها- "ميتشيل" -لا علاقة له باليابان. ولم أستبعد أن تكون قد غيرت اسمها الأصلي لتندمج في المجتمع. كانت قد استغلت تخصصها في إنشاء موقع على الشبكة عن صعود وهبوط الإمبراطوريات والممالك ، زودته بقاعدة بيانات واسعة وروابط كثيرة إلى مواقع أخرى متخصصة عن أماكن وأزمنة وشخصيات ووقائع عديدة. واستعانت بتقنيات متقدمة لتسهيل التنقل بين الأبواب دون العودة إلى صفحة الاستقبال. كانت الإمبراطوريات كلها هناك بدءا من السومرية والفرعونية ، بقادتها ورموزها، من "سارجون الأول" و"تحتمس الثالث" حتى "فكتوريا" و"بوش". واستحق جهدها المبتكر الدرجة الأولى بلا جدال.

تعرض "لاري" في ورقته لفترة العشرينيات من القرن وموجة الثورات التي اجتاحت العالم وقتها من "روسيا" و"ألمانيا" و"المكسيك" إلى "الهند" و"مصر" والمشرق العربي و توجت بانهيار البورصة الأمريكية في سنة ١٩٢٩ وصعود الفاشية. ووصف كيف تكرر الأمر في الستينيات فانتشرت الحركات الثورية في كل مكان ثم انحسرت بصعود الريجانية والتاتشرية. وتنبأ بأن الألفية الجديدة ستشهد في بدايتها موجة ثورية جديدة قد تؤدى إلى انهيار الحضارة الغربية كلية وانطلاق دورة حضارية جديدة، تستند إلى قيم مختلفة عن الفردية المطلقة وشهوة التملك. وبرر هذا التصور بأن الحضارة الغربية التي انطلقت من "أثينا" و"روما" وترسخت بانتصار "كولومبوس"، ثم حققت

السيطرة التامة ل"أوروبا وأمريكا" على مقدرات العالم طيلة القرون الثلاثة الماضية، فشلت في تحقيق الرخاء والطمأنينة للغالبية.

كان بحثا جيدا يتكامل مع ما قامت به"شرلي"، لكنه تجاوز الإطار الذي حددته للسمينار. ومن ناحية أخرى لم أكن أنا شخصيا مؤهلا أكاديميا لمجال التاريخ الاستطلاعي أو المستقبلي. ولولا مساهمة "لاري" النشطة في مناقشات السمينار ما أعطيته الدرجة الأولى.

تبقى أمامي اسمان في كشف الدرجات: "فرنون عبد الرحمن" الذي اختفى تماما فتركت الدوائر أمام اسمه بيضاء من كل سوء، و"روزيتا" التي وعدتني ببحث ختامي ولم توف بوعدها. وكان وعدي لها هو الذي دفعني لأن أعطيها - بعد تدبر-الدرجة الثالثة، تقديرا لحضورها بضع مرات، ولساقيها في حقيقة الأمر.

أعددت نسختين من كشف الدرجات وعثرت على دبابيس رسم في درج مكتبي فعلقت واحدة على الباب. احتفظت لنفسي بنسخة ووضعت الثالثة في مظروف حملته في يدي. أغلقت الكمبيوتر وأعدته إلى الحقيبة وحملتها ثم تناولت مظلتي وغادرت المكتب وأغلقت بابه بالمفتاح.

مضيت في الطرقة المظلمة وأنا أتلفت خلفي. توقفت عند ركن البريد ووضعت المظروف الذي يحتوي على كشف الدرجات في صندوق "شادويك" ثم اتجهت إلى الدرج. ألقيت نظرة أخيرة على الطرقة وخيل إلي أني لمحت شخصا في نهايتها. وتناهى إلى سمعي الأزيز الذي سمعته من قبل أو خيل لي.

لم أتلكأ وهبطت الدرج مسرعا. وكدت أتعثر وأنا

أستخرج سلسلة المفاتيح من جيبي. بحثت عن مفتاح الباب الخارجي وأعددته في يدي. فلم أكن واثقا من أني سأجده مفتوحا كما تركته.

مصر الجديدة
يوليو ٢٠٠٣